vol. 7

٣

[illegible]زاء السابع من تفسير الفخر[illegible]

تفسیر کبیر جلد ہفتم

* (فهرسة الجزء السابع من تفسير الف...

صحيفة

٢١٩

صحيفه

1203

صحيفه

﴿ تمت ﴾

الجزء السابع من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير
الكبير للامام محمد الرازى فخر الدين
ابن العلامة ضياء الدين عمر
المشتهر بخطيب الرى
نفع الله به المسلمين
آمـــين

م

☼ (وبهامشه تفسير العلامة أبي السعود) ☼

(الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الارض) أى له تعالى خلقا وملكا وتصرفا بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة جميع ماوجد فيهما داخلا فى حقيقتهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما فكأنه قيل له جميع المخلوقات كما مر فى آية الكرسى ووصفه تعالى بذلك لتقرير ما أفاده تعليق الحمد المعرف بلام الحقيقة بالاسم الجليل من اختصاص جميع أفراده به تعالى على ما بين فى فاتحة الكتاب ببيان تفرده تعالى واستقلاله بما يوجب ذلك وكون كل ماسواه من الموجودات التى من جملتها الانسان تحت ملكوته تعالى ليس لها فى حد ذاتها استحقاق الوجود فضلا عما عداه من صفاتها بل كل ذلك نعم فائضة عليها من جهته عز وجل فما هذا شانه فهو بمعزل من استحقاق الحمد الذى مداره الجميل الصادر عن القادر بالاختيار فظهر اختصاص جميع افراده به تعالى وقوله تعالى (وله الحمد فى الآخرة) بيان لاختصاص الحمد الاخروى به تعالى اثر بيان اختصاص الدنيوى به على أن الجار متعلق اما بنفس الحمد أو بما تعلق به الخبر من الاستقرار واطلاقه عن ذكر ما يشعر بالمحمود عليه ليس للاكتفاء بذكر كونه فى الآخرة عن التعيين كما اكتفى فيما سبق بذكر كون المحمود عليه فى الدنيا عن ذكر كون الحمد أيضا فيها بل ليعم النعم الاخروية كما فى قوله تعالى الحمد لله الذى صدقنا وعده ﴿ الى ﴾ واورثنا الارض نتبوأ من الجنة وقوله تعالى الذى أحلنا دار المقامة من فضله الآية وما يكون ذريعة الى نيلها من النعم

بة كافى قوله تعالى الحمد لله الذى ...

بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة سبأ مكية وقيل فيها آية مدنية وهى ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك الآية وهى أربع وقيل خمس وخمسون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الارض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير) السور المفتتحة بالحمد خمس سور سورتان منها فى النصف الاول وهما الانعام والكهف وسورتان فى الاخير وهما هذه السورة وسورة الملائكة والخامسة وهى فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الاول ومع النصف الاخير والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على احصائها منحصرة فى قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فان الله تعالى خلقنا اولا برحمته وخلق لنا ما نقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالاعادة فانه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما يدوم فلنا حالتان الابتداء والاعادة وفى كل حالة له تعالى علينا نعمتان نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال فى النصف الاول الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور اشارة الى الشكر على نعمة الايجاد ويدل عليه قوله تعالى فيه هو الذى خلقكم من طين اشارة الى الايجاد الاول وقال فى السورة الثانية وهى الكهف الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما اشارة الى الشكر على نعمة الابقاء فان الشرائع بها البقاء ولولا شرع ينقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه ولوقعت المنازعات فى المشتبهات وأدى الى التقاتل والتفانى ثم قال فى هذه السورة الحمد لله اشارة الى نعمة الايجاد الثانى ويدل عليه قوله تعالى وله الحمد فى الآخرة وقال فى الملائكة الحمد لله اشارة

الى نعمة الابقاء ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا والملائكة بأجمعهم لا يكونون رسلا الا يوم القيامة يرسلهم الله مسلمين على المسلمين كما قال تعالى وتتلقاهم الملائكة وقال تعالى عنهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وفاتحة الكتاب لما اشتملت على ذكر النعمتين بقوله تعالى الحمد لله رب العالمين اشارة الى النعمة العاجلة وقوله مالك يوم الدين اشارة الى النعمة الآجلة قرئت في الافتتاح وفي الاختتام ثم في التفسير مسائل (المسئلة الاولى) الحمد شكر والشكر على النعمة والله تعالى جعل ما في السموات وما في الارض لنفسه بقوله ما في السموات وما في الارض ولم يبين أنه لنا حتى يجب الشكر نقول جوابا عنه الحمد يفارق الشكر في معنى وهو أن الحمد أعم فيحمد من فيه صفات حميدة وان لم ينعم على الحامد أصلا فان الانسان يحسن منه أن يقول في حق عالم لم يجتمع به أصلا انه عالم عامل بارع كامل فيقال له انه يحمد فلانا ولا يقال انه يشكره الا اذا ذكر نعمه أو ذكره على نعمه فالله تعالى محمود في الازل لاتصافه بأوصاف الكمال ونعوت الجلال ومشكور لا يزال على ما أبدى من الكرم وأسدى من النعم فلا يلزم ذكر النعمة للحمد بل يكفي ذكر العظمة وفي كونه مالك ما في السموات وما في الارض عظمة كاملة فله الحمد على أنا نقول قوله له ما في السموات وما في الارض يوجب شكرا أتم مما يوجبه قوله تعالى خلق لكم ما في الارض وذلك لان ما في السموات والارض اذا كان لله ونحن المنتفعون به لا هو يوجب ذلك شكرا لا يوجبه كون ذلك لنا (المسئلة الثانية) قد ذكرتم أن الحمد ههنا اشارة الى النعمة التي في الآخرة فلم ذكر الله السموات والارض فنقول نعم الآخرة مرتبة فذكر الله النعم المرتبة وهي ما في السموات وما في الارض ثم قال وله الحمد في الآخرة ليقاس نعم الآخرة بنعم الدنيا ويعلم فضلها بدوامها وفناء العاجلة ولهذا قال وهو الحكيم الخبير اشارة الى أن خلق هذه الاشياء بالحكمة والخبرة والحكمة صفة ثابتة لله لا يمكن زوالها فيمكن منه ايجاد أمثال هذه مرة أخرى في الآخرة (المسئلة الثالثة) الحكمة هي العلم الذي يتصل به الفعل فان من يعلم أمرا ولم يأت بما يناسب علمه لا يقال له حكيم ومن يأتي بأمر عجيب على سبيل الاتفاق من غير علم لا يقال انه حكيم فالفاعل الذي فعله على وفق العلم هو الحكيم والخبير هو الذي يعلم عواقب الامور وبواطنها فقوله حكيم أي في الابتداء يخلق كما ينبغي وخبير أي بالانتهاء يعلم ماذا يصدر من المخلوق وما لا يصدر الى ماذا يكون مصير كل أحد فهو حكيم في الابتداء خبير في الانتهاء * ثم بين الله تعالى كما أخبره بقوله (يعلم ما يلج في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور) ما يلج في الارض من الحبة والاموات ويخرج منها من السنابل والاحياء وما ينزل من السماء من أنواع رحمته منها المطر ومنها الملائكة ومنها القرآن وما يعرج فيها منها الكلم الطيب لقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب ومنها الارواح ومنها الاعمال الصالحة لقوله والعمل الصالح يرفعه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قدم ما يلج في الارض على ما ينزل من السماء لان الحبة تبذر أولا ثم تسقى ثانيا (المسئلة الثانية)

التفضل أن الاول على نهج العبادة والثاني على وجه التلذذ والاغتباط وقد ورد في الخبر أنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس (وهو الحكيم) الذي أحكم أمور الدين والدنيا ودبرها حسبما تقتضيه الحكمة (الخبير) بباطن الاشياء ومكنوناتها وقوله تعالى (يعلم ما يلج في الارض) الخ تفصيل لبعض ما يحيط به علمه من الامور التي نيطت بها مصالحهم الدنيوية والدينية أي يعلم ما يدخل فيها من الغيث والكنوز والدفائن ﴿ ٣ ﴾ والاموات ونحوها (وما يخرج منها) كالحيوان والنبات وماء العيون ونحوها (وما ينزل من السماء) كالملائكة والكتب والمقادير ونحوها وقرئ وما ننزل بالتشديد ونون العظمة (وما يعرج فيها) كالملائكة وأعمال العباد والابخرة والادخنة (وهو الرحيم) للحامدين على ما ذكر من نعمه (الغفور) للمفرطين في ذلك بلطفه وكرمه (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة لا أنفسهم أو معاصريهم فقط كما أرادوا بنفي اتيانها نفي وجودها بالكلية لا عدم حضورها مع تحققها في نفس الامر وانما عبروا عنه بذلك لانهم كانوا يوعدون باتيانها ولان وجود الامور الزمانية المستقبلة لاسيما أجزاء الزمان لا يكون الا بالاتيان والحضور وقيل هو استبطاء لاتيانها الموعود بطريق الهزء والسخرية كقولهم متى هذا الوعد (قل بلى) رد لكلامهم واثبات لما نفوه على معنى ليس الامر الا اتيانها وقوله تعالى (وربي لتأتينكم) تأكيد له على أتم الوجوه وأكملها وقرئ ليأتينكم على تأويل الساعة باليوم أو الوقت وقوله تعالى (عالم الغيب) الخ امداد للتأكيد وتسديد له اثر تسديد وكسر لسورة نكيرهم واستبعادهم فان تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به على الاطلاق يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة ثباته وصحته لما أن ذلك في حكم الاستشهاد على الامر [illegible] في أن المستشهد به كلما كان أجل وأعلى كانت الشهادة آكد وأقوى والمستشهد

بالمقسم عليه كما نحن فيه فان وصفه بعلم الغيب الذى أشهر أفراده وأدخلها فى الخفاء هو المقسم عليه تنبيه لهم على علة الحكم وكونه مما لا يحوم حوله شائبة ريب ما وفائدة الامر بهذه المرتبة من اليمين أن لا يبقى للمعاندين عذر ما أصلا فانهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وصمة الكذب فضلا عن اليمين الفاجرة وانما لم يصدقوه مكابرة وقرئ علام الغيب وعالم الغيب وعالم الغيوب بالرفع على المدح (لا يعزب عنه) أى لا يبعد وقرئ بكسر الزاى (مثقال ذرة) مقدار ❊ ٤ ❊ اصغر نملة (فى السموات ولا فى الارض) أى كائنة فيهما (ولا أصغر من ذلك) أى من مثقال ذرة (ولا أكبر) أى منه ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى (الا فى كتاب مبين) هو اللوح المحفوظ والجملة مؤكدة لنفى العزوب وقرئ ولا أصغر ولا أكبر بفتح الراء على نفى الجنس ولا يجوز أن يعطف المرفوع على مثقال ولا المفتوح على ذرة بأنه فتح فى حيز الجر لامتناع الصرف لما أن الاستثناء يمنعه الا أن يجعل الضمير فى عنه للغيب ويجعل المثبت فى اللوح خارجا عنه لبروزه للمطالعين له فيكون المعنى لا ينفصل عن الغيب شئ الا مسطورا فى اللوح (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) علة لقوله تعالى لتأتينكم وبيان لما يقتضى اتيانها (أولئك) اشارة الى الموصول من حيث اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل والشرف أى أولئك الموصوفون بالصفات الجليلة (لهم) بسبب ذلك (مغفرة) لما فرط منهم من بعض فرطات قلما يخلو عنها البشر (ورزق كريم) لا تعب فيه ولا من عليه (والذين سعوا فى آياتنا) بالقدح فيها وصد الناس عن التصديق بها (معاجزين) أى مسابقين كى يفوتونا وقرئ معجزين أى مثبطين عن الايمان من أراده (أولئك لهم عذاب) ❊ اخبرنى ❊ الكلام فيه كالذى مر آنفا و[illegible] فى قوله تعالى (من رجز) للبيان قال قتادة رضى الله عنه الرجز سوء العذاب وقوله تعالى (أليم) بالرفع

قال وما يعرج فيها ولم يقل يعرج اليها اشارة الى قبول الاعمال الصالحة ومرتبة النفوس الزكية وهذا لان كلمة الى للغاية فلو قال وما يعرج اليها لفهم الوقوف عند السموات فقال وما يعرج فيها ليفهم نفوذها فيها وصعودها منها ولهذا قال فى الكلم الطيب اليه يصعد الكلم الطيب لان الله هو المنتهى ولا مرتبة فوق الوصول اليه وأما السماء فهى دنيا وفوقها المنتهى (المسئلة الثالثة) قال وهو الرحيم الغفور رحيم بالانزال حيث ينزل الرزق من السماء غفور عند ما تعرج اليه الارواح والاعمال فرحم أولا بالانزال وغفر ثانيا عند العروج ❊ ثم بين ان هذه النعمة التى يستحق الله بها الحمد وهى نعمة الآخرة أنكرها قوم فقال تعالى (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) ثم رد عليهم وقال (قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) اخبر باتيانها وأكده باليمين قال الزمخشرى رحمه الله لو قال قائل كيف يصح التأكيد باليمين مع انهم يقولون لا رب وان كانوا يقولون به لكن المسئلة الاصولية لا تثبت باليمين وأجاب عنه بأنه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبيان كونه دليلا هو أن المسئ قد يبقى فى الدنيا مدة مديدة فى اللذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قد يدوم فى دار الدنيا فى الآلام الشديدة مدة ويموت فيها فلولا دار تكون الاجزية فيها لكان الامر على خلاف الحكمة والذى أقوله أنا هو ان الدليل المذكور فى قوله عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة أظهر وذلك لانه اذا كان عالما بجميع الاشياء يعلم اجزاء الاحياء ويقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام وقد أخبر بها الصادق فتكون واقعة وعلى هذا فقوله تعالى فى السموات ولا فى الارض فيه لطيفة وهى ان الانسان له جسم وروح والاجسام أجزاؤها فى الارض والارواح فى السماء فقوله لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات اشارة الى علمه بالارواح وقوله ولا فى الارض اشارة الى علمه بالاجسام واذا علم الارواح والاشباح وقدر على جمعها لا يبقى استبعاد فى المعاد وقوله ولا أصغر من ذلك اشارة الى ان ذكر مثقال الذرة ليس للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب وعلى هذا فلو قال قائل فأى حاجة الى ذكر الاكبر فان من علم الاصغر من الذرة لا بد من أن يعلم الاكبر فنقول لما كان الله تعالى أراد بيان اثبات الامور فى الكتاب فلو اقتصر على الاصغر لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر لكونها محل النسيان أما الاكبر فلا ينسى فلا حاجة الى اثباته فقال الاثبات فى الكتاب ليس كذلك فان الاكبر أيضا فيه مكتوب ثم لما بين علمه بالصغائر والكبائر ذكر ان جمع ذلك واثباته للجزاء فقال ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ذكر فيهم أمرين الايمان والعمل الصالح وذكر لهم أمرين المغفرة والرزق الكريم فالمغفرة جزاء الايمان فكل مؤمن مغفور له ويدل عليه قوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله عليه السلام فيما أخبرنا تاج الدين عيسى بن أحمد بن الحاكم البندهى قال

الايلام وقرئ أليم بالجر صفة لرجز (ويرى الذين أوتوا العلم) اى يعلم اولوا العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن شايعهم من علماء الامة أو من آمن من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما رضى الله عنهم (الذى أنزل اليك من ربك) اى القرآن (هو الحق) بالنصب على أنه مفعول ثان ليرى والمفعول الاول هو الموصول الثانى وهو ضمير الفصل وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر والجملة هو المفعول الثانى ليرى وقوله ﴿ ٥ ﴾ تعالى ويرى الخ مستأنف مسوق للاستشهاد باولى العلم على الجهلة الساعين فى الآيات وقيل منصوب عطفا على يجزى أى وليعلم أولوا العلم عند مجئ الساعة معاينة انه الحق حسبما علموه الآن برهانا ويحتجوا به على المكذبين وقد جوزان يراد بأولى العلم من لم يؤمن من الاحبار اى ليعلموا يومئذ انه هو الحق فيزداد واحسرة وغما (ويهدى) عطف على الحق عطف الفعل على الاسم لانه فى تأويله كما فى قوله تعالى صافات ويقبضن اى وقابضات كانه قيل ويرى الذين اوتوا العلم الذى انزل اليك الحق وهاديا (الى صراط العزيز الحميد) الذى هو التوحيد والتدرع بلباس التقوى وقيل مستأنف وقيل حال من الذى انزل على اضمار مبتدأ اى وهو يهدى كما فى قول من قال ❊ نجوت وارهنهم مالكا (وقال الذين كفروا) هم كفار قريش قالوا مخاطبا بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل) يعنون به النبى عليه الصلاة والسلام وانما قصدوا بالتنكير الطنز والسخرية قاتلهم الله تعالى (ينبئكم) أى يحدثكم بعجب عجاب وقرئ ينبئكم من الانباء (اذا مزقتم كل ممزق) أى اذا متم ومزقت أجسادكم كل تمزيق وفرقت كل تفريق بحيث صرتم ترابا ورفاتا (انكم لفى خلق جديد) أى مستقرون فيه عدل اليه عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث مثل تبعثون أو تخلقون خلقا جديدا الاشباع فى الاستبعاد والتعجب وكذا تقديم الظرف والعامل فيه ما دل عليه المذكور لا نفسه لما أن ما بعد ان لا يعمل فيما قبلها وجديد فعيل بمعنى

اخبرنى والدى عن جدى عن محيى السنة عن عبد الواحد المليحى عن أحمد بن عبد الله النعيمى عن محمد بن يوسف الفربرى عن محمد بن اسمعيل البخارى يخرج من النار من قال لا اله الا الله وفى قلبه وزن ذرة من ايمان والرزق الكريم من العمل الصالح وهو مناسب فان من عمل لسيد كريم عملا فعند فراغه من العمل لابد من أن ينعم عليه انعاما و يطعمه طعاما ووصف الرزق بالكريم قد ذكرنا انه بمعنى ذى كرم أو مكرم أو لانه يأتى من غير طلب بخلاف رزق الدنيا فانه مالم يطلب ويتسبب فيه لا يأتى وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قوله أولئك لهم مغفرة ورزق كريم يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون لهم ذلك جزاء فيوصله اليهم لقوله ليجزى الذين آمنوا (وثانيهما) ان يكون ذلك لهم والله يجزيهم بشئ آخر لان قوله أولئك لهم جملة تامة اسمية وقوله تعالى ليجزى الذين آمنوا جملة فعلية مستقلة وهذا أبلغ فى البشارة من قول القائل ليجزى الذين آمنوا رزقا (المسئلة الثانية) اللام فى ليجزى للتعليل معناه الآخرة للجزاء فان قيل قائل فما وجه المناسبة فنقول الله تعالى أراد أن لا ينقطع ثوابه فجعل للمكلف دارا باقية ليكون ثوابه واصلا اليه دائما أبدا وجعل قبلها دارا فيها الآلام والاسقام وفيها الموت ليعلم المكلف مقدار ما يكون فيه فى الآخرة اذا نسبه الى ما قبلها واذا نظر اليه فى نفسه (المسئلة الثالثة) ميز الرزق بالوصف بقوله كريم ولم يصف المغفرة لان المغفرة واحدة هى للمؤمنين والرزق منه شجرة الزقوم والحميم ومنه الفواكه والشراب الطهور فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها ❊ ثم قال تعالى (والذين سعوا فى آياتنا معجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) لما بين حال المؤمنين يوم القيامة بين حال الكافرين وقوله والذين سعوا فى آياتنا أى بالابطال ويكون معناه الذين كذبوا بآياتنا وحينئذ يكون هذا فى مقابلة ما تقدم لان قوله تعالى آمنوا معناه صدقوا وهذا معناه كذبوا فان قيل من أين علم كون سعيهم فى الابطال مع ان المذكور مطلق السعى فنقول فهم من قوله تعالى معجزين وذلك لانه حال معناه سعوا فيها وهم يريدون التعجيز وبالسعى فى التقرير والتبليغ لا يكون الساعى معجزا لان القرآن وآيات الله معجزة فى نفسها لا حاجة لها الى أحد وأما المكذب فهو آت باخفاء آيات بينات فيحتاج الى السعى العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المتمسك به وقيل بأن المراد من قوله معجزين أى ظانين انهم يفوتون الله وعلى هذا يكون كون الساعى ساعيا بالباطل فى غاية الظهور لهم عذاب فى مقابلة لهم رزق (وفى الآية لطائف ❊ الاولى) قال ههنا لهم عذاب ولم يقل يجزيهم الله وقد تقدم القول منا أن قوله تعالى ليجزى الذين آمنوا يحتمل أن يكون الله يجزيهم بشئ آخر وقوله أولئك لهم مغفرة اخبار عن مستحقهم العدل لهم وعلى الجملة فاحتمال الزيادة هناك قائم نظرا الى قوله ليجزى وههنا لم يقل ليجازيهم فلم يوجد ذلك (الثانية) قال هناك لهم مغفرة ثم زادهم فقال ورزق كريم وههنا لم يقل الا لهم عذاب من رجز أليم والجواب تقدم فى مثله (الثالثة) قال هناك لهم مغفرة ورزق كريم ولم يقل لهم من التبعيضية فلم يقل لهم نصيب من رزق ولا رزق

وقيل بمعنى مفعول من جد النساج الثوب اذا قطعه ثم شاع (أفترى على الله كذبا) فيما قال (أم به جنة) أى جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه والاستدلال بهذا الترديد على ان بين الصدق والكذب واسطة هو ما لا يكون من الاخبار عن بصيرة بين الفساد لظهور كون الافتراء أخص من الكذب (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) جواب من جهة الله تعالى عن ترديدهم الوارد على طريقة الاستفهام بالاضراب عن شقيه وابطالهما ﴿ ٦ ﴾ واثبات قسم ثالث كاشف عن حقيقة الحال ناع عليهم سوء حالهم وابتلاءهم بما قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل ليس الامر كما زعموا بل هم فى كمال اختلال العقل وغاية الضلال عن الفهم والادراك الذى هو الجنون حقيقة وفيما يؤدى اليه ذلك من العذاب ولذلك يقولون ما يقولون وتقديم العذاب على ما يوجبه ويستتبعه للمسارعة الى بيان ما يسوءهم ويفت فى أعضادهم والاشعار بغاية سرعة ترتبه عليه كأنه يسابقه فيسبقه ووصف الضلال بالبعد الذى هو وصف الضال للمبالغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن علة ما ارتكبوه واجترءوا عليه من الشناعة الفظيعة كفرهم بالآخرة وما فيها من فنون العقاب ولولاه لما فعلوا ذلك خوفا من غائلته وقوله تعالى (أفلم يروا الى ما بين ايديهم وما خلفهم من السماء والارض) استئناف مسوق لتهويل ما اجترءوا عليه من تكذيب آيات الله تعالى واستعظام ما قالوا فى حقه عليه الصلاة والسلام وأنه من العظائم الموجبة لنزول اشد العقاب وحلول افظع العذاب من غير ريث وتأخير والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (ان ﴿ من ﴾ نشأ) الخ بيان لما ينبئ عنه ذكر احاطتهما بهم من المحذور المتوقع من جهتهما وفيه تنبيه على أنه لم يبق من أسباب وقوعه الا تعلق المشيئة به أى أفعلوا ما فعلوا من المنكر الهائل المستتبع للعقوبة فلم ينظروا الى ما أحاط بهم من جميع جوانبهم بحيث لا مفر لهم

من جنس كريم وقال ههنا لهم عذاب من رجز أليم بلفظة صالحة للتبعيض وكل ذلك اشارة الى سعة الرحمة وقلة الغضب بالنسبة اليها والرجز قيل أسوأ العذاب وعلى هذا من لبيان الجنس كقول القائل خاتم من فضة وفى الاليم قراءتان الجر والرفع فالرفع على أن الاليم وصف العذاب كأنه قال عذاب أليم من أسوأ العذاب والجر على انه وصف للرجز والرفع أقرب نظرا الى المعنى والجر نظرا الى اللفظ فان قيل فلم تنحصر الاقسام فى المؤمن الصالح عمله والمكذب الساعى المعجز لجواز أن يكون أحد مؤمنا ليس له عمل صالح أو كافر متوقف فنقول اذا علم حال الفريقين المذكورين يعلم ان المؤمن قريب الدرجة ممن تقدم أمره والكافر قريب الدرجة ممن سبق ذكره وللمؤمن مغفرة ورزق كريم وان لم يكن فى الكرامة مثل رزق الذى عمل صالحا وللكافر الغير المعاند عذاب وان لم يكن من أسوأ الانواع التى للمكذبين المعاندين ﷺ ثم قال تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد) لما بين حال من يسعى فى التكذيب فى الآخرة بين حاله فى الدنيا وهو أن سعيه باطل فان من أوتى علما لا يغتر بتكذيبه ويعلم أن ما انزل الى محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق وقوله هو الحق يفيد الحصر أى ليس الحق الا ذلك وأما قول المكذب فباطل بخلاف ما اذا تنازع خصمان والنزاع لفظى فيكون قول كل واحد حقا فى المعنى وقوله تعالى ويهدى الى صراط العزيز الحميد يحتمل أن يكون بيانا لكونه هو الحق فانه هاد الى هذا الصراط ويحتمل أن يكون بيانا لفائدة أخرى وهى انه مع كونه حقا هاديا والحق واجب القبول وكيف اذا كان فيه فائدة فى الاستقبال وهى الوصول الى الله وقوله العزيز الحميد يفيد رغبة ورهبة فانه اذا كان عزيزا يكون ذا انتقام ينتقم من الذى يسعى فى التكذيب واذا كان حميدا يشكر سعى من يصدق ويعمل صالحا فان قيل كيف قدم الصفة التى للهيبة على الصفة التى للرحمة مع انك أبدا تسعى فى بيان تقديم جانب الرحمة نقول كونه عزيزا تام الهيبة شديد الانتقام يقوى جانب الرغبة لان رضا الجبار العزيز أعز وأكرم من رضا من لا يكون كذلك فالعزة كما تخوف ترجى أيضا او كما ترغب عن التكذيب ترغب فى التصديق ليحصل القرب من العزيز ﷺ ثم قال تعالى (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد) وجه الترتيب هو أن الله تعالى لما بين انهم أنكروا الساعة ورد عليهم بقوله قل بلى وربى لتأتينكم وبين ما يكون بعد اتيانها من جزاء المؤمن على عمله الصالح وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب على السيآت بين حال المؤمن والكافر بعد قوله قل بلى وربى لتأتينكم فقال المؤمن هو الذى يقول الذى أنزل اليك الحق وهو يهدى وقال الكافر هو الذى يقول هو باطل ومن غاية اعتقادهم وعنادهم فى ابطال ذلك قالوا على سبيل التعجب هل ندلكم على رجل منكم ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد وهذا كقول القائل فى الاستبعاد جاء رجل يقول ان الشمس تطلع من المغرب الى غير ذلك

من المحالات ※ ثم قال تعالى (أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) هذا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تمام قول الذين كفروا أولا أعني هو من كلام من قال هل ندلكم ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب لمن قال هل ندلكم كان السامع لما سمع قول القائل هل ندلكم على رجل قال له أهو يفترى على الله كذبا ان كان يعتقد خلافه أم به جنة جنون ان كان لا يعتقد خلافه (وفي هذا لطيفة) وهي ان الكافر لا يرضى بأن يظهر كذبه ولهذا قسم ولم يجزم بأنه مفتر بل قال مفترا ومجنون احترازا من أن يقول قائل كيف يقول بأنه مفتر مع انه جاز أن يظن أن الحق ذلك وظن الصدق يمنع تسمية القائل مفتريا وكاذبا في بعض المواضع ألا ترى أن من يقول جاء زيد فاذا تبين أنه لم يجئ وقيل له كذبت يقول ما كذبت وانما سمعت من فلان أنه جاء فظننت انه صادق فيدفع الكذب عن نفسه بالظن فهم احترزوا عن تبين كذبهم فكل عاقل ينبغي أن يحترز عن ظهور كذبه عند الناس ولا يكون العاقل أدنى درجة من الكافر ثم انه تعالى أجابهم مرة أخرى وقال بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب في مقابلة قولهم أفترى على الله كذبا وقوله والضلال البعيد في مقابلة قولهم به جنة وكلاهما مناسب اما العذاب فلان نسبة الكذب الى الصادق مؤذية لانه شهادة عليه بأنه يستحق العذاب فجعل العذاب عليهم حيث نسبوه الى الكذب وأما الجنون فلان نسبة الجنون الى العاقل دونه في الايذاء لانه لا يشهد عليه بأنه يعذب ولكن ينسبه الى عدم الهداية فبين انهم هم الضالون ثم وصف ضلالهم بالبعد لان من يسمى المهتدي ضالا يكون هو الضال فمن يسمى الهادي ضالا يكون أضل والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادي كل مهتد ※ ثم قال تعالى (افلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) لما ذكر الدليل بكونه عالم الغيب وكونه جازيا على السيآت والحسنات ذكر دليلا اخر وذكر فيه تهديدا أما الدليل فقوله السماء والارض فانهما يدلان على الوحدانية كما بيناه مرارا وكما قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ويدلان على الحشر لانهما يدلان على كمال قدرته ومنها الاعادة وقد ذكرناه مرارا وقال تعالى أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم وأما التهديد فبقوله ان نشأ نخسف بهم الارض يعني نجعل عين نافعهم ضارهم بالخسف والكسف ※ ثم قال تعالى (ان في ذلك لآية لكل عبد منيب) أي لكل من يرجع الى الله ويترك التعصب ※ ثم ان الله تعالى لما ذكر من ينيب من عباده ذكر منهم من أناب وأصاب ومن جملتهم داود كما قال تعالى عنه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب وبين ما آتاه الله على انابته فقال (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى منا اشارة الى بيان فضيلة داود عليه السلام وتقريره هو ان قوله ولقد آتينا داود منا فضلا مستقل بالمفهوم وتام

على موجب جناياتهم (نخسف بهم الارض) كما خسفناها بقارون (أو نسقط عليهم كسفا) اى قطعا (من السماء) كما أسقطناها على أصحاب الايكة لاستيجابهم ذلك بما ارتكبوه من الجرائم وقيل هو تذكير بما يعاينونه مما يدل على كمال قدرته وما يحتمل فيه ازاحة لاستحالتهم البعث حتى جعلوه افتراء وهزؤا وتهديد عليها والمعنى أعموا فلم ينظروا الى ما أحاط بجوانبهم من السماء والارض ولم يتفكروا أهم أشد خلقا أم هي وان نشأ نخسف ﴿ ٧ ﴾ بهم الارض أو نسقط عليهم كسفا لتكذيبهم بالآيات بعد ظهور البينات فتأمل وكن على الحق المبين وقرئ يخسف ويسقط بالياء لقوله تعالى أفترى على الله وكسفا بسكون السين (ان في ذلك) أي فيما ذكر من السماء والارض من حيث احاطتهما بالناظر من جميع الجوانب أو فيما تلي من الوحي الناطق بما ذكر (لآية) واضحة (لكل عبد منيب) شأنه الانابة الى ربه فانه اذا تأمل فيهما أو في الوحي المذكور ينزجر عن تعاطي القبائح وينيب اليه تعالى وفيه حث بليغ على التوبة والانابة وقد أكد ذلك بقوله تعالى (ولقد آتينا داود منا فضلا) أي آتيناه لحسن انابته وصحة توبته فضلا على سائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام أي نوعا من الفضل وهو ما ذكر بعد فانه معجزة خاصة به عليه الصلاة والسلام أو على سائر الناس فيندرج فيه النبوة والكتاب والملك والصوت الحسن فتنكيره للتفخيم ومنا لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الاضافية كما في قوله تعالى وآتيناه من لدنا علما وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة له فاذا ورد عليها تمكن عندها فضل تمكن (يا جبال أوبي معه) من التأويب أي رجعي معه التسبيح أو النوحة على الذنب وذلك اما بأن يخلق الله تعالى فيها صوتا مثل صوته كما خلق الكلام في الشجرة أو بأن ... التسبيح ... كان كما سبح عليه الصلاة والسلام يسمع من الجبال

وقيل كان ينوح على ذنبه بترجيع وتحزين وكانت الجبال تسعده على نوحه بأصدائها والطير بأصواتها وهو بدل من آتينا باضمار
قلنا أومن فضلا باضمار قولنا (والطير) بالنصب عطفا على فضلا بمعنى وسخرنا له الطير لان ايتاءها اياه عليه الصلاة والسلام
تسخيرها له فلا حاجة الى اضماره كما نقل عن الكسائى ولا الى تقدير مضاف اى تسبيح الطير كما نقل عنه فى رواية وقيل عطفا على محل
الجبال وفيه من التكلف لفظا ومعنى ما لا يخفى وقرئ بالرفع عطفا على لفظها ﴿ ٨ ﴾ تشبيها الحركة البنائية العارضة بالحركة

كما يقول القائل آتى الملك زيدا خلعة فاذا قال القائل آتاه منه خلعة يفيد انه كان من خاص ما يكون له فكذلك ايتاء الله الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض ومثل هذا قوله تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان فان رحمة الله واسعة تصل الى كل أحد فى الدنيا لكن رحمته فى الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه فقال يبشرهم ربهم برحمة منه (المسئلة الثانية) فى قوله يا جبال أوبى معه قال الزمخشرى يا جبال بدل من قوله فضلا معناه آتيناه فضلا قولنا يا جبال أو من آتينا ومعناه قلنا يا جبال (المسئلة الثالثة) قرئ أوبى بتشديد الواو من التأويب وبسكونها وضم الهمزة أوبى من الاوب وهو الرجوع والتأويب الترجيع وقيل بأن معناه سيرى معه وفى قوله يسبحن قالوا هو من السباحة وهى الحركة المخصوصة (المسئلة الرابعة) قرئ والطير بالنصب حملا على محل المنادى والطير بالرفع حملا على لفظه (المسئلة الخامسة) لم يكن الموافق له فى التأويب منحصرا فى الجبال والطير ولكن ذكر الجبال لان الصخور للجمود والطير للنفور تستبعد منهما الموافقة فاذا وافقه هذه الاشياء فغيرها أولى ثم ان من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التى هى أشد قسوة من الحجارة (المسئلة السادسة) قوله وألنا له الحديد عطف والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا المقدر فى قوله يا جبال تقديره قلنا يا جبال أوبى وألنا ويحتمل أن يكون عطفا على آتينا تقديره آتيناه فضلا وألنا له (المسئلة السابعة) ألان الله له الحديد حتى كان فى يده كالشمع وهو فى قدرة الله يسير فانه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذى يكتب به فأى عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله قيل انه طلب من الله أن يغنيه عن اكل مال بيت المال فالان له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهى الدروع وانما اختار الله له ذلك لانه وقاية للروح التى هى من أمره وسعى فى حفظ الآدمى المكرم عند الله من القتل فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما ❊ ثم قال تعالى (أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا انى بما تعملون بصير) قيل ان أن ههنا للتفسير فهى مفسرة بمعنى أى اعمل سابغات وهو تفسير ألنا وتحقيقه لان يعمل يعنى ألنا له الحديد ليعمل سابغات ويمكن أن يقال ألهمناه أن اعمل وأن مع الفعل المستقبل للمصدر فيكون معناه ألنا له الحديد وألهمناه عمل سابغات وهى الدروع الواسعة ذكر الصفة ويعلم منها الموصوف وقدر فى السرد قال المفسرون أى لا تغلظ المسامير فتتسع الثقب ولا توسع الثقب فتتقلقل المسامير فيها ويحتمل أن يقال السرد هو عمل الزرد وقوله وقدر فى السرد أى الزرد اشارة الى انه غير مأمور به أمر ايجاب انما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقى الايام والليالى للعبادة فقدر فى ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب ويدل عليه قوله تعالى واعملوا صالحا أى لستم مخلوقين الا للعمل الصالح فاعملوا ذلك واكثروا منه والكسب قدروا فيه ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله انى بما تعملون بصير وقد ذكرنا مرارا ان من يعمل لملك شغلا ويعلم انه

الاعرابية وقد جوز انتصابه على أنه مفعول معه والاول هو الوجه وفى تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المطيعين لامره تعالى المذعنين لحكمه المشعر بانه ما من حيوان وجماد وصامت وناطق الا وهو منقاد لمشيئته غير ممتنع على ارادته من الفخامة المعربة عن غاية عظمة شانه تعالى وكمال كبرياء سلطانه ما لا يخفى على اولى الالباب (وألنا له الحديد) اى جعلناه لينا فى نفسه كالشمع يصرفه فى يده كيف يشاء من غير احماء بنار ولا ضرب بمطرقة أو جعلناه بالنسبة الى قوته التى آتيناها اياه لينا كالشمع بالنسبة الى سائر القوى البشرية (ان اعمل) امرناه ان اعمل على أن أن مصدرية حذف عنها الباء وفى حملها على المفسرة تكلف لا يخفى (سابغات) واسعات وقرئ صابغات وهى الدروع الواسعة الضافية وهو عليه الصلاة والسلام اول من اتخذها وكانت قبل صفائح قالوا كان عليه الصلاة والسلام حين ملك على بنى اسرائيل يخرج متنكرا فيسأل الناس
ما تقولون فى داود فيثنون عليه فقيض الله تعالى له ملكا فى صورة آدمى فسأله على عادته فقال نعم الرجل لولا خصلة ﴿ ٩ ﴾ فيه فريع داود فسأله عنها فقال لولا انه يطعم عياله من بيت المال فعند ذلك سأل ربه ان يسبب له ما يستغنى به عن بيت المال فعلمه

وقيل قدر فى مسامرها فلا تعملها دقاقا ولا غلاظا ودبان دروعه عليه الصلاة والسلام لم تكن مسمرة كما ينبئ عنه الانة الحديد
وقيل معنى قدر فى السرد لا تصرف جميع اوقاتك اليه بل مقدار ما يحصل به القوت واما الباقى فاصرفه الى العبادة وهو الانسب بقوله
تعالى (واعملوا صالحا) عمم الخطاب حسب عموم التكليف له عليه الصلاة والسلام ولاهله (انى بما تعملون بصير) تعليل للامر او
لوجوب الامتثال به (ولسليمان الريح) أى وسخرنا له ﴿ ٩ ﴾ الريح وقرئ برفع الريح أى ولسليمان الريح مسخرة وقرئ
الرياح (غدوها شهر ورواحها شهر) أى جريها بالغداة مسيرة شهر وجريها بالعشى كذلك والجملة اما مستأنفة أو حال من الريح وقرئ غدوتها وروحتها وعن الحسن رحمه الله كان يغدو أى من دمشق فيقيل باصطخر ثم يروح فيكون رواحه بكابل وقيل كان يتغدى بالرى ويتعشى بسمرقند ويحكى أن بعضهم رأى مكتوبا فى منزل بناحية دجلة كتبه بعض أصحاب سليمان عليه السلام نحن نزلناه وما بنيناه ومبنيا وجدناه غدونا من أصطخر فقلناه ونحن رائحون منه فبائتون بالشام ان شاء الله تعالى (وأسلنا له عين القطر) أى النحاس المذاب أساله من معدنه كما ألان الحديد لداود عليهما السلام فنبع منه نبوع الماء من الينبوع ولذلك سمى عينا وكان ذلك باليمن وقيل كان يسيل فى الشهر ثلاثة أيام وقوله تعالى (ومن الجن من يعمل بين يديه) اما جملة من مبتدا وخبر أو من يعمل عطف على الريح ومن الجن حال متقدمة (باذن ربه) بأمره تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى (ومن يزغ منهم عن أمرنا) أى ومن يعدل منهم عما أمرناه به
من طاعة سليمان وقرئ يزغ ﴿ ٢ ﴾ سا على البناء للمفعول من ازاغه (نذقه من عذاب السعير) أى عذاب النار فى
الآخرة روى عن السدى رحمه الله كان معه ملك بيده سوط من نار كل من استعصى عليه ضربه به من حيث لا يراه الجنى
(يعملون له ما يشاء) تفصيل لما ذكر من عملهم وقوله تعالى (من محاريب) الخ بيان لما يشاء أى من قصور حصينة

بر أى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيبا آخر وهو سليمان كما قال تعالى وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ❋ وذكر ما استفاد هو بالانابة فقال

(ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر واسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ ولسليمان الريح بالرفع وبالنصب وجه الرفع ولسليمان الريح مسخرة أو سخرت لسليمان الريح ووجه النصب ولسليمان سخرنا الريح وللرفع وجه آخر وهو أن يقال معناه ولسليمان الريح كما يقال لزيد الدار وذلك لان الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد (المسئلة الثانية) الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفا الجملة اسمية على جملة فعلية وهو لا يجوز أو لا يحسن فكيف هذا فنقول لما بين حال داود كأنه تعالى قال ما ذكرنا لداود ولسليمان الريح وأما على النصب فعلى قولنا وألنا له الحديد كأنه قال وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح (المسئلة الثالثة) المسخر لسليمان كانت ريحا مخصوصة لا هذه الرياح فانها المنافع عامة فى أوقات الحاجات ويدل عليه انه لم يقرأ الا على التوحيد فما قرأ أحد الرياح (المسئلة الرابعة) قال بعض الناس المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود انها كانت تسبح كما يسبح كل شئ وان من شئ الا يسبح بحمده وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح ومن تسخير الريح انه راض الخيل وهى كالريح وقوله غدوها شهر ثلاثون فرسخا لان من يخرج للتفرج فى أكثر الامر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك وقوله فى حق داود وألنا له الحديد وقوله فى حق سليمان وأسلنا له عين القطر انهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما وا شياطين أى اناسا أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا ضعف اعتقاده وعدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة (المسئلة الخامسة) أقول قوله تعالى وسخرنا مع داود الجبال وقوله ولسليمان الريح عاصفة لو قال قائل ما الحكمة فى ان الله تعالى قال فى الانبياء وسخرنا مع داود الجبال وفى هذه السورة قال يا جبال أوبى معه وقال فى الريح هناك وههنا ولسليمان نقول الجبال لما سبحت شرفت بذكر الله فلم يضفها الى داود بلام الملك بل جعلها معه كالمصاحب والريح لم يذكر فيها انها سبحت فجعلها كالمملوكة له وهذا حسن وفيه أمر آخر معقول يظهر لى وهو ان على قولنا أوبى معه سيرى فالجبل فى السير ليس أصلا بل هو يتحرك معه تبعا والريح لا تتحرك مع سليمان بل تحرك سليمان مع نفسها فلم يقل الريح مع سليمان بل سليمان كان مع الريح وأسلنا له عين القطر أى النحاس ومن الجن أى سخرنا له من الجن وهذا ينبئ عن ان جميعهم ما كانوا تحت أمره وهو الظاهر واعلم أن الله تعالى ذكر ثلاثة أشياء فى حق داود وثلاثة فى حق سليمان عليهما الصلاة والسلام فالجبال المسخرة لداود من جنس تسخير الريح لسليمان وذلك لان الثقيل مع ما هو أخف منه اذا تحرك يسبق الخفيف الثقيل ويبقى الثقيل مكانه لكن الجبال كانت أثقل من الآدمى والآدمى أثقل

من الريح فقدر الله ان سار الثقيل مع الخفيف أى الجبال مع داود على ماقلنا أوبى أى سيرى وسليمان وجنوده مع الريح الثقيل مع الخفيف أيضا والطير من جنس تسخير الجن لانهما لايجتمعان مع الانسان الطير لنفوره من الانس والانس لنفوره من الجن فان الانسان يتقى مواضع الجن والجن يطلب أبدا اصطياد الانسان والانسان يطلب اصطياد الطير فقدر الله ان صار الطير لاينفر من داود بل يستأنس به ويطلبه وسليمان لاينفر من الجن بل يسخره ويستخدمه وأما القطر والحديد فتجانسهما غير خفى (وهنا لطيفة) وهى ان الآدمى ينبغى أن يتقى الجن ويجتنبه والاجتماع به يفضى الى المفسدة ولهذا قال تعالى أعوذبك من همزات الشياطين وأعوذبك رب أن يحضرون فكيف طلب سليمان الاجتماع بهم فنقول قوله تعالى من يعمل بين يديه باذن ربه اشارة الى أن ذلك الحضور لم يكن فيه مفسدة (ولطيفة أخرى) وهى أن الله تعالى قال ههنا باذن ربه بلفظ الرب وقال ومن يزغ منهم عن أمرنا ولم يقل عن أمر ربه وذلك لان الرب لفظ ينبئ عن الرحمة فعندما كانت الاشارة الى حفظ سليمان عليه السلام قال ربه وعندما كانت الاشارة الى تعذيبهم قال عن أمرنا بلفظ التعظيم الموجب لزيادة الخوف وقوله تعالى نذقه من عذاب السعير فيه وجهان (أحدهما) ان الملائكة كانوا موكلين بهم وبأيديهم مقارع من نار فالاشارة اليه (وثانيهما) ان السعير هى مايكون فى الآخرة فأوعدهم بما فى الآخرة من العذاب ❊ ثم قال تعالى (يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور) المحاريب اشارة الى الابنية الرفيعة ولهذا قال تعالى اذ تسوروا المحراب والتماثيل مايكون فيها من النقوش ثم لما ذكر البناء الذى هو المسكن بين مايكون فى المسكن من ماعون الاكل فقال وجفان كالجواب جمع جابية وهى الحوض الكبير الذى يجبى الماء أى يجمعه وقيل كان يجتمع على جفنة واحدة ألف نفس وقدور راسيات ثابتات لاتنقل لكبرها وانما يغرف منها فى تلك الجفان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قدم المحاريب على التماثيل لان النقوش تكون فى الابنية وقدم الجفان فى الذكر على القدور مع ان القدور آلة الطبخ والجفان آلة الاكل والطبخ قبل الاكل فنقول لما بين الابنية الملكية أراد بيان عظمة السماط الذى يمد فى تلك الدور وأشار الى الجفان لانها تكون فيه وأما القدور فلا تكون فيه ولا تحضر هناك ولهذا قال راسيات أى غير منقولات ثم لما بين حال الجفان العظيمة كان يقع فى النفس ان الطعام الذى يكون فيها فى أى شئ يطبخ فأشار الى القدور المناسبة للجفان (المسئلة الثانية) ذكر فى حق داود اشتغاله بآلة الحرب وفى حق سليمان بحالة السلم وهى المساكن والمآكل وذلك لان سليمان كان ولد داود وداود قتل جالوت والملوك الجبابرة واستوى داود على الملك فكان سليمان كولد ملك يكون أبوه قد سوى على ابنه الملك وجمع له المال فهو يفرقه على جنوده ولأن سليمان لم يقدر أحد عليه فى ظنه فتركوا الحرب معه وان حاربه أحد

قيل مساكن شريفة سميت بذلك لانها يذب عنها او يحارب عليها وقيل هى المساجد (وتماثيل) وصور الملائكة والانبياء عليهم الصلاة والسلام على مااعتادوه فانها كانت تعمل حينئذ فى المساجد ليراها الناس و يعبدوا مثل عباداتهم وحرمة التصاوير شرع جديد وروى أنهم عملوا أسدين فى أسفل كرسيه ونسرين فوقه فاذا أراد أن يصعد بسط الاسدان ذراعيهما واذا قعد أظله النسران بأجنحتهما (وجفان) جمع جفنة وهى الصحفة (كالجواب) كالحياض ﴿ ١٠ ﴾ الكبار جمع جابية من الجباية لاجتماع الماء فيها وهى من الصفات الغالبة كالدابة وقرئ باثبات الياء قيل كان يقعد على الجفنة ألف رجل (وقدور راسيات) ثابتات على الاثافى لاتنزل عنها لعظمها (اعملوا آل داود شكرا) حكاية لما قيل لهم وشكرا نصب على انه مفعول له أو مصدر لاعملوا لان العمل للمنعم شكر له أو لفعله المحذوف أى اشكروا شكرا أو حال أى شاكرين أو مفعول به أى اعملوا شكرا (وقليل من عبادى الشكور) أى المتوفر على أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه أكثر أوقاته ومع ذلك لايوفى حقه لان التوفيق للشكر نعمة تستدعى شكرا آخر لاالى نهاية ولذلك قيل الشكور من يرى عجزه عن الشكر وروى أنه عليه الصلاة والسلام جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتى ساعة من الساعات الا وانسان من آل داود قائم يصلى (فلما قضينا عليه الموت) أى على سليمان عليه السلام (مادلهم) أى الجن أو آله (على موته الا دابة الارض) أى الارضة أضيفت الى فعلها وقرئ بفتح الراء وهو تأثر الخشبة من فعلها يقال أرضت الارضة الخشبة أرضا فأرضت أرضا مثل أكلت القوادح أسنانه اكلا فأكلت أكلا (تأكل ﴿كان﴾ منسأته) أى عصاه من نسأت البعير اذا طردته لانها يطرد بها مايطرد وقرئ منساته بألف ساكنة بدلا من الهمزة وبهمزة ساكنة وباخراجها بين بين عند الوقف ومنساءته على مفعالة كميضاءة فى ميضأة ومن سأته أى من طرف عصاه من سأة

القوس وفيه لغتان كما في قحة بالكسر والفتح وقرئ أكلت منساته (فلما خر تبينت الجن) من تبينت الشيء اذا علمته بعد التباسه عليك
اى علمت الجن علما بينا بعد التباس الامر عليهم (أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) أى أنهم لو كانوا يعلمون الغيب
كما يزعمون لعلموا موته عليه الصلاة والسلام حينما وقع فلم يلبثوا بعده حولا في تسخيره الى أن خر أو من تبين الشيء اذا ظهر وتجلى
أى ظهرت الجن وأن مع ما في حيزها بدل اشتمال من الجن أى ظهر أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب الخ وقرئ
تبينت الجن على البناء للمفعول على أن المتبين في الحقيقة هو أن مع ما في حيزها لانه بدل وقرئ تبينت الانس والضمير في كانوا للجن في قوله تعالى ومن الجن من يعمل وفي قراءة ابن مسعود رضى الله عنه تبينت الانس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب * روى أن داود عليه السلام أسس بنيان بيت المقدس في موضع فسطاط موسى فتوفي قبل تمامه فوصى به الى سليمان عليهما السلام فاستعمل فيه الجن والشياطين فباشروه حتى اذا حان أجله وعلم به سأل ربه أن يعمي عليهم موته حتى يفرغوا منه ولتبطل دعواهم علم الغيب فدعاهم فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلي متكئا على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها فبقي كذلك وهم فيما أمروا به من الاعمال حتى أكلت الارضة عصاه فخر ميتا وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى عليه الصلاة والسلام فلم يكن ينظر اليه شيطان في صلاته
الا احترق فمر به يوما شيطان فنظر فاذا سليمان عليه السلام قد خر ففتحوا عنه فاذا عصاه قد أكلتها الارضة فارادوا
أن يعرفوا وقت موته فوضعوا الارضة على العصا فاكلت منها في يوم وليلة مقدارا فحسبوا على ذلك فوجدوه قد مات منذ سنة وكان
ع... ثلاثا وخمسين سنة ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقي في ملكه أربعين سنة وابتدأ بناء بيت المقدس لاربع مضين من ملكه

كان زمان الحرب يسيرا لادراكه اياه بالريح فكان في زمانه العظمة بالاطعام والانعام (المسئلة الثالثة) لما قال عقيب قوله تعالى أن اعمل سابغات اعملوا صالحا قال عقيب ما يعمله الجن اعملوا آل داود شكرا اشارة الى ما ذكرنا ان هذه الاشياء حالية لا ينبغي ان يجعل الانسان نفسه مستغرقة فيها وانما الواجب الذي ينبغي أن يكثر منه هو العمل الصالح الذي يكون شكرا وفيه اشارة الى عدم الالتفات الى هذه الاشياء وقلة الاشتغال بها كما في قوله وقدر في السرد أى اجعله بقدر الحاجة (المسئلة الرابعة) انتصاب شكرا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون مفعولا له كقول القائل جئتك طمعا وعبدت الله رجاء غفرانه (وثانيها) أن يكون مصدرا كقول القائل شكرت الله شكرا ويكون المصدر من غير لفظ الفعل كقول القائل جلست قعودا وذلك لان العمل شكر فقوله اعملوا يقوم مقام قوله اشكروا (وثالثها) أن يكون مفعولا به كقولك اضرب زيدا كما قال تعالى واعملوا صالحا لان الشكر صالح (المسئلة الخامسة) قوله وقليل من عبادي الشكور اشارة الى ان الله خفف الامر على عباده وذلك لانه لما قال اعملوا آل داود شكرا فهم منه ان الشكر واجب لكن شكر نعمه كما ينبغي لا يمكن لان الشكر بالتوفيق وهو نعمة تحتاج الى شكر آخر وهو بتوفيق آخر فدائما تكون نعمة الله بعد الشكر خالية عن الشكر فقال تعالى ان كنتم لا تقدرون على الشكر التام فليس عليكم في ذلك حرج فان عبادي قليل منهم الشكور ويقوى قولنا أنه تعالى أدخل الكل في قوله عبادي مع الاضافة الى نفسه وعبادي بلفظ الاضافة الى نفس المتكلم لم ترد في القرآن الا في حق الناجين كقوله تعالى يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله وقوله ان عبادي ليس لك عليهم سلطان فان قيل على ما ذكرتم شكر الله بتمامه لا يمكن وقوله قليل يدل على ان في عباده من هو شاكر لانعمه نقول الشكر بقدر الطاقة البشرية هو الواقع وقليل فاعله وأما الشكر الذي يناسب نعم الله فلا قدرة عليه ولا يكلف الله نفسا الا وسعها أو نقول الشاكر التام ليس الا من رضى الله عنه وقال له يا عبدي ما أتيت به من الشكر القليل قبلته منك وكتبت لك انك شاكر لانعمي بأسرها وهذا القبول نعمة عظيمة لا أكلفك شكرها * ثم قال تعالى (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) لما بين عظمة سليمان وتسخير الريح والروح له بين انه لم ينج من الموت وانه قضى عليه الموت تنبيها للخلق على ان الموت لا بد منه ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة منه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كان سليمان عليه السلام يقف في عبادة الله ليلة كاملة ويوما تاما وفي بعض الاوقات يزيد عليه وكان له عصا يتكئ عليها واقفا بين يدي ربه ثم في بعض الاوقات كان واقفا على عادته في عبادته اذ توفي فظن جنوده انه في العبادة وبقي كذلك أياما وتمادى شهورا ثم أراد الله اظهار الامر لهم فقدر ان أكلت دابة الارض عصاه فوقع

قحطان وقرئ بمنع الصرف على أنه اسم القبيلة وقرئ بقلب الهمزة ألفا ولعله اخراج لها بين بين (في مسكنهم) وقرئ بكسر الكاف كالمسجد وقرئ بلفظ الجمع أي مواضع سكناهم وهي باليمن يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال (آية) دالة بملاحظة أحوالها السابقة واللاحقة على وجود الصانع المختار القادر على كل ما يشاء من الامور البديعة المجازي للمحسن والمسيء معاضدة للبرهان السابق كما في قصتي داود وسليمان عليهما السلام ﴿ ١٢ ﴾ (جنتان) بدل من آية أو خبر لمبتدأ محذوف أي هي جنتان وفيه معنى المدح ويؤيده قراءة النصب على المدح والمراد بهما جماعتان من البساتين (عن يمين وشمال) جماعة عن يمين بلدهم وجماعة عن شماله كل واحدة من تينك الجماعتين في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة أو بستانا كل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) حكاية لما قيل لهم على لسان نبيهم تكميلا للنعمة وتذكيرا لحقوقها أو لما نطق به لسان الحال أو بيان لكونهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك (بلدة طيبة ورب غفور) استئناف مبين لما يوجب الشكر المأمور به أي بلدتكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم ما فيهما من الطيبات وطلب منكم الشكر رب غفور لفرطات من يشكره وقرئ الكل بالنصب على المدح قيل كان أطيب البلاد هواء وأخصبها وكانت المرأة تخرج وعلى رأسها المكتل فتعمل بيديها وتسير فيما بين الاشجار فيمتلئ المكتل مما يتساقط فيه من الثمار ولم يكن فيه من مؤذيات الهوام شيء (فأعرضوا) عن الشكر بعد ابانة الآيات الداعية لهم اليه قيل ﴿ دوام ﴾ أرسل الله اليهم ثلاثة عشر نبيا فدعوهم الى الله تعالى وذكروهم بنعمه وأنذروهم عقابه فكذبوهم (فأرسلنا عليهم سيل العرم) أي الصعب من عرم الرجل فهو عارم وعرم اذا شرس خلقه وصعب أو المطر الشديد وقيل العرم جمع عرمة وهي الحجارة

وعلم حاله وقوله تعالى فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين كانت الجن تعلم ما لا يعلمه الانسان فظن أن ذلك القدر علم الغيب وليس كذلك بل الانسان لم يؤت من العلم الا قليلا فهو أكثر الاشياء الحاضرة لا يعلمه والجن لم تعلم الا الاشياء الظاهرة وان كانت خفية بالنسبة الى الانسان وتبين لهم الامر بأنهم لا يعلمون الغيب اذ لو كانوا يعلمونه لما بقوا في الاعمال الشاقة ظانين ان سليمان حي وقوله ما لبثوا في العذاب المهين دليل على ان المؤمنين من الجن لم يكونوا في التسخير لان المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين ثم ☼ قال تعالى (لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) لما بين الله حال الشاكرين لنعمه بذكر داود وسليمان بين حال الكافرين بأنعمه بحكاية أهل سبأ وفي سبأ قراءتان بالفتح على انه اسم بقعة وبالجر مع التنوين على انه اسم قبيلة وهو الاظهر لان الله جعل الآية لسبأ والفاهم وهو العاقل لا المكان فلا يحتاج الى اضمار الاهل وقوله آية أي من فضل ربهم ثم بينها بذكر بدله بقوله جنتان عن يمين وشمال قال الزمخشري أية آية في جنتين مع ان بعض بلاد العراق فيها آلاف من الجنان وأجاب بان المراد ان لكل واحد جنتين أو عن يمين بلدهم وشمالها جماعتان من الجنات ولاتصال بعضها ببعض جعلها جنة واحدة قوله كلوا من رزق ربكم اشارة الى تكميل النعم عليهم حيث لم يمنعهم من أكل ثمارها خوف ولا مرض وقوله واشكروا له بيان أيضا لكمال النعمة فان الشكر لا يطلب الا على النعمة المعتبرة ثم لما بين حالهم في مساكنهم وبساتينهم وأكلهم أتم بيان النعمة بان بين ان لا غائلة عليه ولا تبعة في المآل في الدنيا فقال بلدة طيبة أي طاهرة عن المؤذيات لا حية فيها ولا عقرب ولا وباء ولا وخم وقال ورب غفور أي لا عقاب عليه ولا عذاب في الآخرة فعند هذا بان كمال النعمة حيث كانت لذة حالية خالية عن المفاسد المآلية * ثم انه تعالى لما بين ما كان من جانبه ذكر ما كان من جانبهم فقال (فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور) فبين كمال ظلمهم بالاعراض بعد ابانة الآية كما قال تعالى ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ثم بين كيفية الانتقام منهم كما قال انا من المجرمين منتقمون وكيفيته انه تعالى أرسل عليهم سيلا غرق أموالهم وخرب دورهم وفي العرم وجوه (أحدها) انه الجرذ الذي سبب خراب السكر وذلك من حيث ان بلقيس كانت قد عمدت الى جبال بينها شعب فسدت الشعب حتى كانت مياه الامطار والعيون تجتمع فيها وتصير كالبحر وجعلت لها أبوابا ثلاثة مرتبة بعضها فوق بعض وكانت الابواب يفتح بعضها بعد بعض فنقب الجرذ السكر وخرب السكر بسببه وانقلب البحر عليهم (وثانيها) ان العرم اسم السكر وهو جمع العرمة وهي الحجارة (ثالثها) اسم للوادي خرج منه الماء وقوله وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط بين به

وقبل
على لسـ
كونا
الوار
عليه
بماقا
السلا
كمازع
لعقل
والاد
حقيقة
من ا
مايقو
على ما
الى
في أ
بغاير
يسا
اضلا
الضا
عوض
حين
رت
الش
الآ
لعة
دو
خ
و

وقيل هو البناء الرصين الذي بنته الملكة بلقيس بين الجبلين بالصخر والقار وحقنت به ماء العيون والامطار وتركت فيه خروقا على ما يحتاجون اليه في سقيهم وقيل العرم الجرذ الذي نقب عليهم ذلك السد وهو الفار الاعمى الذي يقال له الخلد سلطه الله تعالى على سدهم فنقبه فغرق بلادهم وقيل العرم اسم الوادي وقرئ العرم بسكون الراء قالوا كان ذلك في الفترة التي كانت بين عيسى والنبي عليهما الصلاة ﴿١٣﴾ والسلام (و بدلناهم بجنتيهم) أي أذهبنا جنتيهم وآتيناهم بدالهما (جنتين ذواتي اكل خمط) أي ثمر بشع فان الخمط كل نبت أخذ طعما من مرارة حتى لا يمكن أكله وقيل هو الحامض والمر من كل شئ وقيل هو ثمرة شجرة يقال لها فسوة الضبع على صورة الخشخاش لا ينتفع بها وقيل هو الاراك أو كل شجر ذي شوك والتقدير أكل أكل خمط فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وقرئ اكل خمط بالاضافة و بتخفيف أكل (وأثل وشئ من سدر قليل) معطوفان على اكل لا على خمط فان الاثل هو الطرفاء وقيل شجر يشبهه أعظم منه ولا ثمر له وقرئ وأثلا وشيأ عطفا على جنتين قيل وصف السدر بالقلة لما أن جناه وهو النبق مما يطيب أكله ولذلك يغرس في البساتين والصحيح أن السدر صنفان صنف يؤكل من ثمره و ينتفع بورقه لغسل اليد وصنف له ثمرة عفصة لا تؤكل اصلا ولا ينتفع بورقه وهو الضال والمراد ههنا هو الثاني حتما وقال قتادة كان شجرهم خير الشجر فصيره الله تعالى من شر الشجر باعمالهم وتسمية البدل جنتين للمشاكلة والتهكم (ذلك) اشارة الى مصدر قوله تعالى (جزيناهم) أو الى ما ذكر من التبديل وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد رتبته في الفظاعة ومحله على الاول النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور وعلى الثاني النصب على أنه مفعول ثان له أي ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاء آخر أو ذلك التبديل جزيناهم لا غيره (بما كفروا) بسبب كفرانهم النعمة ...

دوام الخراب وذلك لان البساتين التي فيها الناس يكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة فاذا تركت سنين تصير كالغيضة والاجمة تلتف الاشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها فتقل الثمار وتكثر الاشجار والخمط كل شجرة لها شوك أو كل شجرة ثمرتها مرة أو كل شجرة ثمرتها لا تؤكل والاثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة الا في بعض الاوقات يكون عليه شئ كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه والسدر معروف وقال فيه قليل لانه كان أحسن أشجارهم فقلله الله ثم بين الله ان ذلك كان مجازاة لهم على كفرانهم فقال ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي أي لا نجازي بذلك الجزاء الا الكفور قال بعضهم المجازاة تقال في النقمة والجزاء في النعمة لكن قوله تعالى ذلك جزيناهم يدل على ان الجزاء يستعمل في النقمة ولعل من قال ذلك أخذه من أن المجازاة مفاعلة وهي في أكثر الامر تكون بين اثنين يؤخذ من كل واحد جزاء في حق الآخر وفي النعمة لا تكون مجازاة لان الله تعالى مبتدئ بالنعم * ثم قال تعالى (وجعلنا بينهم و بين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) أي بينهم و بين الشام فانها هي البقعة المباركة وقرئ ظاهرة أي يظهر بعضها لبعضها يرى سواد القرية من القرية الاخرى فان قال قائل هذا من النعم والله تعالى قد شرع في بيان تبديل نعمهم بقوله و بدلناهم بجنتيهم جنتين فكيف عاد مرة أخرى الى بيان النعمة بعد النقمة فنقول ذكر حال نفس بلدهم و بين تبديل ذلك بالخمط والاثل ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمارتها بكثرة القرى ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز والبيادي والبراري بقوله ربنا باعد بين أسفارنا وقد فعل ذلك و يدل عليه قراءة من قرأ ربنا بعد على المبتدأ والخبر وقوله وقدرنا فيها السير الاماكن المعمورة تكون منازلها معلومة مقدرة لا تتجاوز فلما كان بين كل قرية مسيرة نصف نهار وكانوا يغدون الى قرية و يروحون الى أخرى ما أمكن في العرف تجاوزها فهو المراد بالتقدير والمفاوز لا يتقدر السير فيها بل يسير السائر فيها بقدر الطاقة جادا حتى يقطعها وقوله سيروا فيها ليالي وأياما أي كان بينهم ليال وأيام معلومة وقوله امنين اشارة الى كثرة العمارة فان خوف قطاع الطريق والانقطاع عن الرفيق لا يكون في مثل هذه الاماكن وقيل بأن معنى قوله ليالي وأياما تسيرون فيه ان شئتم ليالي وان شئتم أياما لعدم الخوف بخلاف المواضع المخوفة فان بعضها يسلك ليلا لئلا يعلم العدو بسيرهم و بعضها يسلك نهارا لئلا يقصدهم العدو اذا كان العدو غير مجاهر بالقصد والعداوة وقوله تعالى قالوا ربنا باعد بين أسفارنا قيل بأنهم طلبوا ذلك وهو يحتمل وجهين أحدهما أن يسألوا البطر كما طلبت اليهود الثوم والبصل و يحتمل أن يكون ذلك لفساد اعتقادهم وشدة اعتمادهم على أن ذلك لا يقدر كما يقول القائل لغيره اضربني اشارة الى انه لا يقدر عليه و يمكن أن يقال قالوا ربنا بعد بلسان الحال أي لما كفروا فقد

فى الكفران أو الكفر وقرئ يجازى على البناء للفاعل وهو الله عزوجل وهل يجازى على البناء للمفعول ورفع الكفور وهل يجزى على البناء للمفعول أيضا وهذا بيان ما أوتوا من النعم الحاضرة فى مساكنهم وما فعلوا بها من الكفران وما فعل بهم من الجزاء وقوله تعالى (وجعلنا بينهم و بين القرى التى باركنا فيها) حكاية لما أوتوا من النعم البادية فى مسايرهم ومتاجرهم وما فعلوا بها من الكفران وما حاق بهم بسبب ذلك تكملة لقصتهم وبيانا ﴿ ١٤ ﴾ لعاقبتهم وانما لم يذكر الكل معا لما فى التثنية والتكرير من زيادة تنبيه وتذكير وهو عطف على كان لسبا لا على ما بعده من الجمل الناطقة بأفعالهم أو بأجزيتها أى و جعلنا مع ما آتيناهم فى مساكنهم من فنون النعم بينهم أى بين بلادهم و بين القرى الشامية التى باركنا فيها للعالمين (قرى ظاهرة) متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها فهى ظاهرة لأعين أهلها أو راكبة متن الطريق ظاهرة للسابلة غير بعيدة عن مسالكهم حتى تخفى عليهم (وقدرنا فيها السير) أى جعلناها فى نسبة بعضها الى بعض على مقدار معين يليق بحال أبناء السبيل قيل كان الغادى من قرية يقيل فى أخرى والرائح منها يبيت فى أخرى الى أن يبلغ الشام كل ذلك كان تكميلا لما أوتوا من أنواع النعماء وتوفيرا لها فى الحضر والسفر (سيروا فيها) على ارادة القول أى وقلنا لهم سيروا فى تلك القرى (ليالى وأياما) أى متى شئتم من الليالى والايام (آمنين) من كل ما تكرهونه لا يختلف الامن فيها باختلاف الاوقات أو سيروا فيها آمنين وان تطاولت مدة سفركم وامتدت ليالى وأياما كثيرة أو سيروا فيها ليالى أعماركم وأيامها لا تلقون فيها الا الامن لكن لا على الحقيقة بل على تنزيل تمكينهم من السير المذكور وتسوية مباديه وأسبابه على الوجه المذكور منزلة أمرهم بذلك ﴿حتى﴾ (فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا) وقرئ يار بنا بطروا النعمة وسئموا أطيب العيش وملوا العافية فطلبوا الكد والتعب

طلبوا أن يبعد بين أسفارهم و يخرب المعمور من ديارهم وقوله وظلموا أنفسهم يكون بيانا لذلك وقوله فجعلناهم أحاديث أى فعلنا بهم ما جعلناهم به مثلا يقال تفرقوا أيدى سبا وقوله ومزقناهم كل ممزق بيان لجعلهم أحاديث وقوله تعالى ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أى فيما ذكرناه من حال الشاكرين ووبال الكافرين ※ ثم قال تعالى (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين) أى ظنه انه يغويهم كما قال فبعزتك لاغوينهم وقوله فاتبعوه بيان لذلك أى اغواهم فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين وهم الذين قال الله تعالى فى حقهم ان عبادى ليس لك عليهم سلطان و يمكن أن يقال صدق عليهم ظنه فى انه خير منه كما قال تعالى عنه أنا خير منه و يتحقق ذلك فى قوله فاتبعوه لان المتبوع خير من التابع والا لا يتبعه العاقل والذى يدل على ان ابليس خير من الكافر هو أن ابليس امتنع من عبادة غير الله لكن لما كان فى امتناعه ترك عبادة الله عنادا كفر والمشرك يعبد غير الله فهو كفر بأمر أقرب الى التوحيد وهم كفروا بأمر هو الاشراك و يؤيد هذا الذى اخترناه الاستثناء و بيانه هو انه وان لم يظن انه يغوى الكل بدليل انه تعالى قال عنه الا عبادك منهم المخلصين فاظن انه يغوى المؤمنين فاظنه صدقه ولا حاجة الى الاستثناء وأما فى قوله أنا خير منه اعتقد الخيرية بالنسبة الى جميع الناس بدليل تعليله بقوله خلقتنى من نار وخلقته من طين وقد كذب فى ظنه فى حق المؤمنين و يمكن الجواب عن هذا فى الوجه الاول وهو انه وان لم يظن اغواء الكل وعلم ان البعض ناج لكن ظن فى كل واحد أنه ليس هو ذلك الناجى الى ان تبين له فظن انه يغويه فكذب فى ظنه فى حق البعض وصدق فى البعض * ثم قال تعالى (وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شئ حفيظ) قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ان علم الله من الازل الى الابد محيط بكل معلوم وعلمه لا يتغير وهو فى كونه عالما لا يتغير ولكن يتغير تعلق علمه فان العلم صفة كاشفة يظهر بها كل ما فى نفس الامر فعلم الله فى الازل ان العالم سيوجد فاذا وجد علمه موجودا بذلك العلم واذا عدم يعلمه معدوما بذلك مثاله ان المرآة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد ان قابلها ثم اذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته والمرآة تتغير فى ذاتها ولا تبدلت فى صفاتها انما التغير فى الخارجات فكذلك ههنا قوله الا لنعلم أى ليقع فى العلم صدور الكفر من الكافر والايمان من المؤمن وكان قبله فيه انه سيكفر زيد و يؤمن عمرو وقوله وما كان له عليهم من سلطان اشارة الى انه ليس بملجئ وانما هو آية وعلامة خلقها الله لتبيين ما هو فى علمه السابق وقوله وربك على كل شئ حفيظ يحقق ذلك أى الله تعالى قادر على منع ابليس عنهم عالم بما سيقع فالحفظ يدخل فى مفهومه العلم والقدرة اذ الجاهل بالشئ لا يمكنه حفظه ولا العاجز ※ ثم قال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له

اوكان جنى جناننا ابعد لكان اجدر أن نشتهيه وسألوا أن يجعل الله تعالى بينهم وبين الشام مفاوز وقفارا ليركبوا فيها الرواحل ويتزودوا الازواد ويتطاولوا فيها على الفقراء فعجل الله تعالى لهم الاجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة وجعلها بلقعا لا يسمع فيها داع ولا مجيب وقرئ بعدور بنا بعد بين أسفارنا و بعد بين أسفارنا على النداء واسناد الفعل الى بين ورفعه به كما يقال سير فرسخان و بوعد بين أسفارنا وقرئ ربنا

باعد بين أسفارنا و بين سفرنا و بعد برفع ربنا على الابتداء والمعنى على خلاف الاول وهو استبعاد مسايرهم مع قصرها أودنوها وسهولة سلوكها لفرط تنعمهم وغاية ترفههم وعدم اعتدادهم بنعم الله تعالى كأنهم يتشاجون على الله تعالى ويتحازنون عليه (وظلموا أنفسهم) حيث عرضوها للسخط والعذاب حين بطروا النعمة أو غمطوها (فجعلناهم أحاديث) أى جعلناهم بحيث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم (ومزقناهم كل ممزق) أى فرقناهم كل تفريق على أن الممزق مصدر أو كل مطرح ومكان تفريق على أنه اسم مكان وفى عبارة التمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الامر والدلالة على شدة التأثير والايلام ما لا يخفى أى مزقناهم تمزيقا لا غاية وراءه بحيث يضرب به الامثال فى كل فرقة ليس بعدها وصال حتى لحق غسان بالشام وأنمار بيثرب و جذام بتهامة والازد بعمان وأصل قصتهم على ما رواه الكلبى عن أبى صالح أن عمرو بن عامر من أولاد سبا و بينهما اثنا عشر أبا وهو الذى يقال له مزيقيا بن ماء السماء أخبرته طريفة الكاهنة بخراب سد مأرب وتغريق سيل العرم الجنتين وعن أبى زيد الانصارى ان عمرا رأى جرذا يحفر السد فعلم أنه لا بقاء له بعد وقيل انه كان كاهنا وقد علم بكهانته فباع أملاكه وسار بقومه وهم ألوف من بلد الى بلد حتى انتهى الى مكة المعظمة وأهلها جرهم وكانوا قهروا الناس وحازوا ولاية

حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير) لما بين الله تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين وذكرهم بمن مضى عاد الى خطابهم وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم قل للمشركين ادعوا الذين زعمتم من دون الله ليكشفوا عنكم الضر على سبيل التهكم ثم بين انهم لا يملكون شيئا بقوله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض * واعلم ان المذاهب المفيضة الى الشرك أربعة (أحدها) قول من يقول الله تعالى خلق السماء والسماويات وجعل الارض والارضيات فى حكمهم ونحن من جملة الارضيات فنعبد الكواكب والملائكة التى فى السماء فهم آلهتنا والله الههم فقال الله تعالى فى ابطال قولهم انهم لا يملكون فى السموات شيئا كما اعترفتم ثم قال ولا فى الارض على خلاف ما زعمتم (وثانيها) قول من يقول السموات من الله على سبيل الاستبداد والارضيات منه ولكن بواسطة الكواكب فان الله خلق العناصر والتركيبات التى فيها بالاتصالات والحركات والطوالع فجعلوا لغير الله معه شركا فى الارض والاولون جعلوا الارض لغيره والسماء له فقال فى ابطال قولهم وما لهم فيهما من شرك أى الارض كالسماء لله لا لغيره ولا لغيره فيها نصيب (وثالثها) قول من قال التركيبات والحوادث كلها من الله تعالى لكن فوض ذلك الى الكواكب وفعل المأذون ينسب الى الآذن و يسلب عن المأذون فيه مثاله اذا قال ملك لمملوكه اضرب فلانا فضربه يقال فى العرف الملك ضربه ويصح عرفا قول القائل ما ضرب فلان فلانا وانما الملك أمر بضربه فضربه فهؤلاء جعلوا السماويات معينات لله فقال تعالى فى ابطال قولهم وما له منهم من ظهير ما فوض الى شئ شيئا بل هو على كل شئ حفيظ ورقيب (ورابعها) قول من قال انا نعبد الاصنام التى هى صور الملائكة ليشفعوا لنا فقال تعالى فى ابطال قولهم ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له فلا فائدة لعبادتكم غير الله فان الله لا يأذن فى الشفاعة لمن يعبد غيره فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة وقوله حتى اذا فزع عن قلوبهم أى أزيل الفزع عنهم يقال قرد البعير اذا أخذ منه القراد و يقال لهذا تشديد السلب * وفى قوله تعالى حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وجوه (أحدها) الفزع الذى عند الوحى فان الله عندما يوحى يفزع من فى السموات ثم يزيل الله عنهم الفزع فيقولون لجبريل عليه السلام ماذا قال الله فيقول قال الحق أى الوحى (وثانيها) الفزع الذى من الساعة وذلك لان الله تعالى لما أوحى الى محمد عليه السلام فزع من فى السموات من القيامة لان ارسال محمد عليه السلام من اشراط الساعة فلما زال عنهم ذلك الفزع قالوا ماذا قال الله قال جبريل الحق أى الوحى (وثالثها) هو ان الله تعالى يزيل الفزع وقت الموت عن القلوب فيعترف كل أحد بأن ما قال الله تعالى هو الحق فينفع ذلك القول من سبق ذلك منه ثم يقبض روحه على الايمان المتفق عليه بينه و بين الله تعالى و يضر ذلك القول من سبق منه خلافه فيقبض روحه على الكفر المتفق بينه و بين الله تعالى اذا علمت هذا فنقول على

أن يرجع اليه رواده الذين أرسلهم الى أصقاع البلاد يطلبون له موضعا يسعه ومن معه من قومه فابوا فاقتتلوا ثلاثة ايام فانهزمت جرهم ولم يفلت منهم الا الشريد وأقام ثعلبة بمكة وما حواليها فى قومه وعساكره حولا فاصابتهم الحمى فاضطروا الى الخروج وقد رجع اليه رواده فافترقوا فرقتين فرقة توجهت نحو عمان وهم الازد وكندة وحمير ومن يتلوهم وسار ثعلبة نحو الشام فنزل الاوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بالمدينة وهم الانصار ومضت غسان فنزلوا ﴿ ١٦ ﴾ بالشام وانخزعت خزاعة بمكة فاقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر وهو لحى فولى أمر مكة وحجابة البيت ثم جاءهم أولاد اسمعيل عليه السلام فسألوهم السكنى معهم وحولهم فاذنوا لهم فى ذلك وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن فروة بن مسيك الغطيفى سأل النبى عليه الصلاة والسلام عن سبا فقال عليه الصلاة والسلام هو رجل كان له عشرة أولاد ستة منهم سكنوا اليمن وهم مذحج وكندة والازد والاشعريون وحمير وأنمار منهم بجيلة وخثعم وأربعة منهم سكنوا الشام وهم لخم وجذام وعاملة وغسان لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم تفرقوا أيدى سبا شذر مذر فنزلت طوائف منهم بالحجاز فمنهم خزاعة نزلوا بظاهر مكة ونزلت الاوس والخزرج بيثرب فكانوا أول من سكنها ثم نزل عندهم ثلاث قبائل من اليهود بنو قينقاع وبنو قريظة والنضير فحالفوا الاوس والخزرج وأقاموا عندهم ونزلت طوائف أخر منهم بالشام وهم الذين تنصروا فيما بعد وهم غسان وعاملة ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم وسبأ تجمع هذه القبائل كلها والجمهور على أن جميع العرب قسمان قحطانية وعدنانية والقحطانية شعبان سبا وحضرموت والعدنانية شعبان ربيعة ومضر وأما قضاعة فمختلف فيها فبعضهم ينسبونها الى قحطان وبعضهم الى عدنان والله تعالى أعلم ﴿ان كنتم﴾ (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من قصتهم (لآيات) عظيمة (لكل صبار

القولين الاولين قوله تعالى حتى غاية متعلقة بقوله تعالى قل لانه بينه بالوحى لان قول القائل قل لفلان للانذار حتى يسمع المخاطب مايقوله ثم يقول بعد هذا الكلام ما يجب قوله فلما قال قل فزع من فى السموات ثم أزيل عنه الفزع وعلى الثالث متعلقة بقوله تعالى زعمتم أى زعمتم الكفر الى غاية التفزيع ثم تركتم ما زعمتم وقلتم قال الحق وعلى القولين الاولين فاعل قوله تعالى قالوا ماذا هو الملائكة السائلون من جبريل وعلى الثالث الكفار السائلون من الملائكة والفاعل فى قوله الحق على القولين الاولين هم الملائكة وعلى الثالث هم المشركون ❊ واعلم ان الحق هو الموجود ثم ان الله تعالى لما كان وجوده لايرد عليه عدم كان حقا مطلقا لايرتفع بالباطل الذى هو العدم والكلام الذى يكون صدقا يسمى حقا لان الكلام له متعلق فى الخارج بواسطة انه متعلق بما فى الذهن والذى فى الذهن متعلق بما فى الخارج فاذا قال القائل جاء زيد يكون هذا اللفظ تعلقه بما فى ذهن القائل وذهن القائل تعلقه بما فى الخارج لكن للصدق متعلق يكون فى الخارج فيصير له وجود مستمر وللكذب متعلق لايكون فى الخارج وحينئذ اما ان لايكون له متعلق فى الذهن فيكون كالمعدوم من الاول وهو الالفاظ التى تكون صادرة عن معاند كاذب واما أن يكون له متعلق فى الذهن على خلاف ما فى الخارج فيكون اعتقادا باطلا جهلا أو ظنا لكن لما لم يكن لمتعلقه متعلق يزول ذلك الكلام ويبطل وكلام الله لابطلان له فى أول الامر كما يكون كلام الكاذب المعاند ولا يأتيه الباطل كما يكون كلام الظان وقوله تعالى وهو العلى الكبير قد ذكرنا فى تفسير قوله تعالى ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه الباطل وان الله هو العلى الكبير ان الحق اشارة الى أنه كامل لانقص فيه فيقبل نسبة العدم وفوق الكاملين لان كل كامل فوقه كامل فقوله وهو العلى الكبير اشارة الى انه فوق الكاملين فى ذاته وصفاته وهذا يبطل القول بكونه جسما وفى حيز لان كل من كان فى حيز فان العقل يحكم بأنه مشار اليه وهو مقطع الاشارة لان الاشارة لو لم تقع اليه لما كان المشار اليه هو واذا وقعت الاشارة اليه فقد تناهت الاشارة عنده وفى كل موضع تقف الاشارة بقدر العقل على أن يفرض البعد أكثر من ذلك فيقول لو كان بين مأخذ الاشارة والمشار اليه أكثر من هذا البعد لكان هذا المشار اليه أعلى فيصير عليا بالاضافة لامطلقا وهو على مطلقا ولو كان جسما لكان له مقدار وكل مقدار يمكن أن يفرض أكبر منه فيكون كبيرا بالنسبة الى غيره لامطلقا وهو كبير مطلقا ❊ ثم قال تعالى (قل من يرزقكم من السموات والارض) قد ذكرنا مرارا ان العامة يعبدون الله لا لكونه الها وانما يطلبون به شيأ وذلك اما دفع ضرر او جر نفع فنبه الله تعالى العامة بقوله قل ادعوا الذين زعمتم على انه لايدفع الضرر أحد الا هو كما قال تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وقال بعد اتمام بيان ذلك قل من يرزقكم من السموات والارض اشارة الى أن جر النفع ليس الا به ومنه فاذا

وتخصيص هؤلاء بذلك لانهم المنتفعون بها (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه) أي حقق عليهم ظنه اووجده صادقا وقرئ
بالتخفيف أي صدق في ظنه أو صدق بظن ظنه و يجوز تعدية الفعل اليه بنفسه لانه نوع من القول وقرئ بنصب ابليس ورفع
الظن مع التشديد بمعنى وجده ظنه صادقا ومع التخفيف بمعنى قال له الصدق حين خيل له اغواءهم و برفعهما والتخفيف على الابدال
وذلك اما ظنه بسبا حين رأى انهما كهم في الشهوات ﴿ ١٧ ﴾ أو بني آدم حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى الى وسوسته
قال ان ذريته أضعف منه عزما
وقيل ظن ذلك عند اخبار الله
تعالى الملائكة أنه يجعل فيها
من يفسد فيها و يسفك الدماء
وقال لاضلنهم ولاغوينهم
(فاتبعوه) أي أهل سبأ أو الناس
(الا فريقا من المؤمنين) الا
فريقا هم المؤمنون لم يتبعوه
على أن من بيانية وتقليلهم
بالاضافة الى الكفار أو الا
فريقا من فرق المؤمنين
لم يتبعوه وهم المخلصون (وما
كان له عليهم من سلطان) أي
تسلط واستيلاء بالوسوسة
والاستغواء وقوله تعالى (الا لنعلم
من يؤمن بالآخرة ممن هو
منها في شك) استثناء مفرغ
من أعم العلل ومن موصولة أي
وما كان تسلطه عليهم الا
ليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة
متميزا ممن هو في شك منها
تعلقا حاليا يترتب عليه الجزاء
أو الا ليتميز المؤمن من الشاك
أو الا ليؤمن من قدر ايمانه
و يشك من قدر ضلاله والمراد
من حصول العلم حصول متعلقه
مبالغة (وربك على كل شئ
حفيظ) أي محافظ عليه فان
فعيلا ومفاعلا صيغتان
متآخيتان (قل) أي للمشركين
اظهارا لبطلان ما هم عليه وتبكيتا لهم ﴿ ٣ ﴾ سبا (ادعوا الذين زعمتم) أي زعمتموهم آلهة وهما مفعولا زعم ثم حذف
الاول تخفيفا لطول الموصول بصلته والثاني لقيام صفته أعني قوله تعالى (من دون الله) مقامه ولا سبيل الى جعله مفعولا ثانيا
لانه لا يلتئم مع الضمير كلاما وكذا لا يملكون لانهم لا يزعمونه والمعنى ادعوهم فيما يهمكم من جلب نفع أو دفع ضر لعلهم يستجيبون

ان كنتم من الخواص فاعبدوه لعلوه وكبريائه سواء دفع عنكم ضرا أو لم يدفع وسواء
نفعكم بخير أو لم ينفع فان لم تكونوا كذلك فاعبدوه لدفع الضر وجر النفع * ثم قال تعالى
(قل الله) يعني ان لم يقولوا هم فقل أنت الله يرزق (وههنا لطيفة) وهي ان الله تعالى عند
الضر ذكر انهم يقولون الله و يعترفون بالحق حيث قال قالوا الحق وعند النفع لم يقل انهم
يقولون ذلك وذلك لان لهم حالة يعترفون بأن كاشف الضر هو الله حيث يقعون في الضر كما
قال تعالى واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه وأما عند الراحة فلا تنبه لهم لذلك
فلذلك قال قل الله أي هم حالة الراحة غافلون عن الله * ثم قال تعالى (وانا أو اياكم لعلى هدى
أو في ضلال مبين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا ارشاد من الله لرسوله الى المناظرات
الجارية في العلوم وغيرها وذلك لان أحد المناظرين اذا قال للآخر هذا الذي تقوله خطأ
وأنت فيه مخطئ يغضبه وعند الغضب لا يبقى سداد الفكر وعند اختلاله لا مطمع في
الفهم فيفوت الغرض وأما اذا قال له بأن أحدنا لا يشك في انه مخطئ والتمادي في الباطل
قبيح والرجوع الى الحق أحسن الاخلاق فنجتهد ونبصر أينا على الخطأ ليحترز فانه يجتهد
ذلك الخصم في النظر و يترك التعصب وذلك لا يوجب نقصانا في المنزلة لانه أوهم بانه في قوله
شاك و يدل عليه قول الله تعالى لنبيه وانا أو اياكم مع انه لا يشك في انه هو الهادي وهو
المهتدي وهم الضالون والمضلون (المسئلة الثانية) في قوله لعلى هدى أو في ضلال مبين
ذكر في الهدى كلمة على وفي الضلال كلمة في لان المهتدي كأنه مرتفع متطلع فذكره بكلمة
التعلي والضال منغمس في الظلمة غريق فيها فذكره بكلمة في (المسئلة الثالثة) وصف
الضلال بالمبين ولم يصف الهدى لان الهدى هو الصراط المستقيم الموصل الى الحق
والضلال خلافه لكن المستقيم واحد وما هو غيره كله ضلال و بعضه أبين من بعض فميز
البعض عن البعض بالوصف (المسئلة الرابعة) قدم الهدى على الضلال لانه كان وصف
المؤمنين المذكورين بقوله اما وهو مقدم في الذكر * ثم قال تعالى (قل لا تسألون عما أجرمنا
ولا نسأل عما تعملون) اضاف الاجرام الى النفس وقال في حقهم ولا نسأل عما تعملون
ذكر بلفظ العمل لئلا يحصل الاغضاب المانع من الفهم وقوله لا تسألون ولا نسأل زيادة
حث على النظر وذلك لان كل أحد اذا كان مؤاخذا بجرمه فاذا احترز نجا ولو كان البرئ
يؤاخذ بالمجرم لما كفى النظر * ثم قال تعالى (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح
العليم) أكد ما يوجب النظر والتفكر فان مجرد الخطأ والضلال واجب الاجتناب
فكيف اذا كان يوم عرض وحساب وثواب وعذاب وقوله يفتح قيل معناه يحكم و يمكن
أن يقال بأن الفتح ههنا مجاز وذلك لان الباب المغلق والمنفذ المسدود يقال فيه فتحه على
طريق الحقيقة ثم ان الامر اذا كان فيه انغلاق وعدم وصول اليه فاذا بينه أحد يكون قد
فتحه وقوله وهو الفتاح العليم اشارة الى أن حكمه يكون مع العلم لا مثل حكم من يحكم بما
يتفق له بمجرد هواه * ثم قال تعالى (قل أروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز

مثقال ذرة) من خير وشر ونفع وضر (فى السموات ولا فى الارض) أى فى أمر ما من الامور وذكرهما للتعميم عرفا ولان آلهتهم بعضها سماوية كالملائكة والكواكب وبعضها أرضية كالاصنام أو لان الاسباب القريبة للخير والشر سماوية وأرضية والجملة استئناف لبيان حالهم (وما لهم) أى لآلهتهم (فيهما من شرك) أى شركة لا خلقا ولا ملكا ولا تصرفا (وما له) أى لله تعالى (منهم) من آلهتهم (من ظهير) يعينه فى تدبير أمرهما ﴿ ١٨ ﴾ (ولا تنفع الشفاعة عنده) أى لا توجد رأسا كما فى قوله *ولا ترى الضب بها ينجحر* لقوله تعالى من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه وانما علق النفى بنفعها لا بوقوعها تصريحا بنفى ما هو غرضهم من وقوعها وقوله تعالى (الا لمن أذن له) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى لا تقع الشفاعة فى حال من الاحوال الا كائنة لمن أذن له فى الشفاعة من النبيين والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة فتبين حرمان الكفرة منها بالكلية أما من جهة أصنامهم فلظهور انتفاء الاذن لها ضرورة استحالة الاذن فى الشفاعة لجماد لا يعقل ولا ينطق وأما من جهة من يعبدونه من الملائكة فلان اذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقين لها لقوله تعالى لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا ومن البين أن الشفاعة للكفرة بمعزل من الصواب أو لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المستأهلين لها فى حال من الاحوال الا كائنة لمن أذن له أى لاجله وفى شأنه من المستحقين لها فلا تنفعهم أصلا وان فرض وقوعها وصدورها عن الشفعاء اذ لم يؤذن لهم فى شفاعتهم بل فى شفاعة غيرهم فعلى هذا يثبت حرمانهم من شفاعة هؤلاء بعبارة النص ومن شفاعة الاصنام بدلالته اذ حيث حرموها عن جهة القادرين على شفاعة بعض المحتاجين اليها فلأن يحرموها من جهة العجزة عنها أولى وقرئ أذن له مبنيا للمفعول (حتى اذا فزع عن قلوبهم) أى قلوب الشفعاء والمشفوع لهم من المؤمنين وأما الكفرة فهم من موقف ﴿ العموم ﴾

الحكيم) قد ذكرنا ان المعبود قد يعبده قوم لدفع الضرر وجمع لتوقع المنفعة وقليل من الاشراف الاعزة يعبدونه لانه يستحق العبادة لذاته فلما بين انه لا يعبد غير الله لدفع الضرر اذ لا دافع للضرر غيره بقوله قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله و بين انه لا يعبد غير الله لتوقع المنفعة بقوله قل من يرزقكم من السموات والارض بين ههنا انه لا يعبد أحد لاستحقاقه العبادة غير الله فقال قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم أى هو المعبود لذاته واتصافه بالعزة وهى القدرة الكاملة والحكمة وهى العلم التام الذى عمله موافق له ❊ ثم قال تعالى (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن اكثر الناس لا يعلمون) لما بين مسئلة التوحيد شرع فى الرسالة فقال تعالى وما أرسلناك الا كافة وفيه وجهان (أحدهما) كافة أى ارسالة كافة أى عامة لجميع الناس تمنعهم من الخروج عن الانقياد لها (والثانى) كافة أى أرسلناك كافة تكف الناس أنت من الكفر والهاء للمبالغة على هذا الوجه بشيرا أى تحثهم بالوعد ونذيرا تزجرهم بالوعيد ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك لا لخفائه ولكن لغفلتهم ❊ ثم قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) لما ذكر الرسالة بين الحشر وقال (قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) قد ذكرنا فى سورة الاعراف أن قوله لا تستأخرون يوجب الانذار لان معناه عدم المهلة عن الاجل ولكن الاستقدام ما وجهه وذكرنا هنالك وجهه ونذكر ههنا انهم لما طلبوا الاستعجال بين أنه لا استعجال فيه كما لا امهال وهذا يفيد عظم الامر وخطر الخطب وذلك لان الامر الحقير اذا طلبه طالب من غيره لا يؤخره ولا يوقفه على وقت بخلاف الامر الخطير وفى قوله تعالى لكم ميعاد يوم قراآت (أحدها) رفعهما مع التنوين وعلى هذا يوم بدل (وثانيها) نصب يوم مع رفع ميعاد والتنوين فيهما ميعاد يوما قال الزمخشرى ووجهه انه منصوب بفعل محذوف كأنه قال ميعادا أعنى يوما وذلك يفيد التعظيم والتهويل ويحتمل أن يقال نصب على الظرف تقديره لكم ميعاد يوما كما يقول القائل انا جائيك يوما وعلى هذا يكون العامل فيه العلم كأنه يقول لكم ميعاد تعلمونه يوما وقوله معلوم يدل عليه كقول القائل انه مقتول يوما (الثالثة) الاضافة لكم ميعاد يوم كما فى قول القائل سحق ثوب للتبيين واسناد الفعل اليهم بقوله لا تستأخرون عنه بدلا عن قوله لا يؤخر عنكم زيادة تأكيد لوقوع اليوم ❊ ثم قال تعالى (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) لما بين الامور الثلاثة من التوحيد والرسالة والحشر وكانوا بالكل كافرين بين كفرهم العام بقوله وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن وذلك لان القرآن مشتمل على الكل وقوله ولا بالذى بين يديه المشهور انه التوراة والانجيل وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم المشركون المنكرون للنبوات والحشر ويحتمل أن يقال ان المعنى هو أنا لا نؤمن بالقرآن أنه من الله ولا بالذى بين يديه أى والايمان فيه من الاخبار والمسائل والآيات والدلائل وعلى هذا فالذين كفروا المراد منهم

التفريغ عن قلوبهم بالالف منزل والتفريع بازالة الفزع ثم ترك ذكر الفزع وأسند الفعل الى الجار والمجرور وحتى غاية لما ينبئ عنه
ماقبلها من الاشعار بوقوع الاذن لمن أذن له فانه مسبوق بالاستئذان المستدعى للترقب والانتظار للجواب كانه سئل كيف يؤذن
لهم فقيل يتربصون فى موقف الاستئذان والاستدعاء ويتوقفون على وجل وفزع مليا حتى اذا أزيل الفزع عن قلوبهم بعد
اللتيا والتى وظهرت لهم تباشير الاجابة ﴿ ١٩ ﴾ (قالوا) أى المشفوع لهم اذهم المحتاجون الى الاذن والمهتمون بأمره
(ماذا قال ربكم) أى فى شأن الاذن (قالوا) أى الشفعاء لانهم المباشرون للاستئذان بالذات المتوسطون بينهم وبينه عز وجل بالشفاعة (الحق) أى قال ربنا القول الحق وهو الاذن فى الشفاعة للمستحقين لها وقرئ الحق مرفوعا أى ما قاله الحق (وهو العلى الكبير) من تمام كلام الشفعاء قالوه اعترافا بغاية عظمة جناب العزة عز وجل وقصور شأن كل من سواه أى هو المتفرد بالعلو والكبرياء ليس لاحد من أشراف الخلائق أن يتكلم الا باذنه وقرئ فزع مخففا بمعنى فزع وقرئ فزع على البناء للفاعل وهو الله وحده وقرئ فرغ بالراء المهملة والغين المعجمة أى نفى الوجل عنها وأفنى من فرغ الزاد اذا لم يبق منه شئ وهو من الاسناد المجازى لان الفراغ وهو الخلو حال ظرفه عند نفاده فأسند اليه على عكس قولهم جرى النهر وعن الحسن تخفيف الراء وأصله فرغ الوجل عنها أى انتفى عنها وفنى ثم حذف الفاعل واسند الى الجار والمجرور وبه
يعرف حال التفريغ وقرئ ارتفع عن قلوبهم بمعنى انكشف عنها (قل من يرزقكم من السموات والارض) أمر عليه الصلاة
والسلام بتبكيت المشركين بحملهم على الاقرار بأن آلهتهم لا يملكون مثقال ذرة فيهما وأن الرازق هو الله تعالى فانهم لا ينكرونه
كما ينطق به قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت

العموم لان أهل الكتاب لم يؤمنوا بالقرآن أنه من الله ولا بالذى فيه من الرسالة وتفاصيل الحشر فان قيل أليس هم مؤمنون بالوحدانية والحشر فنقول اذا لم يصدق واحد ما فى الكتاب من الامور المختصة به يقال فيه انه لم يؤمن بشئ منه وان آمن ببعض ما فيه لكونه فى غيره فيكون ايمانه لا بما فيه مثاله أن من يكذب رجلا فيما يقوله فاذا أخبره بأن النار حارة لا يكذبه فيه ولكن لا يقال انه صدقه لانه انما صدقت نفسه فانه كان عالما به من قبل هذا فقوله بين يديه أى الذى هو مشتمل عليه من حيث انه وارد فيه ❊ وقوله تعالى (ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) لما وقع اليأس من ايمانهم فى هذه الدار بقولهم لن نؤمن فانه لتأييد النفى وعد نبيه عليه الصلاة والسلام بانه يراهم على أذل حال موقوفين للسؤال يرجع بعضهم الى بعض القول كما يكون عليه حال جماعة اخطؤا فى أمر يقول بعضهم لبعض كان ذلك بسببك ويرد عليه الآخر مثل ذلك وجواب لو محذوف تقديره ولو ترى اذ الظالمون موقوفون لرأيت عجبا ثم بدأ بالاتباع لان المضل أولى بالتوبيخ فقال يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين اشارة الى ان كفرهم كان لمانع لا لعدم المقتضى لانهم لا يمكنهم ان يقولوا ما جاءنا رسول ولا ان يقولوا قصر الرسول وهذا اشارة الى اتيان الرسول بما عليه لان الرسول لو اهمل شيئا لما كانوا يؤمنون ولولا المستكبرون لآمنوا ❊ ثم قال تعالى (قال الذين استكبروا للذين استضعفوا) ردا لما قالوا ان كفرنا كان لمانع (أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين) يعنى المانع ينبغى ان يكون راجحا على المقتضى حتى يعمل عمله والذى جاء به هو الهدى والذى صدر من المستكبرين لم يكن شيئا يوجب الامتناع من قبول ما جاء به فلم يصح تعليلكم بالمانع ثم بين ان كفرهم كان اجراما من حيث ان المعذور لا يكون معذورا الا لعدم المقتضى أو لقيام المانع ولم يوجد شئ منهما ❊ ثم قال تعالى (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له أندادا) لما ذكر المستكبرون أنا ما صددناكم وما صدر منا ما يصلح مانعا وصارفا اعترف المستضعفون به وقالوا بل مكر الليل والنهار منعنا ثم قالوا لهم انكم وان كنتم ما أتيتم بالصارف القطعى والمانع القوى ولكن انضم أمركم ايانا بالكفر الى طول الامد وامتداد المدد فكفرنا فكان قولكم جزء السبب ويحتمل وجها آخر وهو ان يكون المراد بل مكركم بالليل والنهار فحذف المضاف اليه وقوله اذ تأمروننا أن نكفر بالله أى ننكره ونجعل له أنداد هذا يبين ان المشرك بالله مع انه فى الصورة مثبت لكنه فى الحقيقة منكر لوجود الله لان من يساويه المخلوق المنحوت لا يكون الها وقوله فى الاول يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا بلفظ المستقبل وقوله فى الآيتين المتأخرتين قال الذين استكبروا وقال الذين استضعفوا بصيغة الماضى مع ان السؤال والتراجع فى القول لم يقع اشارة الى ان ذلك

(قل الله) اذ لاجواب سواه عندهم ايضا (وانا أو اياكم لعلى هدى اوفى ضلال مبين) اى وان أحد الفريقين من الذين يوحدون والمتوحد بالرزق والقدرة الذاتية ويخصونه بالعبادة والذين يشركون به فى العبادة الجماد النازل فى أدنى المراتب الامكانية لعلى أحد الامرين من الهدى والضلال المبين وهذا بعدماسبق من التقرير البليغ الناطق بتعيين من هو على الهدى ومن هو فى الضلال أبلغ من التصريح بذلك لجريانه على سنن الانصاف المسكت للخصم الالد وقرئ وانا أو اياكم اما على هدى أوفى ضلال مبين واختلاف الجارين للايذان بان الهادى كمن استعلى منارا ينظر الاشياء ويتطلع عليها والضال كأنه منغمس فى ظلام لايرى شيئا أو محبوس فى مطمورة لايستطيع الخروج منها (قل لاتسألون عما أجرمنا ولانسأل عما تعملون) وهذا أبلغ فى الانصاف وأبعد من الجدل والاعتساف حيث أسند فيه الاجرام وان أريد به الزلة وترك الاولى الى أنفسهم ومطلق العمل الى المخاطبين مع أن أعمالهم أكبر الكبائر (قل يجمع بيننا ربنا) يوم القيامة عند الحشر والحساب (ثم يفتح بيننا بالحق) أى يحكم بيننا ويفصل بعد ظهور حال كل منا ومنكم بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار (وهو الفتاح) الحاكم الفيصل فى القضايا المنغلقة (العليم) بماينبغى أن يقضى به (قل أرونى الذين ألحقتم) أى ألحقتموهم (به شركاء) أريد بأمرهم باراءة الاصنام مع كونها بمرأى منه عليه الصلاة والسلام اظهار خطئهم العظيم واطلاعهم على بطلان رأيهم أى أرونيها لانظر بأى صفة ألحقتموها بالله الذى ليس كمثله شئ فى استحقاق العبادة *ايضا* وفيه مزيد تبكيت لهم بعد الزام الحجة عليهم (كلا) ردع لهم عن المشاركة بعد ابطال المقايسة (بل هو الله العزيز الحكيم) أى الموصوف بالغلبة القاهرة والحكمة الباهرة فاين شركاؤكم التى أخس الاشياء واذلها من هذه الرتبة العالية والضمير امالله عزوعلا

لابد وان يقع فان الامر الواجب الوقوع يوجد كأنه وقع الاترى الى قوله تعالى انك ميت وانهم ميتون * ثم قال تعالى (واسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الاغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ماكانوا يعملون) معناه انهم يتراجعون القول فى الاول ثم اذا جاءهم العذاب الشاغل يسرون ذلك التراجع الدال على الندامة وقيل معنى الاسرار الاظهار اى اظهروا الندامة ويحتمل ان يقال بأنهم لما تراجعوا فى القول رجعوا الى الله بقولهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا ثم أجيبوا وأخبروا بأن لامرد لكم فأسروا ذلك القول وقوله وجعلنا الاغلال فى اعناق الذين كفروا اشارة الى كيفية العذاب والى ان مجرد الرؤية ليس كافيا بل لما رأوا العذاب قطعوا بأنهم واقعون فيه فتركوا الندم ووقعوا فيه فجعل الاغلال فى أعناقهم وقوله هل يجزون الا ماكانوا يعملون اشارة الى ان ذلك حقهم عدلا * ثم قال تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) تسلية لقلب النبى صلى الله عليه وسلم وبيانا لان ايذاء الكفار الانبياء الاخيار ليس بدعا بل ذلك عادة جرت من قبل وانما نسب القول الى المترفين مع ان غيرهم أيضا قالوا انا بما أرسلتم به كافرون لان الاغنياء المترفين هم الاصل فى ذلك القول ألاترى ان الله قال عن الذين استضعفوا انهم قالوا للمستكبرين لولا أنتم لكنا مؤمنين ثم استدلوا على كونهم مصيبين فى ذلك بكثرة الاموال والاولاد فقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا أى بسبب لزومنا لديننا وقوله وما نحن بمعذبين أى فى الآخرة كأنهم قالوا حالنا عاجلا خير من حالكم وأما آجلا فلانعذب اما انكارا منهم العذاب رأسا أو اعتقاد الحسن حالهم فى الآخرة أيضا قياسا * ثم ان الله تعالى بين خطأهم بقوله (قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يعنى ان الرزق فى الدنيا لاتدل سعته وضيقه على حال المحق والمبطل فكم من موسر شقى ومعسر تقى (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ان قلة الرزق وضنك العيش وكثرة المال وخصب العيش بالمشيئة من غير اختصاص بالفاسق والصالح * ثم بين فساد استدلالهم بقوله (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون) يعنى قولكم نحن أكثر أموالا فنحن أحسن عند الله حالا ليس استدلالا صحيحا فان المال لايقرب الى الله ولا اعتبار بالتعزز به وانما المفيد العمل الصالح بعد الايمان والذى يدل عليه هو أن المال والولد يشغل عن الله فيبعد عنه فكيف يقرب منه والعمل الصالح اقبال على الله واشتغال بالله ومن توجه الى الله وصل ومن طلب من الله شيئا حصل وقوله فاولئك لهم جزاء الضعف أى الحسنة فان الضعف لايكون الا فى الحسنة وفى السيئة لايكون الا المثل ثم زاد وقال وهم فى الغرفات آمنون اشارة الى دوام النعيم وتأبيده فان من تنقطع عنه النعمة لايكون آمنا * ثم بين حال المسئ بقوله (والذين يسعون فى آياتنا معاجزين) وقد ذكرنا تفسيره وقوله (أولئك فى العذاب محضرون) اشارة الى الدوام

احد منهم أو الاجامعا لهم فى الابلاغ فهى حال من الكاف والتاء للمبالغة ولا سبيل الى جعلها حالا من الناس لاستحالة تقدم الحال
على صاحبها المجرور (بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك فيحملهم جهلهم على ماهم عليه من الغى والضلال
(و يقولون) من فرط جهلهم وغاية غيهم (متى هذا الوعد) بطريق الاستهزاء يعنون به المبشر به والمنذر عنه او الموعود بقوله
تعالى يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا (ان كنتم صادقين) ﴿ ٢١ ﴾ مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به (قل
لكم ميعاد يوم) أى وعد يوم
او زمان وعد والاضافة
للتبيين وقرئ ميعاد يوم منونين
على البدل و يوما باضمار
أعنى للتعظيم (لاتستأخرون
عنه) عند مفاجأته
(ساعة ولاتستقدمون)
صفة لميعاد وفى هذا الجواب
من المبالغة فى التهديد مالايخفى
حيث جعل الاستئخار فى
الاستحالة كالاستقدام الممتنع
عقلا وقد مر بيانه مرارا
و يجوز أن يكون نفى الاستئخار
والاستقدام غير مقيد بالمفاجأة
فيكون وصف الميعاد بذلك
لتحقيقه وتقريره (وقال الذين
كفروا لن نؤمن بهذا القرآن
ولا بالذى بين يديه) أى
من الكتب القديمة الدالة
على البعث وقيل ان كفار مكة
سألوا أهل الكتاب عن
رسول الله صلى الله عليه
وسلم فاخبروهم انهم يجدون
نعته فى كتبهم فغضبوا فقالوا
ذلك وقيل الذى بين يديه
القيامة (ولو ترى اذ الظالمون)
المنكرون للبعث (موقوفون
عند ربهم) أى فى موقف
المحاسبة (يرجع بعضهم الى
بعض القول) أى يتحاورون
ويتراجعون القول (يقول الذين استضعفوا) بدل من يرجع الخ أى يقول الاتباع (للذين استكبروا) فى الدنيا واستتبعوهم فى الغى
والضلال (لولا أنتم) أى لولا اضلالكم وصدكم لنا عن الايمان (لكنا مؤمنين) باتباع الرسول عليه الصلاة والسلام (قال الذين
استكبروا للذين استضعفوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال الذين استكبروا فى الجواب فقيل قالوا (أنحن صددناكم

أيضا كما قال تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وكما قال تعالى وماهم عنها بغائبين ✻ ثم قال تعالى مرة أخرى (قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين) اشارة الى أن نعيم الآخرة لاينافى نعمة الدنيا بل الصالحون قد يحصل لهم فى الدنيا النعم مع القطع بحصول النعيم لهم فى العقبى بناء على الوعد قطع القول من يقول اذا كانت العاجلة لنا والآجلة لهم فالنقد أولى فقال هذا النقد غير مختص بكم فان كثيرا من الاشقياء مدقعون وكثير من الاتقياء ممتعون وفيه مسائل (الاولى) ذكر هذا المعنى مرتين مرة لبيان أن كثرة أموالهم وأولادهم غير دالة على حسن أحوالهم واعتقادهم ومرة لبيان انه غير مختص بهم كأنه قال وجود الترف لايدل على الشرف ثم ان سلمنا انه كذلك لكن المؤمنين سيحصل لهم ذلك فان الله يملكهم دياركم وأموالكم والذى يدل عليه هو ان الله تعالى لم يذكر أولا لمن يشاء من عباده بل قال لمن يشاء وثانيا قال لمن يشاء من عباده والعباد المضافة يراد بها المؤمن ثم وعد المؤمن بخلاف مال الكافر فان الكافر دابره مقطوع وماله الى الزوال ومآله الى الوبال وأما المؤمن فما ينفقه يخلفه الله ومخلف الله خير فان ما فى يد الانسان فى معرض البوار والتلف وهما لايتطرقان الى ما عند الله من الخلف ثم أكد ذلك بقوله والله خير الرازقين وخيرية الرازق فى أمور (احدها) أن لايؤخر عن وقت الحاجة (والثانى) أن لاينقص عن قدر الحاجة (والثالث) أن لاينكده بالحساب (والرابع) أن لايكدره بطلب الثواب والله تعالى كذلك اما الاول فلانه عالم وقادر والثانى فلانه غنى واسع والثالث فلانه كريم وقد ذكر ذلك بقوله يرزق من يشاء بغير حساب وماذكرنا هو المراد أى يرزقه حلالا لايحاسبه عليه والرابع فلانه على كبير والثواب يطلبه الادنى من الاعلى الاترى أن هبة الاعلى من الادنى لاتقتضى ثوابا (المسئلة الثانية) قوله تعالى وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه يحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام مامن يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم اعط منفقا خلفا و يقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا وذلك لان الله تعالى ملك على وهو غنى ملى فاذا قال أنفق وعلى بدله فبحكم الوعد يلزمه كما اذا قال قائل ألق متاعك فى البحر وعلى ضمانه فمن أنفق فقد أتى بما هو شرط حصول البدل فيحصل البدل ومن لم ينفق فالزوال لازم للمال ولم يأت بما يستحق عليه من البدل فيفوت من غير خلف وهو التلف ثم ان من العجب ان التاجر اذا علم ان مالا من أمواله فى معرض الهلاك يبيعه نسيئة وان كان من الفقراء ويقول بأن ذلك أولى من الاهمال الى الهلاك فان لم يبع حتى يهلك ينسب الى الخطأ ثم ان حصل به كفيل ملى ولايبيع ينسب الى قلة العقل فان حصل به رهن وكتب به وثيقة ولايبيعه ينسب الى الجنون ثم ان كل أحد يفعل هذا ولايعلم ان ذلك قريب من الجنون فان أموالنا كلها فى معرض الزوال المحقق والانفاق على الاهل والولد اقراض وقد حصل الضامن الملى وهو الله العلى وقال تعالى وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه ثم رهن

بأنفسهم بسبب كونهم راسخين فى الاجرام (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) اضراباعن اضرابهم وابطالاله (بل مكر الليل والنهار) أى بل صدنامكر كم بنابالليل والنهار فحذف المضاف اليه وأقيم مقامه الظرف اتساعاأوجعل ليلهم ونهارهم ماكرين على الاسنادالمجازى وقرئ بل مكر الليل والنهار بالتنوين ونصب الظرفين اى بل صدنامكر كم فى الليل والنهار على أن التنوين عوض عن المضاف اليه أومكرعظيم على أنه للتفخيم وقرئ بل ﴿٢٢﴾ مكر الليل والنهار بالرفع والنصب اى تكرون الاغواء مكرادائبا لاتفترون عنه فالرفع على الفاعلية أى بل صدنامكر كم الاغواء فى الليل والنهار على ماسبق من الاتساع فى الظرف باقامته مقام المضاف اليه والنصب على المصدرية أى بل تكرون الاغواء مكر الليل والنهارأى مكرادائماوقوله تعالى (اذ تأمروننا) ظرف للمكر أى بل مكركم الدائم وقت أمركم لنا (أن نكفر بالله ونجعل له اندادا) على أن المراد بمكرهم امانفس امرهم بماذكر كما فى قوله تعالى ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا فان الجعلين المذكورين نعمة من الله تعالى واى نعمة واما امور أخر مقارنة لامرهم داعية الى الامتثال به من الترغيب والترهيب وغيرذلك (واسروا الندامة لمارأوا العذاب) أى أضمر الفريقان الندامة على مافعلا من الضلال والاضلال وأخفاها كل منهماعن الآخر مخافة التعيير أوأظهر وهافانه من الاضداد وهوالمناسب لحالهم (وجعلنا الاغلال فى أعناق الذين كفروا) أى فى أعناقهم والاظهار فى موضع الاضمار للتنويه والتنبيه على موجب اغلالهم (هل يجزون الا ماكانوا يعملون) أى لايجزون الاجزاءماكانوا يعملون اوالابماكانوا يعملونه على نزع الجار (وماأرسلنا فى قرية) من القرى (من نذير الاقال مترفوها ﴿ وقالوا ﴾ اناعاأرسلتم به كافرون) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مماني به من قومه من التكذيب والكفر بماجاء به والمنافسة بكثرة

عند كل واحد اما أرضا أوبستانا أوطاحونة أوحماما أومنفعة فان الانسان لابدمن أن يكون له صنعة أوجهة يحصل له منهامال وكل ذلك ملك الله وفى يد الانسان بحكم العارية فكأنه مرهون بماتكفل الله من رزقه ليحصل له الوثوق التام ومع هذا لاينفق ويترك ماله ليتلف لامأجوراولامشكور (المسألة الثالثة) قوله خير الرازقين ينبئ عن كثرة فى الرازقين ولارازق الا الله فالجواب عنه فنقول عنه جوابان (أحدهما) ان يقال الله خير الرازقين الذين تظنونهم رازقين وكذلك فى قوله تعالى وهوأحسن الخالقين (وثانيهما) هوان الصفات منهاماحصل لله وللعبد حقيقة ومنهامايقال لله بطريق الحقيقة وللعبدبطريق المجاز ومنهامايقال لله بطريق الحقيقة ولايقال للعبد لابطريق الحقيقة ولابطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لاحقيقة ولاصورة مثال الاول العلم فان الله يعلم انه واحد والعبد يعلم انه واحدبطريق الحقيقة وكذلك العلم بكون النارحارة غاية مافى الباب ان علمه قديم وعلمنا حادث مثال الثانى الرازق والخالق فان العبداذا أعطى غيره شيأفان الله هو المعطى ولكن لاجل صورة العطاءمنه سمى معطيا كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط فرس وانسان مثال الثالث الازلى والله وغيرهما وقد يقال فى الاشياء فى الاطلاق على العبد حقيقة وعلى الله مجازا كالاستواء والنزول والمعية ويدالله وجنب الله ✲ ثم قال تعالى (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم به مؤمنون) لمابين ان حال النبى صلى الله عليه وسلم كحال من تقدمه من الانبياء وحال قومه كحال من تقدم من الكفار وبين بطلان استدلالهم بكثرة اموالهم وأولادهم بين مايكون عاقبة حالهم فقال ويوم نحشرهم جميعا يعنى المكذبين بك ومن تقدمك ثم نقول لمن يدعون انهم يعبدونهم وهم الملائكة فان غاية مانرتقى اليه منزلتهم انهم يقولون نحن نعبد الملائكة والكواكب فيسأل الملائكة انهم كانوا يعبدونكم اهانة لهم فيقول كل منهم سبحانك نتزهك عن أن يكون غيرك معبوداوأنت معبودنا ومعبود كل خلق وقولهم أنت ولينامن دونهم اشارة الى معنى لطيف وهوان مذاهب الناس مختلفة بعضهم لايسكن المواضع المعمورة التى يكون فيهاسواد عظيم لانه لايترأس هناك فيرضى بالضياع والبلاد الصغيرة وبعضهم لايريد البلاد الصغيرة لعدم اجتماعه فيهابالناس وقلة وصوله فيهاالى الاكياس ثم ان الفريقين جميعا اذاعرض عليهم خدمة السلطان واستخدام الارذال الذين لاالتفات اليهم أصلا يختار العاقل خدمة السلطان على استخدام من لايؤبه به ولو أن رجلا سكن جبلا ووضع بين يديه شيأمن القاذورات واجتمع عليه الذباب والديدان وهو يقول هؤلاء أتباعى وأشياعى ولاأدخل المدينة مخلفة ان احتاج الى خدمة السلطان العظيم والترداد اليه ينسب الى جنون فكذلك من رضى بأن يترك خدمة الله وعبادته ورضى باستتباع الهمج الذين هم أضل من البهائم وأقل من الهوام يكون مجنونا فقالوا أنت ولينا من دونهم يعنى كونك ولينا بالمعبودية أولى وأحب الينا من كونهم أولياء بالعبادة لنا

على المؤمنين والاستهانة بهم من أجله وقولهم أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا بانه لم يرسل قط الى اهل قرية من نذير الا
مترفوهم مثل ماقال مترفوا أهل مكة فى حقه عليه الصلاة والسلام وكادوا به نحوما كادوا به عليه الصلاة والسلام وقاسوا أمور
الآخرة الموهومة والمفروضة عندهم على أمور الدنيا وزعموا أنهم لولم يكرموا على الله تعالى لما رزقهم طيبات الدنيا ولولا أن المؤمنين
هانوا عليه تعالى لما حرمهموها وعلى ذلك ﴿ ٢٣ ﴾ الرأى الركيك بنوا احكامهم (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن
بمعذبين) اما بناء على انتفاء العذاب الاخروى رأسا أو على اعتقاد أنه تعالى اكرمهم فى الدنيا فلا يهينهم فى الآخرة على تقدير وقوعها (قل) ردا عليهم وحسما لمادة طمعهم الفارغ وتحقيقا للحق الذى عليه يدور أمر التكوين (ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسطه له (ويقدر) على من يشاء أن يقدره عليه من غير أن يكون لاحد من الفريقين داع الى مافعل به من البسط والقدر فربما يوسع على العاصى ويضيق على المطيع وربما يعكس الامر وربما يوسع عليهما معا وقد يضيق عليهما وقد يوسع على شخص تارة ويضيق عليه أخرى يفعل كلا من ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب اللذين مناطهما الطاعة وعدمها وقرئ ويقدر بالتشديد (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك فيزعمون أن مدار البسط هو الشرف والكرامة ومدار القدر هو الهوان ولا يدرون أن الاول كثيرا ما يكون بطريق
الاستدراج والثانى بطريق الابتلاء ورفع الدرجات (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) كلام مستأنف من جهته
عز وعلا خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة فى تحقيق الحق وتقرير ماسبق أى وما جماعة أموالكم وأولادكم
بالجماعة التى تقربكم عندنا قربة فان الجمع المكسر عقلاؤه وغير عقلائه سواء فى حكم التأنيث أو بالخصلة التى تقربكم وقرئ

وقالوا بل كانوا يعبدون الجن أى كانوا ينقادون لامر الجن فهم فى الحقيقة كانوا يعبدون الجن ونحن كنا كالقبلة لهم لان العبادة هى الطاعة وقوله تعالى أكثرهم بهم مؤمنون لوقال قائل جميعهم كانوا تابعين للشياطين فما وجه قوله أكثرهم بهم مؤمنون فانه ينبئ أن بعضهم لم يؤمن بهم ولم يطع لهم نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الملائكة احترزوا عن دعوى الاحاطة بهم فقالوا أكثرهم لان الذين رأوهم واطلعوا على أحوالهم كانوا يعبدون الجن ويؤمنون بهم ولعل فى الوجود من لم يطلع الله الملائكة عليه من الكفار (الثانى) هو أن العبادة عمل ظاهر والايمان عمل باطل فقالوا بل كانوا يعبدون الجن لاطلاعهم على أعمالهم وقالوا أكثرهم بهم مؤمنون عند عمل القلب لئلا يكونوا مدعين اطلاعهم على مافى القلوب فان القلب لااطلاع عليه الالله كما قال تعالى انه عليم بذات الصدور ❊ ثم بين ان ما كانوا يعبدونه لاينفعهم فقال (فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الخطاب بقوله بعضكم مع من نقول يحتمل أن يكون مع الملائكة لسبق قوله تعالى أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وعلى هذا يكون ذلك تنكيلا للكافرين حيث بين لهم أن معبودهم لاينفع ولايضر ويصحح هذا قوله تعالى لايملكون الشفاعة الامن اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله ولايشفعون الالمن ارتضى ولانه قال بعده ونقول للذين ظلموا ذوقوا فأفردهم ولوكان المخاطب هم الكفار لقال فذوقوا وعلى هذا يكون الكفار داخلين فى الخطاب حتى يصح معنى قوله بعضكم لبعض أى الملائكة للكفار والحاضر الواحد يجوز أن يجعل من يشاركه فى أمر مخاطبا بسببه كما يقول القائل لواحد حاضر له شريك فى كلام أنتم قلتم على معنى أنت قلت وهم قالوا ويحتمل أن يكون معهم الجن أى لايملك بعضكم لبعض أيها الملائكة والجن واذا لم تملكوها لانفسكم فلا تملكوها لغيركم ويحتمل أن يكون المخاطب الكفار لان ذكر اليوم يدل على حضورهم وعلى هذا فقوله ونقول للذين ظلموا انما ذكره تأكيدا لبيان حالهم فى الظلم وسبب نكالهم من الاثم ولوقال فذوقوا عذاب النار لكان كافيا لكنه لايحصل ماذكرنا من الفائدة فانهم كلما كانوا يسمعون ما كانوا عليه من الظلم والعناد والاثم والفساد يتحسرون ويندمون (المسئلة الثانية) قوله نفعا مفيد للحسرة وأما الضر فالفائدة فيه مع انهم لو كانوا يملكون الضر لما نفع الكافرين ذلك فنقول لما كانت العبادة تقع لدفع ضر المعبود كما يعبد الجبار ويخدم مخافة شره بين انهم ليس فيهم ذلك الوجه الذى يحسن لاجله عبادتهم (المسئلة الثالثة) قال ههنا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون وقال فى السجدة عذاب النار الذى كنتم به تكذبون جعل المكذب هنالك العذاب وجعل المكذب ههنا النار وهم كانوا يكذبون بالكل والفائدة فيها أن هناك لم يكن أول مارأوا النار بل كانوا هم فيها من زمان بدليل قوله تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم

ى مفعول تقربكم أى وما الاموال والاولاد تقرب أحدا الا المؤمن الصالح الذى أنفق أمواله فى سبيل الله تعالى وعلم أولاده الخير
ورباهم على الصلاح ورشحهم الطاعة وقيل من أموالكم وأولادكم على حذف المضاف أى الاموال من الخ (فأولئك) اشارة
الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو
رتبتهم وبعد منزلتهم فى الفضل أى فأولئك المنعوتون بالايمان والعمل ﴿ ٢٤ ﴾ الصالح (لهم جزاء الضعف) أى ثابت لهم
ذلك على أن الجار والمجرور خبر لما بعده والجملة خبر لاولئك وفيه تأكيد لتكرر الاسناد أو يثبت لهم ذلك على أن الجار والمجرور خبر لاولئك وما بعده مرتفع على الفاعلية واضافة الجزاء الى الضعف من اضافة المصدر الى المفعول أصله فأولئك لهم أن يجازوا الضعف ثم جزاء الضعف ثم جزاء الضعف ومعناه أن تضاعف لهم حسناتهم الواحدة عشرا فما فوقها وقرئ جزاء الضعف على فأولئك لهم الضعف جزاء وجزاء الضعف على أن يجازوا الضعف وجزاء الضعف بالرفع على ان الضعف بدل من جزاء (بما عملوا) من الصالحات (وهم فى الغرفات) أى غرفات الجنة (آمنون) من جميع المكاره وقرئ بفتح الراء وسكونها وقرئ فى الغرفة على ارادة الجنس (والذين يسعون فى آياتنا) بالرد والطعن فيها (معاجزين) سابقين لانبيائنا أو زاعمين أنهم يفوتوننا (أولئك فى العذاب محضرون) لا يجديهم ما عولوا عليه نفعا (قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) أى يوسعه عليه تارة (ويقدر له) أى يضيقه عليه تارة أخرى فلا تخشوا الفقر وأنفقوا فى سبيل الله وتعرضوا لنفحاته تعالى (وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه)
عوضا اما عاجلا واما آجلا (وهو خير الرازقين) فان غيره واسطة فى ايصال رزقه لا حقيقة لرازقيته (ويوم يحشرهم جميعا) أى
المستكبرين والمستضعفين وما كانوا يعبدون من دون الله ويوم ظرف لمضمر متأخر سيأتى تقديره أو مفعول لمضمر مقدم نحو اذكر
(ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا ...)

ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون أى العذاب المؤبد الذى أنكرتموه بقولكم ان تمسنا النار الا أياما معدودة أى قلتم ان العذاب ان وقع فلا يدوم فذوقوا الدائم وههنا أول ما رأوا النار لانه مذكور عقيب الحشر والسؤال فقيل لهم هذه النار التى كنتم بها تكذبون ﴿ ثم قال تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الا رجل يريد ان يصدكم
٤١ كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا الا افك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين) اظهارا لفساد اعتقادهم واشتداد عنادهم حيث تبين أن أعلى من يعبدونه وهم الملائكة لا يتأهل للعبادة لذواتهم كما قالوا سبحانك أنت ولينا أى لا أهلية لنا الا لعبادتك من دونهم أى لا أهلية لنا لان نكون معبودين لهم ولا نفع أو ضر كما قال تعالى فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ثم مع هذا كله اذا قال لهم النبى عليه السلام كلاما من التوحيد وتلا عليهم آيات الله الدالة عليه فان لله فى كل شئ آيات دالة على وحدانيته أنكروها وقالوا ما هذا الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم يعنى يعارضون البرهان بالتقليد وقالوا ما هذا الا افك مفترى وهو يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون المراد ان القول بالوحدانية افك مفترى ويدل عليه هو ان الموحد كان يقول فى حق المشرك انه يأفك كما قال تعالى فى حقهم أئفكا آلهة دون الله تريدون وكما قالوا هم للرسول أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا (وثانيها) أن يكون المراد ما هذا الا افك أى القرآن افك وعلى الاول يكون قوله وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين اشارة الى القرآن وعلى الثانى يكون اشارة الى ما أتى به من المعجزات وعلى الوجهين فقوله تعالى وقال الذين كفروا بدلا عن أن يقول وقالوا للحق هو ان انكار التوحيد كان مختصا بالمشركين وأما انكار القرآن والمعجزات كان متفقا عليه بين المشركين وأهل الكتاب فقال تعالى وقال الذين كفروا للحق على وجه العموم ﴿ ثم قال تعالى (وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير تأكيدا لبيان تقليدهم يعنى يقولون عند ما تتلى عليهم الآيات البينات هذا رجل كاذب وقولهم افك مفترى من غير برهان ولا كتاب انزل عليهم ولا رسول أرسل اليهم فالآيات البينات لا تعارض الا بالبراهين العقلية ولم يأتوا بها أو بالنقليات وما عندهم كتاب ولا رسول غيرك والنقل المعتبر آيات من كتاب الله أو خبر رسول ثم بين انهم كالذين من قبلهم كذبوا مثل عاد وثمود وقوله تعالى وما بلغوا معشار ما آتيناهم قال المفسرون معناه وما بلغ هؤلاء المشركون معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر ثم ان الله أخذهم وما نفعتهم قوتهم فكيف حال هؤلاء الضعفاء وعندى يحتمل ذلك وجها آخر وهو أن يقال المراد وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم اى الذين من قبلهم ما بلغوا معشار ما آتينا قوم محمد من البيان والبرهان وذلك لان كتاب محمد عليه السلام أكمل

وأمى الخ واقناطالهم عماعلقوا به أطماعهم الفارغة من شفاعتهم وتخصيص الملائكة لانهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم ولان عبادتهم مبدأ الشرك فبظهور قصورهم عن رتبة المعبودية وتنزههم عن عبادتهم يظهر حال سائر شركائهم بطريق الاولوية وقرئ الفعلان بالنون (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية سؤال الملائكة كأنه قيل فماذا يقول الملائكة حينئذ فقيل يقولون متنزهين عن ذلك ﴿٢٥﴾ (سبحانك أنت ولينا من دونهم) والعدول الى صيغة الماضى للدلالة على التحقق أى أنت الذى نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم كأنهم بينوا بذلك براءتهم من الرضا بعبادتهم ثم أضربوا عن ذلك ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم (بل كانوا يعبدون الجن) أى الشياطين حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله سبحانه وتعالى وقيل كانوا يتمثلون لهم ويخيلون لهم أنهم الملائكة فيعبدونهم وقيل يدخلون أجواف الاصنام اذا عبدت فيعبدون بعبادتها (أكثرهم بهم مؤمنون) الضمير الاول للانس أو للمشركين والاكثر بمعنى الكل والثانى للجن (فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزه والتبرؤ عما نسب اليهم الكفرة يخاطبون بذلك على رؤس الاشهاد اظهارا لعجزهم وقصورهم عند عبدتهم وتنصيصا على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية والفاء ليست لترتيب ما بعدها من الحكم على جواب الملائكة فانه محقق أجابوا بذلك أم لا بل لترتيب الاخبار به عليه ونسبة عدم النفع والضر الى البعض المبهم ﴿٤﴾ سا للمبالغة فيما هو المقصود الذى هو بيان عدم نفع الملائكة للعبدة بنظمه فى سلك عدم نفع العبدة لهم كأن نفع الملائكة لعبدتهم فى الاستحالة والانتفاء كنفع العبدة لهم والتعرض لعدم الضر مع أنه لا بحث عنه أصلا اما لتعميم العجز أو لحمل عدم النفع على تقدير العبادة وعدم الضر على تقدير تركها أو لان المراد

من سائر الكتب وأوضح ومحمد عليه السلام أفضل من جميع الرسل وأفصح وبرهانه أوفى وبيانه أشفى ثم ان المتقدمين لما كذبوا بما جاءهم من الكتب وبمن أتاهم من الرسل انكر عليهم وكيف لا ينكر عليهم وقد كذبوا بأفصح الرسل وأوضح السبل ويؤيد ما ذكرنا من المعنى قوله تعالى وما آتيناهم من كتب يدرسونها يعنى غير القرآن ما آتيناهم كتابا وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير فلما كان المؤتى فى الآية الاولى هو الكتاب فحمل الايتاء فى الآية الثانية على ايتاء الكتاب أولى ثم قال تعالى (قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) ذكر الاصول الثلاثة فى هذه الآية بعد ما سبق منه تقريرها بالدلائل فقوله أن تقوموا لله اشارة الى التوحيد وقوله ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم اشارة الى الرسالة وقوله بين يدى عذاب شديد اشارة الى اليوم الآخر وفى الآية مسائل (الاولى) قوله انما أعظكم بواحدة يقتضى أن لا يكون الا بالتوحيد والايمان لا يتم الا بالاعتراف بالرسالة والحشر فكيف يصح الحصر المذكور بقوله انما أعظكم بواحدة فنقول التوحيد هو المقصود ومن وحد الله حق التوحيد يشرح الله صدره ويرفع فى الآخرة قدره فالنبى صلى الله عليه وسلم أمرهم بما يفتح عليهم أبواب العبادات ويهيئ أهم أسباب السعادات وجواب آخر وهو ان النبى صلى الله عليه وسلم ما قال انى لا آمركم فى جميع عمرى الا بشئ واحد وانما قال أعظكم أولا بالتوحيد ولا آمركم فى أول الامر بغيره لانه سابق على الكل ويدل عليه قوله تعالى ثم تتفكروا فان التفكر أيضا صار مأمورا به وموعوظا (المسئلة الثانية) قوله بواحدة قال المفسرون أنثها على انها صفة خصلة أى أعظكم بخصلة واحدة ويحتمل أن يقال المراد حسنة واحدة لان التوحيد حسنة واحسان وقد ذكرنا فى قوله تعالى ان الله يأمر بالعدل والاحسان ان العدل نفى الالهية عن غير الله والاحسان اثبات الالهية له وقيل فى تفسير قوله تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان أن المراد هل جزاء الايمان الا الجنان وكذلك يدل عليه قوله تعالى ومن احسن قولا ممن دعا الى الله (المسئلة الثالثة) قوله مثنى وفرادى اشارة الى جميع الاحوال فان الانسان اما أن يكون مع غيره أو يكون وحده فاذا كان مع غيره دخل فى قوله مثنى واذا كان وحده دخل فى قوله فرادى فكأنه يقول تقوموا لله مجتمعين ومنفردين لا تمنعكم الجمعية من ذكر الله ولا يحوجكم الانفراد الى معين يعينكم على ذكر الله (المسئلة الرابعة) قوله ثم تتفكروا يعنى اعترفوا بما هو الاصل والتوحيد ولا حاجة فيه الى تفكر ونظر بعدما بان وظهر ثم تتفكروا فيما أقول بعده من الرسالة والحشر فانه يحتاج الى تفكر وكلمة ثم تفيد ما ذكرنا فانه قال أن تقوموا لله ثم تتفكروا ثم بين ما يتفكرون فيه وهو أمر النبى عليه السلام فقال ما بصاحبكم من جنة (المسئلة الخامسة) قوله ما بصاحبكم من جنة يفيد كونه رسولا وان كان لا يلزم فى كل من لا يكون به جنة أن يكون رسولا وذلك لان

يومئذ وقوله عز وجل (ونقول للذين ظلموا) عطف على للملائكة لا على لايملك كما قيل فانه مما يقال يوم القيامة خطاباً للملائكة مترتباً على جوابهم المحكي وهذا حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما سيقال للعبدة يومئذ اثر حكاية ما سيقال للملائكة أي يوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة كذا وكذا ويقولون كذا وكذا ونقول للمشركين (ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) يكون من الاهوال والاحوال مالا يحيط به نطاق المقال ﴿ ٢٦ ﴾ وقوله تعالى (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات) بيان لبعض آخر من كفرانهم أي اذا تتلى عليهم بلسان الرسول عليه الصلاة والسلام آياتنا الناطقة بحقية التوحيد وبطلان الشرك (قالوا ما هذا) يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم (الا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) فيستتبعكم بما يستبدعه من غير أن يكون هناك دين الهي واضافة الآباء الى المخاطبين لا الى أنفسهم لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة في تقريرهم على الشرك وتنفيرهم عن التوحيد (وقالوا ما هذا) يعنون القرآن الكريم (الا افك) أي كلام مصروف عن وجهه لعدم مطابقة ما فيه الواقع (مفترى) باسناده الى الله تعالى (وقال الذين كفروا للحق) أي لامر النبوة أو الاسلام أو القرآن على أن العطف لاختلاف العنوان بأن يراد بالاول معناه وبالثاني نظمه المعجز (لما جاءهم) من غير تدبر ولا تأمل فيه (ان هذا الا سحر مبين) ظاهر سحريته وفي تكرير الفعل والتصريح بذكر الكفرة وما في اللامين من الاشارة الى القائلين والمقول فيه وما في لما من المسارعة الى البت بهذا القول الباطل انكار عظيم له وتعجيب بليغ منه (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) فيها دليل على صحة الاشراك ﴿ اذا ﴾ كما في قوله تعالى أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون وقوله تعالى أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون وقرئ يدرسونها بتشديد الدال يفتعلون من الدرس (وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير) يدعوهم اليه وينذرهم بالعقاب

النبي عليه السلام كان يظهر منه أشياء لا تكون مقدور البشر وغير البشر ممن تظهر منه العجائب اما الجن أو الملك واذا لم يكن الصادر من النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة الجن يكون بواسطة الملك أو بقدرة الله تعالى من غير واسطة وعلى التقديرين فهو رسول الله وهذا من أحسن الطرق وهو أن يثبت الصفة التي هي أشرف الصفات في البشر بنفي أخس الصفات فانه لو قال أولا هو رسول الله كانوا يقولون فيه النزاع فاذا قال ما هو مجنون لم يسعهم انكار ذلك لعلمهم بعلو شأنه وحاله في قوة لسانه وبيانه فقد ساعدوا على ذلك لزمهم المسئلة ولهذا قال بعده ان هو الا نذير يعني اما هو به جنة أو هو رسول لكن تبين انه ليس به جنة فهو نذير (المسئلة السادسة) قوله بين يدي عذاب شديد اشارة الى قرب العذاب كأنه قال ينذركم بعذاب حاضر يمسكم عن قرب بين يدي العذاب أي سوف يأتي العذاب بعده * ثم قال تعالى (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجري الا على الله وهو على كل شيء شهيد) لما ذكر أنه ما به جنة يلزم منه كونه نبياً ذكر وجها آخر يلزم منه أنه نبي اذا لم يكن مجنوناً لان من يرتكب العناء الشديد لا لغرض عاجل اذا لم يكن ذلك فيه ثواب أخروي يكون مجنوناً فالنبي عليه السلام يدعوه النبوة يجعل نفسه عرضة للهلاك عاجلا فان كل احد يقصده ويعاديه ولا يطلب اجراً في الدنيا وهو يفعله للآخرة والكاذب في الآخرة معذب لا مثاب فلو كان كاذباً كان مجنوناً لكنه ليس بمجنون فليس بكاذب فهو نبي صادق وقوله وهو على كل شيء شهيد تقرير آخر لرسالته وذلك لان الرسالة تثبت بالدعوى والبينات بدعي الشخص النبوة ويظهر الله له المعجزة فهي بينة شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول في افادة العلم [illegible] ان من قال لقوم اني مرسل من [illegible] ان كنتم تصدقوني وانه حاضر ناظر ثم قال [illegible] ايها [illegible] ان كنت [illegible] ان كنت أنا رسولك اليهم [illegible] فيه شك كذلك ها هنا [illegible] الرسل فاذا قال الانبياء لقومهم نحن رسل الله ثم قالوا يا الهنا ان كنا رسلك [illegible] فحصل الجزم بأنه صدقهم * ثم قال تعالى (قل ان ربي يقذف بالحق علام الغيوب) وفيه وجهان (أحدهما) يقذف بالحق في [illegible] وعلى هذا الوجه [illegible] بما قبله وذلك من حيث ان الله تعالى لما بين رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بقوله انه هو النذير [illegible] قوله قل ما سألتكم من أجر فهو لكم وكان من عادة المشركين استبعاد تخصيص واحد من بينهم بانزال الذكر عليه كما قال تعالى عنهم أأنزل عليه الذكر من بيننا ذكر ما يصلح جواباً لهم فقال قل ان ربي يقذف بالحق أي في القلوب اشارة الى أن الامر بيده يفعل ما يريد ويعطي ما يشاء لمن يشاء ثم قال تعالى علام الغيوب اشارة الى جواب سؤال فاسد يذكر عليه وهو أن من يفعل شيئاً كما يريد من غير اختصاص محل الفعل بشيء لا يوجد في غيره لا يكون عالماً وانما يفعل ذلك اتفاقاً كما

الوجوه فمن أين ذهبوا هذا المذهب الزائغ وهذا غاية تجهيل لهم وتسفيه لرأيهم ثم هددهم بقوله تعالى (وكذب الذين من قبلهم) من الامم المتقدمة والقرون الخالية كما كذبوا (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) أى ما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال أو ما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى (فكذبوا رسلى) عطف على كذب الذين الخ بطريق التفصيل والتفسير كقوله تعالى كذبت قبلهم ﴿٢٧﴾ قوم نوح فكذبوا عبدنا الخ (فكيف كان نكير) أى انكارى لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك (قل انما أعظكم بواحدة) أى ما أرشدكم وأنصح لكم الا بخصلة واحدة هى مادل عليه قوله تعالى (أن تقوموا لله) على أنه بدل منها أو بيان لها أو خبر مبتدأ محذوف أى هى أن تقوموا من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تنتصبوا للامر خالصا لوجه الله تعالى معرضا عن المماراة والتقليد (مثنى وفرادى) أى متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا فان الازدحام يشوش الافهام و يخلط الافكار بالاوهام وفى تقديم مثنى ايذان بأنه أوثق وأقرب الى الاطمئنان (ثم تتفكروا) فى أمره عليه الصلاة والسلام وما جاء به لتعلموا حقيقته وحقيته وقوله تعالى (ما بصاحبكم من جنة) استئناف مسوق من جهته تعالى للتنبيه على طريقة النظر والتأمل بأن مثل هذا الامر العظيم الذى تحته ملك الدنيا والآخرة لا يتصدى لادعائه الا مجنون لا يبالى بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان وظهور عجزه أو مؤيد من عند الله مرشح للنبوة واثق بحجته و برهانه واذ قد علمتم أنه عليه الصلاة والسلام أرجح العالمين عقلا وأصدقهم قولا وأزههم نفسا وأفضلهم علما وأحسنهم عملا وأجمعهم للكمالات البشرية وجب أن تصدقوه فى دعواه فكيف وقد انضم الى ذلك معجزات تخر لها صم الجبال و يجوز أن يتعلق بما قبله على معنى ثم تتفكروا فتعلموا ما بصاحبكم من جنة وقد جوز أن تكون ما استفهامية

اذا أصاب السهم موضعا دون غيره مع تسوية المواضع فى المحاذاة فقال يقذف بالحق كيف يشاء وهو عالم بما يفعله وعالم بعواقب ما يفعله فهو يفعل ما يريد لا كما يفعله الهاجم الغافل عن العواقب اذ هو علام الغيوب (الوجه الثانى) أن المراد منه هو أنه يقذف بالحق على الباطل كما قال فى سورة الانبياء بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه وعلى هذا تعلق الآية بما قبلها أيضا ظاهر وذلك من حيث ان براهين التوحيد لما ظهرت وشبههم دحضت قال قل ان ربى يقذف بالحق أى على باطلكم وقوله علام الغيوب على هذا الوجه له معنى لطيف وهو أن البرهان الباهر المعقول الظاهر لم يقم الا على التوحيد والرسالة وأما الحشر فعلى وقوعه لا برهان غير اخبار الله تعالى عنه وعن أحواله واهواله ولولا بيان الله بالقول لما بان لاحد بخلاف التوحيد والرسالة فلما قال يقذف بالحق أى على الباطل اشارة الى ظهور البراهين على التوحيد والنبوة قال علام الغيوب أى ما يخبره عن الغيب وهو قيام الساعة وأحوالها فهو لا خلاف فيه فان الله علام الغيوب والآية تحتمل تفسيرا آخر وهو أن يقال ربى يقذف بالحق أى ما يقذفه يقذفه بالحق لا بالباطل والباء على الوجهين الاولين متعلق بالمفعول به أى الحق مقذوف وعلى هذا الباء فيه كالباء فى قوله وقضى بينهم بالحق وفى قوله فاحكم بين الناس بالحق والمعنى على هذا الوجه هو ان الله تعالى قذف ما قذف فى قلب الرسل وهو علام الغيوب يعلم ما فى قلوبهم وما فى قلوبكم * ثم قال تعالى (قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) لما ذكر الله أنه يقذف بالحق وكان ذلك بصيغة الاستقبال ذكر أن ذلك الحق قد جاء وفيه وجوه (أحدها) انه القرآن (الثانى) انه بيان التوحيد والحشر وكل ما ظهر على لسان النبى صلى الله عليه وسلم (الثالث) المعجزات الدالة على نبوة محمد عليه السلام و يحتمل أن يكون المراد من جاء الحق ظهر الحق لان كل ما جاء فقد ظهر والباطل خلاف الحق وقد بينا أن الحق هو الموجود ولما كان ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم لم يمكن انتفاؤه كالتوحيد والرسالة والحشر كان حقا لا ينتفى ولما كان ما يأتون به من الاشراك والتكذيب لا يمكن وجوده كان باطلا لا يثبت وهذا المعنى يفهم من قوله وما يبدئ الباطل أى الباطل لا يفيد شيئا فى الاولى ولا فى الآخرة فلا امكان لوجوده أصلا والحق الآتى به لا عدم له أصلا وقيل المراد لا يبدئ الشيطان ولا يعيد وفيه معنى لطيف وهو أن قوله تعالى قل ان ربى يقذف بالحق لما كان فيه معنى قوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه كان يقع لمتوهم أن الباطل كان فورد عليه الحق فأبطله ودمغه فقال ههنا ليس للباطل تحقق أولا وآخرا وانما المراد من قوله فيدمغه أى فيظهر بطلانه الذى لم يزل كذلك واليه الاشارة بقوله تعالى فى موضع آخر وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا يعنى ليس أمرا متجددا زهوق الباطل فقوله وما يبدئ الباطل أى لا يثبت فى الاول شيئا خلاف الحق ولا يعيد أى لا يعيد فى الآخرة شيئا خلاف الحق * ثم قال تعالى (قل ان ضللت فانما أضل على نفسى وان اهتديت فبما يوحى الى ربى انه سميع قريب)

الصلاة والسلام مبعوث فى نسم الساعة (قل ما سألتكم من اجر) أى أى شئ سألتكم من أجر على الرسالة (فهو لكم) والمراد نفى السؤال رأسا كقول من قال لمن لم يعطه شيئا ان أعطيتنى شيئا فخذه وقيل ما موصولة أريد بها ما سألهم بقوله تعالى ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا وقوله تعالى لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى واتخاذ السبيل اليه تعالى منفعتهم الكبرى وقرباه عليه الصلاة والسلام قرباهم (ان أجرى ﴿٢٨﴾ الا على الله وهو على كل شئ شهيد) مطلع يعلم صدقى وخلوص نيتى وقرئ ان أجرى بسكون الياء (قل ان ربى يقذف بالحق) أى يلقيه وينزله على من يجتبيه من عباده أو يرمى به الباطل فيدمغه أو يرمى به فى أقطار الآفاق فيكون وعدا باظهار الاسلام واعلاء كلمة الحق (علام الغيوب) صفة محمولة على محل ان واسمها أو بدل من المستكن فى يقذف أو خبر ثان لان أو خبر مبتدأ محذوف وقرئ بالنصب صفة لربى أو مقدرا بأعنى وقرئ بكسر الغين وبالفتح كصبور مبالغة غائب (قل جاء الحق) أى الاسلام والتوحيد (وما يبدئ الباطل وما يعيد) أى زهق الشرك بحيث لم يبق أثره أصلا مأخوذ من هلاك الحى فانه اذا هلك لم يبق له ابداء ولا اعادة فجعل مثلا فى الهلاك بالمرة ومنه قول عبيد

أقفر من أهله عبيد * فليس يبدى ولا يعيد

وقيل الباطل ابليس أو الصنم والمعنى لا ينشئ خلقا ولا يعيد أو لا يبدئ خيرا لاهله ولا يعيد وقيل ما استفهامية منصوبة بما بعدها (قل ان ضللت) عن الطريق (فانما اضل على نفسى) فان وبال ضلالى عليها لانه بسببها اذ هى الجاهلة بالذات والامارة بالسوء ﴿الحكاية﴾ وبهذا الاعتبار قوبل الشرطية بقوله تعالى (وان اهتديت فيما يوحى الى ربى) لان الاهتداء بهدايته وتوفيقه وقرئ ربى بفتح الياء (انه سميع قريب) يعلم قول كل من المهتدى والضلال وفعله وان بالغ فى اخفائهما (ولو ترى اذ فزعوا) عند الموت أو البعث

هذا فيه تقرير الرسالة أيضا وذلك لان الله تعالى قال على سبيل العموم من اهتدى فلنفسه وقال فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وان اهتديت فبما يوحى الى ربى يعنى ضلالى على نفسى كضلالكم وأما اهتدائى فليس بالنظر والاستدلال كاهتدائكم وانما هو بالوحى المبين وقوله انه سميع أى يسمع اذا ناديته واستعديت به عليكم قريب يأتيكم من غير تأخير ليس كمن يسمع عن بعد ولا يلحق الداعى * ثم قال تعالى (ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) لما قال سميع قال هو قريب فان لم يعذب عاجلا ولا يعين صاحب الحق فى الحال فيوم الفزع آت لا فوت وانما يستعجل من يخاف الفوت وقوله ولو ترى جوابه محذوف أى ترى عجبا وأخذوا من مكان قريب لا يهربون وانما الاخذ قبل تمكنهم من الهرب * ثم قال تعالى (وقالوا آمنا به) أى بعد ظهور الامر حيث لا ينفع ايمان قالوا آمنا (وأنى لهم التناوش) أى كيف يقدرون على الظفر بالمطلوب وذلك لا يكون الا فى الدنيا وهم فى الآخرة والدنيا من الآخرة بعيدة فان قيل فكيف قال فى كثير من المواضع ان الآخرة من الدنيا قريبة ولهذا سماها الله الساعة وقال لعل الساعة قريب نقول الماضى كالامس الدابر بعدما يكون اذ لا وصول اليه والمستقبل وان كان بينه وبين الحاضر سنين فانه آت فيوم القيامة الدنيا بعيدة لمضيها وفى الدنيا يوم القيامة قريب لاتيانه والتناوش هو التناول عن قرب وقيل عن بعد ولما جعل الله الفعل مأخوذا كالجسم جعل ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال (من مكان بعيد) والمراد ما مضى من الدنيا * ثم بين الله تعالى أن ايمانهم لا نفع فيه بسبب انهم كفروا به من قبل والاشارة فى قوله آمنا به وقوله (وقد كفروا به من قبل) الى شئ واحد اما محمد عليه الصلاة والسلام واما القرآن واما الحق الذى أتى به محمد عليه السلام وهو أقرب وأولى وقوله (ويقذفون بالغيب) ضد يؤمنون بالغيب لان الغيب ينزل من الله على لسان الرسول فيقذفه الله فى القلوب ويقبله المؤمن وأما الكافر فهو يقذف بالغيب أى يقول ما لا يعلمه وقوله (من مكان بعيد) يحتمل أن يكون المراد منه ان مأخذهم بعيد أخذوا الشريك من انهم لا يقدرون على أعمال كثيرة الا اذا كانوا اشخاصا كثيرة فكذلك المخلوقات الكثيرة وأخذوا بعد الاعادة من حالهم وعجزهم عن الاحياء فان المريض يداوى فاذا مات لا يمكنهم اعادة الروح اليه وقياس الله على المخلوقات بعيد المأخذ ويحتمل ان يقال انهم كانوا يقولون بأن الساعة اذا كانت قائمة فالثواب والنعيم لنا كقول قائلهم ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى فكانوا يقولون ذلك فان كان من قول الرسول فما كان ذلك عندهم حتى يقولوا عن احساس فان ما لا يجب عقلا لا يعلم الا بالاحساس أو بقول الصادق فهم كانوا يقولون عن الغيب من مكان بعيد فان قيل قد ذكرت ان الآخرة قريب فكيف قال من مكان بعيد نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن ذلك قريب عند من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن لم يؤمن لا يمكنه التصديق به فيكون بعيدا عنده (الثانى)

ان الحكاية يوم القيامة فكأنه قال كانوا يقذفون من مكان بعيد وهو الدنيا ويحتمل وجها آخر وهو أنهم في الآخرة يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا وهو قذف بالغيب من مكان بعيد وهو الدنيا * ثم قال تعالى (وحيل بينهم وبين مايشتهون) من العود الى الدنيا أو بين لذات الدنيا فان قيل كيف يصح قولك مايشتهون من العود مع أنه تعالى قال (كما فعل باشياعهم من قبل انهم كانوا في شك مريب) وماحيل بينهم وبين العود قلنا لم قلتم انه ماحيل بينهم بل كل من جاءه الملك طلب التأخير ولم يعط وأرادوا أن يؤمنوا عند ظهور البأس ولم يقبل وقوله مريب يحتمل وجهين (أحدهما) ذي ريب (والثاني) موقع في الريب وسنذكره في موضع آخر ان شاء الله تعالى والله أعلم بالصواب والحمد لله رب العالمين وصلاته على خير خلقه محمد النبي وآله وصحبه وأزواجه أجمعين

(سورة فاطر أربعون وخمس آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلا) قد ذكرنا فيما تقدم أن الحمد يكون على النعمة في أكثر الامر ونعم الله قسمان عاجلة وآجلة والعاجلة وجود وبقاء والآجلة كذلك ايجاد مرة وابقاء أخرى وقوله تعالى الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور اشارة الى النعمة العاجلة التي هي الايجاد واستدللنا عليه بقوله تعالى هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وقوله في الكهف الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب اشارة الى النعمة العاجلة التي هي الابقاء فان البقاء والصلاح بالشرع والكتاب ولولاه لوقعت المنازعة والمخاصمة بين الناس ولايفصل بينهم فكان يفضي ذلك الى التقاتل والتفاني فانزال الكتاب نعمة يتعلق بها البقاء العاجل وفي قوله في سورة سبأ الحمد لله الذي له مافي السموات ومافي الارض وله الحمد في الآخرة اشارة الى نعمة الايجاد الثاني بالحشر واستدللنا عليه بقوله يعلم مايلج في الارض من الاجسام وما يخرج منها وماينزل من السماء من الارواح ومايعرج فيها منها وقوله عن الكافرين وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربي وههنا الحمد اشارة الى نعمة البقاء في الآخرة ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا أي يجعلهم رسلا يتلقون عباد الله كما قال تعالى وتتلقاهم الملائكة وعلى هذا فقوله تعالى فاطر السموات يحتمل وجهين (الاول) معناه مبدعها كما نقل عن ابن عباس (والثاني) فاطر السموات والارض أي شاقهما لنزول الارواح من السماء وخروج الاجساد من الارض ويدل عليه قوله تعالى جاعل الملائكة رسلا فان في ذلك اليوم تكون الملائكة رسلا وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر مامضى لان قوله كما فعل باشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب وتيقنه بأن لاقبول لتوبته ولافائدة لقوله آمنت كما قال تعالى عنهم وقالوا آمنابه وأنى لهم التناوش فلما ذكر حالهم بين حال الموقن وبشره بارسال الملائكة اليهم مبشرين وبين أنه يفتح لهم

بهم وجواب لو محذوف أي لرأيت أمرا هائلا (فلا فوت) فلا يفوتون الله عزوجل بهرب او تحصن (واخذوا من مكان قريب) من ظهر الارض أومن الموقف الى النار أومن صحراء بدر الى قليبها أومن تحت أقدامهم اذا خسف بهم والجملة معطوفة على فزعوا وقيل على لافوت على معنى اذ فزعوا فلم يفوتوا وأخذوا ويؤيده أنه قرئ وأخذ بالعطف على محله أي فلا فوت هنا وهناك أخذ (وقالوا آمنابه) أي بمحمد عليه الصلاة ﴿29﴾ والسلام وقد مر ذكره في قوله تعالى مابصاحبكم (وأنى لهم التناوش) التناوش التناول السهل أي ومن أين لهم أن يتناولوا الايمان تناولا سهلا (من مكان بعيد) فانه في حيز التكليف وهم منه بمعزل بعيد وهو تمثيل حالهم في الاستخلاص بالايمان بعد مافات عنهم وبعد بحال من يريد أن يتناول الشئ من غلوة تناوله من ذراع في الاستحالة وقرئ بالهمز على قلب الواو لضمها وهو من نأشت الشئ اذا طلبته وعن أبي عمرو التناؤش بالهمز التناول من بعد من قولهم نأشت اذا أبطأت وتأخرت ومنه قول من قال

تمنى نئيشا أن يكون اطاعني ... وقد حدثت بعد الامور أمور

(وقد كفروا به) أي بمحمد صلى الله عليه وسلم أو بالعذاب الشديد الذي أنذرهم اياه (من قبل) أي من قبل ذلك في أوان التكليف (ويقذفون بالغيب) ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم في حق الرسول عليه الصلاة والسلام من المطاعن أو في العذاب المذكور من بت القول بنفيه (من مكان بعيد) من جهة بعيدة من حاله عليه الصلاة والسلام حيث ينسبونه صلى الله عليه وسلم الى الشعر والسحر والكذب وان أبعد شئ مما جاء به الشعر والسحر وأبعد شئ من عادته المعروفة فيما بين الداني والقاصي الكذب ولعله تمثيل لحالهم في ذلك بحال من يرى شيئا لايراه من مكان بعيد لامجال للوهم في لحوقه وقرئ ويقذفون على أن الشيطان يلقى اليهم ويلقنهم ذلك وهو معطوف على قد كفروا به

ولامثل لهذا ولامعبود لذاته غيرهذا ونظرا الى نعمته حيث لاخالق غيره ولارازق الاهو ﴿ ثم قال تعالى (فأنى تؤفكون) أى كيف تصرفون عن هذا الظاهر فكيف تشركون المنحوت بمن له الملكوت ﴿ ثم لمابين الاصل الاول وهو التوحيد ذكر الاصل الثانى وهو الرسالة فقال تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) ثم بين من حيث الاجمال أن المكذب فى العذاب والمكذب له الثواب بقوله تعالى (والى الله ترجع الامور) ثم بين الاصل الثالث وهو الحشر فقال تعالى (ياأيها الناس ان وعد الله حق فلاتغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور) أى الشيطان وقد ذكرنا مافيه من المعنى اللطيف فى تفسير سورة لقمان ونعيده ههنا فنقول المكلف قديكون ضعيف الذهن قليل العقل سخيف الرأى فيغتر بأدنى شئ وقديكون فوق ذلك فلايغتر به ولكن اذاجاءه غار وزين ذلك الشئ وهون عليه مفاسده وبين له منافع يغتر لمافيهما من اللذة مع ماينضم اليه من دعاء ذلك الغار اليه وقديكون قوى الجاش غزير العقل فلايغتر ولايغر فقال الله تعالى لاتغرنكم الحياة الدنيا اشارة الى الدرجة الاولى وقال ولايغرنكم بالله الغرور اشارة الى الثانية ليكون واقعا فى الدرجة الثالثة وهى العليا فلايغر ولايغتر ﴿ ثم قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) لماقال تعالى ولايغرنكم بالله الغرور ذكر مايمنع العاقل من الاغترار وقال ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ولاتسمعوا قوله وقوله فاتخذوه عدوا أى اعملوا مايسوءه وهو العمل الصالح ﴿ ثم قال تعالى (انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) اشارة الى معنى لطيف وهو ان من يكون له عدو فله فى أمره طريقان (أحدهما) أن يعاديه مجازاة له على معاداته (والثانى) ان يذهب عداوته بارضائه فلما قال الله تعالى ان الشيطان لكم عدو أمرهم بالعداوة وأشار الى أن الطريق ليس الاهذا وأما الطريق الآخر وهو الارضاء فلافائدة فيه لانكم اذا راضيتموه واتبعتموه فهو لايؤديكم الاالى السعير واعلم أن من علم أن له عدوا لامهرب له منه وجزم بذلك فانه يقف عنده ويصبر على قتاله والصبر معه الظفر فكذلك الشيطان لايقدر الانسان ان يهرب منه فانه معه ولايزال يتبعه الاأن يقف له ويهزمه فهزيمة الشيطان بعزيمة الانسان فالطريق الثبات على الجادة والاتكال على العبادة ﴿ ثم بين الله تعالى حال حزبه وحال حزب الله فقال (الذين كفروا لهم عذاب شديد) فالمعادى للشيطان وان كان فى الحال فى عذاب ظاهر فهو ليس بشديد والانسان اذا كان عاقلا يختار العذاب المنقطع اليسير دفعا للعذاب الشديد المؤبد ألاترى ان الانسان اذا عرض فى طريقه شوك ونار ولايكون له بد من أحدهما يتخطى الشوك ولايدخل النار ونسبة النار التى فى الدنيا الى النار التى فى الآخرة دون نسبة الشوك الى النار العاجلة ﴿ وقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة واجر كبير) قدذكر تفسيره مرارا وبين فيه ان الايمان فى مقابلته المغفرة فلا يؤبد مؤمن فى النار والعمل الصالح فى مقابلته الاجر الكبير ﴿ ثم قال تعالى (أفمن زين

كان أولاء اسم جمع لذا ونظيرهما فى الاسماء المتمكنة المخاض والخلفة وقوله تعالى (مثنى وثلاث ورباع) صفات لاجنحة أى ذوى أجنحة متعددة متفاوتة فى العدد حسب تفاوت مالهم من المراتب ينزلون بها ويعرجون أو يسرعون بها والمعنى ان من الملائكة خلقا لكل واحد منهم جناحان وخلقا أجنحة كل منهم ثلاثة وخلقا آخر لكل منهم أربعة أجنحة ويروى أن صنفا من الملائكة لهم ستة أجنحة بجناحين منها يلفون أجسادهم وبآخرين منها يطيرون فيما أمروا به من جهته تعالى وجناحان منها مرخيان على وجوههم حياء من الله عزوجل وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح وروى أنه سأله عليهما السلام أن يتراءى له فى صورته فقال انك لن تطيق ذلك قال انى أحب أن تفعل فخرج عليه الصلاة والسلام فى ليلة مقمرة فأتاه جبريل عليهما السلام فى صورته فغشى عليه عليه الصلاة والسلام ثم أفاق وجبريل مسنده واحدى يديه على صدره والاخرى بين كتفيه فقال سبحان الله ما كنت أرى أن شيئا من الخلق هكذا فقال جبريل عليه السلام فكيف لو رأيت اسرافيل له اثنا عشر جناحا جناح منها بالمشرق وجناح منها بالمغرب وان العرش على كاهله وانه ليتضاءل الاحايين لعظمة الله عزوجل حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير (يزيد فى الخلق مايشاء) استئناف مقرر لماقبله من تفاوت أحوال الملائكة فى عدد الاجنحة ومؤذن بان ذلك من أحكام مشيئته تعالى لالامر راجع الى ذواتهم ببيان حكم كلى ناطق بأنه تعالى يزيد فى أى خلق كان كل مايشاء أن يزيده بموجب مشيئته ومقتضى حكمته من الامور التى لايحيط بها الوصف وماروى عن النبى عليه الصلوة والسلام من تخصيص بعض المعانى بالذكر من الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن فبيان لبعض المواد المعهودة بطريق التمثيل لابطريق الحصر فيها وقوله تعالى (ان الله

من الايمان فى الدنيا (وحيل بينهم و بين مايشتهون) مرتفع الايمان والنجاة من النار وقرئ باشمام الضم للحاء (كما فعل باشياعهم من قبل) أى باشباههم من كفرة الامم الدارجة (انهم كانوا فى شك مريب) أى موقع فى الريبة أو ذى ريبة والاول منقول ممن يصح أن يكون مريبا من الاعيان الى المعنى والثانى من صاحب الشك الى الشك كما يقال شعر شاعر والله أعلم * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة سبا لم يبق رسول ولا نبى الا كان له يوم القيامة رفيقا ﴿ ٣٠ ﴾ ومصافحا ﴿سورة الملائكة مكية وهى خمس وأربعون آية﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله فاطر السموات والارض) مبدعهما من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه من الفطر وهو الشق وقيل الشق طولا كأنه شق العدم باخراجهما منه واضافته محضة لانه بمعنى الماضى فهو نعت للاسم الجليل ومن جعلها غير محضة جعله بدلا منه وهو قليل فى المشتق (جاعل الملائكة) الكلام فى اضافته وكونه نعتا أو بدلا كما قبله وقوله تعالى (رسلا) منصوب به على الوجه الثانى من الاضافة بالاتفاق وأما على الوجه الاول فكذلك عند الكسائى وأما عند البصريين فبمضمر يدل هو عليه لان اسم الفاعل اذا كان بمعنى الماضى لا يعمل عندهم الا معرفا باللام وقال أبو سعيد السيرافى اسم الفاعل المتعدى الى اثنين يعمل فى الثانى لان باضافته الى الاول تعذرت اضافته الى الثانى فتعين نصبه له وعلل بعضهم ذلك بأنه بالاضافة أشبه المعرف باللام فعمل عمله وقرئ جاعل بالرفع على المدح وقرئ الذى فطر السموات والارض وجعل الملائكة أى جاعلهم وسايط بينه تعالى و بين أنبيائه والصالحين من عباده يبلغون اليهم رسالاته بالوحى والالهام والرؤيا الصادقة أو بينه تعالى و بين خلقه أيضا حيث يوصلون اليهم آثار قدرته وصنعه هذا على تقدير كون الجعل تصييرا أما على تقدير كونه ابداعيا فرسلا نصب على الحالية

وقرئ رسلا [illegible]

أبواب الرحمة * وقوله تعالى (أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أقل ما يكون لذى الجناح أن يكون له جناحان وما بعدهما زيادة وقال قوم فيه ان الجناح اشارة الى الجهة و بيانه هو أن الله تعالى ليس فوقه شئ وكل شئ فهو تحت قدرته ونعمته والملائكة لهم وجه الى الله يأخذون منه نعمه و يعطون من دونهم مما أخذوه باذن الله كما قال تعالى نزل به الروح الامين على قلبك وقوله علمه شديد القوى وقال تعالى فى حقهم فالمدبرات أمرا فهما جناحان وفيهم من يفعل ما يفعل من الخير بواسطة وفيهم من يفعله لا بواسطة فالفاعل بواسطة فيه ثلاث جهات ومنهم من له أربع جهات والاكثر والظاهر ما ذكرناه أولا وهو الذى عليه اطباق المفسرين * وقوله تعالى (يزيد فى الخلق ما يشاء) من المفسرين من خصصه وقال المراد الوجه الحسن ومنهم من قال الصوت الحسن ومنهم من قال كل وصف محمود والاولى أن يعمم و يقال الله تعالى قادر كامل يفعل ما يشاء فيزيد ما يشاء و ينقص ما يشاء وقوله تعالى (ان الله على كل شئ قدير) يقرر قوله يزيد فى الخلق ما يشاء * ثم قال تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) لما بين كمال القدرة ذكر بيان نفوذ المشيئة ونفاذ الامر وقال ما يفتح الله للناس يعنى ان رحم فلا مانع له وان لم يرحم فلا باعث له عليها وفى الآية دليل على سبق رحمته غضبه من وجوه (أحدها) التقديم حيث قدم بيان فتح أبواب الرحمة فى الذكر وهو وان كان ضعيفا لكنه وجه من وجوه الفضل (وثانيها) هو أنه أنث الكناية فى الاول فقال ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وجاز من حيث العربية أن يقال له و يكون عائدا الى ما ولكن قال تعالى لها ليعلم أن المفتوح أبواب الرحمة ولا ممسك لرحمته فهى واصلة الى من رحمه وقال عند الامساك وما يمسك فلا مرسل له بالتذكير ولم يقل لها فما صرح بأنه لا مرسل للرحمة بل ذكره بلفظ يحتمل ان يكون الذى لا يرسل هو غير الرحمة فان قوله تعالى وما يمسك عام من غير بيان وتخصيص بخلاف قوله تعالى ما يفتح الله للناس من رحمة فانه مخصص مبين (وثالثها) قوله من بعده أى من بعد الله فاستثنى ههنا وقال لا مرسل له الا الله فنزل له مرسلا وعند الامساك قال لا ممسك لها ولم يقل غير الله لان الرحمة اذا جاءت لا ترتفع فان من رحمة الله فى الآخرة لا يعذبه بعدها هو ولا غيره ومن يعذبه الله فقد يرحمه الله بعد العذاب كالفساق من أهل الايمان * ثم قال تعالى (وهو العزيز) أى كامل القدرة (الحكيم) أى كامل العلم * ثم قال تعالى (يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم) لما بين ان الحمد لله و بين بعض وجوه النعمة التى تستوجب الحمد على سبيل التفصيل بين نعمه على سبيل الاجمال فقال اذكروا نعمة الله وهى مع كثرتها منحصرة فى قسمين نعمة الايجاد ونعمة الابقاء فقال تعالى (هل من خالق غير الله) اشارة الى نعمة الايجاد فى الابتداء وقال تعالى (يرزقكم من السماء والارض) اشارة الى نعمة الابقاء بالرزق الى الانتهاء ثم بين انه (لا اله الا هو) نظرا الى عظمته حيث هو عزيز حكيم قادر على كل شئ قدير نافذ الارادة فى كل شئ ﴿ولا﴾

تعالى على أن يريد كل مايشاؤه ايجابا بينا (مايفتح الله للناس من رحمة) عبرعن ارسالها بالفتح ايذانا بأنها أنفس الخزائن التى يتنافس فيها المتنافسون واعزها منالا وتنكيرها للاشاعة والابهام أى أى شئ يفتح الله من خزائن رحمته أية رحمة كانت من نعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة الى غيرذلك مما لايحاط به (فلا ممسك لها) أى لاأحد يقدر على امساكها (وما يمسك) أى أى شئ يمسك (فلا مرسل له) أى لاأحد يقدر على ارساله واختلاف الضميرين لما أن مرجع الاول ﴿ ٣٢ ﴾ مفسر بالرحمة ومرجع الثانى مطلق يتناولها وغيرها كائنا ما كان وفيه اشعار بأن رحمته سبقت غضبه (من بعده) أى من بعد امساكه (وهو العزيز) الغالب على كل مايشاء من الامور التى من جملتها الفتح والامساك (الحكيم) الذى يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة والجملة تذييل مقرر لماقبلها ومعرب عن كون كل من الفتح والامساك بموجب الحكمة التى عليها يدور أمر التكوين وبعدما بين سبحانه أنه الموجد للملك والملكوت والمتصرف فيهما بالقبض والبسط من غير أن يكون لاحد فى ذلك دخل ما بوجه من الوجوه أمر الناس قاطبة أو أهل مكة خاصة بشكر نعمه فقال (ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم) أى انعامه عليكم ان جعلت النعمة مصدرا أو كائنة عليكم ان جعلت اسما أى راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها وتخصيص العبادة والطاعة بموليها ولما كانت نعم الله تعالى مع تشعب فنونها منحصرة فى نعمة الايجاد ونعمة الابقاء نفى أن يكون فى الوجود شئ غيره تعالى يصدر عنه احدى النعمتين بطريق الاستفهام الانكارى المنادى باستحالة أن يجاب عنه بنعم فقال (هل من خالق غيرالله) ﴿ فان ﴾ أى هل خالق مغاير له تعالى موجود على أن خالق مبتدأ محذوف الخبر زيدت عليه كلمة من لتأكيد العموم وغيرالله نعت له باعتبار محله كما أنه نعت له فى قراءة الجر باعتبار لفظه وقرئ بالنصب على الاستثناء وقوله تعالى (يرزقكم من السماء والارض) أى بالمط...

له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون) يعنى ليس من عمل سيأ كالذى عمل صالحا كما قال بعد هذا بآيات وما يستوى الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور وله تعلق بما قبله وذلك من حيث انه تعالى لما بين حال المسئ الكافر والمحسن المؤمن وما من أحد يعترف بأنه يعمل سيأ الاقليل فكان الكافر يقول الذى له العذاب الشديد هو الذى يتبع الشيطان وهو محمد وقومه الذين استهوتهم الجن فاتبعوها والذى له الاجر العظيم نحن الذين دمنا على ما كان عليه آباؤنا فقال الله تعالى لستم أنتم بذلك فان المحسن غير ومن زين له العمل السيئ فرآه حسنا غير بل الذين زين لهم السيئ دون من أساء وعلم انه مسئ فان الجاهل الذى يعلم جهله والمسئ الذى يعلم سوء عمله يرجع ويتوب والذى لايعلم يصر على الذنوب والمسئ العالم له صفة ذم بالاساءة وصفة مدح بالعلم والمسئ الذى يرى الاساءة احسانا له صفتا ذم الاساءة والجهل ثم بين أن الكل بمشيئة الله وقال فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وذلك لان الناس اشخاصهم متساوية فى الحقيقة والاساءة والاحسان والسيئة والحسنة يمتاز بعضها عن بعض فاذا عرفها البعض دون البعض لايكون ذلك باستقلال منهم فلا بد من الاستناد الى ارادة الله ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث حزن من اصرارهم بعد اتيانه بكل آية ظاهرة وحجة باهرة فقال فلا تذهب نفسك عليهم حسرات كما قال تعالى فلعلك باخع نفسك على آثارهم ثم بين أن حزنه ان كان لما بهم من الضلال فالله عالم بهم وبما يصنعون لو أراد اعانهم واحسانهم لصدهم عن الضلال وردهم عن الاضلال وان كان لما به منهم من الايذاء فالله عالم بفعلهم يجازيهم على ما يصنعون * ثم عاد الى البيان فقال تعالى (والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور) هبوب الرياح دليل ظاهر على الفاعل المختار وذلك لان الهواء قد يسكن وقد يتحرك وعند حركته قد يتحرك الى اليمين وقد يتحرك الى اليسار وفى حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب وقد لاينشئ فهذه الاختلافات دليل على مسخر مدبر ومؤثر مقدر وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى والله الذى أرسل بلفظ الماضى وقال فتثير سحابا بصيغة المستقبل وذلك لانه لما أسند فعل الارسال الى الله ومايفعل الله يكون بقوله كن فلا يبقى فى العدم لا زمانا ولا جزأ من الزمان فلم يقل بلفظ المستقبل لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنه كان وكأنه فرغ من كل شئ فهو قدر الارسال فى الاوقات المعلومة الى المواضع المعينة والتقدير كالارسال ولما أسند فعل الاثارة الى الريح وهو يؤلف فى زمان فقال تثير اى على هيئتها (المسئلة الثانية) قال أرسل اسناد الفعل الى الغائب وقال سقناه باسناد الفعل الى المتكلم وكذلك فى قوله فأحيينا وذلك لانه فى الاول عرف نفسه بفعل من الافعال وهو الارسال ثم لما عرف قال أنا الذى عرفتنى سقت السحاب وأحييت الارض ففى الاول كان تعريفا بالفعل العجيب وفى الثانى كان تذكيرا بالنعمة

داخل فى حيز النفى والانكار ولامساغ لماقيل من أنه صفة أخرى لخالق مرفوعة المحل أو مجرورته لان معناه نفى وجود خالق
موصوف بوصفى المغايرة والرازقية معا من غير تعرض لنفى وجود مااتصف بالمغايرة فقط ولا لماقيل من أنه الخبر للمبتدا ولا لماقيل
من أنه مفسر لمضمر ارتفع به قوله تعالى من خالق على الفاعلية أى هل يرزقكم من خالق الخ لما أن معناهما نفى رازقية خالق
مغاير له تعالى من غير تعرض لنفى وجوده رأسا مع أنه المراد ﴿ ٣٣ ﴾ حتما الا يرى الى قوله تعالى (لااله الاهو) فانه استئناف
مسوق لتقرير النفى المستفاد
منه قصدا وجار مجرى الجواب
عما يوهمه الاستفهام صورة
فحيث كان هذا ناطقا بنفى الوجود
تعين أن يكون ذلك أيضا
قطعا والفاء فى قوله تعالى
(فأنى تؤفكون) لترتيب
انكار عدولهم عن التوحيد الى
الاشراك على ماقبلها كأنه قيل
واذا تبين تفرده تعالى بالالوهية
والخالقية والرازقية فمن أى
وجه تصرفون عن التوحيد
الى الشرك وقوله تعالى (وان
يكذبوك فقد كذبت رسل من
قبلك) تلوين للخطاب وتوجيه له
الى رسول الله صلى الله عليه
وسلم بين خطابى الناس مسارعة
الى تسليته عليه الصلاة والسلام
بعموم البلية أولا والاشارة
الى الوعد والوعيد ثانيا أى
وان استمروا على أن يكذبوك
فيما بلغت اليهم من الحق المبين
بعد ما أقمت عليهم الحجة
والقمتهم الحجر فتأس باولئك
الرسل فى المصابرة على ما أصابهم
من قبل قومهم فوضع موضعه
ماذكر اكتفاء بذكر السبب
عن ذكر المسبب وتنكير الرسل
للتفخيم الموجب لمزيد التسلية
والتوجه الى المصابرة أى رسل
أولو شأن خطير وذوو عدد كثير (والى الله ترجع ﴿ ٥ ﴾ سا الامور) لا الى غيره فيجازى كلا منك ومنهم بما أنتم عليه
من الاحوال التى من جملتها صبرك وتكذيبهم وفى الاقتصار على ذكر اختصاص المرجع بالله تعالى مع ابهام الجزاء ثوابا وعقابا
...لغة فى الوعد والوعيد مالايخفى وقرئ ترجع بفتح التاء من الرجوع والاول أدخل فى التهويل (ياأيها الناس) رجوع

فان كال نعمة الرياح والسحب بالسوق والاحياء وقوله سقناه وأحيينا بصيغة الماضى
يؤيد ماذكرناه من الفرق بين قوله أرسل وبين قوله تثير (المسئلة الثالثة) ماوجه التشبيه
بقوله كذلك النشور نقول فيه وجوه (أحدها) ان الارض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة
بها كذلك الاعضاء تقبل الحياة (وثانيها) كما ان الريح يجمع القطع السحابية كذلك
يجمع بين اجزاء الاعضاء وابعاض الاشياء (وثالثها) كما نسوق الريح والسحاب الى
البلد الميت نسوق الروح والحياة الى البدن الميت (المسئلة الرابعة) ما الحكمة فى اختيار
هذه الآية من بين الآيات مع أن الله تعالى له فى كل شئ آية تدل على انه واحد فنقول
لماذكر الله انه فاطر السموات والارض وذكر من الامور السماوية الارواح وارسالها
بقوله جاعل الملائكة رسلا ذكر من الامور الارضية الرياح وارسالها بقوله والله الذى
أرسل الرياح * ثم قال تعالى (من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب
والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور)
لما بين برهان الايمان اشار الى ما كان يمنع الكفار منه وهو العزة الظاهرة التى كانوا
يتوهمونها من حيث انهم ما كانوا فى طاعة أحد وان لم يكن لهم من يأمرهم وينهاهم فكانوا
ينحتون الاصنام وكانوا يقولون ان هذه آلهتنا ثم انهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم وأية عزة
فوق المعية مع المعبود فهم كانوا يطلبون العزة وهى عدم التذلل للرسول وترك الاتباع له
فقال ان كنتم تطلبون بهذا الكفر العزة فى الحقيقة فهى كلها لله ومن يتذلل له فهو
العزيز ومن يتعزز عليه فهو الذليل وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال فى هذه الآية
فلله العزة جميعا وقال فى آية أخرى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين فقوله جميعا يدل على أن
لاعزة لغيره فنقول قوله فلله العزة أى فى الحقيقة وبالذات وقوله ولرسوله أى بواسطة
القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم من العزيز بالله وهو الرسول وذلك
لان عزة المؤمنين بواسطة النبى صلى الله عليه وسلم ألا ترى قوله تعالى ان كنتم تحبون الله
فاتبعونى يحببكم الله (المسئلة الثانية) قوله اليه يصعد الكلم الطيب تقرير لبيان العزة
وذلك لان الكفار كانوا يقولون نحن لانعبد من لانراه ولانحضر عنده لان البعد من الملك
ذلة فقال تعالى ان كنتم لاتصلون اليه فهو يسمع كلامكم ويقبل الطيب فمن قبل كلامه
وصعد اليه فهو عزيز ومن رد كلامه فى وجهه فهو ذليل وأما هذه الاصنام لايتبين عندها
الذليل من العزيز اذ لاعلم لها فكل أحد عندها وكذلك يرى عملكم فمن عمل صالحا رفعه
اليه ومن عمل سيأ رده عليه فالعزيز من يرفع الذى عمله لوجهه والذليل من يدفع الذى عمله
فى وجهه وأما هذه الاصنام فلا تعلم شيأ فلا عزيز عندها ولا ذليل فلا عزة بها بل عليها ذلة
وذلك لان ذلة السيد ذلة للعبد ومن كان معبوده وربه والهه حجارة أو خشبا ماذا يكون
هو (المسئلة الثالثة) فى قوله اليه يصعد الكلم الطيب وجوه (أحدها) كلمة لااله الاالله
هى الطيبة (ثانيها) سبحان الله والحمد لله ولااله الاالله والله أكبر طيب (ثالثها) هذه

الى خطابهم وتكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير (ان وعد الله) المشار اليه برجوع الامور اليه تعالى من البعث والجزاء (حق) ثابت لامحالة من غير خلف (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) بأن يذهلكم التمتع بمتاعها ويلهيكم التلهي بزخارفها عن تدارك مايهمكم يوم حلول الميعاد والمراد نهيهم عن الاغترار بها وان توجه النهى صورة اليها كما فى قوله تعالى لايجرمنكم شقاق (ولايغرنكم بالله) وعفوه وكرمه تعالى (الغرور) أى ﴿ ٣٤ ﴾ المبالغ فى الغرور وهو الشيطان بأن يمنيكم المغفرة مع الاصرار على المعاصى قائلا اعملوا ماشئتم ان الله غفور يغفر الذنوب جميعا فان ذلك وان أمكن لكن تعاطى الذنوب بهذا التوقع من قبيل تناول السم تعويلا على دفع الطبيعة وتكرير فعل النهى للمبالغة فيه ولاختلاف الغرورين فى الكيفية وقرئ الغرور بالضم على أنه مصدر أو جمع غار كقعود جمع قاعد (ان الشيطان لكم عدو) عداوة قديمة لاتكاد تزول وتقديم لكم للاهتمام به (فاتخذوه عدوا) بمخالفتكم له فى عقائدكم وأفعالكم وكونكم على حذر منه فى مجامع أحوالكم وقوله تعالى (انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) تقرير لعداوته وتحذير من طاعته بالتنبيه على أن غرضه فى دعوة شيعته الى اتباع الهوى والركون الى ملاذ الدنيا ليس تحصيل مطالبهم ومنافعهم الدنيوية كما هو مقصد المتحابين فى الدنيا عند سعى بعضهم فى حاجة بعض بل هو توريطهم والقاؤهم فى العذاب المخلد من حيث لايحتسبون (الذين كفروا لهم) بسبب كفرهم واجابتهم لدعوة الشيطان واتباعهم لخطواته (عذاب شديد) لايقادر قدره مديدلا يبلغ مداه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم) بسبب ماذكر من الايمان والعمل الصالح الذى من جملته عداوة الشيطان (مغفرة) عظيمة (وأجر كبير) لاغاية لهما (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) امانقرير لماسبق من التباين البين بين عاقبتى الفريقين ببيان تباين حالهما المؤديين الى تينك العاقبتين والفاء ﴿ وذكرنا ﴾

الكلمات الاربع وخامسة وهى تبارك الله والمختار أن كل كلام هو ذكر الله أو هو لله كالنصيحة والعلم فهو اليه يصعد (المسئلة الرابعة) قوله تعالى والعمل الصالح يرفعه فى الهاء وجهان (أحدهما) هى عائدة الى الكلم الطيب أى العمل الصالح هو الذى يرفع الكلم الطيب ورد فى الخبر لايقبل الله قولا بلا عمل (وثانيهما) هى عائدة الى العمل الصالح وعلى هذا فى الفاعل الرافع وجهان (أحدهما) هو الكلم الطيب أى الكلم الطيب يرفع العمل الصالح وهذا يؤيده قوله تعالى من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن (وثانيهما) الرافع هو الله تعالى (المسئلة الخامسة) ماوجه ترجيح الذكر على العمل على الوجه الثانى حيث يصعد الكلم بنفسه ويرفع العمل بغيره فنقول الكلام شريف فان امتياز الانسان عن كل حيوان بالنطق ولهذا قال تعالى ولقد كرمنا بنى آدم أى بالنفس الناطقة والعمل حركة وسكون يشترك فيه الانسان وغيره والشريف اذا وصل الى باب الملك لايمنع ومن دونه لايجد الطريق الا عند الطلب ويدل على هذا أن الكافر اذا تكلم بكلمة الشهادة ان كان عن صدق أمن عذاب الدنيا والآخرة وان كان ظاهرا أمن فى نفسه ودمه وأهله وحرمه فى الدنيا ولا كذلك العمل بالجوارح وقد ذكرنا ذلك فى تفسير قوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات (ووجه آخر) القلب هو الاصل وقد تقدم مايدل عليه وقال النبى صلى الله عليه وسلم ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب ومافى القلب لايظهر الا باللسان ومافى اللسان لايتبين صدقه الا بالفعل فالقول أقرب الى القلب من الفعل ألا ترى أن الانسان لايتكلم بكلمة الا عن قلب وأما الفعل قد يكون لا عن قلب كالعبث باللحية ولان النائم لايخلو عن فعل من حركة وتقلب وهو فى أكثر الامر لايتكلم فى نومه الا نادرا لماذكرنا ان الكلام بالقلب ولا كذلك العمل فالقول اشرف (المسئلة السادسة) قال الزمخشرى المكر لايتعدى فبم انتصاب السيآت وقال بأن معناه الذين يمكرون المكرات السيآت فهو وصف مصدر محذوف ويحتمل أن يقال استعمل المكر استعمال العمل فعداه تعديته كما قال الذين يعملون السيآت وفى قوله الذين يعملون السيآت يحتمل ماذكرناه أن يكون السيآت وصفا لمصدر تقديره الذين يعملون العملات السيآت وعلى هذا فيكون هذا فى مقابلة قوله والعمل الصالح يرفعه اشارة الى بقائه وارتقائه ومكر أولئك أى العمل السئ هو يبور اشارة الى فنائه ✲ ثم قال تعالى (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وماتحمل من أنثى ولاتضع الا بعلمه ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب ان ذلك على الله يسير) قد ذكرنا مرارا ان الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها فى عدد محصور منحصرة فى قسمين دلائل الآفاق ودلائل الانفس كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم فلما ذكر دلائل الآفاق من السموات ومايرسل منها من الملائكة والارض ومايرسل فيها من الرياح شرع فى دلائل الانفس وقد ذكرنا تفسيره مرارا

مابعدها على ماقبلها أى أبعد كون حاليهما كما ذكر يكون من زين له الكفر من جهة الشيطان فانهمك فيه كمن استقبحه واجتنبه واختار الايمان والعمل الصالح حتى لاتكون عاقبتاهما كما ذكر فحذف ماحذف لدلالة ماسبق عليه وقوله تعالى (فان الله يضل) الخ تقرير له وتحقيق للحق ببيان أن الكل بمشيئته تعالى أى فانه تعالى يضل (من يشاء) أن يضله لاستحسانه واستحبابه الضلال وصرف اختياره اليه فيرده أسفل سافلين (ويهدى من يشاء) أن يهديه بصرف اختياره الى الهدى فيرفعه الى أعلى عليين واما تمهيد لما يعقبه من نهيه عليه الصلاة والسلام عن التحسر والتحزن عليهم لعدم اسلامهم ببيان أنهم ليسوا بأهل لذلك بل لأن يضرب عنهم صفحا ولايبالى بهم قطعا أي أبعد كون حالهم كما ذكر تتحسر عليهم فحذف لما دل عليه قوله تعالى (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) دلالة بينة واما تمهيد لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من الحرص الشديد على اسلامهم والمبالغة فى دعوتهم اليه ببيان استحالة تحولهم عن الكفر لكونه فى غاية الحسن عندهم أى أبعد ماذكر من زين له الكفر من قبل الشيطان فرآه حسنا فانهمك فيه يقبل الهداية حتى تطمع فى اسلامه وتتعب نفسك فى دعوته فحذف ماحذف لدلالة مامر من قوله تعالى فان الله يضل من يشاء الخ على أنه ممن شاء الله تعالى أن يضله فمن يهدى من أضل الله ومالهم من ناصرين وقرئ فلا تذهب نفسك وقوله تعالى حسرات اما مفعول له أى فلا تهلك نفسك للحسرات والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه عليه الصلاة والسلام على أحوالهم أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر وعليهم صلة تذهب كما يقال هلك عليه حبا ومات عليه حزنا أو هو بيان للمتحسر عليه ولا يجوز ... لا يتقدم عليه صلته واما حال كأن كلها صارت حسرات وقوله تعالى (ان الله عليم

وذكرنا ماقيل من ان قوله من تراب اشارة الى خلق آدم ثم من نطفة اشارة الى خلق أولاده وبينا أن الكلام غير محتاج الى هذا التأويل بل خلقكم خطاب مع الناس وهم أولاد آدم كلهم من تراب ومن نطفة لان كلهم من نطفة والنطفة من غذاء والغذاء بالآخرة ينتهى الى الماء والتراب فهو من تراب صار نطفة وقوله وماتحمل من أنثى ولاتضع اشارة الى كمال العلم فان مافى الارحام قبل الانخلاق بل بعده مادام فى البطن لايعلم حاله أحد كيف والام الحاملة لاتعلم منه شيئا فلما ذكر بقوله خلقكم من تراب كمال قدرته بين بقوله وما تحمل من أنثى ولاتضع الا بعلمه كمال علمه ثم بين نفوذ ارادته بقوله ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره الافى كتاب فبين انه هو القادر العالم المريد والاصنام لاقدرة لها ولاعلم ولاارادة فكيف يستحق شئ منها العبادة وقوله ان ذلك على الله يسير أى الخلق من التراب ويحتمل أن يكون المراد التعمير والنقصان على الله يسير ويحتمل أن يكون المراد ان العلم بما تحمله الانثى يسير والكل على الله يسير والاول أشبه فان اليسر استعماله فى الفعل أليق * ثم قال تعالى (ومايستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) قال أكثر المفسرين ان المراد من الآية ضرب المثل فى حق الكفر والايمان أو الكافر والمؤمن فالايمان لايشتبه بالكفر فى الحسن والنفع كما لايشتبه البحران العذب الفرات والملح الاجاج ثم على هذا فقوله ومن كل تأكلون لحما طريا لبيان أن حال الكافر والمؤمن أو الكفر والايمان دون حال البحرين لان الاجاج يشارك الفرات فى خير ونفع اذ اللحم الطري يوجد فيهما والحلية توجد منهما والفلك تجرى فيهما ولانفع فى الكفر والكافر وهذا على نسق قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل وقوله كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار والاظهر ان المراد منه ذكر دليل آخر على قدرة الله وذلك من حيث ان البحرين يستويان فى الصورة ويختلفان فى الماء فان أحدهما عذب فرات والآخر ملح اجاج ولو كان ذلك بايجاب لما اختلف المتساويان ثم انهما بعد اختلافهما يوجد منهما امور متشابهة فان اللحم الطرى يوجد فيهما والحلية تؤخذ منهما ومن يوجد فى المتشابهين اختلافا ومن المختلفين اشتباها لايكون الا قادرا مختارا وقوله ومايستوى البحران اشارة الى أن عدم استوائهما دليل على كمال قدرته ونفوذ ارادته وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال اهل اللغة لايقال فى ماء البحر اذا كان فيه ملوحة مالح وانما يقال له ملح وقد يذكر فى بعض كتب الفقه يصير بها ماء البحر مالحا ويؤاخذ قائله به وهو أصح مما ذهب اليه القوم وذلك لان الماء العذب اذا ألقى فيه ملح حتى ملح لايقال له الامالح وماء ملح يقال للماء الذى صار من أصل خلقته كذلك لان المالح شئ فيه ملح ظاهر فى الذوق والماء الملح ليس ماء وملحا بخلاف الطعام المالح فالماء العذب الملقى فيه الملح ماء فيه ملح ظاهر

الله عنهما أنها نزلت فى ابى جهل ومشركى مكة (والله الذى أرسل الرياح) مبتدأ وخبر وقرئ الريح وصيغة المضارع فى قوله
تعالى (فتثير سحابا) لحكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة ولان المراد بيان
احداثها بتلك الخاصية ولذلك أسند اليها أو للدلالة على استمرار الاثارة (فسقناه الى بلد ميت) وقرئ بالتخفيف (فأحيينابه
الارض) أى بالمطر النازل منه المدلول عليه بالسحاب فان بينهما تلازما ❊ ٣٦ ❊ فى الذهن كما فى الخارج او بالسحاب فانه سبب
السبب (بعدموتها) أى يبسها
وايراد الفعلين على صيغة
الماضى للدلالة على التحقق
واسنادهما الى نون العظمة
المنبئ عن اختصاصهما به
تعالى لما فيهما من مزيد الصنع
ولتكميل المماثلة بين احياء
الارض وبين البعث الذى
شبه به بقوله تعالى (كذلك
النشور) فى كمال الاختصاص
بالقدرة الربانية والكاف فى
حيز الرفع على الخبرية أى
مثل ذلك الاحياء الذى
تشاهدونه احياء الاموات
فى صحة المقدورية وسهولة
التأتى من غير تفاوت بينهما
أصلا سوى الالف فى الاول
دون الثانى وقيل فى كيفية
الاحياء يرسل الله تعالى من
تحت العرش ماء فينبت منه
أجساد الخلق (من كان يريد
العزة) هم المشركون الذين
كانوا يتعززون بعبادة الاصنام
كقوله تعالى واتخذوا من
دون الله آلهة ليكونوا لهم
عزا والذين كانوا يتعززون بهم
من الذين آمنوا بألسنتهم كما
فى قوله تعالى الذين يتخذون
الكافرين أولياء من دون
المؤمنين أيبتغون عندهم
العزة والجمع بين كان ويريد للدلالة على دوام الارادة واستمرارها (فلله العزة جميعا) أى له تعالى وحده ❊ لايسمعون ❊
لاغيره عزة الدنيا وعزة الآخرة أى فليطلبها منه لامن غيره فاستغنى عن ذكره بذكر دليله ايذانا بأن اختصاص العزة به
تعالى موجب لتخصيص طلبها به تعالى وقوله تعالى (اليه يصعد الكلم الطيب

فى الذوق بخلاف ماهو من أصل خلقته كذلك فلما قال الفقيه الملح اجزاء ارضية
سبخة يصير بها ماء البحر مالحا راعى فيه الاصل فانه جعله ماء جاوره ملح وأهل اللغة حيث
قالوا فى البحر ماؤه ملح جعلوه كذلك من أصل الخلقة والاجاج المر وقوله ومن كل تأكلون
لحما طريا من الطير والسمك وتستخرجون حلية تلبسونها من اللؤلؤ والمرجان وترى الفلك
فيه مواخر أى ماخرات تمخر البحر بالجريان أى تشق وقوله ولتبتغوا من فضله ولعلكم
تشكرون يدل على ماذكرناه من أن المراد من الآية الاستدلال بالبحرين ومافيهما على
وجود الله ووحدانيته وكمال قدرته * ثم قال تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى
الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى) استدلال آخر باختلاف الازمنة
وقد ذكرناه مرارا وذكرنا أن قوله تعالى بعده وسخر الشمس والقمر جواب لسؤال يذكره
المشركون وهو أنهم قالوا اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسى الواقعة فوق
الارض وتحتها فان فى الصيف تمر الشمس على سمت الرؤس فى بعض البلاد المائلة فى
الآفاق وحركة الشمس هناك حمائلية فتقع تحت الارض أقل من نصف دائرة زمان
مكثها تحت الارض فيقصر الليل وفى الشتاء بالضد فيقصر النهار فقال الله تعالى وسخر
الشمس والقمر يعنى سبب الاختلاف وان كان ماذكرتم لكن سير الشمس والقمر بارادة
الله وقدرته فهو الذى فعل ذلك * ثم قال تعالى (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من
دونه مايملكون من قطمير) أى ذلك الذى فعل هذه الاشياء من فطر السموات
والارض وارسال الارواح وارسال الرياح وخلق الانسان من تراب وغير ذلك له الملك كله
فلا معبود الا هو لذاته الكامل ولكونه ملكا والملك مخدوم بقدر ملكه فاذا كان له الملك
كله فله العبادة كلها ثم بين مابينا فى صفة الالهية وهو قوله والذين تدعون من دونه
مايملكون من قطمير (وههنا لطيفة) وهى ان الله تعالى ذكر لنفسه نوعين من
الاوصاف (أحدهما) ان الخلق بالقدرة والارادة (والثانى) الملك واستدل بهما على انه اله
معبود كما قال تعالى قل أعوذ برب الناس ملك الناس اله الناس ذكر الرب والملك ورتب
عليهما كونه الها أى معبودا وذكر فيمن أشركوا به سلب صفة واحدة وهو عدم الملك
بقوله والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ولم يذكر سلب الوصف الآخر لوجهين
(أحدهما) ان كلهم كانوا معترفين بأن لاخالق لهم الا الله وانما كانوا يقولون بأن الله تعالى
فوض أمر الارض والارضيات الى الكواكب التى الاصنام على صورتها وطوالعها
فقال لاملك لهم ولاملكهم الله شيئا ولاملكوا شيئا (وثانيهما) انه يلزم من عدم الملك
عدم الخلق لانه لو خلق شيئا لملكه فاذا لم يملك قطميرا ماخلق قليلا ولا كثيرا * ثم قال تعالى
(ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم
ولا ينبئك مثل خبير) ابطالا لما كانوا يقولون ان فى عبادة الاصنام عزة من حيث القرب
منها والنظر اليها وعرض الحوائج عليها والله لايرى ولا يصل اليه أحد فقال هؤلاء

عن قبوله تعالى اياهما او صعود الكتبة بصحيفتهما وتقديم الجار والمجرور عبارة عن كمال الاعتداد به كقوله تعالى وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات أى اليه يصل الكلم الطيب الذى به يطلب العزة لا الى الملائكة الموكلين باعمال العباد فقط وهو يعز صاحبه ويعطى طلبته بالذات والمستكن فى يرفعه للكلم فان مدار قبول العمل هو التوحيد ويؤيده القراءة بنصب العمل أو للعمل فانه يحقق الايمان ويقويه ﴿ ٣٧ ﴾ ولا ينال الدرجات العالية الا به وقرئ يصعد من الاصعاد على البناءين والمصعد هو الله سبحانه أو المتكلم به أو الملك وقيل الكلم الطيب يتناول الذكر والدعاء والاستغفار وقراءة القرآن وعنه عليه الصلاة والسلام أنه سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر اذا قالها العبد عرج بها الى السماء فحيا بها وجه الرحمن فاذا لم يكن عمل صالح لم تقبل وعن ابن مسعود رضى الله عنه ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وتبارك الله الا أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن فلا يمر بهن على جمع من الملائكة الا استغفروا لقائلهن حتى يحيى بهن وجه رب العالمين ومصداقه قوله عز وجل اليه يصعد الكلم الطيب الخ (والذين يمكرون السيآت) بيان لحال الكلم الخبيث والعمل السيئ وأهلهما بعد بيان حال الكلم الطيب والعمل الصالح وانتصاب السيآت على أنها صفة المصدر المحذوف أى يمكرون المكرات السيآت وهى مكرات قريش بالنبى عليه الصلاة والسلام فى دار الندوة وتداورهم الرأى فى احدى الثلاث التى هى الاثبات والقتل والاخراج (لهم) بسبب مكراتهم (عذاب شديد) لا يقادر قدره ولا يؤبه عنده لما يمكرون (ومكر أولئك) وضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للايذان بكمال تميزهم

لا يسمعون دعاءكم والله يصعد اليه الكلم الطيب فيسمع ويقبل ثم نزل عن تلك الدرجة وقال هب انهم يسمعون كما يظنون فانهم كانوا يقولون بأن الاصنام تسمع وتعلم ولكن ما كان يمكنهم أن يقولوا انهم يجيبون لان ذلك انكار للحس به وعدم سماعهم انكار للمعقول والنزاع وان كان يقع فى المعقول فلا يمكن وقوعه فى المحس به ثم انه تعالى قال ويوم القيامة يكفرون بشرككم لما بين عدم النفع فيهم فى الدنيا بين عدم النفع منهم فى الآخرة بل اشار الى وجود الضرر منهم فى الآخرة بقوله ويوم القيامة يكفرون بشرككم أى باشراككم بالله شيأ كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم أى الاشراك وقوله ولا ينبئك مثل خبير يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم ووجهه هو ان الله تعالى لما أخبر ان الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذب عابده وذلك أمر لا يعلم بالعقل المجرد ولا اخبار الله تعالى عنه انهم يكفرون بهم يوم القيامة وهذا القول مع كون الخبر عنه أمرا عجيبا هو كما قال لان المخبر عنه خبير (وثانيهما) هو أن يكون ذلك خطابا غير مختص باحد أى هذا الذى ذكر هو كما قال ولا ينبئك ايها السامع كائنا من كنت مثل خبير * ثم قال تعالى (يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد) لما كثر الدعاء من النبى صلى الله عليه وسلم والاصرار من الكفار قالوا ان الله لعله يحتاج الى عبادتنا حتى يأمر نابها أمرا بالغا ويهددنا على تركها مبالغا فقال تعالى أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه اليكم وانما هو لاشفاقه عليكم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) التعريف فى الخبر قليل والاكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدأ معرفة وهو معقول وذلك لان المخبر لا يخبر فى الاكثر الا بأمر لا يكون عند المخبر به علم أو فى ظن المتكلم ان السامع لا علم له به ثم ان المبتدأ لابد من أن يكون معلوما عند السامع حتى يقول له أيها السامع الامر الذى تعرفه أنت فيه المعنى الفلانى كقول القائل زيد قائم أو قام أى زيد الذى تعرفه ثبت له قيام لا علم عندك به فان كان الخبر معلوما عند السامع والمبتدأ كذلك ويقع الخبر تنبيها لا تفهيما يحسن تعريف الخبر غاية الحسن كقول القائل الله ربنا ومحمد نبينا حيث عرف كون الله ربا وكون محمد نبيا وههنا لما كان كون الناس فقراء أمرا ظاهرا لا يخفى على أحد قال أنتم الفقراء (المسئلة الثانية) قوله الى الله اعلام بأنه لا افتقار الا اليه ولا اتكال الا عليه وهذا يوجب عبادته لكونه مفتقرا اليه وعدم عبادة غيره لعدم الافتقار الى غيره ثم قال والله هو الغنى أى هو مع استغنائه يدعوكم كل الدعاء وانتم مع احتياجكم لا تجيبونه ولا تدعونه فيجيبكم (المسئلة الثالثة) فى قوله الحميد لما زاد فى الخبر الاول وهو قوله انتم الفقراء زيادة وهو قوله الى الله اشارة الى وجوب حصر العبادة فى عبادته زاد فى وصفه بالغنى زيادة وهو كونه حميدا اشارة الى كونكم فقراء وفى مقابلته الله غنى وفقركم اليه فى مقابلة نعمه عليكم لكونه حميدا واجب الشكر فلستم أنتم فقراء والله مثلكم فى الفقر بل هو غنى على الاطلاق ولستم أنتم لما افتقرتم اليه

الصلاة والسلام (هو يبور) أي هو يهلك و يفسد خاصة لا من مكروا به ولقد أبارهم الله تعالى بعد إبارة مكراتهم حيث أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب بدر فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقه عليه الصلاة والسلام بواحدة منهن (والله خلقكم من تراب) دليل آخر على صحة البعث والنشور أي خلقكم ابتداء منه في ضمن خلق آدم عليه السلام خلقا اجماليا كما مر تحقيقه مرارا (ثم من نطفة) أي خلقكم منها خلقا تفصيليا (ثم جعلكم أزواجا) ﴿٣٨﴾ اي أصنافا أو ذكرانا وإناثا وعن قتادة جعل بعضكم زوجا لبعض (وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) إلا ملتبسة بعلمه تابعة لمشيئته (وما يعمر من معمر) أي من أحد وإنما سمي معمرا باعتبار مصيره أي وما يمد في عمر أحد (ولا ينقص من عمره) أي من عمر أحد على طريقة قولهم لا يثيب الله عبدا ولا يعاقبه إلا بحق لكن لا على معنى لا ينقص عمره بعد كونه زائدا بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصا وقيل الزيادة والنقص في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبتت في اللوح مثل أن يكتب فيه إن حج فلان فعمره ستون وإلا فأربعون وإليه أشار عليه الصلاة والسلام بقوله الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار وقيل المراد بالنقص ما يمر من عمره وينقص فإنه يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة ثم يكتب تحت ذلك ذهب يوم ذهب يومان وهكذا حتى يأتي على آخره وقرئ ولا ينقص على البناء للفاعل ومن عمره بسكون الميم (إلا في كتاب) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه اللوح وقيل علم الله عزوجل وقيل صحيفة كل إنسان (إن ذلك) أي ما ذكر من الخلق وما بعده مع كونه محار العقول والأفهام (على الله يسير) لاستغنائه عن الأسباب فكذلك البعث ﴿ان﴾ (وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ

تركتكم غير مقضي الحاجات بل قضى في الدنيا حوائجكم وإن آمنتم يقض في الآخرة حوائجكم فهو حميد * ثم قال تعالى (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) بيانا لغناه وفيه بلاغة كاملة وبيانها أنه تعالى قال إن يشأ يذهبكم أي ليس إذهابكم موقوفا إلا على مشيئته بخلاف الشيء المحتاج إليه فإن المحتاج لا يقول فيه إن شاء فلان هدم داره وأعدم عقاره وإنما يقول لولا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها أو لولا الافتقار إلى العقار لتركته ثم إنه تعالى زاد بيان الاستغناء بقوله ويأت بخلق جديد يعني إن كان يتوهم متوهم أن هذا الملك له كمال عظمة فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فهو قادر بأن يخلق خلقا جديدا أحسن من هذا وأجمل وأتم وأكمل * ثم قال تعالى (وما ذلك على الله بعزيز) أي الإذهاب والإتيان وههنا مسألة وهي أن لفظ العزيز استعمله الله تعالى تارة في القائم بنفسه حيث قال في حق نفسه وكان الله قويا عزيزا وقال في هذه السورة إن الله عزيز غفور واستعمله في القائم بغيره حيث قال وما ذلك على الله بعزيز وقال عزيز عليه ما عنتم فهل هما بمعنى واحد أم بمعنيين فنقول العزيز هو الغالب في اللغة يقال من عز بز أي من غلب سلب فالله عزيز أي غالب والفعل إذا كان لا يطيقه شخص يقال هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله وما ذلك على الله بعزيز أي لا يغلب الله ذلك الفعل بل هو هين على الله وقوله عزيز عليه ما عنتم أي يحزنه ويؤذيه كالشغل الغالب * قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) متعلق بما قبله وذلك من حيث إنه تعالى لما بين الحق بالدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة ذكر ما يدعوهم إلى النظر فيه فقال ولا تزر وازرة وزر أخرى أي لا تحمل نفس ذنب نفس فالنبي صلى الله عليه وسلم لو كان كاذبا في دعائه لكان مذنبا وهو معتقد بأن ذنبه لا تحملونه أنتم فهو يتوقى ويحترز والله تعالى غير فقير إلى عبادتكم فتفكروا واعلموا أنكم إن ضللتم فلا يحمل أحد عنكم وزركم وليس كما يقول أكابركم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وفي الآية مسائل (المسألة الأولى) قوله وازرة أي نفس وازرة ولم يقل ولا تزر نفس وزر أخرى ولا جمع بين الموصوف والصفة فلم يقل ولا تزر نفس وازرة وزر أخرى لفائدة (أما الأول) فلأنه لو قال ولا تزر نفس وزر أخرى لما علم أن كل نفس وازرة مهمومة بهم وزرها متحيرة في أمرها (ووجه آخر) وهو أن قول القائل ولا تزر نفس وزر أخرى قد يجتمع معها أن لا تزر وزرا أصلا كالمعصوم لا يزر وزر غيره ومع ذلك لا يزر وزرا أصلا فقوله ولا تزر وازرة يبين أنها تزر وزرها ولا تزر وزر الغير (وأما) ترك ذكر الموصوف فلظهور الصفة ولزومها للموصوف ثم قال تعالى وإن تدع مثقلة إشارة إلى أن أحدا لا يحمل عن أحد شيئا مبتدئا ولا بعد السؤال فإن المحتاج قد يصبر وتقضى حاجته من غير سؤاله فإذا انتهى الافتقار إلى حد الكمال يحوجه إلى السؤال (المسألة الثانية) في قوله مثقلة زيادة بيان لما تقدم من حيث إنه قال أولا ولا تزر وازرة وزر أخرى فيظن أن أحدا لا يحمل عن أحد لكون ذلك الواحد قادرا على حمله كما

وقوله تعالى (ومن كل) أي من كل واحد منهما (تأكلون لحما طريا وتستخرجون) أي من المالح خاصة (حلية تلبسونها) اما استطراد
في صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع واما تكملة للتمثيل والمعنى كما أنهما وان اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث
انهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات من الماء لما خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته لا يساوي الكافر المؤمن وان
شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ﴿ ٣٩ ﴾ ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على
فطرته الاصلية وحيازته لكماله
اللائق دون الآخر أو تفضيل
للاجاج على الكافر من حيث
انه يشارك العذب في منافع
كثيرة والكافر خلو من المنافع
بالكلية على طريقة قوله تعالى
ثم قست قلوبكم من بعد ذلك
فهي كالحجارة أو أشد قسوة
وان من الحجارة لما يتفجر منه
الانهار وان منها لما يشقق
فيخرج منه الماء وان منها لما
يهبط من خشية الله والمراد
بالحلية اللؤلؤ والمرجان (وترى
الفلك فيه) أي في كل منهما
وافراد ضمير الخطاب مع جمعه
فيما سبق وما لحق لان الخطاب
لكل أحد تتأتى منه الرؤية دون
المنتفعين بالبحرين فقط
(مواخر) شواق للماء بجريها
مقبلة ومدبرة بريح واحدة
(لتبتغوا من فضله) من فضل
الله تعالى بالنقلة فيها واللام
متعلقة بمواخر وقد يجوز
تعلقها بما دل عليه الافعال
المذكورة أي فعل ذلك
لتبتغوا من فضله (ولعلكم
تشكرون) أي ولتشكروا على
ذلك وحرف الترجي للايذان
بكونه مرضيا عند الله تعالى
(يولج الليل في النهار ويولج
النهار في الليل) بزيادة احدهما ونقص الآخر باضافة بعض أجزاء كل منهما الى الآخر (وسخر الشمس والقمر) عطف على
يولج واختلافهما صيغة لما أن ايلاج أحد الملوين في الآخر متجدد حينا فحينا وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه وانما المتعدد
والمتجدد آثاره وقد أشير اليه بقوله تعالى (كل يجري) أي بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات

ان القوي اذا أخذ بيده رمانة أو سفرجلة لا يحمل عنه واما اذا كان الحمل ثقيلا قد يرحم
الحامل فيحمل عنه فقال مثقلة يعني ليس عدم الوزر لعدم كونه محلا للرحمة بالثقل بل
لكون النفس مثقلة ولا يحمل منها شيء (المسألة الثالثة) زاد في ذلك بقوله ولو كان ذا قربى
أي المدعو لو كان ذا قربى لا يحمله وفي الاول كان يمكن أن يقال لا يحمله لعدم تعلقه به
كالعدو والذي يرى عدوه تحت ثقل أو الاجنبي الذي يرى أجنبيا تحت حمل لا يحمل عنه
فقال ولو كان ذا قربى أي يحصل جميع المعاني الداعية الى الحمل من كون النفس وازرة
قوية تحتمل وكون الاخرى مثقلة لا يقال كونها قوية قادرة ليس عليها حمل وكونها سائلة
داعية فان السؤال مظنة الرحمة ولو كان المسؤل قريبا فاذن لا يكون التخلف الا لمانع وهو
كون كل نفس تحت حمل ثقيل * ثم قال تعالى (انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب
وأقاموا الصلوة) اشارة الى أن لا ارشاد فوق ما أتيت به ولم يفدهم فلا تنذر انذارا مفيدا
الا الذين تمتلئ قلوبهم خشية وتتحلى ظواهرهم بالعبادة كقوله الذين آمنوا اشارة الى عمل
القلب وعملوا الصالحات اشارة الى عمل الظواهر فقوله الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا
الصلاة في ذلك المعنى ثم لما بين ان لا تزر وازرة وزر أخرى بين ان الحسنة تنفع المحسنين
فقال (ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه) أي فتزكيته لنفسه * ثم قال تعالى (والى الله المصير)
أي المتزكي ان لم تظهر فائدته عاجلا فالمصير الى الله يظهر عنده في يوم اللقاء في دار البقاء
والوازر ان لم تظهر تبعة وزره في الدنيا فهي تظهر في الآخرة اذ المصير الى الله * ثم قال
تعالى (وما يستوي الاعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي
الاحياء ولا الاموات) لما بين الهدى والضلالة ولم يهتد الكافر وهدى الله المؤمن ضرب
لهم مثلا بالبصير والاعمى فالمؤمن بصير حيث أبصر الطريق الواضح والكافر أعمى وفي
تفسير الآية مسائل (المسألة الاولى) ما الفائدة في تكثير الامثلة ههنا حيث ذكر الاعمى
والبصير والظلمة والنور والظل والحرور والاحياء والاموات فنقول الاول مثل المؤمن
والكافر فالمؤمن بصير والكافر أعمى ثم البصير وان كان حديد البصر ولكن لا يبصر
شيئا ان لم يكن في ضوء فذكر للايمان والكفر مثلا وقال الايمان نور والمؤمن بصير والبصير
لا يخفى عليه النور والكفر ظلمة والكافر أعمى فله صاد فوق صاد ثم ذكر لمآلهما
ومرجعهما مثلا وهو الظل والحرور فالمؤمن بايمانه في ظل وراحة والكافر بكفره في حر
وتعب ثم قال تعالى وما يستوي الاحياء ولا الاموات مثلا آخر في حق المؤمن والكافر
كأنه قال تعالى حال المؤمن والكافر فوق حال الاعمى والبصير فان الاعمى يشارك البصير
في ادراك ما والكافر غير مدرك ادراكا نافعا فهو كالميت ويدل على ما ذكرنا انه تعالى
أعاد الفعل حيث قال أولا وما يستوي الاعمى والبصير وعطف الظلمات والنور والظل
والحرور ثم أعاد الفعل وقال وما يستوي الاحياء ولا الاموات كأنه جعل هذا مقابلا لذلك
(المسألة الثانية) كرر كلمة النفي بين الظلمات والنور والظل والحرور والاحياء والاموات

تعدد أيام السنة جريانا مستمرا (لاجل مسمى) قدره الله تعالى لجريانهما وهو يوم القيامة كما روى عن الحسن رحمه الله وقيل جريانهما عبارة عن حركتيهما الخاصتين بهما في فلكيهما والاجل المسمى هو منتهى دورتيهما ومدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهر وقدمر تفصيله في سورة لقمان (ذلكم) اشارة الى فاعل الافاعيل المذكورة ومافيه من معنى البعد للايذان بغاية العظمة وهو مبتدأ ومابعده أخبار مترادفة أي ذلكم العظيم الشان الذي أبدع هذه الصنائع ﴿ ٤٠ ﴾ البديعة (الله ربكم له الملك) وفيه من الدلالة على ان ابداعه تعالى لتلك البدائع مما يوجب ثبوت تلك الاخبار له مالا يخفى ويجوز أن يكون الاخير كلاما مبتدا في مقابلة قوله تعالى (والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير) للدلالة على تفرده تعالى بالالوهية والربوبية وقرئ يدعون بالياء التحتانية والقطمير لفافة النواة وهو مثل في القلة والحقارة (ان تدعوهم لايسمعوا دعاءكم) استئناف مقرر لمضمون ماقبله كاشف عن جلية حال مايدعونه بأنه جماد ليس من شأنه السماع (ولو سمعوا) على الفرض والتقدير (مااستجابوا لكم) لعجزهم عن الافعال بالمرة لا لما قيل من أنهم متبرؤن منكم ومما تدعون لهم فان ذلك مما لا يتصور منهم في الدنيا (ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أي يجحدون باشراككم لهم وعبادتكم اياهم بقولهم ما كنتم ايانا تعبدون (ولاينبئك مثل خبير) أي لايخبرك بالامر مخبر مثل خبير أخبرك به وهو الحق سبحانه فانه الخبير بكنه الامور دون سائر المخبرين والمراد تحقيق ماأخبر به من حال آلهتهم ونفي مايدعون لهم من الالهية (ياأيها الناس أنتم الفقراء الى الله) في أنفسكم وفيما يعن لكم من أمر مهم أو خطب ملم وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب وان افتقار سائر الخلائق بالنسبة الى فقرهم بمنزلة العدم ولذلك قال تعالى وخلق الانسان ضعيفا (والله هو الغني الحميد) أي المستغني على الاطلاق

ولم يكرر بين الاعمى والبصير وذلك لان التكرير للتأكيد والمنافاة بين الظلمة والنور والظل والحرور مضادة فالظلمة تنافي النور وتضاده والعمى والبصر كذلك أما الاعمى والبصير ليس كذلك بل الشخص الواحد قد يكون بصيرا وهو بعينه يصير أعمى فالاعمى والبصير لامنافاة بينهما الا من حيث الوصف والظل والحرور المنافاة بينهما ذاتية لان المراد من الظل عدم الحر والبرد فلما كانت المنافاة هناك اتم أكد بالتكرار وأما الاحياء والاموات وان كانوا كالاعمى والبصير من حيث ان الجسم الواحد يكون حيا محلا للحياة فيصير ميتا محلا للموت ولكن المنافاة بين الحي والميت أتم من المنافاة بين الاعمى والبصير كما بينا ان الاعمى والبصير يشتركان في ادراك أشياء ولا كذلك الحي والميت كيف والميت يخالف الحي في الحقيقة لا في الوصف على ماتبين في الحكمة الالهية (المسألة الثالثة) قدم الاشرف في مثلين وهو الظل والحي وأخره في مثلين وهو البصر والنور وفي مثل هذا يقول المفسرون انه لتواخي أواخر الآي وهو ضعيف لان تواخي الاواخر راجع الى السجع ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع فيكون اللفظ حاملا له على تغيير المعنى وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح واللفظ فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى فنقول الكفار قبل النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في ضلالة فكانوا كالعمي وطريقهم كالظلمة ثم لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وبين الحق واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين وطريقتهم كالنور فقال ومايستوي من كان قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده الى الايمان فلما كان الكفر قبل الايمان في زمان محمد صلى الله عليه وسلم والكافر قبل المؤمن قدم المقدم ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على مايتعلق بالغضب لقوله في الالهيات سبقت رحمتي غضبي ثم ان الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الاعمى وشابه الاموات في عدم ادراك الحق من جميع الوجوه فقال ومايستوي الاحياء أي المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله والاموات الذين تليت عليهم الآيات البينات ولم ينتفعوا بها وهؤلاء كانوا بعد ايمان من آمن فأخرهم عن المؤمنين لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافرين المعاندين وقدم الاعمى على البصير لوجود الكفار الضالين قبل البعثة على المؤمنين المهتدين بعدها (المسألة الرابعة) فان قلت قابل الاعمى بالبصير بلفظ المفرد وكذلك الظل بالحرور وقابل الاحياء بالاموات بلفظ الجمع وقابل الظلمات بالنور بلفظ الجمع في أحدهما والواحد في الآخر فهل تعرف فيه حكمة قلت نعم بفضل الله وهدايته اما في العمى والبصير والظل والحرور فلانه قابل الجنس بالجنس ولم يذكر الافراد لان في العميان وأولي الابصار قد يوجد فرد من أحد الجنسين يساوي فردا من الجنس الآخر كالبصير الغريب في موضع والاعمى الذي هو تربية ذلك المكان وقد يقدر الاعمى على الوصول الى مقصد ولا يقدر البصير عليه أو يكون الاعمى عنده من الذكاء مايساوي به البليد البصير فالتفاوت بينهما في الجنسين مقطوع به فان

﴿جنس﴾

المنعم على سائر الموجودات المستوجب للحمد (ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) ليسوا على صفتكم بل مستمرون على الطاعة أو بعالم آخر غير ما تعرفونه (وما ذلك) أى ما ذكر من الاذهاب بهم والاتيان بآخرين (على الله بعزيز) بمتعذر ولا متعسر (ولا تزر وازرة) أى لا تحمل نفس ﴿ ٤١ ﴾ آثمة (وزر أخرى) اثم نفس أخرى بل انما تحمل كل منهما وزرها وأما فى قوله تعالى وليحملن أثقالهم و أثقالا مع أثقالهم من حمل المضلين أثقالا غير أثقالهم فهو حمل أثقال اضلالهم مع أثقال ضلالهم وكلاهما أوزارهم ليس فيها من أوزار غيرهم شئ (وان تدع مثقلة) اى نفس أثقلها الاوزار (الى حملها) لحمل بعض أوزارها (لا يحمل منه شئ) لم تجب بحمل شئ منه (ولو كان) أى المدعو المفهوم من الدعوة (ذا قربى) ذا قرابة من الداعى وقرئ ذو قربى وهذا نفى للحمل اختيارا والاول نفى له اجبارا (انما تنذر) استئناف مسوق لبيان من يتعظ بما ذكر أى انما تنذر بهذه الانذارات (الذين يخشون ربهم بالغيب) أى يخشونه تعالى غائبين عن عذابه أو عن الناس فى خلواتهم أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم (وأقاموا الصلوة) أى راعوها كما ينبغى وجعلوها منارا منصوبا وعلما مرفوعا أى انما ينفع انذارك وتحذيرك هؤلاء ﴿ ٦ ﴾ سا من قومك دون من عداهم من أهل التمرد والعناد (ومن تزكى) ... من هذه الانذارات (فانما يتزكى لنفسه) لاقتصار نفعه عليها كما أن من تدنس

جنس البصير خير من جنس الاعمى وأما الاحياء والاموات فالتفاوت بينهما أكثر اذ ما من ميت يساوى فى الادراك حيا من الاحياء فذكر ان الاحياء لا يساوون الاموات سواء قابلت الجنس بالجنس أو قابلت الفرد بالفرد وأما الظلمات والنور فالحق واحد وهو التوحيد والباطل كثير وهو طرق الاشراك على ما بينا أن بعضهم يعبدون الكواكب وبعضهم النار وبعضهم الاصنام التى هى على صورة الملائكة والى غير ذلك والتفاوت بين كل فرد من تلك الافراد و بين هذا الواحد بين فقال الظلمات كلها اذا اعتبرتها لا تجد فيها ما يساوى النور وقد ذكرنا فى تفسير قوله وجعل الظلمات والنور السبب فى توحيد النور وجمع الظلمات ومن جملة ذلك أن النور لا يكون الا بوجود منور ومحل قابل للاستنارة وعدم الحائل بين النور والمستنير مثاله الشمس اذا طلعت وكان هناك موضع قابل للاستنارة وهو الذى يمسك الشعاع فان البيت الذى فيه كوة يدخل منها الشعاع اذا كان فى مقابلة الكوة منفذ يخرج منه الشعاع و يدخل بيتا آخر و يبسط الشعاع على ارضه يرى البيت الثانى مضيئا والاول مظلما وان لم يكن هناك حائل كالبيت الذى لا كوة له فانه لا يضئ فاذا حصلت الامور الثلاثة يستنير البيت والا فلا تتحقق الظلمة بفقد أى أمر كان من الامور الثلاثة ❊ ثم قوله تعالى (ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور) وفيه احتمال معنيين (الاول) أن يكون المراد بيان كون الكفار بالنسبة الى سماعهم كلام النبى والوحى النازل عليه دون حال الموتى فان الله يسمع الموتى والنبى لا يسمع من مات وقبر فالموتى سامعون من الله والكفار كالموتى لا يسمعون من النبى (والثانى) أن يكون المراد تسلية النبى صلى الله عليه وسلم فانه لما بين له أنه لا ينفعهم ولا يسمعهم قال له هؤلاء لا يسمعهم الا الله فانه يسمع من يشاء ولو كان صخرة صماء وأما أنت فلا تسمع من فى القبور فما عليك من حسابهم من شئ * ثم قال تعالى (ان أنت الا نذير) بيانا للتسلية * ثم قال تعالى (انا ارسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) لما قال ان انت الا نذير بين انه ليس نذيرا من تلقاء نفسه انما هو نذير باذن الله وارساله ❊ ثم قال تعالى (وان من امة الا خلا فيها نذير) تقريرا للامرين (احدهما) التسلية قلبه حيث يعلم ان غيره كان مثله محتملا لاذى القوم (وثانيهما) الزام القوم قبوله فانه ليس بدعا من الرسل وانما هو مثل غيره يدعى ما ادعاه الرسل و يقرره ❊ قوله تعالى (وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات) يعنى ان جئتهم بالبينة والكتاب فكذبوك وآذوك وغيرك ايضا اتاهم بمثل ذلك وفعلوا بهم ما فعلوا بك وصبروا على ما كذبوا فكذلك نلزمهم بأن من تقدم من الرسل لم يعلم كونهم رسلا الا بالمعجزات البينات وقد آتيناها محمدا صلى الله عليه وسلم (وبالزبر وبالكتاب المنير) والكل آتيناها محمدا فهو رسول مثل الرسل يلزمهم قبوله كما لزم قبول موسى وعيسى عليهم السلام اجمعين وهذا يكون تقريرا مع اهل الكتاب واعلم انه تعالى ذكر امورا ثلاثة اولها البينات وذلك لان كل رسول فلا بد له من معجزة وهى ادنى الدرجات ثم

اعتراض مقرر لخشيتهم واقامتهم الصلاة لانهما من معظم مبادى التزكى (والى الله المصير) لا الى أحد غيره استقلالا أو اشتراكا فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء (ومايستوى الاعمى والبصير) أى الكافر والمؤمن (ولا الظلمات ولا النور) أى ولا الباطل ولا الحق وجمع الظلمات مع افراد النور لتعدد فنون

الباطل واتحاد الحق (ولا الظل ولا الحرور) أى ولا الثواب ولا العقاب وادخال لا على المتقابلين لتذكير نفى الاستواء وتوسيطها بينهما للتأكيد والحرور فعول من الحر غلب على السموم وقيل السموم مايهب نهارا والحرور مايهب ليلا (ومايستوى الاحياء ولا الاموات) تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين أبلغ من الاول ولذلك كرر الفعل وأوثر صيغة الجمع فى الطرفين تحقيقا للتباين بين أفراد الفريقين وقيل تمثيل للعلماء والجهلة (ان الله يسمع من يشاء) أن يسمعه ويوفقه لفهم آياته والاتعاظ بعظاته (وما انت بمسمع من فى القبور) ترشيح لتمثيل المصرين على الكفر بالاموات واشباع فى اقناطه عليه الصلاة والسلام من ايمانهم (ان أنت الا نذير) ماعليك الا الانذار وأما الاسماع البتة فليس من وظائفك ولا حيلة لك اليه فى المطبوع على قلوبهم (انا أرسلناك بالحق) أى محقين أو محقا أنت أو ارسالا مصحوبا بالحق ويجوز أن يتعلق بقوله (بشيرا ونذيرا) أى بشيرا بالوعد الحق ونذيرا بالوعيد الحق (وان من أمة) أى مامن أمة من الامم الدارجة فى الازمنة الماضية (الا خلا) أى مضى (فيها نذير) من نبى أو عالم ينذرهم والاكتفاء بذكر ...

قد ينزل عليه كتاب يكون فيه مواعظ وتنبيهات وان لم يكن فيه نسخ واحكام مشروعة شرعا ناسخا ومن ينزل عليه مثله أعلى مرتبة ممن لا ينزل عليه ذلك وقد تنسخ شريعته الشرائع وينزل عليه كتاب فيه أحكام على وفق الحكمة الالهية ومن يكون كذلك فهو من أولى العزم فقال الرسل تبين رسالتهم بالبينات وان كانوا أعلى مرتبة فبالزبر وان كانوا أعلى فبالكتاب والنبى آتيناه الكل فهو رسول أشرف من الكل لكون كتابه أتم وأكمل من كل كتاب * ثم قال تعالى (ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) أى من كذب بالكتاب المنزل من قبل وبالرسول المرسل أخذه الله تعالى فكذلك من يكذب بالنبى عليه السلام وقوله فكيف كان نكير سؤال للتقرير فانهم علموا شدة انكار الله عليهم واتيانه بالامر المنكر من الاستئصال * ثم قال تعالى (ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) وهذا استدلال بدليل آخر على وحدانية الله وقدرته وفى تفسيرها مسائل (المسئلة الاولى) ذكر هذا الدليل على طريقة الاستخبار وقال ألم تر وذكر الدليل المتقدم على طريقة الاخبار وقال والله الذى أرسل الرياح وفيه وجهان (الاول) ان انزال الماء أقرب الى النفع والمنفعة فيه أظهر فانه لا يخفى على أحد فى الرؤية أن الماء منه حياة الارض فعظم دلالته بالاستفهام لان الاستفهام الذى للتقرير لا يقال الا فى الشئ الظاهر جدا كما أن من أبصر الهلال وهو خفى جدا فقال له غيره أين هو فانه يقول له فى الموضع الفلانى فان لم يره يقول له الحق معك انه خفى وأنت معذور واذا كان بارزا يقول له أماتراه هذا هو ظاهر (والثانى) هو أنه ذكره بعد ما قرر المسئلة بدليل آخر وظهر بما تقدم للمدعو بصارة بوجوه الدلالات فقال له أنت صرت بصيرا بما ذكرناه ولم يبق لك عذر ألا ترى هذه الآية (المسئلة الثانية) المخاطب من هو يحتمل وجهين (أحدهما) النبى صلى الله عليه وسلم وفيه حكمة وهى ان الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت الى غيرهم كما ان السيد اذا نصح بعض العبيد ومنعهم من الفساد ولا ينفعهم الارشاد يقول لغيره اسمع ولا تكن مثل هذا ويكرر معه ما ذكره مع الاول ويكون فيه اشعار بأن الاول فيه نقيصة لا يستأهل للخطاب فيتنبه له ويدفع عن نفسه تلك النقيصة (والآخر) أن لا يخرج الى كلام أجنبى عن الاول بل يأتى بما يقاربه لئلا يسمع الاول كلاما آخر فيترك التفكر فيما كان فيه من النصيحة (المسئلة الثالثة) هذا استدلال على قدرة الله واختياره حيث أخرج من الماء الواحد ثمرات مختلفة وفيه لطائف (الاولى) قال أنزل وقال أخرجنا وقد ذكرنا فائدته ونعيدها فنقول قال الله تعالى ألم تر أن الله أنزل فان كان جاهلا يقول نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له فالاخراج لا يمكنك ان تقول فيه انه بالطبع فهو بارادة الله فلما كان ذلك أظهر أسنده الى المتكلم (ووجه آخر) هو ان الله تعالى لما قال أن الله أنزل علم الله بدليل وقرب المتفكر فيه الى الله تعالى فصار من الحاضرين فقال له أخرجنا لقربه (ووجه ثالث) الاخراج اتم نعمة من الانزال لان الانزال لفائدة

الاخراج فأسند الاتم الى نفسه بصيغة المتكلم ومادونه بصيغة الغائب (اللطيفة الثانية)
* قال تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك) كان قائلا قال اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع ألاترى أن بعض النباتات لاتنبت ببعض البلاد كالزعفران وغيره فقال تعالى اختلاف البقاع ليس الابارادة الله والافلم صار بعض الجبال فيه مواضع حمر ومواضع بيض والجدد جمع جدة وهى الخطة أوالطريقة فان قيل الواو فى ومن الجبال ماتقديرها نقول هى تحتمل وجهين (أحدهما) أن تكون للاستئناف كأنه قال تعالى وأخرجنا بالماء ثمرات مختلفة الالوان وفى الأشياء الكائنات من الجبال جدد بيض دالة على القدرة رادة على من ينكر الارادة فى اختلاف ألوان الثمار (ثانيهما) أن تكون للعطف تقديرها وخلق من الجبال قال الزمخشرى أراد ذو جدد (واللطيفة الثالثة) ذكر الجبال ولم يذكر الارض كما قال فى موضع آخر وفى الارض قطع متجاورات مع ان هذا الدليل مثل ذلك وذلك لان الله تعالى لما ذكر فى الاول أخرجنا به ثمرات كان نفس اخراج الثمار دليلا على القدرة ثم زاد عليه بيانا وقال مختلفا كذلك فى الجبال فى نفسها دليل للقدرة والارادة لان كون الجبل فى بعض نواحى الارض دون بعضها والاختلاف الذى فى هيئة الجبل فان بعضها يكون أخفض و بعضها أرفع دليل القدرة والاختيار ثم زاده بيانا وقال جدد بيض أى مع دلالتها بنفسها هى دالة باختلاف ألوانها كما أن اخراج الثمرات فى نفسها دلائل واختلاف ألوانها دلائل (المسئلة الرابعة) مختلف ألوانها الظاهر أن الاختلاف راجع الى كل لون أى بيض مختلف ألوانها وحمر مختلف ألوانها لان الابيض قد يكون على لون الجص وقد يكون على لون التراب الابيض دون بياض الجص وكذلك الاحمر ولو كان المراد أن البيض والحمر مختلف الالوان لكان مجرد تأكيد والاول أولى وعلى هذا فنقول لم يذكر مختلف ألوانها بعد البيض والحمر والسود بل ذكره بعد البيض والحمر وأخر السود الغرابيب لان الاسود لما ذكره مع المؤكد وهو الغرابيب يكون بالغا غاية السواد فلا يكون فيه اختلاف (المسئلة الخامسة) قيل بأن الغربيب مؤكد للاسود يقال أسود غربيب والمؤكد لايجىء الامتأخرا فكيف جاء غرابيب سود نقول قال الزمخشرى غرابيب مؤكد لذى لون مقدر فى الكلام كأنه تعالى قال سود غرابيب ثم أعاد السود مرة أخرى وفيه فائدة وهى زيادة التأكيد لانه تعالى ذكره مضمرا ومظهرا ومنهم من قال هو على التقديم والتأخير ثم قال تعالى ومن الناس والدواب والانعام استدلالا آخر على قدرته وارادته وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق فى العالم الذى نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين حيوان وغير حيوان وغير الحيوان امانبات واما معدن والنبات أشرف وأشار اليه بقوله فاخرجنا به ثمرات ثم ذكر المعدن بقوله ومن الجبال ثم ذكر الحيوان و بدأ بالاشرف منها وهو الانسان فقال ومن الناس ثم ذكر الدواب لان منافعها

بان النذارة قرينة البشارة لاسيما وقد اقترنا آنفا ولان الانذار هو الانسب بالمقام (وان يكذبوك) أى تموا على تكذيبك فلا تبال بهم و بتكذيبهم (فقد كذب الذين من قبلهم) من الامم العاتية (جاءتهم رسلهم بالبينات) أى المعجزات الظاهرة الدالة على نبوتهم (وبالزبر) كصحف ابراهيم (وبالكتاب المنير) كالتوراة والانجيل والزبور وعلى ارادة التفصيل دون الجمع ويجوز أن يراد بهما واحد والعطف لتغاير العنوانين (ثم أخذت الذين كفروا) وضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بمافى حيز الصلة والاشعار بعلة الاخذ (فكيف كان نكير) أى انكارى بالعقوبة وفيه مزيد تشديد وتهويل لها (ألم تر) استئناف مسوق لتقرير ماقبله من اختلاف أحوال الناس ببيان أن الاختلاف والتفاوت أمر مطرد فى جميع المخلوقات من النبات والجماد والحيوان والرؤية قلبية أى ألم تعلم (أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) بذلك الماء والالتفات لاظهار كمال الاعتناء بالفعل لمافيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة (ثمرات مختلفا ألوانها) أى أجناسها أو أصنافها على أن كلا منها ذو أصناف مختلفة أوهيآتها وأشكالها أو ألوانها من الصفرة والخضرة والحمرة وغيرها وهو الاوفق لمافى قوله تعالى (ومن الجبال جدد) أى ذو جدد أى خطط وطرائق و يقال جدة الحمار

(وغرابيب سود) عطف على بيض او على جدد كأنه قيل ومن الجبال مخطط ذو جدد ومنها ماهو على لون واحد غرابيب وهو تأكيد لمضمر يفسره مابعده فان الغربيب تأكيد للاسود كالفاقع للاصفر والقانئ للاحمر ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد ونظيره فى الصفة قول النابغة * والمؤمن ﴿ ٤٤ ﴾ العائذات الطير يمسحها * وفى مثله مزيد تأكيد لما فيه من التكرار باعتبار الاضمار والاظهار (ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه) أى ومنهم بعض مختلف ألوانه او وبعضهم مختلف الوانه على مامر فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وايراد الجملتين اسميتين مع مشاركتهما ما قبلهما من الجملة الفعلية فى الاستشهاد بمضمونهما على تباين الناس فى الاحوال الباطنة لأن اختلاف الجبال والناس والدواب والانعام فيما ذكر من الالوان أمر مستمر فعبر عنه بما يدل على الاستمرار وأما اخراج الثمرات المختلفة فحيث كان أمرا حادثا عبر عنه بما يدل على الحدوث ثم لما كان فيه نوع خفاء علق به الرؤية ثم بطريق الاستفهام التقريرى المنبئ عن الحمل عليها والترغيب فيها بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما فانها مشاهدة غنية عن التأمل فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية فتدبر وقوله تعالى (كذلك) مصدر تشبيهى لقوله تعالى مختلف أى صفة لمصدره المؤكد تقديره مختلف اختلافا كائنا كذلك أى كاختلاف الثمار والجبال وقرئ ألوانا وقرئ والدواب بالتخفيف

﴿ الاصل ﴾

فى حياتها والانعام منفعتها فى الاكل منها أولان الدابة فى العرف تطلق على الفرس وهو بعد الانسان أشرف من غيره وقوله مختلف ألوانه القول فيه كما أنها فى أنفسها دلائل كذلك فى اختلافها دلائل وأما قوله مختلف الوانه فذكر لكون الانسان من جملة المذكورين وكون التذكير أعلى وأولى * ثم قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور) الخشية بقدر معرفة المخشى والعالم يعرف الله فيخافه و يرجوه وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد لان الله تعالى قال ان أكرمكم عند الله أتقاكم فبين ان الكرامة بقدر التقوى والتقوى بقدر العلم فالكرامة بقدر العلم لا بقدر العمل نعم العالم اذا ترك العمل قدح ذلك فى علمه فان من يراه يقول لو علم لعمل ثم قال تعالى ان الله عزيز غفور ذكر مايوجب الخوف والرجاء فكونه عزيزا ذا انتقام يوجب الخوف التام وكونه غفورا لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ وقراءة من قرأ بنصب العلماء ورفع الله معناها انما يعظم و يبجل * ثم قال تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله) لما بين العلماء بالله وخشيتهم وكرامتهم بسبب خشيتهم ذكر العالمين بكتاب الله العاملين بما فيه وقوله يتلون كتاب الله اشارة الى الذكر وقوله تعالى (وأقاموا الصلاة) اشارة الى العمل البدنى وقوله (وأنفقوا مما رزقناهم) اشارة الى العمل المالى وفى الآيتين حكمة بالغة فقوله انما يخشى الله اشارة الى عمل القلب وقوله ان الذين يتلون اشارة الى عمل اللسان وقوله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم اشارة الى عمل الجوارح ثم ان هذه الاشياء الثلاثة متعلقة بجانب تعظيم الله والشفقة على خلقه لانا بينا ان من يعظم ملكا اذا رأى عبدا من عباده فى حاجة يلزمه قضاء حاجته وان تهاون فيه يخل بالتعظيم والى هذا أشار بقوله عبدى مرضت فما عدتنى فيقول العبد كيف تمرض وأنت رب العالمين فيقول الله مرض عبدى فلان وما زرته ولو زرته لوجدتنى عنده يعنى التعظيم متعلق بالشفقة بحيث لا شفقة على خلق الله لا تعظيم لجانب الله وقوله تعالى (سرا وعلانية) حث على الانفاق كيفما تهيأ فان تهيأ سرا فذاك ونعم والا فعلانية ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء فان ترك الخير مخافة أن يقال فيه انه مراء عين الرياء ويمكن أن يكون المراد بقوله سرا أى صدقة وعلانية أى زكاة فان الاعلان بالزكاة كالاعلان بالفرض وهو مستحب وقوله تعالى (يرجون تجارة لن تبور) اشارة الى الاخلاص أى ينفقون لا ليقال انه كريم ولا لشئ من الاشياء غير وجه الله فان غير الله بائر والتاجر فيه تجارته بائرة وقوله تعالى (ليوفيهم أجورهم) أى ماتوقعونه ولو كان أمرا بالغ الغاية (ويزيدهم من فضله) أى يعطيهم مالم يخطر ببالهم عند العمل ويحتمل أن يكون يزيدهم النظر اليه كما جاء فى تفسير الزيادة (انه غفور) عند اعطاء الاجور (شكور) عند اعطاء الزيادة * ثم قال تعالى (والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق) لما بين الاصل الاول وهو وجود الله الواحد بأنواع الدلائل من قوله والله الذى أرسل الرياح وقوله والله خلقكم وقوله ألم تر أن الله أنزل ذلك

لقوله تعالى انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب بتعيين من يخشاه عزوجل من الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم اما في الاوصاف المعنوية فبطريق التمثيل واما في الاوصاف الصورية فبطريق التصريح توفية لكل واحدة منهما حقها اللائق بها من البيان أي انما يخشاه تعالى ﴿٤٥﴾ بالغيب العالمون به عزوجل و بما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة لما أن مدار الخشية معرفة المخشي والعلم بشؤنه فمن كان أعلم به تعالى كان أخشى منه عزوجل كما قال عليه الصلاة والسلام انا أخشاكم لله وأتقاكم له ولذلك عقب بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته وحيث كان الكفرة بمعزل من هذه المعرفة امتنع انذارهم بالكلية وتقديم المفعول لان المقصود حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الامر وقرئ برفع الاسم الجليل ونصب العلماء على أن الخشية مستعارة للتعظيم فان المعظم يكون مهيبا (ان الله عزيز غفور) تعليل لوجوب الخشية لدلالته على أنه معاقب للمصر على طغيانه غفور للتائب عن عصيانه (ان الذين يتلون كتاب الله) أي يداومون على قراءته أو متابعة ما فيه حتى صارت سمة لهم وعنوانا والمراد بكتاب الله تعالى القرآن و قيل جنس كتب الله فيكون ثناء على المصدقين من الامم بعد اقتصاص حال المكذبين منهم وليس بذاك فان صيغة المضارع منادية باستمرار مشروعية تلاوته والعمل بما فيه

الاصل الثاني وهو الرسالة فقال والذي أوحينا اليك من الكتاب هو الحق وأيضا كانه قد ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم الله فقال والذي أوحينا اليك من الكتاب هو الحق تقريرا لما بين من الاجر والثواب في تلاوة كتاب الله فانه حق وصدق فتاليه محق ومحقق وفي تفسيرها مسائل (المسئلة الاولى) قوله من الكتاب يحتمل أن يكون لابتداء الغاية كما يقال أرسل الى كتاب من الامير أو الوالي وعلى هذا فالكتاب يمكن أن يكون المراد منه اللوح المحفوظ يعني الذي أوحينا من اللوح المحفوظ اليك حق و يمكن أن يكون المراد هو القرآن يعني الارشاد والتبيين الذي أوحينا اليك من القرآن و يحتمل أن يكون للبيان كما يقال أرسل الى فلان من الثياب والقماش جملة (المسئلة الثانية) قوله هو الحق آكد من قول القائل الذي أوحينا اليك حق من وجهين (أحدهما) ان تعريف الخبر يدل على أن الامر في غاية الظهور لان الخبر في الاكثر يكون نكرة لان الاخبار في الغالب يكون اعلاما بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لا بأمر يعرفه السامع كقولنا زيد قام فان السامع ينبغي أن يكون عارفا بزيد ولا يعلم قيامه فيخبر به فاذا كان الخبر أيضا معلوما فيكون الاخبار للتنبيه فيعرف باللام كقولنا زيد العالم في هذه المدينة اذا كان علمه مشهورا (المسئلة الثالثة) قوله (مصدقا لما بين يديه) حال مؤكدة لكونه حقا لان الحق اذا كان لا خلاف بينه و بين كتب الله يكون خاليا عن احتمال البطلان وفي قوله مصدقا تقرير لكونه وحيا لان النبي صلى الله عليه وسلم لما لم يكن قارئا كاتبا وأتى ببيان ما في كتب الله لا يكون ذلك الا من الله تعالى وجواب عن سؤال الكفار وهو أنهم كانوا يقولون بأن التوراة ورد فيها كذا والانجيل ذكر فيه كذا وكانوا يفترون من التثليث وغيره وكانوا يقولون بأن القرآن فيه خلاف ذلك فقال التوراة والانجيل لم يبق بهما وثوق بسبب تغييركم فهذا القرآن ما ورد فيه ان كان في التوراة فهو حق و باق على ما نزل وان لم يكن فيه و يكون فيه خلافه فهو ليس من التوراة فالقرآن مصدق للتوراة (وفيه وجه آخر) وهو أن يقال ان هذا الوحي مصدق لما تقدم لان الوحي لو لم يكن وجوده لكذب موسى وعيسى عليهما السلام في انزال التوراة والانجيل فاذا وجد الوحي ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم علم جوازه وصدق به ما تقدم وعلى هذا ففيه لطيفة وهي أنه تعالى جعل القرآن مصدقا لما مضى مع أن ما مضى أيضا مصدق له لان الوحي اذا نزل على واحد جاز أن ينزل على غيره وهو محمد صلى الله عليه وسلم ولم يجعل ما تقدم مصدقا للقرآن لان القرآن كونه معجزة يكفي في تصديقه بأنه وحي وأما ما تقدم فلا بد معه من معجزة تصدقه (المسئلة الرابعة) قوله (ان الله بعباده لخبير بصير) فيه وجهان (أحدهما) انه تقرير لكونه هو الحق لانه وحي من الله والله خبير عالم بالبواطن بصير عالم بالظواهر فلا يكون باطلا في وحيه لا في الباطن ولا في الظاهر (وثانيهما) أن يكون جوابا لما كانوا يقولونه انه لم لم ينزل على رجل عظيم فيقال ان الله بعباده لخبير يعلم بواطنهم و بصير يرى ظواهرهم

ظاهر اما الاسبيل اليه كيف لا والمقصود الترغيب فى دين الاسلام والعمل بالقرآن الناسخ لما بين يديه من الكتب فالغرض ابيان حقيتها قبل انتساخها والاشباع فى ذكر استتباعها لما ذكر من الفوائد العظيمة مما يورث الرغبة فى تلاوتها والاقبال على العمل بها وتخصيص التلاوة بما لم ينسخ منها باطل ﴿ ٤٦ ﴾ قطعا لما أن الباقى منشور وعاليس الاحكمها بل من حيث انه حكم القرآن وأما تلاوتها فبمعزل من المشروعية واستتباع الاجر بالمرة فتدبر (واقاموا الصلوة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) كيفما اتفق من غير قصد اليهما وقيل السر فى المسنونة والعلانية فى المفروضة (يرجون تجارة) تحصيل ثواب بالطاعة وهو خبر ان قوله تعالى (لن تبور) أى لن تكسد ولن تهلك بالخسران أصلا صفة لتجارة جئ بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران لانه اشتراء باق بفان والاخبار برجائهم من اكرم الاكرمين عدة قطعية بحصول مرجوهم وقوله تعالى (ليوفيهم أجورهم) متعلق بلن تبور على معنى أنه ينتفى عنها الكساد وتنفق عند الله تعالى ليوفيهم اجور أعمالهم (ويزيدهم من فضله) على ذلك من خزائن رحمته ما يشاء وقيل مضمر دل عليه ما عدمن أفعالهم المرضية أى فعلوا ذلك ليوفيهم الخ وقيل بيرجون على أن اللام للعاقبة (انه غفور شكور)

فاختار محمدا عليه السلام ولم يختر غيره فهو أصلح من الكل * ثم قال تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) اتفق أكثر المفسرين على أن المراد من الكتاب القرآن وعلى هذا فالذين اصطفيناهم الذين أخذوا بالكتاب وهم المؤمنون والظالم والمقتصد والسابق كلهم منهم ويدل عليه قوله تعالى جنات عدن يدخلونها أخبر بدخولهم الجنة وكلمة أورثنا أيضا تدل عليه لان الايراث اذا كان بعد الايحاء ولا كتاب بعد القرآن فهو الموروث والايراث المراد منه الاعطاء بعد ذهاب من كان بيده المعطى ويحتمل أن يقال المراد من الكتاب هو جنس الكتاب كما فى قوله تعالى جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير والمعنى على هذا انا أعطينا الكتاب الذين اصطفينا وهم الانبياء ويدل عليه ان لفظ المصطفى على الانبياء اطلاقه كثير ولا كذلك على غيرهم ولان قوله من عبادنا دل على أن العباد أكابر مكرمون بالاضافة اليه ثم ان المصطفين منهم أشرف منهم ولا يليق بمن يكون أشرف من الشرفاء أن يكون ظالما مع أن لفظ الظالم أطلقه الله فى كثير من المواضع على الكافر وسمى الشرك ظلما وعلى الوجه الاول التفسير ظاهر بين معناه آتينا القرآن لمن آمن بمحمد وأخذوه منه وافترقوا فمنهم ظالم وهو المسئ ومقتصد وهو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيأ وسابق بالخيرات وهو الذى أخلص العمل لله وجرده عن السيآت فان قال قائل كيف قال فى حق من ذكر فى حقه انه من عباده وأنه مصطفى انه ظالم مع أن الظالم يطلق على الكافر فى كثير من المواضع فنقول المؤمن عند المعصية يضع نفسه فى غير موضعها فهو ظالم لنفسه حال المعصية واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ويصحح هذا قول عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم ظالمنا مغفور له وقال آدم عليه السلام مع كونه مصطفى ربنا ظلمنا أنفسنا وأما الكافر فيضع قلبه الذى به اعتبار الجسد فى غير موضعه فهو ظالم على الاطلاق وأما قلب المؤمن فطمئن بالايمان لا يضعه فى غير التفكر فى آلاء الله ولا يضع فيه غير محبة الله وفى المراتب الثلاثة أقوال كثيرة (أحدها) الظالم هو الراجح السيآت والمقتصد هو الذى تساوت سيآته وحسناته والسابق هو الذى ترجحت حسناته (ثانيها) الظالم هو الذى ظاهره خير من باطنه والمقتصد من تساوى ظاهره وباطنه والسابق من باطنه خير (ثالثها) الظالم هو الموحد بلسانه الذى تخالفه جوارحه والمقتصد هو الموحد الذى يمنع جوارحه من المخالفة بالتكليف والسابق هو الموحد الذى ينسيه التوحيد عن التوحيد (رابعها) الظالم صاحب الكبيرة والمقتصد صاحب الصغيرة والسابق المعصوم (خامسها) الظالم التالى للقرآن غير العالم به والعامل بموجبه والمقتصد التالى العالم والسابق التالى العالم العامل (سادسها) الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم (سابعها) الظالم أصحاب المشأمة والمقتصد أصحاب الميمنة والسابق السابقون المقربون (ثامنها) الظالم الذى يحاسب فيدخل النار

وهو القرآن ومن للتبيين أو الجنس ومن للتبعيض وقيل اللوح ومن للابتداء (هو الحق مصدقا لما بين يديه) أي أحقه مصدقا لما تقدمه من الكتب السماوية حال مؤكدة لان حقيته تستلزم موافقته اياه في العقائد وأصول الاحكام (ان الله بعباده لخبير بصير) محيط ببواطن أمورهم وظواهرها فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوة لم يوح اليك مثل هذا الحق المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب وتقديم الخبير للتنبيه على أن العمدة هي الامور الروحانية (ثم أورثنا الكتاب) أي قضينا بتوريثه منك أو نورثه والتعبير عنه بالماضي لتقرره وتحققه وقيل أورثناه من الامم السالفة أي أخرناه عنهم وأعطيناه (الذين اصطفينا من عبادنا) وهم علماء الامة من الصحابة ومن بعدهم ممن يسير سيرتهم أو الامة باسرهم فان الله تعالى اصطفاهم على سائر الامم وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء الى أفضل رسله عليهم الصلاة والسلام وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله تعالى فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب الآية (فمنهم ظالم لنفسه) بالتقصير في العمل به وهو المرجا لامر الله (ومنهم مقتصد) يعمل به في أغلب الاوقات ولا يخلو من خلط السيئ (ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) قيل هم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار وقيل هم المداومون على اقامة

والمقتصد الذي يحاسب فيدخل الجنة والسابق الذي يدخل الجنة من غير حساب (تاسعها) الظالم المصر على المعصية والمقتصد هو النادم والتائب والسابق هو المقبول التوبة (عاشرها) الظالم الذي أخذ القرآن ولم يعمل به والمقتصد الذي عمل به والسابق الذي أخذه وعمل به وبين للناس العمل به فعملوا به بقوله فهو كامل ومكمل والمقتصد كامل والظالم ناقص والمختار هو أن الظالم من خالف فترك أوامر الله وارتكب مناهيه فانه واضع للشئ في غير موضعه والمقتصد هو المجتهد في ترك المخالفة وان لم يوفق لذلك وندر منه ذنب وصدر عنه اثم فانه اقتصد واجتهد وقصد الحق والسابق هو الذي لم يخالف بتوفيق الله ويدل عليه قوله تعالى (باذن الله) أي اجتهد ووفق لما اجتهد فيه وفيما اجتهد فهو سابق بالخير يقع في قلبه فيسبق اليه قبل تسويل النفس والمقتصد يقع في قلبه فترده النفس والظالم تغلبه النفس ونقول بعبارة أخرى من غلبته النفس الامارة وأمرته فأطاعها ظالم ومن جاهد نفسه فغلب تارة وغلب أخرى فهو المقتصد ومن قهر نفسه فهو السابق وقوله (ذلك هو الفضل الكبير) يحتمل وجوها (أحدها) التوفيق المدلول عليه بقوله باذن الله ذلك هو الفضل الكبير (ثانيها) السبق بالخيرات هو الفضل الكبير (ثالثها) الايراث فضل كبير هذا على الوجه المشهور من التفسير أما الوجه الآخر هو أن يقال ثم أورثنا الكتاب أي جنس الكتاب كما قال تعالى جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير يرد عليه أسئلة (أحدها) ثم للتراخي وايتاء الكتاب بعد الايحاء الى محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن فما المراد بكلمة ثم نقول معناه ان الله خبير بصير خبرهم وأبصرهم ثم أورثهم الكتاب كأنه قال تعالى انا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر فاصطفينا عبادا ثم أورثناهم الكتاب (ثانيها) كيف يكون من الانبياء ظالم لنفسه نقول منهم غير راجع الى الانبياء المصطفين بل المعنى ان الذي أوحينا اليك هو الحق وأنت المصطفى كما اصطفينا رسلا وآتيناهم كتبا ومنهم أي من قومك ظالم كفر بك وبما أنزل اليك ومقتصد آمن بك ولم يأت بجميع ما أمرته به وسابق آمن وعمل صالحا (وثالثها) قوله جنات عدن يدخلونها الداخلون هم المذكورون وعلى ما ذكرتم لا يكون الظالم داخلا نقول الداخلون هم السابقون وأما المقتصد فأمره موقوف أو هو يدخل النار أولا ثم يدخل الجنة والبيان لاول الامر لا لما بعده ويدل عليه قوله يحلون فيها من أساور من ذهب وقوله أذهب عنا الحزن * ثم قال (جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) وفي الداخلين وجوه (أحدها) الاقسام الثلاثة وهي على قولنا ان الظالم والمقتصد والسابق أقسام المؤمنين (والثاني) الذين يتلون كتاب الله (والثالث) هم السابقون وهو أقوى لقرب ذكرهم ولانه ذكر اكرامهم بقوله يحلون فالمكرم هو السابق وعلى هذا فيه ابحاث (الاول) تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى اذا كان المفعول حقيقيا كقولنا الله خلق السموات وقول القائل

وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذى خلط الصالح بالسيئ والسابق الذى ترجحت حسناته بحيث صارت سيآته مكفرة وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب واما المقتصد فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون فى طول المحشر ثم يتلقاهم الله تعالى برحمته وقد روى أن عمر رضى الله عنه قال وهو على المنبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له (ذلك) اشارة الى السبق بالخيرات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار بعلو رتبته و بعد منزلته فى الشرف (هو الفضل الكبير) من الله عز وجل لا ينال الا بتوفيقه تعالى (جنات عدن) اما بدل من الفضل الكبير بتنزيل السبب منزلة المسبب أو مبتدأ خبره (يدخلونها) وعلى الاول هو مستأنف وجمع الضمير لان المراد بالسابق الجنس وتخصيص حال السابقين ومآلهم بالذكر والسكوت عن الفريقين الآخرين وان لم يدل على حرمانهما من دخول الجنة مطلقا لكن فيه تحذير لهما من التقصير وتحريضا على السعى فى ادراك شأو السابقين وقرئ جنات عدن وجنة عدن على النصب بفعل يفسره الظاهر وقرئ يدخلونها على البناء للمفعول (يحلون فيها) خبر ثان أو حال مقدرة

يدبى الجدار فان الله موجود قبل كل شئ ثم له فعل هو الخلق ثم حصل به المفعول وهو السموات وكذلك زيد قبل البناء ثم الجدار من بنائه واذا لم يكن المفعول حقيقا كقولنا زيد دخل الدار وضرب عمرا فان الدار فى الحقيقة ليس مفعولا للداخل وانما فعل من أفعاله تحقق بالنسبة الى الدار وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمى مفعولا لا يحصل هذا الترتيب ولكن الاصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول عمرا ضربه زيد فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة اليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم الا لفائدة فما الفائدة فى تقديم الجنات على الفعل الذى هو الدخول واعادة ذكرها بالهاء فى يدخلونها وما الفرق بين هذا و بين قول القائل يدخلون جنات عدن نقول السامع اذا علم ان له مدخلا من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فاذا قيل له أنت تدخل فالى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه فى أى المداخل يكون فاذا قيل له دار زيد تدخلها فبذكر الدار يعلم مدخله و بما عنده من العلم السابق بأنه له دخولا يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار فان بين المدخلين بونا بعيدا (الثانى) قوله يحلون فيها اشارة الى سرعة الدخول فان التحلية لو وقعت خارجا لكان فيه تأخير الدخول فقال يدخلونها وفيها تقع تحليتهم (الثالث) قوله من أساور بجمع الجمع فانه جمع أسورة وهى جمع سوار وقوله ولباسهم فيها حرير ليس كذلك لان الاكثار من اللباس يدل على حاجة من دفع برد أو غيره والاكثار من الزينة لا يدل الا على الغنى (الرابع) ذكر الاساور من بين سائر الحلى فى كثير من المواضع منها قوله تعالى وحلوا أساور من فضة وذلك لان التحلى بمعنيين (أحدهما) اظهار كون المتحلى غير مبتذل فى الاشغال لان التحلى لا يكون حالة الطبخ والغسل (وثانيهما) اظهار الاستغناء عن الاشياء واظهار القدرة على الاشياء وذلك لان التحلى اما باللآلئ والجواهر واما بالذهب والفضة والتحلى بالجواهر واللآلئ يدل على ان المتحلى لا يعجز عن الوصول الى الاشياء الكثيرة عند الحاجة حيث لم يعجز عن الوصول الى الاشياء القليلة الوجود لا لحاجة والتحلى بالذهب والفضة يدل على أنه غير محتاج حاجة أصلية والا لصرف الذهب والفضة الى دفع الحاجة اذا عرفت هذا فنقول الاساور محلها الايدى وأكثر الاعمال باليد فانها للبطش فاذا حليت بالأساور علم الفراغ والذهب واللؤلؤ اشارة الى النوعين اللذين منهما الحلى * ثم قال تعالى (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور) فى الحزن أقوال كثيرة والاولى أن يقال المراد اذهاب كل حزن والالف واللام للجنس واستغراقه واذهاب الحزن بحصول كل ما ينبغى و بقائه دائما فان شيئا منه لو لم يحصل لكان الحزن موجودا بسببه وان حصل ولم يدم لكان الحزن غير ذاهب بعد بسبب زواله وخوف فواته وقوله ان ربنا لغفور شكور ذكر الله عنهم أمورا كلها تفيد الكرامة من الله (الاول) الحمد فان الحامد مثاب (الثانى) قولهم ربنا فان الله لم يناد بهذا اللفظ الا واستجاب لهم اللهم الا أن يكون المنادى

تبعيضية والثانية بيانية أى يحلون بعض اساور من ذهب كأنه أفضل من سائر أفرادها (ولؤلؤا) بالنصب عطفا على
محل من أساور وقرئ بالجر عطفا على ذهب أى ﴿ ٤٩ ﴾ من ذهب مرصع باللؤلؤ أو من ذهب فى صفاء اللؤلؤ
(ولباسهم فيها حرير) وتغيير الاسلوب قدمر سره فى سورة الحج (وقالوا) أى يقولون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة وعن ابن عباس رضى الله عنهما الحزن الاعراض والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاك حزن وسوسة ابليس وقيل هم المعاش وقيل حزن زوال النعم والظاهر أنه الجنس المنتظم لجميع أحزان الدين والدنيا وقرئ الحزن وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس على أهل لا اله الا الله وحشة فى قبورهم ولا فى محشرهم ولا فى مسيرهم وكأنى بأهل لا اله الا الله يخرجون من قبورهم ينفضون التراب عن وجوههم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن (ان ربنا لغفور) أى للمذنبين (شكور) للمطيعين (الذى أحلنا دار المقامة) أى دار الاقامة التى لا انتقال عنها أبدا
(من فضله) من انعامه وتفضله من غير أن ﴿ ٧ ﴾ سا يوجبه شئ من قبلنا (لا يمسنا فيها نصب) تعب (ولا يمسنا

قد ضيع الوقت الواجب أو طلب مالا يجوز كالرد الى الدنيا من الآخرة (الثالث) قولهم غفور (الرابع) قولهم شكور والغفور اشارة الى ما غفر لهم فى الآخرة بما وجدلهم من الحمد فى الدنيا والشكور اشارة الى ما يعطيهم و يزيد لهم بسبب ما وجد لهم فى الآخرة من الحمد * ثم قال تعالى (الذى أحلنا دار المقامة من فضله) أى دار الاقامة لما ذكر الله سرورهم وكرامتهم بتحليتهم وادخالهم الجنات بين سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها حيث قالوا الذى أحلنا دار المقامة أى الاقامة والمفعول ربما يجئ للمصدر من كل باب يقال ماله معقول أى عقل وقال تعالى مدخل صدق وقال تعالى ومزقناهم كل ممزق وكذلك مستخرج للاستخراج وذلك لان المصدر هو المفعول فى الحقيقة فانه هو الذى فعل فجاز اقامة المفعول مقامه وفى قوله دار المقامة اشارة الى ان الدنيا منزلة ينزلها المكلف ويرتحل عنها الى منزلة القبور ومنها الى منزلة العرصة التى فيها الجمع ومنها التفريق وقد تكون النار لبعضهم منزلة أخرى والجنة دار المقامة وكذلك النار لاهلها وقولهم من فضله أى بحكم وعده لا بايجاب من عنده وقوله تعالى (لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) اللغوب الاعياء والنصب هو السبب للاعياء فان قال قائل اذا بين انه لا يمسهم فيها نصب علم انه لا يمسهم فيها لغوب ولا ينفى المتكلم الحكيم السبب ثم ينفى مسببه بحرف العطف فلا يقول القائل لا أكلت ولا شبعت أولا قمت ولا مشيت والعكس كثير فانه يقال لا شبعت ولا أكلت لما ان نفى الشبع لا يلزمه انتفاء الأكل وسياق ما تقرر ان يقال لا يمسنا فيها اعياء ولا مشقة فنقول ما قال الله فى غاية الجلالة وكلام الله أجل وبيانه أجمل ووجهه هو انه تعالى بين مخالفة الجنة لدار الدنيا فان الدنيا أماكنها على قسمين (أحدهما) موضع تمس فيه المشاق والمتاعب كالبرارى والصحارى والطرقات والاراضى (والآخر) موضع يظهر فيه الاعياء كالبيوت والمنازل التى فى الاسفار من الخانات فان من يكون فى مباشرة شغل لا يظهر عليه الاعياء الا بعد ما يستريح فقال تعالى لا يمسنا فيها نصب أى ليست الجنة كالمواضع التى فى الدنيا مظان المتاعب بل هى أفضل من المواضع التى هى مواضع مرجع المعى فقال ولا يمسنا فيها لغوب أى ولا نخرج منها الى مواضع نتعب ونرجع اليها فيمسنا فيها الاعياء وقرئ لغوب بفتح اللام والترتيب على هذه القراءة ظاهر كأنه قال لا نتعب ولا يمسنا ما يصلح لذلك وهذا لان القوى السوى اذا قال ما تعبت اليوم لا يفهم من كلامه انه ما عمل شيئا لجواز انه عمل عملا لم يكن بالنسبة اليه متعبا لقوته فاذا قال ما مسنى ما يصلح ان يكون متعبا يفهم انه لم يعمل شيئا لان نفس العمل قد يصلح ان يكون متعبا لضعيف أو متعبا بسبب كثرته واللغوب هو ما يلغب منه وقيل النصب التعب الممرض وعلى هذا فحسن الترتيب ظاهر كأنه قال لا يمسنا مرض ولا دون ذلك وهو الذى يعيا منه مباشره * ثم قال تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم) عطف على قوله ان الذين يتلون كتاب الله وما بينهما كلام يتعلق

إن النصب نفس المشقة والكلفة واللغوب ما يحدث منه من الفتور والتصريح بنفي الثاني مع استلزام نفي الاول له وتكرير الفعل المنفي للمبالغة في بيان انتفاء كل منهما (والذين كفروا ﴿٥٠﴾ لهم نار جهنم لا يقضى عليهم) لا يحكم عليهم بموت ثان (فيموتوا) ويستريحوا ونصبه باضمار أن وقرئ فيموتون عطفا على يقضى كقوله تعالى ولا يؤذن لهم فيعتذرون (ولا يخفف عنهم من عذابها) بل كلما خبت زيد اسعارها (كذلك) أي مثل ذلك الجزاء الفظيع (نجزي كل كفور) مبالغ في الكفر أو الكفران لا جزاء أخف وأدنى منه وقرئ يجزى على البناء للمفعول واسناده الى الكل وقرئ يجازى (وهم يصطرخون فيها) يستغيثون والاصطراخ افتعال من الصراخ استعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته (ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل) باضمار القول وتقييد العمل الصالح بالوصف المذكور المتحسر على ما عملوه من غير الصالح والاعتراف به والاشعار بأن استخراجهم لتلافيه وانهم كانوا يحسبونه صالحا والآن تبين خلافه وقوله تعالى

بالذين يتلون كتاب الله على ما بينا وقوله جنات عدن يدخلونها قد ذكرنا انه على بعض الاقوال راجع الى الذين يتلون كتاب الله * ثم قال تعالى (لا يقضى عليهم فيموتوا) أي لا يستريحون بالموت بل العذاب دائم (ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور) أي النار وفيه لطائف (الاولى) ان العذاب في الدنيا ان دام كثيرا يقتل فان لم يقتل يعتاده البدن ويصير مزاجا فاسدا متمكنا لا يحس به المعذب فقال عذاب نار الآخرة ليس كعذاب الدنيا اما أن يفنى واما أن يألفه البدن بل هو في كل زمان شديد والمعذب فيه دائم (الثانية) راعى الترتيب على أحسن وجه وذلك لان الترتيب أن لا ينقطع العذاب ولا يفتر فقال لا ينقطع ولا بأقوى الاسباب وهو الموت حتى يتمنون الموت ولا يجابون كما قال تعالى ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك أي بالموت (الثالثة) في المعذبين اكتفى بأنه لا ينقص عذابهم ولم يقل نزيدهم عذابا وفي المثابين ذكر الزيادة بقوله ويزيدهم من فضله ثم لما بين ان عذابهم لا يخفف قال تعالى (وهم يصطرخون فيها) أي لا يخفف وان اصطرخوا واضطربوا لا يخفف الله من عنده انعاما الى أن يطلبوه بل يطلبون ولا يجدون والاصطراخ من الصراخ والصراخ صوت المعذب وقوله تعالى (ربنا أخرجنا) أي صراخهم بهذا أي يقولون ربنا أخرجنا لان صراخهم كلام وفيه اشارة الى ان ايلامهم تعذيب لا تأديب وذلك لان المؤدب اذا قال لمؤدبه لا أرجع الى ما فعلت وبئسما فعلت يتركه وأما المعذب فلا وترتيبه حسن وذلك لانه لما بين انه لا يخفف عنهم بالكلية ولا يعفو عنهم انه لا يقبل منهم وعدا وهذا لان المحبوس يصبر لعله يخرج من غير سؤال فاذا طال لبثه تطلب الاخراج من غير قطيعة على نفسه فان بعده يقع على نفسه قطيعة ويقول اخرجني أفعل كذا وكذا واعلم أن الله تعالى قد بين ان من يكون في الدنيا ضالا فهو في الآخرة ضال كما قال تعالى ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ثم انهم لم يعلموا ان العود الى الدنيا بعيد محال بحكم الاخبار وعلى هذا قالوا (نعمل صالحا) جازمين من غير استعانة بالله ولا مثنوية فيه ولم يقولوا ان الامر بيد الله فقال الله لهم اذا كان اعتمادكم على أنفسكم فقد عمرناكم مقدارا يمكن التذكر فيه والاتيان بالايمان والاقبال على الاعمال وقولهم (غير الذي كنا نعمل) اشارة الى ظهور فساد عملهم لهم وكان الله تعالى كما لم يهدهم في الدنيا لم يهدهم في الآخرة فما قالوا ربنا زدت للمحسنين حسنات بفضلك لا بعملهم ونحن أحوج الى تخفيف العذاب منهم الى تضعيف الثواب فافعل بنا ما أنت أهله نظرا الى فضلك ولا تفعل بنا ما نحن أهله نظرا الى عدلك وانظر الى مغفرتك الهاطلة ولا تنظر الى معذرتنا الباطلة وكما هدى الله المؤمن في الدنيا هداه في العقبى حتى دعاه بأقرب دعاء الى الاجابة واثنى عليه بأطيب ثناء عند الانابة فقالوا الحمد لله وقالوا ربنا غفور اعترافا بتقصيرهم شكورا اقرارا بوصول ما لم يخطر ببالهم اليهم وقالوا أحلنا دار المقامة من فضله أي لا عمل لنا بالنسبة الى نعم الله وهم قالوا أخرجنا نعمل صالحا

اغماضا فى حق تعظيمه واعراضا عن الاعتراف بعجزهم عن الاتيان بما يناسب عظمته ثم انه تعالى بين انه آتاهم ما يتعلق بقبول المحل من العمر الطويل وما يتعلق بالفاعل فى المحل فان النبى صلى الله عليه وسلم كفاعل الخير فيهم ومظهر السعادات فقال تعالى (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) فان المانع اما أن يكون فيهم حيث لم يتمكنوا من النظر فيما أنزل الله واما أن يكون فى مرشدهم حيث لم يتل عليهم ما يرشدهم * ثم قال تعالى (فذوقوا فما للظالمين من نصير) وقوله فذوقوا اشارة الى الدوام وهو أمر اهانة فما للظالمين الذين وضعوا أعمالهم وأقوالهم فى غير موضعها وأتوا بالمعذرة فى غير وقتها من نصير فى وقت الحاجة ينصرهم قال بعض الحكماء قوله فما للظالمين من نصير وقوله وما للظالمين من أنصار يحتمل أن يكون المراد من الظالم الجاهل جهلا مركبا وهو الذى يعتقد الباطل حقا فى الدنيا وماله من نصير أى من علم ينفعه فى الآخرة والذى يدل عليه هو ان الله تعالى سمى البرهان سلطانا كما قال تعالى فأتوا بسلطان والسلطان أقوى ناصر اذ هو القوة أو الولاية وكلاهما ينصر والحق التعميم لان الله لا ينصره وليس غيره نصيرا فما هم من نصير أصلا ويمكن أن يقال ان الله تعالى قال فى آل عمران وما للظالمين من أنصار وقال فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين وقال ههنا فما للظالمين من نصير أى هذا وقت كونهم واقعين فى النار فقد أيس كل منهم من كثير ممن كانوا يتوقعون منهم النصرة ولم يبق الا توقعهم من الله فقال ما لكم من نصير أصلا وهناك كان الامر محكيا فى الدنيا أو فى أوائل الحشر فنفى ما كانوا يتوقعون منهم النصرة وهم آلهتهم * ثم قال تعالى (ان الله عالم غيب السموات والارض انه عليم بذات الصدور) تقريرا لدوامهم فى العذاب وذلك من حيث ان الله تعالى لما قال وجزاء سيئة سيئة مثلها ولا يزاد عليها فلو قال قائل الكافر ما كفر بالله الا أياما معدودة فكان ينبغى أن لا يعذب الا مثل تلك الايام فقال تعالى ان الله لا يخفى عليه غيب السموات فلا يخفى عليه ما فى الصدور وكان يعلم من الكافر ان فى قلبه تمكن الكفر بحيث لو دام الى الابد لما أطاع الله ولا عبده * وفى قوله تعالى بذات الصدور مسئلة قد ذكرناها مرة ونعيدها أخرى وهى ان القائل ان يقول الصدور هى ذات اعتقادات وظنون فكيف سمى الله الاعتقادات بذات الصدور ويقرر السؤال قولهم أرض ذات أشجار وذات جنى اذا كان فيها ذلك فكذلك الصدر فيه اعتقاد فهو ذو اعتقاد فيقال له لما كان اعتبار الصدر بما فيه صار ما فيه كالساكن المالك حيث لا يقال الدار ذات زيد ويصح ان يقال زيد ذو دار ومال وان كان هو فيها * ثم قال تعالى (هو الذى جعلكم خلائف فى الارض) تقريرا لقطع حجتهم فانهم لما قالوا ربنا أخرجنا نعمل صالحا وقال تعالى أولم نعمركم ما يتذكر اشارة الى أن التمكين والامهال مدة يمكن فيها المعرفة قد حصل وما آمنتم وزاد عليه بقوله وجاءكم النذير أى آتيناكم عقولا وأرسلنا اليكم من يؤيد المعقول بالدليل المنقول زاد على ذلك بقوله تعالى هو الذى جعلكم خلائف فى الارض أى نبهكم بمن مضى

(أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) جواب من جهته تعالى وتوبيخ لهم والهمزة للانكار والنفى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وما نكرة موصوفة ٥١ أى ألم نمهلكم وألم نؤخركم ولم نعمركم عمرا يتذكر فيه من تذكر أى يتمكن فيه المتذكر من التذكر والتفكر قيل هو أربعون سنة وعن ابن عباس رضى الله عنهما ستون سنة وروى ذلك عن على رضى الله عنه وهو العمر الذى أعذر الله فيه الى ابن آدم قال عليه الصلاة والسلام أعذر الله الى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة وقوله تعالى (وجاءكم النذير) عطف على الجملة الاستفهامية لانها فى معنى قد عمرناكم كما فى قوله تعالى ألم نشرح لك صدرك ووضعنا الخ لانه فى معنى قد شرحنا الخ والمراد بالنذير رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ما معه من القرآن وقيل العقل وقيل الشيب وقيل موت الاقارب والاقتصار على ذكر النذير لانه الذى يقتضيه المقام والفاء فى قوله تعالى (فذوقوا) لترتيب الامر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجىء النذير وفى قوله تعالى (فما للظالمين من نصير) للتعليل (ان الله عالم غيب السموات والارض) بالاضافة وقرئ بالتنوين ونصب غيب على المفعولية أى لا يخفى عليه

(انه عليم بذات الصدور) قيل انه تعليل لما قبله لانه اذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى ما يكون كان أعلم بغيرها (هو الذي جعلكم خلائف في الارض) يقال للمستخلف خليفة وخليف ﴿ ٥٢ ﴾ والاول يجمع خلائف والثاني خلفاء والمعنى انه تعالى جعلكم خلفاء في أرضه وألقى اليكم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح لكم منافعها أو جعلكم خلفاء ممن قبلكم من الامم وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة (فمن كفر) منكم مثل هذه النعمة السنية وغمطها (فعليه كفره) أي وبال كفره لا يتعداه الى غيره وقوله تعالى (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) بيان لوبال الكفر وغائلته هو مقت الله تعالى اياهم أي بغضه الشديد الذي ليس وراءه خزي وصغار وخسار الآخرة الذي ما بعده شر وخسار والتكرير لزيادة التقرير والتنبيه على أن اقتضاء الكفر الكل واحد من الامرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والاصالة (قل) تبكيتا لهم (أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله) أي آلهتكم والاضافة اليهم ﴿ لم ﴾

لانهم جعلوهم شركاء لله تعالى من غير أن يكون له أصل ما أصلا

وحال من انقضى فانكم اولم يحصل لكم علم بأن من كذب الرسل أهلك أمكان عندكم خفي وفسادكم أخف لكن أمهلتم وعمرتم وأمرتم على لسان الرسل بما أمرتم وجعلتم خلائف في الارض أي خليفة بعد خليفة تعلمون حال الماضين وتصبحون بحالهم راضين (فمن كفر) بعد هذا كله (فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا) لان الكافر السابق كان ممقوتا كالعبد الذي لا يخدم سيده واللاحق الذي انذره الرسول ولم ينتبه امقت كالعبد الذي ينصحه الناصح ويأمره بخدمة سيده ويعده ويوعده ولا ينفعه النصح ولا يسمعه والتالي ابهم الذي رأى عذاب من تقدم ولم يخش عذابه امقت الكل * ثم قال تعالى (ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) أي الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيد الا المقت ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يفيدهم الا الخسار فان العمر كرأس مال من اشترى به رضا الله ربح ومن اشترى به سخطه خسر * ثم قال تعالى (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا) تقريرا للتوحيد وابطالا للاشراك وقوله أرأيتم المراد منه أخبروني لان الاستفهام يستدعي جوابا يقول القائل أرأيت ماذا فعل زيد فيقول السامع باع أو اشترى ولولا تضمنه معنى أخبرني والا لما كان الجواب الا قوله لا أو نعم وقوله شركاءكم انما أضاف الشركاء اليهم من حيث ان الاصنام في الحقيقة لم تكن شركاء الله وانما هم جعلوها شركاء فقال شركاءكم أي الشركاء بجعلكم ويحتمل أن يقال شركاءكم أي شركاءكم في النار لقوله انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم وهو قريب ويحتمل ان يقال هو بعيد لاتفاق المفسرين على الاول وقوله أروني بدل عن أرأيتم لان كليهما يفيد معنى أخبروني ويحتمل أن يقال قوله أرأيتم استفهام حقيقي وأروني أمر تعجيز للتبيين فلما قال أرأيتم يعني أعلمتم هذه التي تدعونها كما هي وعلى ما هي عليه من العجز أو تتوهمون فيها قدرة فان كنتم تعلمونها عاجزة فكيف تعبدونها وان كان وقع لكم ان لها قدرة فأروني قدرتها في أي شيء هي أهي في الارض كما قال بعضهم ان الله اله السماء وهؤلاء آلهة الارض وهم الذين قالوا أمور الارض من الكواكب والاصنام صورها أم هي في السموات كما قال بعضهم ان السماء خلقت باستعانة الملائكة والملائكة شركاء في خلق السموات وهذه الاصنام صورها أم قدرتها في الشفاعة لكم كما قال بعضهم ان الملائكة ما خلقوا شيئا ولكنهم مقربون عند الله فنعبدها لتشفع لنا فهل معهم كتاب من الله فيه اذنه لهم بالشفاعة وقوله أم آتيناهم كتابا في العائد اليه الضمير وجهان (أحدهما) انه عائد الى الشركاء أي هل آتينا الشركاء كتابا (وثانيهما) انه عائد الى المشركين أي هل آتينا المشركين كتابا وعلى الاول فمعناه ما ذكرنا أي هل مع ما جعلتم شريكا كتاب من الله فيه أن له شفاعة عند الله فان أحدا لا يشفع عنده الا باذنه وعلى الثاني معناه ان عبادة هؤلاء اما بالعقل ولا عقل لمن يعبد من

وقيل جعلوهم شركاء لانفسهم فيما يملكونه ويأباه سياق النظم الكريم وسياقه (أروني ماذا خلقوا من الارض) بدل اشتمال
من أرأيتم كأنه قيل أخبروني عن شركائكم أروني أي جزء خلقوا من الارض (أم لهم شرك في السموات)
أي أم لهم شركة مع الله سبحانه في خلق السموات ليستحقوا بذلك شركة في الالوهية ذاتية (أم آتيناهم كتابا) ينطق بأنا اتخذناهم شركاء (فهم على بينة منه) أي حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بان لهم شركة جعلية ويجوز أن يكون ضمير آتيناهم للمشركين كما في قوله تعالى أم أنزلنا عليهم سلطانا الخ وقرئ على بينات وفيه ايماء الى أن الشرك امر خطير لابد في اثباته من تعاضد الدلائل (بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الاغرورا) لما نفى أنواع الحجج في ذلك اضرب عنه بذكر ما حملهم عليه وهو تغرير الاسلاف للاخلاف واضلال الرؤساء للاتباع بأنهم شفعاء عند الله يشفعون لهم بالتقريب اليه (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا) استئناف مسوق لبيان غاية قبح الشرك وهوله أي يمسكهما كراهة
زوالهما أو يمنعهما أن تزولا لان الامساك منع (ولئن زالتا ان أمسكهما) أي ما أمسكهما (من أحد من بعده) من بعد

لم يخلق من الارض جزأ من الاجزاء ولا في السماء شيأ من الاشياء واما بالنقل ونحن ما آتينا المشركين كتابا فيه أمرنا بالسجود لهؤلاء ولو أمرنا لجاز كما أمرنا بالسجود لآدم والى جهة الكعبة فهذه العبادة لاعقلية ولانقلية فوعد بعضهم بعضا ليس الاغرورا غرهم الشيطان وزين لهم عبادة الاصنام ثم لما بين انه لاخلق للاصنام ولاقدرة لها ولاعلى جزء من الاجزاء بين ان الله قادر بقوله (ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا) ويحتمل ان يقال لما بين شركهم قال مقتضى شركهم زوال السموات والارض كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا ويدل على هذا قوله تعالى في آخر الآية انه كان حليما غفورا كان حليما ما ترك تعذيبهم الاحلما منه والاكانوا يستحقون اسقاط السماء وانطباق الارض عليهم وانما أخر ازالة السموات الى قيام الساعة حلما ويحتمل الآية وجها ثالثا وهو أن يكون ذلك من باب التسليم واثبات المطلوب على تقدير التسليم أيضا كأنه تعالى قال شركاؤكم ما خلقوا من الارض شيأ ولا في السماء جزأ ولا قدروا على الشفاعة فلاعبادة لهم وهب انهم فعلوا شيأ من الاشياء فهل يقدرون على امساك السموات والارض ولا يمكنهم القول بانهم يقدرون لانهم ما كانوا يقولون به كما قال تعالى عنهم ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ويؤيد هذا قوله ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده فاذا تبين أن لامعبود الا الله من حيث ان غيره لم يخلق من الاشياء وان قال الكافر بأن غيره خلق فما خلق مثل ما خلق فلا شريك له انه كان حليما غفورا حليما حيث لم يعجل في اهلاكهم بعد اصرارهم على اشراكهم وغفورا يغفر لمن تاب ويرحمه وان استحق العقاب * ثم قال تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير مازادهم الانفورا استكبارا في الارض ومكر السيئ ولايحيق المكر السيئ الابأهله) لما بين انكارهم التوحيد ذكر تكذيبهم للرسول ومبالغتهم فيه حيث انهم كانوا يقسمون على انهم لايكذبون الرسل اذا تبين لهم كونهم رسلا وقالوا انما نكذب محمدا صلى الله عليه وسلم لكونه كاذبا ولو تبين لنا كونه رسولا لآمنا كما قال تعالى عنهم وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها وهذا مبالغة منهم في التكذيب كما ان من ينكر دين انسان قد يقول والله لو علمت ان له شيأ على قضيته وزدت له اظهارا لكونه مطالبا بباطل فكذلك ههنا عاندوا وقالوا والله لو جاءنا رسول لكنا أهدى الامم فلما جاءهم نذير أي محمد صلى الله عليه وسلم جاءهم أي صح مجيئه لهم بالبينة مازادهم الانفورا فانهم قبل الرسالة كانوا كافرين بالله وبعدها صاروا كافرين بالله ورسوله ولانهم قبل الرسالة ما كانوا معذبين كما صاروا بعد الرسالة وقال بعض المفسرين ان أهل مكة كانوا يلعنون اليهود والنصارى على انهم كذبوا برسلهم لما جاؤهم وقالوا لو جاءنا رسول لاطعناه واتبعناه وهذا فيه اشكال من حيث أن المشركين

والجملة سادة مسد الجوابين ومن الاولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية للابتداء (انه كان حليماً غفوراً) غير معاجل بالعقوبة التي تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما وكانتا جديرتين ﴿ ٥٤ ﴾ بان تهدا هدا حسبما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وقرئ ولو زالتا (واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم) بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من احدى الامم اليهود والنصارى وغيرهم أو من الامة التي يقال لها احدى الامم تفضيلا لها على غيرها في الهدى والاستقامة (فلما جاءهم نذير) وأي نذير أشرف الرسل عليهم الصلاة والسلام (ما زادهم) أي النذير أو مجيئه (الا نفورا) تباعدا عن الحق (استكبارا في الارض) بدل من نفورا أو مفعول له (ومكر السيئ) أصله وأن مكروا السيئ أي ثم ومكر السيئ وقرئ بسكون الهمزة في الوصل ولعله اختلاس ظن سكونا أو وقفة خفيفة وقرئ مكراسيأ (ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله ﴾ بعواقبها ﴿

كانوا منكرين للرسالة والحشر مطلقا فكيف كانوا يعترفون بالرسل فمن أين عرفوا ان اليهود كذبوا وما جاءهم كتاب ولولا كتاب الله وبيان رسوله من أين كان يعلم المشركون انهم صدقوا شيأ أو كذبوا في شئ بل المراد ما ذكرنا انهم كانوا يقولون نحن لو جاءنا رسول لا ننكره وانما ننكر كون محمد رسولا من حيث انه كاذب ولو صح كونه رسولا لآمنا وقوله فلما جاءهم أي فلما صح لهم مجيئه بالمعجزة وفي قوله أهدى وجهان (أحدهما) أن يكون المراد أهدى مما نحن عليه وعلى هذا فقوله من احدى الامم للتبيين كما يقول القائل زيد من المسلمين ويدل على هذا قوله تعالى فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا أي صاروا أضل مما كانوا وكانوا يقولون نكون أهدى (وثانيهما) أن يكون المراد أن نكون أهدى من احدى الامم كما يقول القائل زيد أولى من عمرو وفي الامم وجهان (أحدهما) أن يكون المراد العموم أي أهدى من أي احدى الامم وفيه تعريض (وثانيهما) أن يكون المراد تعريف العهد أي أمة محمد وموسى وعيسى ومن كان في زمانهم ثم قال تعالى استكبارا في الارض ونصبه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون حالا أي مستكبرين في الارض (وثانيها) أن يكون مفعولا له أي للاستكبار (وثالثها) أن يكون بدلا عن النفور وقوله ومكر السيئ اضافة الجنس الى نوعه كما يقال علم الفقه وحرفة الحدادة وتحقيقه أن يقال معناه ومكروا مكرا سيئا ثم عرف لظهور مكرهم ثم ترك التعريف باللام وأضيف الى السيئ لكون السوء فيه أبين الامور ويحتمل ان يقال بأن المكر يستعمل استعمال العمل كما ذكرنا في قوله تعالى والذين يمكرون السيئات أي يعملون السيئات ومكرهم السيئ وهو جميع ما كان يصدر منهم من القصد الى الايذاء ومنع الناس من الدخول في الايمان واظهار الانكار ثم قال ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله أي لا يحيط الا بفاعله وفي قوله ولا يحيق وقوله الا بأهله فوائد اما قوله يحيق فهي أنها تنبئ عن الاحاطة التي هي فوق اللحوق وفيه من التحذير ما ليس في قوله ولا يلحق أو ولا يصل واما في قوله بأهله ففيه ما ليس في قول القائل ولا يحيق المكر السيئ الا بالماكر كي لا يأمن المسيء فان من أساء ومكره سيئ آخر قد يلحقه جزاء على سيئه وأما اذا لم يكن سيئا فلا يكون أهلا فيأمن المكر السيئ وأما في النفي والاثبات ففائدته الحصر بخلاف ما يقول القائل المكر السيئ يحيق بأهله فلا ينبئ عن عدم الحيق بغير أهله فان قال قائل كثيرا ما نرى ان الماكر يمكر ويفيده المكر ويغلب الخصم بالمكر والآية تدل على عدم ذلك فنقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) ان المكر المذكور في الآية هو المكر الذي مكروه مع النبي صلى الله عليه وسلم من العزم على القتل والاخراج ولم يحق الا بهم حيث قتلوا يوم بدر وغيره (وثانيها) هو ان نقول المكر السيئ عام وهو الاصح فان النبي عليه السلام نهى عن المكر وأخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا فان الله يقول ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله وعلى هذا فذلك الرجل الممكور به يكون أهلا فلا يرد نقضا (وثالثها) ان الامور

بعواقبها ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلا في الظاهر ففي الحقيقة هو الفائز والماكر هو الهالك وذلك مثل راحة الكافر ومشقة المسلم في الدنيا ويبين هذا المعنى قوله تعالى فهل ينظرون الا سنة الاولين يعني اذا كان لمكرهم في الحال رواج فالعاقبة للتقوى والامور بخواتيمها فيهلكون كما هلك الاولون ✻ وقوله تعالى (فهل ينظرون الا سنة الاولين) أي ليس لهم بعد هذا الانتظار الا الاهلاك وهو سنة الاولين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الاهلاك ليس سنة الاولين انما هو سنة الله بالاولين فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن المصدر الذي هو المفعول المطلق يضاف الى الفاعل والمفعول لتعلقه بهما من وجه دون وجه فيقال فيما اذا ضرب زيد عمرا عجبت من ضرب عمرو كيف ضرب مع ماله من العزم والقوة وعجبت من ضرب زيد كيف ضرب مع ماله من العلم والحكمة فكذلك سنة الله بهم أضافها اليهم لانها سنة سنت بهم وأضافها الى نفسه بعدها بقوله (فلن تجد لسنت الله تبديلا) لانها سنة من سنن الله اذا علمت هذا فنقول أضافها في الاول اليهم حيث قال سنة الاولين لان سنة الله الاهلاك بالاشراك والاكرام على الاسلام فلا يعلم انهم ينتظرون أيهما فاذا قال سنة الاولين تميزت وفي الثاني أضافها الى الله لانها لما علمت فالاضافة الى الله تعظمها وتبين أنها أمر واقع ليس لها من دافع (وثانيهما) ان المراد من سنة الاولين استمرارهم على الانكار واستكبارهم عن الاقرار وسنة الله استئصالهم باصرارهم فكأنه قال أنتم تريدون الاتيان بسنة الاولين والله يأتي بسنة لا تبديل لها ولا تحويل عن مستحقها (المسئلة الثانية) التبديل تحويل فما الحكمة في التكرار نقول بقوله فلن تجد لسنت الله تبديلا حصل العلم بان العذاب لا تبديل له بغيره وبقوله (ولن تجد لسنت الله تحويلا) حصل العلم بأن العذاب مع انه لا تبديل له بالثواب لا يتحول عن مستحقه الى غيره فيتم تهديد المسيء (المسئلة الثالثة) المخاطب بقوله فلن تجد يحتمل وجهين وقد تقدم مرارا (أحدهما) ان يكون عاما كأنه قال فلن تجد أيها السامع لسنة الله تبديلا (والثاني) ان يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا فكأنه قال سنة الله انه لا يهلك ما بقي في القوم من كتب الله ايمانه فاذا آمن من في علم الله انه يؤمن يهلك الباقين كما قال نوح انك ان تذرهم أي تمهل الامر وجاء وقت سنتك ✻ ثم قال تعالى (أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة) لما ذكر ان للاولين سنة وهي الاهلاك نبههم بتذكير حال الاولين فانهم كانوا مارين على ديارهم رائين لآثارهم وأملهم كان فوق أملهم وعملهم كان دون عملهم اما الاول فلطول أعمارهم وشدة اقتدارهم واما عملهم فلانهم لم يكذبوا مثل محمد ولا محمدا وأنتم يا أهل مكة كذبتم محمدا ومن تقدمه قوله تعالى وكانوا أشد منهم قوة قد ذكرناه في سورة الروم بقي فيه ابحاث (الاول) قال هناك كانوا أشد من غير واو وقال ههنا بالواو فما الفرق نقول قول القائل اما رأيت زيدا كيف أكرمني وأعظم منك يفيد ان القائل يخبره بان زيدا

فهل ينظرون) أي ما ينتظرون (الا سنة الاولين) أي سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم (فلن تجد لسنت الله تبديلا) بان يضع موضع العذاب غير العذاب (ولن تجد لسنت الله تحويلا) بأن ينقله من المكذبين الى غيرهم والفاء لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب من مجيئه ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما بالطريق البرهاني وتخصيص كل منهما بنفي مستقل لتأكيد انتفائهما (أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) استشهاد على ما قبله من جريان سنته تعالى على تعذيب المكذبين بما يشاهدونه في مسايرهم الى الشام واليمن والعراق من آثار دمار الامم الماضية العاتية والهمزة للانكار والنفي والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام أي أقعدوا في مساكنهم ولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم (وكانوا أشد منهم قوة) واطول أعمارا فانفعهم طول المدى وما أغنى عنهم شدة القوى ومحل الجملة النصب على الحالية

أعظم واذا قال أما رأيته كيف أكرمني هو أعظم منك يفيد انه تقرر ان كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكبر منه ولاشك ان هذه العبارة الاخيرة تفيد كون الامر الثاني في الظهور مثل الاول بحيث لايحتاج الى اعلام من المتكلم ولااخبار اذا علمت هذا فنقول المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لاغير ولعل ذلك كان ظاهرا عندهم فقال بالوا وأى نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة فانه قال كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها وفي موضع آخر قال أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الارض ولعل علمهم لم يحصل بآثارهم الارض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلوما عندهم فان كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم انهم أقوى منهم ولانزاع فيه * وقوله تعالى (وما كان الله ليعجزه من شئ في السموات ولا في الارض انه كان عليما قديرا) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون بيانا لهم أي ان الاولين مع شدة قوتهم ما أعجزوا الله وما فاتوه فهم أولى بأن لايعجزوه (والثاني) أن يكون قطعا لاطماع الجهال فان قائلا لو قال هب ان الاولين كانوا أشد قوة وأطول أعمارا لكنا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم ونستعين بأمور أرضية لها خواص أو كواكب سماوية لها آثار فقال تعالى وما كان الله ليعجزه من شئ في السموات ولا في الارض انه كان عليما بأفعالهم وأقوالهم قديرا على اهلاكهم واستئصالهم * ثم قال تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) لما خوف الله المكذبين بمن مضى وكانوا من شدة عنادهم وفساد اعتقادهم يستعجلون بالعذاب ويقولون عجل لنا عذابنا فقال الله للعذاب أجل والله لايؤاخذ الناس بنفس الظلم فان الانسان ظلوم جهول وانما يؤاخذ بالاصرار وحصول يأس الناس عن ايمانهم ووجود الايمان ممن كتب الله ايمانه فاذا لم يبق فيهم من يؤمن اهلك المكذبين ولو آخذهم بنفس الظلم لكان كل يوم اهلاك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدواب يهلكون نقول الجواب من وجوه (أحدها) ان خلق الدواب نعمة فاذا كفر الناس يزيل الله النعم والدواب أقرب النعم لان المفرد أولا ثم المركب والمركب اما أن يكون معدنيا واما أن يكون ناميا والنامي اما أن يكون حيوانا واما أن يكون نباتا والحيوان اما انسان واما غير انسان فالدواب أعلى درجات المخلوقات في عالم العناصر للانسان (الثاني) هو ان ذلك بيان لشدة العذاب وعمومه فان بقاء الاشياء بالانسان كما ان بقاء الانسان بالاشياء وذلك لان الانسان يدبر الاشياء و يصلحها فتبقى الاشياء ثم ينتفع بها الانسان فيبقى الانسان فاذا كان الهلاك عاما لايبقى من الانسان من يعمر فلاتبقى الابنية والزروع فلا تبقى الحيوانات الاهلية لان بقاءها بحفظ الانسان اياها عن التلف والهلاك بالسقي والعلف

اعتراض مقرر لما يفهم مما قبله من استئصال الامم السالفة وقوله تعالى (انه كان عليما قديرا) أي مبالغا في العلم والقدرة ولذلك علم بجميع أعمالهم السيئة فعاقبهم بموجبها تعليل لذلك (ولو يؤاخذ الله الناس) جميعا (بما كسبوا) من السيئات كما فعل بأولئك (ما ترك على ظهرها) أي على ظهر الارض (من دابة) من نسمة تدب عليها من بني آدم وقيل ومن غيرهم أيضا من شؤم معاصيهم وهو المروى عن ابن مسعود وأنس رضي الله عنهما و يعضد الاول قوله تعالى (ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) وهو يوم القيامة (فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) فيجازيهم عند ذلك بأعمالهم ان خيرا فخير وان شرا فشر * عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن أدخل من أي باب شئت والله تعالى أعلم

(الثالث) هو ان ازال المطر هو انعام من الله فى حق العباد فاذا لم يستحقوا الانعام قطعت الامطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الارض فتموت جميع الحيوانات وقوله تعالى ماترك على ظهرها من دابة يؤيد الوجه الثالث لان بسبب انقطاع الامطار تموت حيوانات البر اما حيوانات البحر فتعيش بماء البحار (المسئلة الثانية) قوله تعالى على ظهرها كناية عن الارض وهى غير مذكورة فكيف علم نقول مما تقدم ومما تأخر أما ما تقدم فقوله وماكان الله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الارض فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء اليها * وأما ما تأخر فقوله من دابة لان الدواب على ظهر الارض فان قيل كيف يقال لما عليه الخلق من الارض وجه الارض وظهر الارض مع ان الوجه مقابل الظهر كالمضاد نقول من حيث ان الارض كالدابة الحاملة للاثقال والحمل يكون على الظهر يقال له ظهر الارض ومن حيث ان ذلك هو المقابل للخلق المواجه لهم يقال له وجهها على ان الظهر فى مقابلة البطن والظهر والظاهر من باب والبطن والباطن من باب فوجه الارض ظهر لانه هو الظاهر وغيره منها باطن و بطن (المسئلة الثالثة) فى قوله تعالى ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى وجوه (أحدها) الى يوم القيامة وهو مسمى مذكور فى كثير من المواضع (ثانيها) يوم لا يوجد فى الخلق من يؤمن على ما تقدم (ثالثها) لكل أمة أجل ولكل أجل كتاب وأجل قوم محمد صلى الله عليه وسلم أيام القتل والاسر كيوم بدر وغيره (المسئلة الرابعة) قوله تعالى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا تسلية للمؤمنين وذلك لانه تعالى لما قال ماترك على ظهرها من دابة وقال لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة قال فاذا جاء الهلاك فالله بالعباد بصير اما ان ينجيهم أو يكون توفيهم تقريبا من الله لا تعذيبا * لا يقال قد ذكرت ان الله لا يؤاخذ بمجرد الظلم وانما يؤاخذ حين يجتمع الناس على الضلال ونقول بأنه تعالى عند الاهلاك يهلك المؤمن فكيف هذا * نقول قد ذكرنا ان الاماتة والافناء ان كان للتعذيب فهو مؤاخذة بالذنب واهلاك وان كان لايصال الثواب فليس باهلاك ولا بمؤاخذة والله لا يؤاخذ الناس الا عند عموم الكفر وقوله بصيرا لفظ أتم فى التسلية من العليم وغيره لان البصير بالشئ الناظر اليه أولى بالانجاء من العالم بحاله دون أن يراه والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(سورة يس ثمانون وثلاث آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

يس والقرآن الحكيم) قد ذكرنا كلاما كليا فى حروف التهجى فى سورة العنكبوت وذكرنا أن فى كل سورة بدأ الله فيها بحرف التهجى كان فى أوائلها الذكر أو الكتاب أو القرآن ولنذكر ههنا ابحاثا (البحث الاول) هو ان فى ذكر هذه الحروف فى أوائل السور أمور تدل على انها غير خالية عن الحكمة ولكن علم الانسان لا يصل اليها بعينها

سورة يس مكية وعنه عليه الصلاة والسلام تدعى المعمة تعم صاحبها خير الدارين والدافعة والقاضية تدفع عنه كل سوء وتقضى له كل حاجة وآيها ثلاث وثمانون * (بسم الله الرحمن الرحيم) * (يس) اما مسرود على نمط التعديد فلا حظ له من الاعراب أو اسم للسورة كما نص عليه الخليل وسيبويه وعليه الاكثر فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو النصب على أنه مفعول لفعل مضمر وعليهما مدار قراءة يس بالرفع والنصب أى هذه يس أو اقرأ يس ولا مساغ للنصب باضمار فعل القسم لان ما بعده مقسم به وقد أبوا الجمع بين قسمين على شئ واحد قبل انقضاء الاول ولا مجال للعطف لا ختلا فهما اعرابا وقيل هو مجرور باضمار باء القسم مفتوح لكونه غير منصرف كما سلف فى فاتحة سورة البقرة من أن ما كانت من هذه الفواتح مفردة مثل صاد وقاف ونون أو كانت موازنة لمفرد نحو طس و يس وحم الموازنة لقابيل وهابيل يأتى فيها الاعراب اللفظى ذكره سيبويه فى باب أسماء

فنقول ماهو الكلى من الحكمة فيها أما بيان أن فيها ما يدل على الحكمة فهو ان الله تعالى ذكر من الحروف نصفها وهى أربعة عشر حرفا وهى نصف ثمانية وعشرين حرفا وهى جميع الحروف التى فى لسان العرب على قولنا الهمزة ألف متحركة ثم انه تعالى قسم الحروف ثلاثة أقسام تسعة أحرف من الالف الى الذال وتسعة أحرف أخر فى آخر الحروف من الفاء الى الياء وعشرة من الوسط من الراء الى الغين وذكر من القسم الاول حرفين هما الالف والحاء وترك سبعة وترك من القسم الآخر حرفين هما الفاء والواو وذكر سبعة ولم يترك من القسم الاول من حروف الحلق والصدر الا واحدا لم يذكره وهو الخاء ولم يذكر من القسم الآخر من حروف الشفة الا واحدا لم يتركه وهو الميم والعشر الاواسط ذكر منها حرفا وترك حرفا فذكر الراء وترك الزاى وذكر السين وترك الشين وذكر الصاد وترك الضاد وذكر الطاء وترك الظاء وذكر العين وترك الغين وليس هذا أمرا يقع اتفاقا بل هو ترتيب مقصود فهو لحكمة وأما ان عينها غير معلومة فظاهر وهب ان واحدا يدعى فيه شيئا فماذا يقول فى كون بعض السورة مفتتحة بحرف كسورة ن وق وص وبعضها بحرفين كسورة حم ويس وطس وطه وبعضها بثلاثة أحرف كسورة الم وطسم والر وبعضها بأربعة كسورتى المر والمص وبعضها بخمسة أحرف كسورتى حم عسق وكهيعص وهب أن قائلا يقول ان هذا اشارة الى أن الكلام اما حرف واما فعل واما اسم والحرف كثيرا ما جاء على حرف كواو العطف وفاء التعقيب وهمزة الاستفهام وكاف التشبيه وباء الالصاق وغيرها وجاء على حرفين كمن للتبعيض وأو للتخيير وأم للاستفهام المتوسط وان الشرط وغيرها والاسم والفعل والحرف جاء على ثلاثة أحرف كالى وعلى فى الحرف والى وعلا فى الاسم وألا يألو وعلا يعلو فى الفعل والاسم والفعل جاء على أربعة والاسم خاصة جاء على ثلاثة وأربعة وخمسة كفحل وسجل وجردحل فجاء فى القرآن اشارة الى أن تركيب العربية من هذه الحروف على هذه الوجوه فماذا يقول هذا القائل فى تخصيص بعض السور بالحرف الواحد والبعض بأكثر فلا يعلم تمام السر الا الله ومن أعلمه الله به اذا علمت هذا فنقول اعلم أن العبادة منها قلبية ومنها لسانية ومنها جارحية وكل واحدة منها قسمان قسم عقل معناه وحقيقته وقسم لم يعلم أما القلبية مع انها أبعد عن الشك والجهل ففيها ما لم يعلم دليله عقلا وانما وجب الايمان به والاعتقاد سمعا كالصراط الذى أرق من الشعرة واحد من السيف ويمر عليه المؤمن والموقن كالبرق الخاطف والميزان الذى توزن به الاعمال التى لا ثقل لها فى نظر الناظر وكيفيات الجنة والنار فان هذه الاشياء وجودها لم يعلم بدليل عقلى وانما المعلوم بالعقل امكانها ووقوعها معلوم مقطوع به بالسمع ومنها ما علم كالتوحيد والنبوة وقدرة الله وصدق الرسول وكذلك فى العبادات الجارحية ما علم معناه وما لم يعلم كمقادير النصب وعدد الركعات وقد ذكرنا الحكمة فيه وهى ان العبد اذا أتى بما أمر به من غير ان يعلم

السور من كتابه وقيل هما حركتا بناء كما فى حيث وأين حسبما يشهد بذلك قراءة يس بالكسر كجير وقيل الفتح والكسر تحريك للجد فى الهرب من التقاء الساكنين وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن معناه يا انسان فى لغة طيئ قالوا المراد به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل أصله يا أنيسين فاقتصر على شطره كما قيل من الله فى أيمن الله (والقرآن) بالجر على أنه مقسم به ابتداء وقد جوز أن يكون عطفا على يس على تقدير كونه مجرورا باضمار باء القسم (الحكيم) أى المتضمن للحكمة أو الناطق بها بطريق الاستعارة أو المتصف بها على الاسناد المجازى وقد يجوز أن يكون الاصل الحكيم قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فبانقلابه مرفوعا بعد الجر استكن فى الصفة المشبهة كما مر فى صدر سورة لقمان (انك لمن المرسلين) جواب للقسم والجملة لرد انكار الكفرة بقولهم فى حقه عليه الصلاة والسلام لست مرسلا وهذه الشهادة منه عزوجل من جملة ما أشير اليه بقوله تعالى فى جوابهم قل كفى بالله شهيدا بيني

و بينكم وفى تخصيص القرآن بالاقسام به أولا * ٥٩ * و بوصفه بالحكيم ثانيا تنويه بشأنه وتنبيه على أنه
كما يشهد برسالته عليه
الصلاة والسلام من
حيث نظمه المعجز
المنطوى على بدائع
الحكم يشهد بها من
هذه الحيثية أيضا لما
أن الاقسام بالشئ
استشهاد به على تحقق
مضمون الجملة القسمية
وتقويته بثبوته فيكون
شاهدا به ودليلا عليه
قطعا وقوله تعالى (على
صراط مستقيم) خبر
آخر لان أو حال من
المستكن فى الجار
والمجرور على أنه عبارة
عن الشريعة الشريفة
بكمالها الاعن التوحيد
فقط و فائدته بيان
أن شريعته عليه
الصلاة والسلام أقوم
الشرائع وأعدلها
كما يعرب عنه التنكير
التفخيمى والوصف
اثر بيان أنه عليه
الصلاة والسلام من
جملة المرسلين بالشرائع
(تنزيل العزيز الرحيم)
نصب على المدح
وقرئ بالرفع على أنه
خبر مبتدأ محذوف
و بالجر على أنه بدل
من القرآن وأيا ما كان فهو مصدر بمعنى المفعول عبر به عن القرآن بيانا لكمال عراقته فى كونه منزلا من عند الله
عزوجل كأنه نفس

مافيه من الفائدة لايكون الآتيا بمحض العبادة بخلاف مالو علم الفائدة فربما يأتى للفائدة وان لم يؤمن كما لو قال السيد لعبده انقل هذه الحجارة من ههنا ولم يعلمه ما فى النقل فنقلها ولو قال انقلها فان تحتها كنزا هو لك ينقلها وان لم يؤمن اذا علم هذا فكذلك فى العبادات اللسانية الذكرية وجب أن يكون منها ما لايفهم معناه حتى اذا تكلم به العبد علم منه انه لايقصد غير الانقياد لامر المعبود الآمر الناهى فاذا قال حم يس الم طس علم انه لم يذكر ذلك لمعنى يفهمه أو يفهمه فهو يتلفظ به اقامة لما أمر به (البحث الثانى) قيل فى خصوص يس انه كلام هو نداء معناه يا انسان وتقريره هو ان تصغير انسان انيسين فكأنه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال يس أى انيسين وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم و يدل عليه قوله تعالى بعده انك لمن المرسلين (البحث الثالث) قرئ يس اما بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف هو قوله هذه كأنه قال هذه يس واما بالضم على نداء المفرد أو على انه مبنى كحيث وقرئ يس اما بالنصب على معنى اتل يس واما بالفتح كأين وكيف وقرئ يس بالكسر كجير لاسكان الياء وكسرة ماقبلها ولايجوز أن يقال بالجر لان اضمار الجار غير جائز وليس فيه حرف قسم ظاهر وقوله تعالى والقرآن الحكيم أى ذى الحكمة كعيشة راضية أى ذات رضا أو على انه ناطق بالحكمة فهى كالحى المتكلم * وقوله تعالى (انك لمن المرسلين) مقسم عليه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الكفار انكروا كون محمد مرسلا والمطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة فى الاقسام نقول فيه وجوه (الاول) هو أن العرب كانوا يتوقون الايمان الفاجرة وكانوا يقولون ان اليمين الفاجرة توجب خراب العالم وصحح النبى صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع ثم انهم كانوا يقولون ان النبى صلى الله عليه وسلم يصيبه من آلهتهم عذاب وهى الكواكب فكان النبى صلى الله عليه وسلم يحلف بأمر الله وانزال كلامه عليه و بأشياء مختلفة وماكان يصيبه عذاب بل كان كل يوم أرفع شأنا وأمنع مكانا فكان ذلك يوجب اعتقاد انه ليس بكاذب (الثانى) هو ان المناظرين اذا وقع بينهما كلام وغلب أحدهما الآخر بتمشية دليله وأسكته يقول المطلوب انك قررت هذا بقوة جدالك وأنت خبير فى نفسك بضعف مقالك وتعلم أن الامر ليس كما تقول وان أقمت عليه صورة دليل وعجزت أنا عن القدح فيه وهذا كثير الوقوع بين المناظرين فعند هذا لايجوز أن يأتى هو بدليل آخر لان الساكت المنقطع يقول فى الدليل الآخر ما قاله فى الاول فلا يجد أمرا الا اليمين فيقول والله انى لست مكابرا وان الامر على ما ذكرت ولو علمت خلافه لرجعت اليه فههنا يتعين اليمين فكذلك النبى صلى الله عليه وسلم لما أقام البراهين وقالت الكفرة ماهذا الا رجل يريد أن يصدكم وقالوا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحر مبين تعين التمسك بالايمان لعدم فائدة الدليل (الثالث) هو ان هذا ليس مجرد الحلف وانما هو دليل خرج فى صورة اليمين لان القرآن معجزة ودليل

كونه مرسلا هو المعجزة والقرآن كذلك فان قيل فلم لم يذكر فى صورة الدليل وما الحكمة فى ذكر الدليل فى صورة اليمين قلنا الدليل اذا ذكر لا فى صورة اليمين قد لا يقبل عليه سامع فلا يقبله فؤاده فاذا ابتدئ به على صورة اليمين واليمين لا يقع لاسيما من العظيم الاعلى الا على أمر عظيم والامر العظيم تتوفر الدواعى على الاصغاء اليه فلصورة اليمين تشرئب اليه الاجساد ولكونه دليلا شافيا يتشرب به الفوائد فيقع فى السمع وينفع فى القلب (المسئلة الثانية) كون القرآن حكيما عندهم لكون محمد رسولا فلهم ان يقولوا ان هذا ليس بقسم نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان كون القرآن معجزة بين ان أنكروه قيل لهم فأتوا بسورة من مثله (والثانى) ان العاقل لا يثق بيمين غيره الا اذا حلف بما يعتقد عظمته فالكافر ان حلف بمحمد لا نصدقه كما نصدقه لو حلف بالصليب والصنم ولو حلف بديننا الحق لا يوثق بمثل ما يوثق لو حلف بدينه الباطل وكان من المعلوم ان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعظمون القرآن فحلفه به هو الذى يوجب ثقتهم به ❊ وقوله تعالى (على صراط مستقيم) خبر بعد خبر أى انك على صراط مستقيم والمستقيم أقرب الطرق الموصلة الى المقصد والدين كذلك فانه توجه الى الله تعالى وتولى عن غيره والمقصد هو الله والمتوجه الى المقصد أقرب اليه من المولى عنه والمنحرف منه ولا يذهب فهم أحد الى ان قوله انك منهم على صراط مستقيم مميز له عن غيره كما يقال ان محمدا من الناس مجتبى لان جميع المرسلين على صراط مستقيم وانما المقصود بيان كون النبى صلى الله عليه وسلم على الصراط المستقيم الذى يكون عليه المرسلون وقوله على صراط مستقيم فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول المباحية الذين يقولون المكلف يصير واصلا الى الحق فلا يبقى عليه تكليف وذلك من حيث ان الله بين ان المرسلين ماداموا فى الدنيا فهم سالكون سائحون مهتدون منتهجون الى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز ❊ وقوله تعالى (تنزيل العزيز الرحيم) قرئ بالجر على انه بدل من القرآن كأنه قال والقرآن الحكيم تنزيل العزيز الرحيم انك لمن المرسلين لتنذر وقرئ بالنصب وفيه وجهان (أحدهما) انه مصدر فعله منوى كأنه قال تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويكون تقديره نزل القرآن أو الكتاب الحكيم (والثانى) انه مفعول فعل منوى كأنه قال والقرآن الحكيم أعنى تنزيل العزيز الرحيم انك لمن المرسلين لتنذر وهذا ما اختاره الزمخشرى وقرئ الرفع على انه خبر مبتدأ منوى كأنه قال هذا تنزيل العزيز الرحيم لتنذر ويحتمل وجها آخر على هذه القراءة وهو أن يكون مبتدأ خبره لتنذر كأنه قال تنزيل العزيز للانذار وقوله العزيز الرحيم اشارة الى أن الملك اذا أرسل رسولا فالمرسل اليهم اما أن يخالفوا المرسل ويهينوا المرسل وحينئذ لا يقدر الملك على الانتقام منهم الا اذا كان عزيزا أو يخافوا المرسل ويكرموا المرسل وحينئذ يرحمهم الملك أو نقول المرسل يكون معه فى رسالته منع عن أشياء واطلاق لاشياء فالمنع يؤكد العزة والاطلاق يدل على الرحمة ❊ وقوله تعالى

التنزيل واظهارا لفخامته الاضافية بعد بيان فخامته الذاتية بوصفه بالحكمة وفى تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة التامة والرأفة العامة حث على الايمان به ترهيبا وترغيبا واشعار بأن تنزيله ناشئ عن غاية الرحمة حسبما نطق به قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين وقيل النصب على أنه مصدر مؤكد لفعله المضمر أى نزل تنزيل العزيز الرحيم على أنه استئناف مسوق لبيان ما ذكر من فخامة شأن القرآن وعلى كل تقدير ففيه فضل تأكيد لمضمون الجملة القسمية (لتنذر) متعلق بتنزيل على الوجوه الاول وبعامله المضمر على الوجه الاخير أى لتنذر به كما فى صدر الاعراف وقيل هو متعلق بما يدل عليه لمن المرسلين أى انك مرسل لتنذر (قوما ما أنذر آباؤهم) أى لم ينذر آباؤهم الاقربون لتطاول مدة الفترة على أن ما نافية فيكون صفة مبينة لغاية احتياجهم الى الانذار أو الذى انذره أو شيئا أنذره آباؤهم الابعدون على أنها موصولة أو موصوفة فيكون مفعولا ثانيا لتنذر أو انذار آبائهم الاقدمين

﴿ لتنذر ﴾

على الوجه الاول متعلق بنفى الانذار مترتب عليه والضمير للفريقين أى لم تنذر آباؤهم فهم جميعا لاجله غافلون وعلى الوجوه الباقية متعلق بقوله تعالى لتنذر أو بما يفيده انك لمن المرسلين وارد لتعليل انذاره عليه السلام أو ارساله بغفلتهم المحوجة اليهما على أن الضمير للقوم خاصة فالمعنى فهم غافلون عنه أى عما أنذر آباؤهم الاقدمون لامتداد المدة واللام فى قوله تعالى (لقد حق القول على أكثرهم) جواب القسم أى والله لقد ثبت وتحقق عليهم البتة لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يقتضيه بل بسبب اصرارهم الاختيارى على الكفر والانكار وعدم تأثرهم من التذكير والانذار وغلوهم فى العتو والطغيان وتماديهم فى اتباع خطوات الشيطان بحيث لا يلويهم صارف ولا يثنيهم عاطف

(لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) قد تقدم تفسيره فى قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك وقبل المراد الاثبات وهو على وجهين (أحدهما) لتنذر قوما ما انذار آباؤهم فتكون ما مصدرية (الثانى) ان تكون موصولة معناه لتنذر قوما الذى أنذر آباؤهم فهم غافلون فعلى قولنا ما نافية تفسيره ظاهر فان من لم ينذر آباؤه و بعد الانذار عنه فهو يكون غافلا وعلى قولنا هى للاثبات كذلك لان معناه لتنذرهم انذار آبائهم فانهم غافلون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف يفهم التفسيران وأحدهما يقتضى أن لا يكون آباؤهم منذرين والآخر يقتضى أن يكونوا منذرين و بينهما تضاد نقول على قولنا ما نافية معناه ما أنذر آباؤهم وانذار آبائهم الاولين لا ينافى أن يكون المتقدمون من آبائهم منذرين والمتأخرون منهم غير منذرين (المسئلة الثانية) قوله لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم يقتضى ان لا يكون النبى صلى الله عليه وسلم مأمورا بانذار اليهود لان آباءهم أنذروا نقول ليس كذلك اما على قولنا ما للاثبات لا للنفى فظاهر وأما على قولنا هى نافية فكذلك وقد بينا ذلك فى قوله تعالى بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك وقلنا ان المراد أن آباءهم قد انذروا وبعد ضلالهم و بعد ارسال من تقدم فان الله اذا أرسل رسولا فما دام فى القوم من يبين دين ذلك النبى ويأمر به لا يرسل الرسول فى أكثر الامر فاذا لم يبق فيهم من يبين و يضل الكل و يتباعد العهد و يفشو الكفر يبعث رسولا آخر مقرر الدين من كان قبله أو واضعا لشرع آخر فمعنى قوله تعالى لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم أى ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم واليهود والنصارى دخلوا فيه لانهم لم تنذر آباؤهم الادنون بعد ما ضلوا فهذا دليل على كون النبى صلى الله عليه وسلم مبعوثا بالحق الى الخلق كافة (المسئلة الثالثة) قوله فهم غافلون دليل على أن البعثة لا تكون الا عند الغفلة اما ان حصل لهم العلم بما أنزل الله بان يكون منهم من يبلغهم شريعة و يخالفونه فحق عليهم الهلاك ولا يكون ذلك تعذيبا من قبل أن يبعث الله رسولا وكذلك من خالف الامور التى لا تفتقر الى بيان الرسل يستحق الاهلاك من غير بعثه وليس هذا قولا بمذهب المعتزلة من التحسين والتقبيح العقلى بل معناه ان الله تعالى لو خلق فى قوم علما بوجوب الاشياء وتركوه لا يكونون غافلين فلا يتوقف تعذيبهم على بعثة الرسل * ثم قال تعالى (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) لما بين أن الارسال أو الانزال للانذار أشار الى أن النبى صلى الله عليه وسلم ليس عليه الهداية المستلزمة للاهتداء وانما عليه الانذار وقد لا يؤمن من المنذرين كثير وفى قوله تعالى لقد حق القول وجوه (الاول) وهو المشهور ان المراد من القول هو قوله تعالى حق القول منى لأملأن جهنم منك وممن تبعك (الثانى) هو أن معناه لقد سبق فى علمه ان هذا يؤمن وان هذا لا يؤمن فقال فى حق البعض انه لا يؤمن وقال فى حق غيره انه يؤمن فحق القول أى وجد وثبت بحيث لا يبدل بغيره (الثالث) هو أن يقال المراد منه لقد حق القول الذى قاله الله على لسان الرسل من

كيف لا والمراد بما حق من القول قوله تعالى لابليس عند قوله لاغوينهم أجمعين لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وهو المعنى بقوله

التوحيد وغيره و بان برهانه فأكثرهم لا يؤمنون بعد ذلك لان من يتوقف لاستماع الدليل في مهلة النظر يرجى منه الايمان اذا بان له البرهان فاذا تحقق وأكدبالايمان ولم يؤمن أكثرهم فأكثرهم تبين انهم لا يؤمنون لمضي وقت رجاء الايمان ولانهم لما لم يؤمنوا عند ما حق القول واستمروا فان كانوا يريدون شيأ أوضح من البرهان فهو العيان وعند العيان لا يفيد الايمان وقوله على أكثرهم على هذا الوجه معناه أن من لم تبلغه الدعوة والبرهان قليلون فحق القول على أكثر من لم يوجد منه الايمان وعلى الاول والثاني ظاهر فان أكثر الكفار ماتوا على الكفر ولم يؤمنوا (وفيه وجه رابع) وهو أن يقال لقد حقت كلمة العذاب العاجل على أكثرهم فهم لا يؤمنون وهو قريب من الاول * ثم قال تعالى (انا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون) لما بين انهم لا يؤمنون بين أن ذلك من الله فقال انا جعلنا وفيه وجوه (أحدها) أن المراد انا جعلناهم ممسكين لا ينفقون في سبيل الله كما قال تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك (والثاني) ان الآية نزلت في ابي جهل وصاحبيه المخزوميين حيث حلف أبو جهل انه يرضخ رأس محمد فرآه ساجدا فأخذ صخرة ورفعها ليرسلها على رأسه فالتزقت بيده ويده بعنقه (والثالث) وهو الاقوى وأشد مناسبة لما تقدم وهو ان ذلك كناية عن منع الله اياهم عن الاهتداء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) هل للوجهين الاولين مناسبة مع ما تقدم من الكلام نقول الوجه الاول له مناسبة وهي ان قوله تعالى فهم لا يؤمنون يدخل فيه انهم لا يصلون كما قال تعالى وما كان الله ليضيع ايمانكم أي صلاتكم عند بعض المفسرين والزكاة مناسبة للصلاة على ما بيناه فكأنه قال لا يصلون ولا يزكون وأما على الوجه الثاني فمناسبة خفية وهي انه لما قال لقد حق القول على أكثرهم وذكرنا أن المراد به البرهان قال بعد ذلك بل عاينوا وأبصروا ما يقرب من الضرورة حيث التزقت يده بعنقه ومنع من ارسال الحجر وهو يضطر الى الايمان ولم يؤمن علم انه لا يؤمن أصلا والتفسير هو الوجه الثالث (المسئلة الثانية) قوله فهي راجعة الى ماذا نقول فيها وجهان (أحدهما) انها راجعة الى الايدي وان كانت غير مذكورة ولكنها معلومة لان المغلول تكون أيديه مجموعة في الغل الى عنقه (وثانيهما) وهو ما اختاره الزمخشري انها راجعة الى الاغلال معناه انا جعلنا في أعناقهم أغلالا ثقالا غلاظا بحيث تبلغ الى الاذقان فلم تمكن المغلول معها من أن يطأطئ رأسه (المسئلة الثالثة) كيف يفهم من الغل في العنق المنع من الايمان حتى يجعل كناية فنقول المغلول الذي بلغ الغل ذقنه وبقي مقمحا رافع الرأس لا يبصر الطريق الذي عند قدمه وذكر بعده ان بين يديه سدا ومن خلفه سدا فهو لا يقدر على انتهاج السبيل ورؤيته وقد ذكر من قبل أن المرسل على صراط مستقيم فهذا الذي يهديه النبي الى الصراط المستقيم العقلي جعل ممنوعا كالمغلول الذي يجعل ممنوعا من ابصار الطريق الحسي ويحتمل وجها آخر وهو ان يقال الاغلال في الاعناق عبارة عن عدم الانقياد فان المنقاد

تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين كما يلوح به تقديم الجنة على الناس فانه كما ترى قد اوقع فيه الحكم بادخال جهنم على من تبع ابليس وذلك تعليل له بتبعيته قطعا وثبوت القول على هؤلاء الذين عبر عنهم بأكثرهم انما هو لكونهم من جملة أولئك المصرين على تبعية ابليس أبدا واذ قد تبين أن مناط ثبوت القول وتحققه عليهم اصرارهم على الكفر الى الموت ظهر أن قوله تعالى (فهم لا يؤمنون) متفرع في الحقيقة على ذلك لا على ثبوت القول وقوله تعالى (انا جعلنا في أعناقهم اغلالا) تقرير لتصميمهم على الكفر وعدم ارعوائهم عنه بتمثيل حالهم بحال الذين غلت أعناقهم (فهي الى الاذقان) أي فالاغلال منتهية الى أذقانهم فلا تدعهم يلتفتون الى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤسهم له (فهم مقمحون) رافعون رؤسهم غاضون أبصارهم بحيث لا يكادون يرون الحق أو ينظرون الى جهته (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون)

يقال فيه انه وضع رأسه على الحائط وخضع عنقه والذى فى رقبته الغل الثخين الى الذقن لايطاطئ رأسه ولايحركه تحريك المصدق ويصدق هذا قوله مقمحون فان المقمح هو الرافع رأسه كالناكب يقال بعير قامح اذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب والايمان كالماء الزلال الذى به الحياة وكأنه تعالى قال انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهم مقمحون لايخضعون الرقاب لامر الله وعلى هذا فقوله تعالى (وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون) يكون متمما لمعنى جعل الله اياهم مغلولين لان قوله وجعلنا من بين أيديهم سدا اشارة الى انهم لاينتهجون سبيل الرشاد فكأنه قال لايبصرون الحق فينقادون له لمكان السد ولاينقادون لك فيبصرون الحق فينقادون له لمكان الغل والايمان المورث للايقان اما باتباع الرسول أولا فتلوح له الحقائق ثانيا واما بظهور الامور أولا واتباع الرسول ثانيا ولايتبعون الرسول أولا لانهم مغلولون فلا يظهر لهم الحق من الرسول ثانيا ولايظهر لهم الحق أولا لانهم واقعون فى السد فلا يتبعون الرسول ثانيا (وفيه وجه آخر) وهو ان يقال المانع اما أن يكون فى النفس واما أن يكون خارجا عنها ولهم المانعان جميعا من الايمان اما فى النفس فالغل وأما من الخارج فالسد ولايقع نظرهم على أنفسهم فيرون الآيات التى فى أنفسهم كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم وذلك لان المقمح لايرى نفسه ولايقع بصره على يديه ولايقع نظرهم على الآفاق لانهم من بين السدين لايبصرون الآفاق فلاتتبين لهم الآيات التى فى الآفاق وعلى هذا فقوله انا جعلنا فى أعناقهم وجعلنا من بين أيديهم اشارة الى عدم هدايتهم لآيات الله فى الانفس والآفاق وفى تفسير قوله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا مسائل (المسئلة الاولى) السد من بين الايدى ذكره ظاهر الفائدة فانهم فى الدنيا سالكون وينبغى أن يسلكوا الطريقة المستقيمة ومن بين أيديهم سدا فلايقدرون على السلوك وأما السد من خلفهم فما الفائدة فيه فنقول الجواب عنه من وجوه (الاول) هو ان الانسان له هداية فطرية والكافر قد يتركها وهداية نظرية والكافر ما أدركها فكأنه تعالى يقول جعلنا من بين أيديهم سدا فلايسلكون طريقة الاهتداء التى هى نظرية وجعلنا من خلفهم سدا فلا يرجعون الى الهداية الجبلية التى هى الفطرية (الثانى) هو ان الانسان مبدؤه من الله ومصيره اليه فعمى الكافر لايبصر ما بين يديه من المصير الى الله ولاما خلفه من الدخول فى الوجود بخلق الله (الثالث) هو ان السالك اذا لم يكن له بد من سلوك طريق فان انسد الطريق الذى قدامه يفوته المقصد ولكنه يرجع واذا انسد الطريق من خلفه ومن قدامه فالموضع الذى هو فيه لايكون موضع اقامة لانه مهلك فقوله وجعلنا من بين أيديهم ومن خلفهم اشارة الى اهلاكهم (المسئلة الثانية) قوله تعالى فأغشيناهم بحرف الفاء يقتضى أن يكون للاغشاء بالسد تعلق ويكون الاغشاء مرتبا على جعل السد فكيف ذلك فنقول ذلك من وجهين (أحدهما) أن يكون

امائة للتمثيل وتكميل له أي تكميل أي وجعلنا مع ماذكر من أمامهم سدا عظيما ومن ورائهم سدا كذلك فغطينا بهما أبصارهم فهم بسبب ذلك لايقدرون على ابصار شئ ما أصلا واما تمثيل مستقل فان ماذكر من جعلهم محصورين بين سدين هائلين قد غطيا أبصارهم بحيث لايبصرون شيئا قطعا كاف فى الكشف عن كمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين فى مطمورة الغى والجهالات محرومين عن النظر فى الادلة والآيات وقرئ سدا بالضم وهى لغة فيه وقيل ما كان من عمل الناس فهو بالفتح وما كان من خلق الله فبالضم وقرئ فأعشيناهم من العشا وقيل الآيتان فى بنى مخزوم وذلك أن أباجهل حلف لئن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى ليرضخن رأسه فأتاه وهو عليه الصلاة والسلام يصلى ومعه حجر ليدمغه فلما رفع يده انثنت يده الى عنقه ولزق الحجر بيده حتى فكوه عنها بجهد فرجع الى قومه فأخبرهم بذلك فقال مخزومى آخر أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فاعمى الله تعالى بصره (وسواء عليهم

ذلك بيانا لان الامور مترتبة يكون بعضها اسبابا لبعض فكأنه تعالى قال انا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فلا يبصرون أنفسهم لاقماحهم وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فلا يبصرون مافى الآفاق وحينئذ يمكن أن يروا السماء وماعلى يمينهم وشمالهم فقال بعد هذا كله وجعلنا على أبصارهم غشاوة فلا يبصرون شيئا أصلا (وثانيهما) هو ان ذلك بيان لكون السد قريبا منهم بحيث يصير ذلك كالغشاوة على أبصارهم فان من جعل من خلفه ومن قدامه سدين ملتزقين به بحيث يبقى بينهما ملتزقا بهما تبقى عينه على سطح السد فلا يبصر شيئا اما غير السد فللحجاب واما عين السد فلكون شرط المرئى أن لا يكون قريبا من العين جدا (المسئلة الثالثة) ذكر السدين من بين الايدى ومن خلف ولم يذكر من اليمين والشمال ما الحكمة فيه فنقول اما على قولنا انه اشارة الى الهداية الفطرية والنظرية فظاهر واما على غير ذلك فنقول بما ذكر حصل العموم والمنع من انتهاج المناهج المستقيمة لانهم ان قصدوا السلوك الى جانب اليمين أو جانب الشمال صاروا متوجهين الى شئ ومولين عن شئ فصار ما اليه توجههم ما بين أيديهم فيجعل الله السد هناك فيمنعه من السلوك فكيف ما توجه الكافر يجعل الله بين يديه سدا (ووجه آخر) أحسن مما ذكرنا وهو انا لما بينا ان جعل السد صار سببا للاغشاء كان السد ملتزقا به وهو ملتزق بالسدين فلا قدرة له على الحركة يمنة ولا يسرة فلا حاجة الى السد عن اليمين وعن الشمال وقوله تعالى فأغشيناهم فهم لا يبصرون يحتمل ما ذكرنا انهم لا يبصرون شيئا ويحتمل ان يكون المراد هو ان الكافر مصدود وسبيل الحق عليه مسدود وهو لا يبصر السد ولا يعلم الصد فيظن انه على الطريقة المستقيمة وغيره ضال ثم انه تعالى بين ان الانذار لا ينفعهم مع ما فعل الله بهم من الغل والسد والاغشاء والاعماء بقوله تعالى (وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) أى الانذار وعدمه سيان بالنسبة الى الايمان منهم اذ لا وجود له منهم على التقديرين فان قيل اذا كان الانذار وعدمه سواء فلماذا الانذار نقول قد أجبنا فى غير هذا الموضع انه تعالى قال سواء عليهم وما قال سواء عليك فالانذار بالنسبة الى النبى صلى الله عليه وسلم ليس كعدم الانذار لان أحدهما مخرج له عن العهدة وسبب فى زيادة سيادته عاجلا وسعادته آجلا وأما بالنسبة اليهم على السواء فانذار النبى صلى الله عليه وسلم ليخرج عما عليه وينال ثواب الانذار وان لم ينتفعوا به لما كتب عليهم من البوار فى دار القرار * ثم قال تعالى (انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم) والترتيب ظاهر وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قال من قبل لتنذر وذلك يقتضى الانذار العام على ما بينا وقال انما تنذر وهو يقتضى التخصيص فكيف الجمع بينهما نقول من وجوه (الاول) هو ان قوله لتنذر أى كيف ما كان سواء كان مفيدا أو لم يكن وقوله انما تنذر أى الانذار المفيد لا يكون الا بالنسبة الى من يتبع الذكر ويخشى (الثانى) هو ان الله تعالى لما قال ان الارسال والانزال للانذار وذكر ان الانذار وعدمه سيان بالنسبة

أأنذرتهم أم لم تنذرهم) بيان لشانهم بطريق التصريح اثر بيانه بطريق التمثيل أى مستو عندهم انذارك اياهم وعدمه حسبما مر تحقيقه فى سورة البقرة وقوله تعالى (لا يؤمنون) استئناف مؤكد لما قبله مبين لما فيه من اجمال ما فيه الاستواء أو حال مؤكدة له أو بدل منه ولما بين كون الانذار عندهم كعدمه عقب ببيان من يتأثر منه فقيل (انما تنذر) أى انذارا مستتبعا للاثر (من اتبع الذكر) أى القرآن بالتأمل فيه أو الوعظ ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان (وخشى الرحمن بالغيب) أى خاف عقابه وهو غائب عنه على أنه حال من الفاعل أو المفعول أو خافه فى سريرته ولم يغتر برحمته فانه منتقم قهار كما أنه رحيم غفار كما نطق به قوله تعالى نبئ عبادى أنى انا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الاليم (فبشره بمغفرة) عظيمة (واجر كريم) لا يقادر قدره والفاء لترتيب البشارة أو الامر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية

الى أهل العناد قال لنبيه ليس انذارك غير مفيد من جميع الوجوه فأنذر على سبيل العموم وانما تنذر بذلك الانذار العام من يتبع الذكر كأنه يقول يامحمد انك بانذارك تهدى ولاتدرى من تهدى فأنذر الاسود والاحمر ومقصودك من يتبع انذارك و ينتفع بذكراك (الثالث) هوان نقول قوله لتنذر أى أولا فاذا أنذرت و بلغت و بالغت واستهزأ البعض وتولى واستكبر وولى فأعرض بعد ذلك فانما تنذر الذين اتبعوك (الرابع) وهوقريب من الثالث انك تنذر الكل بالاصول وانما تنذر بالفروع من ترك الصلاة والزكاة من اتبع الذكر وآمن (المسئلة الثانية) قوله من اتبع الذكر يحتمل وجوها (الاول) وهوالمشهور من اتبع القرآن (الثانى) من اتبع مافى القرآن من الآيات ويدل عليه قوله تعالى والقرآن ذى الذكر فجعل القرآن نفس الذكر (الثالث) من اتبع البرهان فانه ذكر بكمل الفطرة وعلى كل وجوه فمعناه انما تنذر العلماء الذين يخشون وهو كقوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وكقوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات فقوله اتبع الذكر أى آمن وقوله وخشى الرحمن أى عمل صالحا وهذا الوجه يتأيد بقوله فبشره بمغفرة وأجر كريم لانا ذكرنا مرارا أن الغفران جزاء الايمان فكل مؤمن مغفور والاجر الكريم جزاء العمل كما قال تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم وتفسير الذكر بالقرآن يتأيد بتعريف الذكر بالالف واللام وقد تقدم ذكر القرآن فى قوله تعالى والقرآن الحكيم وقوله وخشى الرحمن فيه لطيفة وهى أن الرحمة تورث الاتكال والرجاء فقال مع أنه رحمن رحيم فالعاقل لاينبغى أن يترك الخشية فان كل من كانت نعمته بسبب رحمته اكثر فالخوف منه أتم مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة وتكملة اللطيفة هى ان من اسماء الله اسمين يختصان به هما الله والرحمن كما قال تعالى قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن حتى قال بعض الأئمة هما علمان اذا عرفت هذا فالله اسم ينبئ عن الهيبة والرحمن ينبئ عن العاطفية فقال فى موضع يرجوا الله وقال ههنا وخشى الرحمن يعنى مع كونه ذاهيبة لاتقطعوا عنه رجاءكم ومع كونه ذارحمة لاتأمنوه وقوله بالغيب يعنى بالدليل وان لم ينته الى درجة المرئى المشاهد فان عند الانتهاء الى تلك الدرجة لايبقى للخشية فائدة والمشهور ان المراد بالغيب ما غاب عنا وهو أحوال القيامة وقيل ان الوحدانية تدخل فيه وقوله فبشره فيه اشارة الى الامر الثانى من امرى الرسالة فان النبى صلى الله عليه وسلم بشير ونذير وقد ذكر أنه أرسل لينذر وذكر ان الانذار النافع عند اتباع الذكر فقال بشر كما انذرت ونفعت وقوله بمغفرة على التنكير أى بمغفرة واسعة تستر من جميع الجوانب حتى لايرى عليه أثر من آثار النفس ويظهر عليه أنوار الروح الزكية وأجر كريم أى ذى كرم وقد ذكرنا مافى الكريم فى قوله ورزق كريم وفى قوله ورزقا كريما * قال تعالى (انانحن نحيى الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شئ أحصيناه فى امام مبين) فى الترتيب وجوه (أحدها) ان الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الاصول

(انانحن نحيى الموتى) بيان لشان عظيم ينطوى على الانذار والتبشير انطواء اجماليا أى نبعثهم بعد مماتهم وعن الحسن احياؤهم اخراجهم من الشرك الى الايمان فهو حينئذ عدة كريمة بتحقيق المبشر به (ونكتب ماقدموا) أى ما اسلفوا من الاعمال الصالحة وغيرها (وآثارهم) التى أبقوها من الحسنات كعلم علموه أو كتاب ألفوه أوحبيس وقفوه أو بناء بنوه من المساجد والرباطات والقناطر وغير ذلك من وجوه البر ومن السيآت كتأسيس قوانين الظلم والعدوان وترتيب مبادى الشر والفساد فيما بين العباد وغير ذلك من فنون الشرور التى أحدثوها وسنوها لمن بعدهم من المفسدين وقيل هى آثار المشائين الى المساجد ولعل المراد أنها من جملة الآثار وقرئ و يكتب على البناء للمفعول ورفع آثارهم (وكل شئ) من الاشياء كائنا ما كان (أحصيناه فى امام مبين) أصل عظيم الشأن مظهر لجميع الاشياء مما كان وما سيكون وهو اللوح المحفوظ وقرئ كل شئ بالرفع (واضرب لهم

الثلاثة التى يصير بها المكلف مؤمنا مسلما ذكر أصلا آخر وهو الحشر (وثانيها) وهو أن الله تعالى لما ذكر الانذار والبشارة بقوله فبشره بمغفرة ولم يظهر ذلك بكماله فى الدنيا فقال ان لم ير فى الدنيا فالله يحيى الموتى ويجزى المنذرين ويجزى المبشرين (وثالثها) أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكده وهو احياء الموتى وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) انا نحن يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون مبتدأ وخبرا كقول القائل * أنا أبو النجم وشعرى شعرى * ومثل هذا يقال عند الشهرة العظيمة وذلك لان من لا يعرف يقال من انت فيقول انا ابن فلان فيعرف ومن يكون مشهورا اذا قيل له من انت يقول أنا أى لا معرف لى أظهر من نفسى فقال انا نحن معروفون باوصاف الكمال واذا عرفنا بانفسنا فلا تنكر قدرتنا على احياء الموتى (وثانيهما) أن يكون الخبر نحيى كأنه قال انا نحيى الموتى ونحن يكون تأكيدا والاول أولى (المسئلة الثانية) انا نحن فيه اشارة الى التوحيد لان الاشتراك يوجب التمييز بغير النفس فان زيدا اذا شاركه غيره فى الاسم فلو قال أنا زيد لم يحصل التعريف التام لان للسامع أن يقول أيما زيد فيقول ابن عمرو ولو كان هناك زيد آخر ابوه عمرو لا يكفى قوله ابن عمرو فلما قال الله انا نحن أى ليس غيرنا أحد يشاركنا حتى نقول انا كذا فنمتاز وحينئذ تصير الاصول الثلاثة مذكورة الرسالة والتوحيد والحشر (المسئلة الثالثة) قوله ونكتب ما قدموا فيه وجوه (أحدها) المراد ما قدموا وأخروا فاكتفى بذكر أحدهما كما فى قوله تعالى سرابيل تقيكم الحر والمراد والبرد أيضا (وثانيها) المعنى ما أسلفوا من الاعمال صالحة كانت أو فاسدة وهو كما قال تعالى بما قدمت أيديهم أى بما قدمت فى الوجود على غيره أوجدته (وثالثها) نكتب نياتهم فانها قبل الاعمال وآثارهم أى أعمالهم على هذا الوجه (المسئلة الرابعة) وآثارهم فيه وجوه (الاول) آثارهم أقدامهم فان جماعة من أصحابه بعدت دورهم عن المساجد وأرادوا النقلة فقال صلى الله عليه وسلم ان الله يكتب خطواتكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم (الثانى) هى السنن الحسنة كالكتب المصنفة والقناطر المبنية والحبائس الدارة والسنن السيئة كالظلمات المستمرة التى وضعها ظالم والكتب المضلة وآلات الملاهى وأدوات المناهى المعمولة الباقية وهو فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجر العامل شئ ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها فما قدموا هو أفعالهم وآثارهم أفعال الشاكرين فبشرهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها (والثالث) ما ذكرنا ان الآثار الاعمال وما قدموا النيات فان النية قبل العمل (المسئلة الخامسة) الكتابة قبل الاحياء فكيف أخر فى الذكر حيث قال نحيى ونكتب ولم يقل نكتب ما قدموا ونحييهم نقول الكتابة معظمة لامر الاحياء لان الاحياء ان لم يكن للحساب لا يعظم والكتابة فى نفسها ان لم تكن احياء واعادة لا يبقى لها أثر أصلا فالاحياء هو المعتبر والكتابة مؤكدة معظمة لامره

مثلا أصحاب القرية) ضرب المثل يستعمل تارة فى تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها كما فى قوله تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط واخرى فى ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد الى تطبيقها بنظيرة لها كما فى قوله تعالى وضربنا لكم الامثال على أحد الوجهين اى بينا لكم أحوالا بديعة هى فى الغرابة كالامثال فالمعنى على الاول اجعل أصحاب القرية لهؤلاء فى الغلو فى الكفر والاصرار على تكذيب الرسل أى طبق حالهم بحالهم على أن مثلا مفعول ثان لاضرب وأصحاب القرية مفعوله الاول أخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه وعلى الثانى اذكر وبين لهم قصة هى فى الغرابة كالمثل وقوله تعالى أصحاب القرية بدل منه بتقدير المضاف أو بيان له والقرية انطاكية (اذ جاءها المرسلون) بدل اشتمال من أصحاب القرية وهم رسل عيسى عليه السلام الى أهلها ونسبة ارسالهم اليه تعالى فى قوله (اذ أرسلنا اليهم اثنين) بناء على أنه كان بأمره تعالى لتكميل التمثيل وتتميم التسلية

فلهذا قدم الاحياء ولانه تعالى لما قال إنا نحن وذلك يفيد العظمة والجبروت والاحياء عظيم يختص بالله والكتابة دونه فقرن بالتعريف الامر العظيم وذكر ما يعظم ذلك العظيم وقوله وكل شئ أحصيناه في امام مبين يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون ذلك بيانا لكون ما قدموا وآثارهم امرا مكتوبا عليهم لا يبدل فان القلم جف بما هو كائن فلما قال نكتب ما قدموا بين ان قبل ذلك كتابة أخرى فان الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا ثم اذا فعلوه كتب عليهم انهم فعلوه (وثانيها) أن يكون ذلك مؤكدا لمعنى قوله ونكتب لان من يكتب شيئا في أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال نكتب ونحفظ ذلك في امام مبين وهذا كقوله تعالى علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى (وثالثها) أن يكون ذلك تعميما بعد التخصيص كأنه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرة عليه بل كل شئ محصى في امام مبين وهذا يفيد أن شيئا من الاقوال والافعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته وهذا كقوله تعالى وكل شئ فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر يعني ليس ما في الزبر منحصرا فيما فعلوه بل كل شئ فعلوه مكتوب وقوله احصيناه ابلغ من كتبناه لان من كتب شيئا مفرقا يحتاج الى جمع عدده فقال هو محصى فيه وسمى الكتاب اماما لان الملائكة يتبعونه فما كتب فيه من أجل ورزق واحياء واماتة اتبعوه وقيل هو اللوح المحفوظ وامام جاء جمعا في قوله تعالى يوم ندعوا كل أناس بامامهم أي بأئمتهم وحينئذ فامام اذا كان فردا فهو ككتاب وحجاب واذا كان جمعا فهو كجبال وحبال والمبين هو المظهر للامور لكونه مظهرا للملائكة ما يفعلون وللناس ما يفعل بهم وهو الفارق يفرق بين احوال الخلق فيجعل فريقا في الجنة وفريقا في السعير

* ثم قال تعالى (واضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون) وفيه وجهان والترتيب ظاهر على الوجهين (الوجه الاول) هو أن يكون المعنى واضرب لاجلهم مثلا (والثاني) أن يكون المعنى واضرب لاجل نفسك اصحاب القرية لهم مثلا أي مثلهم عند نفسك باصحاب القرية وعلى الاول نقول لما قال الله انك لمن المرسلين وقال لتنذر قال قل لهم ما كنت بدعا من الرسل بل قبلي بقليل جاء اصحاب القرية مرسلون وأنذروهم بما انذرتكم وذكروا التوحيد وخوفوا بالقيامة وبشروا بنعيم دار الاقامة وعلى الثاني نقول لما قال الله تعالى ان الانذار لا ينفع من أضله الله وكتب عليه انه لا يؤمن قال النبي عليه الصلاة والسلام فلا تأس واضرب لنفسك ولقومك مثلا أي مثل لهم عند نفسك مثلا حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا وصبر الرسل على القتل والايذاء وأنت جئتهم واحدا وقومك أكثر من قوم الثلاثة فانهم جاؤا قرية وأنت بعثت الى العالم وفي التفسير مسائل (المسئلة الاولى) ما معنى قول القائل ضرب مثلا وقوله تعالى واضرب مع أن الضرب في اللغة اما مساس جسم جسما بعنف واما السير اذا قرن به حرف في كقوله تعالى اذا ضربتم في الارض نقول قوله ضرب مثلا معناه مثل مثلا وذلك لان الضرب

وهما يحنا وبولس وقيل غيرهما (فكذبوهما) أي فأتياهم فدعواهم الى الحق فكذبوهما في الرسالة (فعززنا) أي قوينا يقال عزز المطر الارض اذا لبدها وقرئ بالتخفيف من عزه اذا غلبه وقهره وحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه ولان المقصد ذكر المعزز به (بثالث) هو شمعون (فقالوا) أي جميعا (انا اليكم مرسلون) مؤكدين كلامهم لسبق الانكار لما أن تكذيبهما تكذيب للثالث لاتحاد كلمتهم وذلك أنهم كانوا عبدة أصنام فارسل اليهم عيسى عليه السلام اثنين فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له وهو حبيب النجار صاحب يس فسألهما فاخبراه قال أمعكما آية فقالا نشفي المريض ونبرئ الاكمه والابرص وكان له ولد مريض منذ سنتين فمسحاه فقام فآمن حبيب وفشا الخبر وشفي على أيديهما خلق وبلغ حديثهما الى الملك وقال لهما ألنا اله سوى آلهتنا قالا نعم من أوجدك وآلهتك فقال حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس وقيل ضربوهما وقيل حبسا ثم بعث عيسى عليه السلام شمعون

اسم للنوع يقال هذه الاشياء من ضرب واحد أى اجعل هذا وذاك من ضرب واحد (المسئلة الثانية) أصحاب القرية معناه واضرب لهم مثلا مثل أصحاب القرية فترك المثل وأقيم الاصحاب مقامه فى الاعراب كقوله واسأل القرية هذا قول الزمخشرى فى الكشاف ويحتمل أن يقال لاحاجة الى الاضمار بل المعنى اجعل أصحاب القرية لهم مثلا أو مثل أصحاب القرية بهم (المسئلة الثالثة) اذ جاءها المرسلون اذ منصوبة لانها بدل من أصحاب القرية كأنه قال تعالى واضرب لهم وقت مجئ المرسلين ومثل ذلك الوقت بوقت مجيئك وهذا أيضا قول الزمخشرى وعلى قولنا ان هذا المثل مضروب لنفس محمد صلى الله عليه وسلم تسلية فيحتمل أن يقال اذ ظرف منصوب بقوله اضرب أى اجعل الضرب كأنه حين مجيئهم وواقع فيه والقرية انطاكية والمرسلون من قوم عيسى وهم أقرب مرسل أرسل الى قوم الى زمان محمد صلى الله عليه وسلم وهم ثلاثة كما بين الله تعالى وقوله اذ أرسلنا يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون اذ أرسلنا بدلا من اذ جاءها كأنه قال اضرب لهم مثلا اذ أرسلنا الى أصحاب القرية اثنين (وثانيهما) وهو الاصح الاوضح أن يكون اذ ظرفا والفعل الواقع فيه جاءها أى جاءها المرسلون حين أرسلناهم اليهم أى لم يكن مجيئهم من تلقاء أنفسهم وانما جاؤهم حيث أمروا وهذا فيه لطيفة وهى ان فى الحكاية ان الرسل كانوا مبعوثين من جهة عيسى عليه السلام أرسلهم الى انطاكية فقال تعالى ارسال عيسى عليه السلام هو ارسالنا ورسول رسول الله باذن الله رسول الله فلا يقع لك يا محمد أن أولئك كانوا رسل الرسول وأنا رسول الله فان تكذيبهم كتكذيبك فتتم التسلية بقوله اذ أرسلنا وهذا يؤيد مسئلة فقهية وهى أن وكيل الوكيل باذن الموكل وكيل الموكل لا وكيل الوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل اياه وينعزل اذا عزله الموكل الاول وهذا على قولنا واضرب لهم مثلا ضرب المثل لاجل محمد صلى الله عليه وسلم ظاهر ❊ وقوله (اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما) فى بعثه الاثنين حكمة بالغة وهى انهما كانا مبعوثين من جهة عيسى باذن الله فكان عليهما انهاء الامر الى عيسى والاتيان بما أمر الله والله عالم بكل شئ لا يحتاج الى شاهد يشهد عنده وأما عيسى فهو بشر فأمره الله بارسال اثنين ليكون قولهما على قومهما عند عيسى حجة تامة ❊ وقوله (فعززنا بثالث) أى قوينا وقرئ فعززنا بثالث مخففا من عزاذا غلب فكأنه قال فغلبنا نحن وقهرنا بثالث والاول أظهر وأشهر وترك المفعول حيث لم يقل فعززناهما لمعنى لطيف وهو أن المقصود من بعثهما نصرة الحق لا نصرتهما والكل مقوون للدين المتين بالبرهان المبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) النبى صلى الله عليه وسلم بعث رسله الى الاطراف واكتفى بواحد وعيسى عليه السلام بعث اثنين نقول النبى بعث لتقرير الفروع وهو دون الاصول فاكتفى بواحد فان خبر الواحد فى الفروع مقبول وأما هما فبعثا بالاصول وجعل لهما معجزة تفيد اليقين والا لما كفى ارسال اثنين أيضا ولا ثلاثة (المسئلة الثانية) قال الله تعالى لموسى عليه السلام سنشد

حتى استأنسوا به ورفعوا خبره الى الملك وأنس به فقال له يوما بلغنى أنك حبست رجلين فهل سمعت مايقولانه قال لاحال الغضب بينى وبين ذلك فدعاهما فقال شمعون من أرسلكما قالا الله الذى خلق كل شئ وليس له شريك فقال صفاوأوجزا قالا يفعل مايشاء ويحكم مايريد قال وما آيتكما قالا ما يتمنى الملك فدعا بغلام مطموس العينين فدعوا الله تعالى حتى انشق له بصر فأخذا بندقتين فوضعاهما فى حدقتيه فصارتا مقلتين ينظر بهما فقال له شمعون أرأيت لو سألت الهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف قال ليس لى عنك سر ان الهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وكان شمعون يدخل معهم على الصنم فيصلى ويتضرع وهم يحسبون أنه منهم ثم قال ان قدر الهكما على احياء ميت آمنا به فدعوا بغلام مات من سبعة أيام فقام وقال انى أدخلت فى سبعة أودية من النار وانى أحذركم ما أنتم فيه فآمنوا وقال فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك من هم قال شمعون وهذان فتعجب

قد أثر فيه نصحه فآمن وآمن قوم ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل عليه السلام فهلكوا هكذا قالوا ولكن

عضدك فذكر المفعول هناك ولم يذكره ههنا مع ان المقصود هناك أيضا نصرة الحق تقول موسى عليه السلام كان أفضل من هرون وهرون بعث بطلبه معه حيث قال فأرسله معى فكان هرون مبعوثا ليصدق موسى فيما يقول ويقوم بما يأمره وأماهما فكل واحد مستقل ناطق بالحق فكان هناك المقصود تقوية موسى وارسال من يؤنس معه وهو هرون وأما ههنا المقصود تقوية الحق فظهر الفرق * ثم بين الله ماجرى منهم وعليهم مثل ماجرى من محمد صلى الله عليه وسلم وعليه (فقالوا انا اليكم مرسلون) كما قال انك لمن المرسلين وبين ماقال القوم بقوله (قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شئ) جعلوا كونهم بشرا مثلهم دليلا على عدم الارسال وهذا عام من المشركين قالوا فى حق محمد أأنزل عليه الذكر وانما ظنوه دليلا بناء على انهم لم يعتقدوا فى الله الاختيار وانما قالوا فيه انه موجب بالذات وقد استوينا فى البشرية فلا يمكن الرجحان والله تعالى رد عليهم قولهم بقوله الله أعلم حيث يجعل رسالته وبقوله الله يجتبى اليه من يشاء الى غير ذلك وقوله وما أنزل الرحمن من شئ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متمما لما ذكروه فيكون الكل شبهة واحدة ووجهه هو أنهم قالوا أنتم بشر فما نزلتم من عند الله وما أنزل الله اليكم أحدا فكيف صرتم رسل الله (وثانيهما) أن يكون هذا شبهة أخرى مستقلة ووجهه هو أنهم لما قالوا أنتم بشر مثلنا فلا يجوز رجحانكم علينا ذكروا الشبهة من جهة النظر الى المرسلين ثم قالوا شبهة أخرى من جهة المرسل وهو أنه تعالى ليس بمنزل شيأ فى هذا العالم فان تصرفه فى العالم العلوى وللعلويات التصرف فى السفليات على مذهبهم فالله تعالى لم ينزل شيأ من الاشياء فى الدنيا فكيف أنزل اليكم وقوله الرحمن اشارة الى الرد عليهم لان الله لما كان رحمن الدنيا والارسال رحمة فكيف لا ينزل رحمته وهو رحمن فقال انهم قالوا ما أنزل الرحمن شيأ وكيف لا ينزل الرحمن مع كونه رحمن شيأ هو الرحمة الكاملة * ثم قال تعالى (ان أنتم الا تكذبون) أى ما أنتم الا كاذبين (قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون) اشارة الى انهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم وأكدوه باليمين وقالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون وأكدوه باللام لان يعلم الله يجرى مجرى القسم لان من يقول يعلم الله فيما لا يكون فقد نسب الله الى الجهل وهو سبب العقاب كما ان الحنث سببه وفى قوله ربنا يعلم اشارة الى الرد عليهم حيث قالوا أنتم بشر وذلك لان الله اذا كان يعلم انهم لمرسلون يكون كقوله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته يعنى هو عالم بالامور وقادر فاختارنا بعلمه لرسالته * ثم قال (وما علينا الا البلاغ المبين) تسلية لانفسهم أى نحن خرجنا عن عهدة ما علينا وحثا لهم على النظر فانهم لما قالوا ما علينا الا البلاغ كان ذلك يوجب تفكرهم فى أمرهم حيث لم يطلبوا منهم أجرا ولا قصدوا رياسة وانما كان شغلهم التبليغ والذكر وذلك مما يحمل العاقل على النظر والمبين يحتمل أمورا (أحدها) البلاغ المبين للحق عن الباطل أى الفارق بالمعجزة والبرهان (وثانيها) البلاغ المظهر

لا يساعده سياق النظم الكريم حيث اقتصر فيه على حكاية تماديهم فى العناد واللجاج وركوبهم متن المكابرة فى الحجاج ولم يذكر فيه ممن يؤمن أحد سوى حبيب ولو أن الملك وقوما من حواشيه آمنوا لكان الظاهر أن يظاهروا الرسل ويساعدوهم قبلوا فى ذلك أو قتلوا كدأب النجار الشهيد ولكان لهم فيه ذكر ما بوجه من الوجوه اللهم الا أن يكون ايمان الملك بطريق الخفية على خوف من عتاة ملئه فيعتزل عنهم معتذرا بعذر من الاعذار (قالوا) أى أهل انطاكية الذين لم يؤمنوا مخاطبين للثلاثة (ما أنتم الا بشر مثلنا) من غير مزية لكم علينا موجبة لاختصاصكم بما تدعونه ورفع بشر لانتقاض النفى المقتضى لاعمال ما بالا (وما أنزل الرحمن من شئ) مما تدعونه من الوحى والرسالة (ان أنتم الا تكذبون) فى دعوى

لما أرسلنا الا كل أى لا يكفى أن نبلغ الرسالة الى شخص أو شخصين (وثالثها) البلاغ المظهر للحق بكل ما يمكن فاذا تم ذلك ولم يقبلوا يحق هناك الهلاك * ثم كان جوابهم بعد هذا انهم (قالوا انا تطيرنا بكم) وذلك انه لما ظهر من الرسل المبالغة فى البلاغ ظهر منهم الغلو فى التكذيب فلما قال المرسلون انا اليكم لمرسلون قالوا ان أنتم الا تكذبون ولما أكد الرسل قولهم باليمين حيث قالوا ربنا يعلم اكدوا قولهم بالتطير بهم فكأنهم قالوا فى الاول كنتم كاذبين وفى الثانى صرتم مصرين على الكذب حالفين مقسمين عليه واليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع فتشاءمنا بكم ثانيا وفى الاول كما تركتم فى الثانى لا نترككم لكون الشؤم مدركنا بسببكم فقالوا (لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم) وقوله لنرجمنكم يحتمل وجهين (أحدهما) لنشتمنكم من الرجم بالقول وعلى هذا فقوله وليمسنكم ترق كأنهم قالوا ولا يكتفى بالشتم بل يؤدى ذلك الى الضرب والايلام الحسى (وثانيهما) أن يكون المراد الرجم بالحجارة وحينئذ فقوله وليمسنكم بيان للرجم يعنى ولا يكون الرجم رجما قليلا نرجمكم بحجر وحجرين بل نديم ذلك عليكم الى الموت وهو عذاب أليم ويكون المراد لنرجمنكم وليمسنكم بسبب الرجم عذاب منا أليم وقد ذكرنا فى الاليم أنه بمعنى المؤلم والفعيل بمعنى مفعل قليل ويحتمل أن يقال هو من باب قوله عيشة راضية أى ذات رضا فالعذاب الاليم هو ذو ألم وحينئذ يكون فعيلا بمعنى فاعل وهو كثير * ثم أجابهم المرسلون بقولهم (قالوا طائركم معكم) أى شؤمكم معكم وهو الكفر * ثم قالوا (أئن ذكرتم) جوابا عن قولهم لنرجمنكم يعنى أتفعلون بنا ذلك وان ذكرتم أى بين لكم الامر بالمعجز والبرهان (بل أنتم قوم مسرفون) حيث تجعلون من يتبرك به كمن يتشاءم به وتقصدون ايلام من يجب فى حقه الاكرام أو مسرفون حيث تكفرون ثم تصرون بعد ظهور الحق بالمعجز والبرهان فان الكافر مسئ فاذا تم عليه الدليل وأوضح له السبيل و يصر يكون مسرفا والمسرف هو المجاوز الحد بحيث يبلغ الضد وهم كانوا كذلك فى كثير من الاشياء أما فى التبرك والتشاؤم فقد علم وكذلك فى الايلام والاكرام وأما فى الكفر فلان الواجب اتباع الدليل فان لم يوجد به فلا أقل من أن لا يجزم بنقيضه وهم جزموا بالكفر بعد البرهان على الايمان فان قيل بل للاضراب فما الامر المضرب عنه نقول يحتمل أن يقال قوله أئن ذكرتم وارد على تكذيبهم ونسبتهم الرسل الى الكذب بقولهم ان أنتم الا تكذبون فكأنهم قالوا أنحن كاذبون وان جئنا بالبرهان لا بل أنتم قوم مسرفون ويحتمل أن يقال أنحن مشؤمون وان جئنا ببيان صحة ما نحن عليه لا بل أنتم قوم مسرفون ويحتمل أن يقال أنحن مستحقون للرجم والايلام وان بينا صحة ما أتينا به لا بل أنتم قوم مسرفون وأما الحكاية فشهورة وهى ان عيسى عليه السلام بعث رجلين الى انطاكية فدعيا الى التوحيد وأظهرا المعجزة من ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى فحبسهما الملك فأرسل بعدهما شمعون فأتى الملك ولم يدع الرسالة وقرب نفسه الى الملك بحسن التدبير ثم قال له انى أسمع أن فى

رسالته (قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون) استشهدوا بعلم الله تعالى وهو يجرى مجرى القسم مع ما فيه من تحذيرهم معارضة علم الله تعالى وزادوا اللام المؤكدة لما شاهدوا منهم من شدة الانكار (وما علينا) أى من جهة ربنا (الا البلاغ المبين) اى الا تبليغ رسالته تبليغا ظاهرا بينا بالآيات الشاهدة بالصحة وقد خرجنا عن عهدته فلا مؤاخذة لنا بعد ذلك من جهة ربنا أو ما علينا شئ نطالب به من جهتكم الا تبليغ الرسالة على الوجه المذكور وقد فعلناه فاى شئ تطلبون منا حتى تصدقونا بذلك (قالوا) لما ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل (انا تطيرنا بكم) تشاءمنا بكم جريا على ديدن الجهلة حيث كانوا يتيمنون بكل ما يوافق شهواتهم وان كان مستجلبا لكل شر ووبال ويتشاءمون بما لا يوافقها وان كان مستتبعا لسعادة الدارين أو بناء على أن الدعوة لا تخلو عن الوعيد بما يكرهونه من اصابة ضر متعلق

الحبس رجلين يدعيان أمرا بديعا أفلا يحضران حتى نسمع كلامهما قال الملك بلى فأحضرا وذكرا مقالتهما الحقة فقال لهما شمعون فهل لكما بينة قالا نعم فأبرآ الاكمه والابرص وأحييا الموتى فقال شمعون أيها الملك ان شئت أن تغلبهم فقل للآلهة التى تعبدونها تفعل شيئا من ذلك قال الملك أنت لا يخفى عليك أنها لا تبصر ولا تسمع ولا تقدر ولا تعلم فقال شمعون فاذن ظهر الحق من جانبهم فآمن الملك وقوم وكفر آخرون وكانت الغلبة للمكذبين ❊ ثم قال تعالى (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين) وفى فائدته وتعلقه بما قبله وجهان (أحدهما) انه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين حيث آمن بهم الرجل الساعى وعلى هذا فقوله من أقصى المدينة فيه بلاغة باهرة وذلك لانه لما جاء من أقصى المدينة رجل وهو قد آمن دل على أن انذارهم واظهارهم بلغ الى أقصى المدينة (وثانيهما) ان ضرب المثل لما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم تسلية لقلبه ذكر بعد الفراغ عن ذكر الرسل سعى المؤمنين فى تصديق رسلهم وصبرهم على ما أوذوا ووصول الجزاء الاوفى اليهم ليكون ذلك تسلية لقلب أصحاب محمد كما أن ذكر المرسلين تسلية لقلب محمد صلى الله عليه وسلم وفى التفسير مسائل (المسئلة الاولى) قوله وجاء من أقصى المدينة رجل فى تنكير الرجل مع انه كان معروفا معلوما عند الله فائدتان (الاولى) أن يكون تعظيما لشانه أى رجل كامل فى الرجولية (الثانية) أن يكون مفيدا لظهور الحق من جانب المرسلين حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به فلا يقال انهم تواطئوا والرجل هو حبيب النجار كان ينحت الاصنام وقد آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل وجوده حيث صار من العلماء بكتاب الله ورأى فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته (المسئلة الثانية) قوله يسعى تبصرة للمؤمنين وهداية لهم ليكونوا فى النصح باذلين جهدهم وقد ذكرنا فائدة قوله من أقصى المدينة وهى تبليغهم الرسالة بحيث انتهى الى من فى أقصى المدينة والمدينة هى انطاكية وهى كانت كبيرة شاسعة وهى الآن دون ذلك ومع هذا فهى كبيرة وقوله تعالى قال ياقوم اتبعوا المرسلين فيه معان لطيفة (الاول) فى قوله ياقوم فانه ينبئ عن اشفاق عليهم وشفقة فان اضافتهم الى نفسه بقوله ياقوم يفيد انه لا يريد بهم الا خيرا وهذا مثل قول مؤمن آل فرعون ياقوم اتبعوا فان قيل قال هذا الرجل اتبعوا المرسلين وقال ذلك اتبعونى فما الفرق نقول هذا الرجل جاءهم وفى أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته فقال اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل واما مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى ونصحهم مرارا فقال اتبعونى ٢٠
فى الايمان بموسى وهرون عليهما السلام واعلموا انه لو لم يكن خيرا لما اخترته لنفسى وأنتم تعلمون أنى اخترته ولم يكن للرجل الذى جاء من أقصى المدينة أن يقول أنتم تعلمون اتباعى لهم (الثانى) جمع بين اظهار النصيحة واظهار ايمانه فقوله اتبعوا نصيحة وقوله المرسلين اظهار انه آمن (الثالث) قدم اظهار النصيحة على اظهار الايمان لانه كان ساعيا

بانفسهم وأهليهم وأموالهم ان لم يؤمنوا فكانوا ينفرون عنه وقد روى أنه حبس عنهم القطر فقالوه (لئن لم تنتهوا) أى عن مقالتكم هذه (لنرجمنكم) بالحجارة (وليمسنكم منا عذاب أليم) لا يقادر قدره (قالوا طائركم) أى سبب شؤمكم (معكم) لا من قبلنا وهو سوء عقيدتكم وقبح أعمالكم وقرئ طيركم (أئن ذكرتم) أى وعظتم بما فيه سعادتكم وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه أى تطيرتم وتوعدتم بالرجم والتعذيب وقرئ بألف بين الهمزتين وبفتح أن بمعنى أتطيرتم لان ذكرتم وأن ذكرتم وان ذكرتم بغير استفهام وأين ذكرتم بمعنى طائركم معكم حيث جرى ذكركم وهو أبلغ (بل أنتم قوم مسرفون) اضراب عما تقتضيه الشرطية من كون التذكير سببا للشؤم أو مصححا للتوعد أى ليس الامر كذلك بل أنتم قوم عادتكم الاسراف فى العصيان فلذلك أتاكم الشؤم أو فى الظلم والعدوان فلذلك توعدتم

النصح وأما الايمان فكان قدآمن من قبل وقوله رجل يسعى يدل على كونه مريدا للنصح وماذكر في حكايته انه كان يقتل ويقول اللهم اهد قومي * ثم قال تعالى (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) وهذا في غاية الحسن وذلك من حيث انه لما قال اتبعوا المرسلين كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال لاشك ان الخلق في الدنيا سالكون طريقة وطالبون للاستقامة والطريق اذا حصل فيه دليل يدل يجب اتباعه والامتناع من الاتباع لا يحسن الا عند أحد أمرين اما مغالاة الدليل في طلب الاجرة واما عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته الطريق لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة الى الحق فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين أليسوا بمهتدين فاتبعوهم * ثم قال تعالى (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) لما قال وهم مهتدون بين ظهور اهتدائهم بأنهم يدعون من عبادة الجماد الى عبادة الحى القيوم ومن عبادة مالا ينفع الى عبادة من منه كل نفع (وفيه لطائف) الاولى قوله مالى أى مالى مانع من جانبى اشارة الى أن الامر من جهة المعبود ظاهر لاخفاء فيه فمن يمتنع من عبادته يكون من جانبه مانع ولا مانع من جانبى فلاجرم عبدته وفي العدول عن مخاطبة القوم الى حال نفسه حكمة أخرى ولطيفة ثانية وهى أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذى فطركم لم يكن في البيان مثل قوله ومالى لانه لما قال ومالى وأحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل أحد انه لا يطلب العلة وبيانها من أحد لانه أعلم بحال نفسه فهو يبين عدم المانع وأما لو قال مالكم جاز أن يفهم منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه فان قيل قال الله مالكم لا ترجون لله وقارا نقول القائل هناك غير مدعو وانما هو داع وههنا الرجل مدعو الى الايمان فقال ومالى لا أعبد وقد طلب منى ذلك (الثانية) قوله الذى فطرنى اشارة الى وجود المقتضى فان قوله ومالى اشارة الى عدم المانع وعند عدم المانع لا يوجد الفعل مالم يوجد المقتضى فقوله الذى فطرنى ينبئ عن الاقتضاء فان الخالق ابتداء مالك والمالك يجب على المملوك اكرامه وتعظيمه ومنعم بالايجاد والمنعم يجب على المنعم عليه شكر نعمته (الثالثة) قدم بيان عدم المانع على بيان وجود المقتضى مع أن المستحسن تقديم المقتضى حيث وجد المقتضى ولا مانع فيوجد لان المقتضى لظهوره كان مستغنيا عن البيان رأسا فلا أقل من تقديم ماهو أولى بالبيان لوجود الحاجة اليه (الرابعة) اختار من الآيات فطرة نفسه لانه لما قال ومالى لا أعبد باسناد العبادة الى نفسه اختار ماهو أقرب الى ايجاب العبادة على نفسه وبيان ذلك هو ان خالق عمرو يجب على زيد عبادته لان من خلق عمرا لا يكون الا كامل القدرة شامل العلم واجب الوجود وهو مستحق للعبادة بالنسبة الى كل مكلف لكن العبادة على زيد بخلق زيد أظهر ايجابا واعلم أن المشهور في قوله فطرنى خلقنى اختراعا وابتداعا والغريب فيه أن يقال فطرنى أى جعلنى على الفطرة كما قال الله تعالى فطرة الله التي فطر الناس عليها وعلى هذا فقوله ومالى لا أعبد أى لم يوجد في مانع فأنا باق

يحت أصنامهم وهو ممن آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الاكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ولم يؤمن بنبى غيره عليه الصلاة والسلام أحد قبل مبعثه وقيل كان في غار يعبد الله تعالى فلما بلغه خبر الرسل عليهم الصلاة والسلام أظهر دينه (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية مجيئه ساعيا كأنه قيل فماذا قال عند مجيئه فقيل قال (ياقوم اتبعوا المرسلين) تعرض لعنوان رسالتهم حثالهم على اتباعهم كما أن خطابهم بياقوم لتأليف قلوبهم واستمالتهم نحو قبول نصيحته وقوله تعالى (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) تكرير للتأكيد وللتوسل به الى وصفهم بما يرغبهم في اتباعهم من التنزه عن الغرض الدنيوى والاهتداء الى خير الدنيا والدين (ومالى لا أعبد الذى فطرنى) تلطف في الارشاد بايراده في معرض المناصحة لنفسه وامحاض النصح حيث أراهم انه اختار لهم ما يختار لنفسه والمراد تقريعهم على [illegible]

على فطرة ربي والفطرة كافية في الشهادة والعبادة فان قيل فعلى هذا يختلف معنى الفطر في قوله فاطر السموات فنقول قد قيل بأن فاطر السموات من الفطر الذي هو الشق فالمحذور لازم اونقول المعنى فيهما واحد كأنه قال فطر المكلف على فطرته وفطر السموات على فطرتها والاول من التفسير أظهر * وقوله تعالى (واليه ترجعون) اشارة الى الخوف والرجاء كما قال ادعوه خوفا وطمعا وذلك لان من يكون اليه المرجع يخاف منه ويرجى وفيه أيضا معنى لطيف وهو أن العابد على أقسام ثلاثة ذكرناها مرارا (فالاول) عابد يعبد الله لكونه الها مالكا سواء أنعم بعد ذلك أو لم ينعم كالعبد الذي يجب عليه خدمة سيده سواء أحسن اليه أو أساء (والثاني) عابد يعبد الله للنعمة الواصلة اليه (والثالث) عابد يعبد الله خوفا مثال الاول من يخدم الجواد ومثال الثاني من يخدم الغاشم فجعل القائل نفسه من القسم الاعلى وقال ومالي لا أعبد الذي فطرني أي هو مالكي أعبده لا انظر الى ماسيطيعني ولا انظر الى أن لا يعذبني وجعلهم دون ذلك فقال واليه ترجعون أي خوفكم منه ورجاؤكم فيه فكيف لاتعبدونه ولهذا لم يقل واليه أرجع كما قال فطرني لانه صار عابدا من القسم الاول فرجوعه الى الله لا يكون لا للاكرام وليس سبب عبادته ذلك بل غيره * ثم قال تعالى (أأتخذ من دونه آلهة) ليتم التوحيد فان التوحيد بين التعطيل والاشراك فقال ومالي لا أعبد اشارة الى وجود الاله وقال أأتخذ من دونه اشارة الى نفي غيره فيتحقق معنى لا اله الا الله * وفي الآية أيضا لطائف (الاولى) ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الامر وذلك ان من أخبر عن شئ فقال مثلا لا أتخذ يصح من السامع أن يقول له لم لاتتخذ فيسأله عن السبب فاذا قال أأتخذ يكون كلامه انه مستغن عن بيان السبب الذي يطالب به عند الاخبار كأنه يقول استشرتك فدلني والمستشار يتفكر فكأنه يقول تفكر في الامر تفهم من غير اخبار مني (الثانية) قوله من دونه وهي لطيفة عجيبة وبيانها هو انه لما بين انه يعبد الله بقوله الذي فطرني بين ان من دونه لا تجوز عبادته فان عبد غير الله وجب عبادة كل شئ مشارك للمعبود الذي اتخذ غير الله لان الكل محتاج مفتقر حادث فلو قال لا أتخذ آلهة لقيل له ذلك يختلف ان اتخذت الها غير الذي فطرك ويلزمك عقلا ان تتخذ آلهة لا حصر لها وان كان الهك ربك وخالقك فلا يجوز أن تتخذ آلهة (الثالثة) قوله أأتخذ اشارة الى أن غيره ليس باله لان المتخذ لا يكون الها ولهذا قال تعالى ما اتخذ صاحبة ولا ولدا وقال الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا لانه تعالى لا يكون له ولد حقيقة ولا يجوز وانما النصارى قالوا تبنى الله عيسى وسماه ولدا فقال ولم يتخذ ولدا ولا يقال قال الله تعالى فاتخذه وكيلا في حق الله تعالى حيث قال رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا نقول ذلك أمر متجدد وذلك لان الانسان في أول الامر يكون قليل الصبر ضعيف القوة فلا يجوز أن يترك أسباب الدنيا ويقول اني أتوكل فلا يحسن من الواحد منا أن لا يشتغل بأمر أصلا ويترك أطفاله في ورطة الحاجة ولا يوصل

كما ينبئ عنه قوله (واليه ترجعون) مبالغة في التهديد ثم عاد الى المساق الاول فقال (أأتخذ من دونه آلهة) انكار ونفي لاتخاذ الآلهة على الاطلاق وقوله

الى أهله نفقتهم و يجلس فى مسجد وقلبه متعلق بعطاء زيد وعمرو فاذا قوى بالعبادة قلبه ونسى نفسه فضلا عن غيره وأقبل على عبادة ربه بجميع قلبه وترك الدنيا وأسبابها وفوض أمره الى الله حينئذ يكون من الأبرار الاخيار فقال الله لرسوله أنت علمت ان الامور كلها بيد الله وعرفت الله حق المعرفة وتيقنت أن المشرق والمغرب ومافيهما وما يقع بينهما بأمر الله ولا اله يطلب لقضاء الحوائج الا هو فاتخذه وكيلا وفوض جميع أمورك اليه فقد ارتقيت عن درجة من يؤمر بالكسب الحلال وكنت من قبل تتجر فى الحلال ومعنى قوله فاتخذه وكيلا أى فى جميع أمورك وقوله تعالى لاتغن عنى يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون كالوصف كأنه قال أأتخذ آلهة غير مغنية عند ارادة الرحمن بى ضرا (وثانيهما) أن يكون كلاما مستأنفا كأنه قال لا أتخذ من دونه آلهة ❊ ثم قال تعالى

(ان يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ان يردن الرحمن بضر ولم يقل ان يرد الرحمن بى ضرا وكذلك قال تعالى ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ولم يقل ان أراد الله بى ضرا نقول الفعل اذا كان متعديا الى مفعول واحد تعدى الى مفعولين بحرف كاللازم يتعدى بحرف فى قولهم ذهب به وخرج به ثم ان المتكلم البليغ يجعل المفعول بغير حرف ماهو أولى بوقوع الفعل عليه و يجعل الآخر مفعولا بحرف فاذا قال القائل مثلا كيف حال فلان يقول اختصه الملك بالكرامة والنعمة فاذا قال كيف كرامة الملك يقول اختصها بزيد فيجعل المسؤل مفعولا بغير حرف لانه هو المقصود اذا علمت هذا فالمقصود فيما نحن فيه بيان كون العبد تحت تصرف الله يقلبه كيف يشاء فى البؤس والرخاء وليس الضر بمقصود بيانه كيف والقائل مؤمن يرجو الرحمة والنعمة بناء على ايمانه بحكم وعد الله ويؤيد هذا قوله من قبل الذى فطرنى حيث جعل نفسه مفعول الفطرة فكذلك جعلها مفعول الارادة وذكر الضر وقع تبعا وكذا القول فى قوله تعالى ان أرادنى الله بضر المقصود بيان أنه يكون كما يريد الله وليس الضر بخصوصه مقصودا بالذكر ويؤيده ما تقدم حيث قال تعالى أليس الله بكاف عبده يعنى هو تحت ارادته ويتأيد ما ذكرناه بالنظر فى قوله تعالى قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ حيث خالف هذا النظم وجعل المفعول من غير حرف السوء وهو كالضر والمفعول بحرف هو المكلف وذلك لان المقصود ذكر الضر للتخويف وكونهم محلا له وكيف لا وهم كفرة استحقوا العذاب بكفرهم فجعل الضر مقصودا بالذكر لزجرهم فان قيل فقد ذكر الله الرحمة أيضا حيث قال أو أراد بكم رحمة نقول المقصود ذلك ويدل عليه قوله تعالى من بعده ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا وانما ذكر الرحمة تتمة للامر بالتقسيم الحاصر وكذلك اذا تأملت فى قوله تعالى يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا فان الكلام أيضا مع الكفار وذكر النفع وقع تبعا لحصر الامر بالتقسيم و يدل عليه قوله تعالى بل كان الله بما تعملون

(ان يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا) أى لاتنفعنى شيئا من النفع (ولا ينقذون) من ذلك الضر بالنصرة والمظاهرة استئناف سيق لتعليل النفى المذكور وجعله صفة لآلهة كما ذهب اليه بعضهم ربما يوهم أن هناك آلهة ليست كذلك وقرئ ان يردن بفتح الياء على معنى ان يوردنى ضرا أى يجعلنى موردا للضر

خيرافانه للتخويف وهذا كقوله تعالى وانا أواياكم لعلى هدى أوفى ضلال مبين والمقصود انى على هدى وأنتم فى ضلال ولوقال هكذا لمنع مانع فقال بالتقسيم كذلك ههنا المقصود الضر واقع بكم ولاجل دفع المانع قال الضر والنفع (المسئلة الثانية) قال ههنا ان يردن الرحمن وقال فى الزمر ان أرادنى الله فما الحكمة فى اختيار صيغة الماضى هنالك واختيار صيغة المضارع ههنا وذكر المريد باسم الرحمن هنا وذكر المريد باسم الله هناك نقول اما الماضى و المستقبل فان ان فى الشرط تصير الماضى مستقبلا و ذلك لان المذكور ههنا من قبل بصيغة الاستقبال فى قوله أأتخذ وقوله ومالى لاأعبد والمذكور هناك من قبل بصيغة الماضى فى قوله أفرأيتم وكذلك فى قوله تعالى وان يمسسك الله بضر لكون المتقدم عليه مذكورا بصيغة المستقبل وهو قوله من يصرف عنه و قوله انى أخاف ان عصيت والحكمة فيه هوان الكفار كانوا يخوفون النبى صلى الله عليه وسلم بضر يصيبه من آلتهم فكأنه قال صدر منكم التخويف وهذا ماسبق منكم وههنا ابتداء كلام صدر من المؤمن للتقرير والجواب ماكان يمكن صدوره منهم فافترق الامران واما قوله هناك ان أرادنى الله فنقول قدذكرنا ان الاسمين المختصين بواجب الوجود الله والرحمن كماقال تعالى قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن والله للهيبة و العظمة والرحمن للرأفة والرحمة وهناك وصف الله بالعزة والانتقام فى قوله أليس الله بعزيز ذى انتقام وذكر مايدل على العظمة بقوله ولئن سألتهم من خلق السموات والارض فذكر الاسم الدال على العظمة وقال ههنا مايدل على الرحمة بقوله الذى فطرنى فانه نعمة هى شرط سائر النعم فقال ان يردن الرحمن بضر ثم قال تعالى لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولاينقذون على ترتيب مايقع من العقلاء وذلك لان من يريد دفع الضر عن شخص أضر به شخص يدفع بالوجه الاحسن فيشفع أولا فان قبله والايدفع فقال لاتغن عنى شفاعتهم ولايقدرون على انقاذى بوجه من الوجوه وفى هذه الآيات حصل بيان ان الله تعالى معبود من كل وجه ان كان نظرا الى جانبه فهوفاطرو رب مالك يستحق العبادة سواء أحسن بعدذلك أولم يحسن وان كان نظرا الى احسانه فهو رحمن وان كان نظرا الى الخوف فهو يدفع ضره وحصل بيان أن غيره لايصلح أن يعبد بوجه من الوجوه فان أدنى مراتبه أن يعد ليوم كريهة وغيرالله لايدفع شيئا الا اذا أراد الله وان يرد فلاحاجة الى دافع ❊ ثم قال تعالى (انى اذا انى ضلال مبين) يعنى ان فعلت ذلك فأناضال ضلالا بينا والمبين مفعل بمعنى فعيل كماجاء عكسه فعيل بمعنى مفعل فى قوله أليم أى مؤلم و يمكن أن يقال ضلال مبين أى مظهور الامر للناظر والاول هو الصحيح ❊ ثم قال تعالى (انى آمنت بربكم فاسمعون) فى المخاطب بقوله بربكم وجوه (أحدها) هم المرسلون قال المفسرون أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين وقال انى آمنت بربكم فاسمعوا قولى واشهدوا لى (وثانيها) هم الكفار كأنه لما نصحهم و مانفعهم قال فانا آمنت فاسمعون (وثالثها) بربكم أيها السامعون

(انى اذا) أى اذا اتخذت من دونه آلهة (انى ضلال مبين) فان اشراك ماليس من شأنه النفع ولادفع الضر بالخالق المقتدر الذى لاقادر غيره ولاخير الاخيره ضلال بين لايخفى على أحد ممن له تمييز فى الجملة (انى آمنت بربكم) خطاب منه للرسل بطريق التلوين قبل لمانصح قومه بما ذكر هموا برجمه فأسرع نحو الرسل قبل أن يقتلوه فقال ذلك وانما أكده لاظهار صدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط وأضاف الرب الى ضميرهم روما لزيادة التقرير واظهار اللاختصاص والاقتداء بهم كأنه قال بربكم الذى أرسلكم أوالذى تدعوننا الى الايمان به (فاسمعون) أى اسمعوا ايمانى واشهدوا لى به عند الله تعالى وقيل الخطاب للكفرة شافههم بذلك اظهارا للتصلب فى الدين وعدم المبالاة بالقتل واضافة الرب الى ضميرهم لتحقيق الحق و التنبيه على بطلان ماهم عليه من اتخاذ الاصنام أربابا و قيل للناس جميعا

فاسمعون على العموم كما قلنا فى قول الواعظ حيث يقول يامسكين ما أكثر أملك وما انزر عملك يريد به كل سامع يسمعه و فى قوله فاسمعون فوائد (أحدها) انه كلام متروّ متفكر حيث قال فاسمعون فان المتكلم اذا كان يعلم ان لكلامه جماعة سامعين يتفكر (وثانيها) ان ينبه القوم و يقول انى أخبرتكم بما فعلت حتى لا تقولوا لم أخفيت عنا أمرك ولو أظهرت لآمنا معك (وثالثها) ان يكون المراد السماع الذى بمعنى القبول يقول القائل نصحته فسمع قولى أى قبله فان قلت لم قال من قبل ومالى لا أعبد الذى فطرنى وقال ههنا آمنت بربكم ولم يقل آمنت بربى نقول على قولنا الخطاب مع الرسل أمر ظاهر لانه لما قال آمنت بربكم ظهر عند الرسل انه قبل قولهم وآمن بالرب الذى دعوه اليه ولو قال بربى لعلهم كانوا يقولون كل كافر يقول لى رب وأنا مؤمن بربى واما على قولنا الخطاب مع الكفار ففيه بيان للتوحيد وذلك لانه لما قال أعبد الذى فطرنى ثم قال آمنت بربكم فهم انه يقول ربى وربكم واحد وهو الذى فطرنى وهو بعينه ربكم بخلاف ما لو قال آمنت بربى فيقول الكافر وأنا أيضا آمنت بربى ومثل هذا قول تعالى الله ربنا وربكم *ثم قال تعالى (قيل ادخل الجنة) فيه وجهان (أحدهما) انه قتل ثم قيل له ادخل الجنة بعد القتل (وثانيهما) قيل ادخل الجنة عقيب قوله آمنت وعلى الاول *فقوله تعالى (قال ياليت قومى يعلمون) يكون بعد موته والله أخبر بقوله وعلى الثانى قال ذلك فى حياته وكأنه سمع الرسل انه من الداخلين الجنة وصدقهم وقطع به وعلمه فقال ياليت قومى يعلمون كما علمت فيؤمنون كما آمنت وفى معنى قوله تعالى قيل وجهان كما ان فى وقت ذلك وجهان (احدهما) قيل من القول (والثانى) ادخل الجنة وهذا كما فى قوله تعالى انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن ليس المراد القول فى وجه بل هو الفعل أى يفعله فى حينه من غير تأخير وتراخ وكذلك فى قوله تعالى وقيل يا أرض ابلعى فى وجه جعل الارض بالعة ماءها *وفى قوله تعالى (بما غفر لى ربى) وجوه (أحدها) ان ما استفهامية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى حتى يشتغلوا به وهو ضعيف والا لكان الاحسن أن تكون ما محذوفة الالف يقال بم وفيم وعم ولم (وثانيها) خبرية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بالذى غفر لى ربى (وثالثها) مصدرية كأنه قال ياليت قومى يعلمون بمغفرة ربى لى والوجهان الآخران هما المختاران *ثم قال تعالى (وجعلنى من المكرمين) قد ذكرنا أن الايمان والعمل الصالح يوجبان أمرين هما الغفران والاكرام كما فى قوله تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم والرجل كان من المؤمنين الصلحاء والمكرم على ضد المهان والاهانة بالحاجة والاكرام بالاستغناء فيغنى الله الصالح عن كل أحد ويدفع جميع حاجاته بنفسه ثم انه تعالى لما بين حاله بين حال المتخلفين المخالفين له من قومه بقوله تعالى (وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء) اشارة الى هلاكهم بعده سريعا على أسهل وجه فانه لم يحتج الى ارسال جند يهلكهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى)

(قيل ادخل الجنة) قيل له ذلك لما قتلوه اكراما له بدخولها حينئذ كسائر الشهداء وقيل لما هموا بقتله رفعه الله تعالى الى الجنة قاله الحسن وعن قتادة أدخله الله الجنة ﴿ ٧٦ ﴾ وهو فيها حى يرزق وقيل معناه البشرى بدخول الجنة وأنه من أهلها وانما لم يقل له لان الغرض بيان المقول لا المقول له لظهوره وللمبالغة فى المسارعة الى بيانه والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حاله ومقاله كأنه قيل كيف كان لقاء ربه بعد ذلك التصلب فى دينه والتسخى بروحه لوجهه تعالى فقيل قيل ادخل الجنة وكذلك قوله تعالى (قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) فانه جواب عن سؤال نشأ من حكاية حاله كأنه قيل فماذا قال عند نيله تلك الكرامة السنية فقيل قال الخ وانما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة عن الكفر والدخول فى الايمان والطاعة جريا على سنن الاولياء فى كظم الغيظ والترحم على الاعداء أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم فى أمره وأنه كان على الحق وأن عداوتهم لم تكسبه الا سعادة وقرئ من المكرمين وما موصولة أو مصدرية والباء صلة يعلمون أو استفهامية وردت على الاصل والباء متعلقة بغفر أى بأى شئ غفر

المهاجرة عن ملتهم والمصابرة على أذيتهم (وما أنزلنا على قومه من بعده) من بعد قتله اورفعه (من جند من السماء) لاهلاكهم والانتقام منهم كما فعلناه يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقار لهم ولاهلاكهم وايماء الى تفخيم شأن الرسول صلى الله عليه وسلم (وما كنا منزلين) وما صح فى حكمتنا أن ننزل لاهلاك قومه جندا من السماء لما أنا قدرنا لكل شئ سببا حيث أهلكنا بعض من أهلكنا من الامم بالحاصب وبعضهم بالصيحة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالاغراق وجعلنا انزال الجند من خصائصك فى الانتصار من قومك وقيل ما موصولة معطوفة على جند أى وما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة وريح وأمطار شديدة وغيرها (ان كانت) أى ما كانت الأخذة أو العقوبة (الا صيحة واحدة) صاح بها جبريل عليه السلام وقرئ الاصيحة بالرفع على أن كان تامة وقرئ الازقية واحدة من زقا الطائر اذا صاح (فاذاهم خامدون) ميتون شبهوا بالنار الخامدة رمزا الى أن الحى كالنار الساطعة فى
[illegible] وما المرء الا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد اذ هو ساطع

الاولى) قال ههنا وما أنزلنا باسناد الفعل الى النفس وقال فى بيان حال المؤمن قيل ادخل الجنة باسناد القول الى غير مذكور وذلك لان العذاب من باب الهيبة فقال بلفظ التعظيم وأما فى ادخل الجنة فقال قيل ليكون هو كالمهنا بقول الملائكة حيث يقول له كل ملك وكل صالح يراه ادخل الجنة خالدا فيها وكثيرا ما ورد فى القرآن قوله تعالى وقيل ادخلوا اشارة الى أن الدخول يكون دخولا باكرام كما يدخل العريس البيت المزين على رؤس الاشهاد يهنيه كل أحد (المسئلة الثانية) لم أضاف القوم اليه مع أن الرسل أولى بكون الجمع قوما لهم فان الواحد يكون له قوم هم آله وأصحابه والرسول لكونه مرسلا يكون جميع الخلق وجميع من أرسل اليهم قوما له نقول لوجهين (أحدهما) ليبين الفرق بين اثنين هما من قبيلة واحدة أكرم أحدهما غاية الاكرام بسبب الايمان وأهين الآخر غاية الاهانة بسبب الكفر وهذا من قوم أولئك فى النسب (وثانيهما) أن العذاب كان مختصا بأقارب ذلك لان غيرهم من قوم الرسل آمنوا بهم فلم يصبهم العذاب (المسئلة الثالثة) خصص عدم الانزال بما بعده والله تعالى لم ينزل عليهم جندا قبله أيضا فما فائدة التخصيص نقول استحقاقهم العذاب كان بعده حيث أصروا واستكبروا فبين حال الهلاك أنه لم يكن بجند (المسئلة الرابعة) قال من السماء وهو تعالى لم ينزل عليهم ولا أرسل اليهم جندا من الارض فما فائدة التقييد نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن يكون المراد وما أنزلنا عليهم جندا بأمر من السماء فيكون للعموم (وثانيهما) أن العذاب نزل عليهم من السماء فبين أن النازل لم يكن جندا لهم عظمة وانما كان ذلك بصيحة أخمدت نارهم وخربت ديارهم (المسئلة الخامسة) * (وما كنا منزلين) أية فائدة فيه مع ان قوله وما أنزلنا يستلزم انه لا يكون من المنزلين نقول قوله وما كنا أى ما كان ينبغى لنا أن ننزل لان الامر كان يتم بدون ذلك فما أنزلنا وما كنا محتاجين الى انزال أو نقول وما أنزلنا وما كنا منزلين فى مثل تلك الواقعة جندا فى غير تلك الواقعة فان قيل فكيف أنزل الله جنودا فى يوم بدر وفى غير ذلك حيث قال وأنزل جنودا لم تروها نقول ذلك تعظيما لمحمد صلى الله عليه وسلم والا كان تحريك ريشة من جناح ملك كافيا فى استئصالهم وما كان رسل عيسى عليه السلام فى درجة محمد صلى الله عليه وسلم * ثم بين الله تعالى ما كان بقوله (ان كانت) الواقعة (الا صيحة) وقال الزمخشرى أصله ان كان شئ الا صيحة فكان الاصل ان يذكر لكنه تعالى انث لما بعده من المفسر وهو الصيحة * وقوله تعالى (واحدة) تأكيد لكون الامر هينا عند الله * وقوله تعالى (فاذا هم خامدون) فيه اشارة الى سرعة الهلاك فان خمودهم كان مع الصيحة وفى وقتها لم يتأخر ووصفهم بالخمود فى غاية الحسن وذلك لان الحى فيه الحرارة الغريزية وكلما كانت الحرارة أوفر كانت القوة الغضبية والشهوانية أتم وهم كانوا كذلك أما الغضب فانهم قتلوا مؤمنا كان ينصحهم وأما الشهوة فلأنهم احتملوا العذاب الدائم بسبب استيفاء اللذات الحالية فاذن كانوا كالنار الموقدة ولانهم كانوا جبارين مستكبرين كالنار ومن

خلق منها فقال فاذاهم خامدون (وفيه وجه آخر) وهو ان العناصر الاربعة يخرج بعضها عن طبيعته التى خلقه الله عليها ويصير العنصر الآخر بارادة الله فالاحجار تصير مياها والمياه تصير أحجارا وكذلك الماء يصير هواء عند الغليان والسخونة والهواء يصير ماء للبرد ولكن ذلك فى العادة بزمان وأما الهوا فيصير نارا والنار تصير هواء بالاشتعال والخمود فى أسرع زمان فقال خامدين بسببها فخمود النار فى السرعة كاطفاء سراج أو شعلة * ثم قال تعالى (ياحسرة على العباد) أى هذا وقت الحسرة فاحضرى ياحسرة والتنكير للتكثير وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الالف واللام فى العباد يحتمل وجهين (أحدهما) للمعهود وهم الذين أخذتهم الصيحة فياحسرة على أولئك (وثانيهما) لتعريف الجنس جنس الكفار المكذبين (المسئلة الثانية) من المتحسر نقول فيه وجوه (الاول) لامتحسر أصلا فى الحقيقة اذ المقصود بيان أن ذلك وقت طلب الحسرة حيث تحققت الندامة عند تحقق العذاب (وههنا بحث لغوى) وهو أن المفعول قد يرفض رأسا اذا كان الغرض غير متعلق به يقال ان فلانا يعطى ويمنع ولا يكون هناك شئ معطى اذ المقصود أن له المنع والاعطاء ورفض المفعول كثير وما نحن فيه رفض الفاعل وهو قليل والوجه فيه ماذكرنا ان ذكر المتحسر غير مقصود وانما المقصود ان الحسرة متحققة فى ذلك الوقت (الثانى) ان قائل ياحسرة هو الله على الاستعارة تعظيما للامر وتهويلا له وحينئذ يكون كالالفاظ التى وردت فى حق الله كالضحك والنسيان والسخر والتعجب والتمنى أو نقول ليس معنى قولنا ياحسرة ويا ندامة ان القائل متحسر أو نادم بل المعنى انه مخبر عن وقوع الندامة ولا يحتاج الى تجوز فى بيان كونه تعالى قال ياحسرة بل يخبر به على حقيقته الا فى النداء فان النداء مجاز والمراد الاخبار (الثالث) المتلهفون من المسلمين والملائكة الا ترى الى ماحكى عن حبيب انه حين القتل كان يقول اللهم اهد قومى وبعدما قتلوه وأدخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون فيجوز أن يتحسر المسلم للكافر ويتندم له وعليه (المسئلة الثالثة) قرئ ياحسرة بالتنوين وياحسرة العباد بالاضافة من غير كلمة على وقرئ ياحسره على بالهاء اجراء للوصل مجرى الوقف (المسئلة الرابعة) من المراد بالعباد نقول فيه وجوه (أحدها) الرسل الثلاثة كأن الكافرين يقولون عند ظهور الباس ياحسرة عليهم ياليتهم كانوا حاضرين شاهدين لنؤمن بهم (وثانيها) هم قوم حبيب (وثالثها) كل من كفر وأصر واستكبر وعلى الاول فاطلاق العباد على المؤمنين كما فى قوله ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وقوله ياعبادى الذين أسرفوا وعلى الثانى فاطلاق العباد على الكفار وفرق بين العبد مطلقا وبين المضاف الى الله تعالى فان الاضافة الى الشريف تكسو المضاف شرفا تقول بيت الله فيكون فيه من الشرف مالا يكون فى قولك البيت وعلى هذا فقوله تعالى وعباد الرحمن من قبيل قوله ان عبادى وكذلك عباد الله * ثم بين الله تعالى سبب الحسرة بقوله تعالى (ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن) وهذا سبب الندامة وذلك لان من جاءه ملك فى

(ياحسرة على العباد) تعالى فهذه من الاحوال التى حقها أن تحضرى فيها وهى ماذل عليه قوله تعالى (ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن) فان المستهزئين بالناصحين الذين نيطت بنصائحهم سعادة الدارين أحقاء بأن يتحسروا ويتحسر عليهم المتحسرون أو قد تلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين وقد جوز أن يكون تحسرا عليهم من جهة الله تعالى بطريق الاستعارة لتعظيم ماجنوه على أنفسهم ويؤيده قراءة ياحسرتا لان المعنى ياحسرتى ونصبها لطولها بما تعلق بها من الجار وقيل باضمار فعلها والمنادى محذوف وقرئ ياحسرة العباد بالاضافة الى الفاعل او المفعول وياحسره على العباد باجراء الوصل مجرى الوقف (ألم يروا) أى ألم يعلموا وهو معلق عن العمل فى قوله تعالى (كم أهلكنا قبلهم من القرون) لان كم لا يعمل فيها ماقبلها وان كانت خبرية لان أصلها الاستفهام خلا أن معناه نافذ فى الجملة كما نفذ فى قولك الم تر ان زيدا لمنطلق وان لم يعمل فى لفظه (انهم اليهم لا يرجعون) بدل من كم أهلكنا على المعنى أى ألم يروا كثرة اهلاكنا من قبلهم من المذكورين آنفا ومن غيرهم كونهم غير راجعين اليهم وقرئ بالكسر على الاستئناف وقرئ ...

﴿ بادية ﴾

بادية وعرفه نفسه وطلب منه أمراهينا فكذبه ولم يجبه الى مادعاه ثم وقف بين يديه وهو على سرير ملكه فعرفه انه ذلك يكون عنده من الندامة ما لا مزيد عليه فكذلك الرسل هم ملوك وأعظم منهم باعزاز الله اياهم وجعلهم نوابه كما قال ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله وجاؤا وعرفوا أنفسهم ولم يكن لهم عظمة ظاهرة في الحس ثم يوم القيامة أو عند ظهور البأس ظهرت عظمتهم عند الله لهم وكان مايدعون اليه أمراهينا نفعه عائدا اليهم من عبادة الله وما كانوا يسألون عليه أجرا فعند ذلك تكون الندامة الشديدة وكيف لا وهم لم يقتنعوا بالاعراض حتى آذوا واستهزؤا واستخفوا واستهانوا وقوله ما يأتيهم الضمير يجوز أن يكون عائدا الى قوم حبيب أي ما يأتيهم من رسول من الرسل الثلاثة الا كانوا به يستهزؤن على قولنا الحسرة عليهم ويجوز أن يكون عائدا الى الكفار المصرين ❊ ثم ان الله تعالى لما بين حال الاولين قال للحاضرين (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون) أي الباقون لا يرون ما جرى على من تقدمهم ويحتمل أن يقال ان الذين قيل في حقهم ياحسرة هم الذين قال في حقهم ألم يروا ومعناه ان كل مهلك تقدمه قوم كذبوا وأهلكوا الى قوم نوح وقبله ❊ وقوله (انهم اليهم لا يرجعون) بدل في المعنى عن قوله كم أهلكنا وذلك لان معنى كم أهلكنا ألم يروا كثرة اهلاكنا وفيه معنى ألم يروا المهلكين الكثيرين أنهم اليهم لا يرجعون وحينئذ يكون كبدل الاشتمال لان قوله أنهم اليهم لا يرجعون حال من أحوال المهلكين أي أهلكوا بحيث لا رجوع لهم اليهم فيصير كقولك ألا ترى زيدا أدبه وعلى هذا فقوله أنهم اليهم لا يرجعون فيه وجهان (أحدهما) اهلكوا اهلاكا لا رجوع لهم الى من في الدنيا (وثانيهما) هو انهم لا يرجعون اليهم أي الباقون لا يرجعون الى المهلكين بنسب ولا ولادة يعني أهلكناهم وقطعنا نسلهم ولا شك في أن الاهلاك الذي يكون مع قطع النسل أتم وأعم والوجه الاول أشهر نقلا والثاني أظهر عقلا ❊ ثم قال تعالى (وان كل لما جميع لدينا محضرون) لما بين الاهلاك بين انه ليس من أهلكه الله تركه بل بعده جمع وحساب وحبس وعقاب ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ونعم ما قال القائل

ولو أنا اذا متنا تركنا ❊ لكان الموت راحة كل حي
ولكنا اذا متنا بعثنا ❊ ونسئل بعده عن كل شئ

وقوله وان كل لما في ان وجهان (أحدهما) انها مخففة من الثقيلة واللام في لما فارقة بينها وبين النافية وما زائدة مؤكدة في المعنى والقرآءة حينئذ بالتخفيف في لما (وثانيهما) انها نافية ولما بمعنى الا قال سيبويه يقال نشدتك بالله لما فعلت بمعنى الا فعلت والقراءة حينئذ بالتشديد في لما يؤيد هذا ما روى ان أبيا قرأ وما كل الا جميع وفي قول سيبويه لما بمعنى الا وارد معنى مناسب وهو ان لما كأنها حرفا نفي جمعا وهما لم وما فتأكد النفي ولهذا يقال في جواب من قال قد فعل لما يفعل وفي جواب من قال فعل لم يفعل والا كأنها حرفا نفي

(وان كل لما جميع لدينا محضرون) بيان لرجوع الكل الى المحشر بعد بيان عدم الرجوع الى الدنيا وان نافية وتنوين كل عوض عن المضاف اليه ولما بمعنى الا وجميع فعيل بمعنى مفعول ولدينا ظرف له أو لما بعده والمعنى ما كلهم الا مجموعون لدينا محضرون للحساب والجزاء وقيل محضرون معذبون فكل عبارة عن الكفرة وقرئ لما بالتخفيف على أن ان مخففة من الثقيلة واللام فارقة وما مزيدة للتأكيد والمعنى ان كلهم مجموعون الخ (وآية لهم الارض الميتة) بالتخفيف وقرئ بالتشديد وقوله تعالى آية خبر مقدم للاهتمام به وتنكيرها للتفخيم ولهم اما متعلقة بها لانها بمعنى العلامة أو بمضمر هو صفة لها والارض مبتدأ والميتة صفتها وقوله تعالى (أحييناها) استئناف مبين لكيفية كونها آية وقيل آية مبتدأ ولهم خبر والارض الميتة مبتدأ موصوف وأحييناها خبره والجملة مفسرة لآية وقيل الارض مبتدأ وأحييناها خبره والجملة خبر لآية وقيل الخبر لها هو الارض وأحييناها صفتها لان المراد بها الجنس لا المعينة والاول هو الاولى لان مصب الفائدة هو كون الارض آية لهم لا كون الآية هي الارض (وأخرجنا منها حبا) جنس الحب (فمنه يأكلون) تقديم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل

ان ولا فاستعمل أحدهما مكان الآخر قال الزمخشرى فان قال قائل كل و جميع بمعنى واحد فكيف جعل جميعا خبر الكل حيث دخلت اللام عليه اذ التقدير وان كل لجميع نقول معنى جميع مجموع ومعنى كل كل فرد بحيث لا يخرج عن الحكم أحد فصار المعنى كل فرد مجموع مع الآخر مضموم اليه ويمكن أن يقال محضرون يغنى عما ذكره وذلك لانه لو قال وان جميع لجميع محضرون لكان كلاما صحيحا ولم يوجد ما ذكره من الجواب بل الصحيح ان محضرون كالصفة للجميع فكأنه قال جميع جميع محضرون كما يقال الرجل رجل عالم والنبى نبى مرسل والواو فى وان كل لعطف الحكاية على الحكاية كأنه يقول بينت لك ما ذكرت وأبين ان كلا لدينا محضرون وكذلك الواو فى قوله تعالى * وآية لهم الارض الميتة احييناها واخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته ايديهم افلا يشكرون) كأنه يقول وأقول أيضا آية لهم الارض الميتة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه تعلق هذا بما قبله نقول مناسب لما قبله من وجهين (أحدهما) انه لما قال وان كل لما جميع كان ذلك اشارة الى الحشر فذكر ما يدل على امكانه قطعا لانكارهم واستبعادهم واصرارهم وعنادهم فقال وآية لهم الارض الميتة أحييناها كذلك نحيى الموتى (وثانيهما) انه لما ذكر حال المرسلين واهلاك المكذبين وكان شغلهم التوحيد ذكر ما يدل عليه وبدأ بالارض لكونها مكانهم لا مفارقة لهم منها عند الحركة والسكون (المسئلة الثانية) الارض آية مطلقا فلم خصصها بهم حيث قال وآية لهم نقول الآية تعدد وتسرد لمن لم يعرف الشئ بأبلغ الوجوه وأما من عرف الشئ بطريقة الرؤية لا يذكر له دليل فان النبى وعباد الله المخلصين عرفوا الله قبل الارض والسماء فليست الارض معرفة لهم وهذا كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق وقال أولم يكف بربك انه على كل شئ شهيد يعنى أنت كفاك ربك معرفا به عرفت كل شئ فهو شهيد لك على كل شئ واما هؤلاء تبين لهم الحق بالآفاق والانفس وكذلك ههنا آية لهم (المسئلة الثالثة) ان قلنا ان الآية مذكورة للاستدلال على جواز احياء الموتى فيكفى قوله احييناها ولا حاجة الى قوله وأخرجنا منها حبا وغير ذلك وان قلنا انها للاستدلال على وجود الاله ووحدته فلا فائدة فى قوله الارض الميتة أحييناها لان نفس الارض دليل ظاهر وبرهان باهر ثم هب أنها غير كافية فقوله الميتة أحييناها كاف فى التوحيد فما فائدة قوله واخرجنا منها حبا نقول مذكورة للاستدلال عليهما ولكل ما ذكره الله تعالى فائدة اما قوله وأخرجنا منها حبا فله فائدة بالنسبة الى بيان احياء الموتى وذلك لانه لما احيا الارض وأخرج منها حبا كان ذلك احياء تاما لان الارض المخضرة التى لا تنبت الزرع ولا تخرج الحب دون ما تنبته فى الحياة فكأنه قال تعالى الذى أحيا الارض احياء كاملا منبتا للزرع يحيى الموتى احياء كاملا بحيث تدرك الامور واما بالنسبة الى التوحيد فلأن فيه تعديد النعم كأنه يقول آية لهم الارض

ويعاش به (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب) أى من أنواع النخل والعنب ولذلك جمعا دون الحب فان الدال على الجنس مشعر بالاختلاف ولا كذلك الدال على الانواع وذكر النخيل دون التمور ليطابق الحب والاعناب لاختصاص شجرها بمزيد النفع وآثار الصنع (وفجرنا فيها) وقرئ بالتخفيف والفجر والتفجير كالفتح والتفتيح لفظا ومعنى (من العيون) أى بعضا من العيون فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه أو العيون ومن مزيدة على رأى الاخفش (ليأكلوا من ثمره) متعلق بجعلنا وتأخيره عن تفجير العيون لانه من مبادى الاثمار أى وجعلنا فيها جنات من نخيل ورتبنا مبادى اثمارها ليأكلوا من ثمر ما ذكر من الجنات والنخيل باجراء الضمير لله تعالى بطريق الالتفات الى الغيبة والاضافة لان الثمر بخلقه تعالى وقرئ بضمتين وهى لغة فيه أو جمع ثمار بضمة وسكون (وما عملته ايديهم) عطف على ثمره وهو ما يتخذ منه من العصير والدبس ونحوهما وقيل ما نافية والمعنى أن الثمر بخلق الله تعالى لا بفعلهم ومحل الجملة النصب على الحالية ويؤكد الاول قراءة

فانهامكانهم ومهد هم الذى فيه تحر يكهم واسكانهم والامر الضرورى الذى عنده وجودهم وامكانهم وسواء كانت ميتة أولم تكن فهى مكان لهم لابدلهم منها فهى نعمة ثم احياؤها بحيث تخضر نعمة ثانية فانها تصير أحسن وأنزه ثم اخراج الحب منها نعمة ثالثة فان قوتهم يصير فى مكانهم وكان يمكن ان يجعل الله رزقهم فى السماء أوفى الهواء فلا يحصل لهم الوثوق ثم جعل الجنات فيها نعمة رابعة لان الارض تنبت الحب فى كل سنة واما الاشجار بحيث تؤخذ منهـا الثمار فتكون بعد الحب وجودا ثم فجرنا فيهـا العيون ليحصل لهم الاعتماد بالحصول ولو كان ماؤها من السماء لحصل ولكن لم يعلم انها أين تغرس وأين يقع المطر وينزل القطر وبالنسبة الى بيان احياء الموتى كل ذلك مفيد وذلك لان قوله وأخرجنا منها حبا كالاشارة الى الامر الضرورى الذى لا بدمنه وقوله وجعلنا فيهـا جنات كالامر المحتاج اليه الذى ان لم يكن لايغنى الانسان لكنه يبقى بختل الحال وقوله وفجرنا فيها من العيون اشارة الى الزينة التى ان لم تكن لاتغنى الانسان ولا يبقى فى ورطة الحاجة لكنه لايكون على أحسن ماينبغى وكان حال الانسان بالحب كحال الفقير الذى له مايسد خلته من بعض الوجوه ولايدفع حاجته من كل الوجوه وبالثمار يعتبر حاله كحال المكتفى بالعيون الجارية التى يعتمد عليها الانسان ويقوى بها قلبه كالمستغنى الغنى المدخر لقوت سنين فيقول الله عزوجل كما فعلنا فى موات الارض كذلك نفعل فى الاموات فى الارض فنحييهم ونعطيهم مالابدلهم منه فى بقائهم ونكوينهم من الاعضاء المحتاج اليها وقواها كالعين والقوة الباصرة والاذن والقوة السامعة وغيرهما ونزيدله ماهو زينة كالعقل الكامل والادراك الشامل فيكون كأنه قال نحيى الموتى احياء تاما كما أحيينا الارض احياء تاما (المسئلة الرابعة) قال عند ذكر الحب فمنه يأكلون وفى الاشجار والثمار قال ليأكلوا من ثمره وذلك لان الحب قوت لابد منه فقال فمنه يأكلون أى هم آكلوه وأما الثمار ليست كذلك فكأنه تعالى قال ان كنا ما أخرجناها كانوا يبقون من غير أكل فأخرجناها ليأكلوها (المسئلة الخامسة) خصص النخيل والاعناب بالذكر من سائر الفواكه لان ألذ المطعوم الحلاوة وهى فيهما أتم ولان التمر والعنب قوت وفاكهة ولا كذلك غيرهما ولانهما أعم نفعا فانها تحمل من البلاد الى الاماكن البعيدة فان قيل فقد ذكر الله الرمان والزيتون فى الانعام والقضب والزيتون والتين فى مواضع نقول فى الانعام وغيرها المقصود ذكر الفواكه والثمار ألا ترى الى قوله تعالى أنزل من السماء ماء فاخرجنا به والى قوله فلينظر الانسان الى طعامه فاستوفى الانواع بالذكر وههنا المقصود ذكر صفات الارض فاختار منها الالذ الانفع وقد ذكرنا فى سورة الانعام مايستفاد منه الفوائد ويعلم منه فائدة قوله تعالى فاكهة ونخل ورمان (المسئلة السادسة) فى المواضع التى ذكر الله الفواكه لم يذكر التمر بلفظ شجرته وهى النخلة ولم يذكر العنب بلفظ شجرته بل ذكره بلفظ العنب والاعناب ولم يذكر الكرم وذلك لان العنب شجرته بالنسبة الى ثمرته حقيرة قليلة

واستقباح لعدم شكرهم للنعم المعدودة والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أيرون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلايشكرونها (سبحان الذى خلق الازواج كلها) استئناف مسوق لتنزيهه تعالى عما فعلوه من ترك شكره على آلائه المذكورة واستعظام ماذكر فى حيز الصلة من بدائع آثار قدرته وأسرار حكمته وروائع نعمائه الموجبة للشكر وتخصيص العبادة به والتعجيب من اخلالهم بذلك والحالة هذه وسبحان علم للتسبيح الذى هو التبعيد عن السوء اعتقادا وقولا أى اعتقاد البعد عنه والحكم به من سبح فى الارض والماء اذا أبعد فيهما

الفائدة والنخل بالنسبة الى ثمرته عظيمة جليلة القدر كثيرة الجدوى فان كثيرا من الظروف منها يتخذ وبلحائها ينتفع ولها شبه بالحيوان فاختار منها ماهو الاعجب منها وقوله تعالى وفجرنا فيها من العيون آية عظيمة لان الارض أجزاؤها بحكم المادة لاتصعد ونحن نرى منابع الانهار والعيون فى المواضع المرتفعة وذلك دليل القدرة والاختيار والقائلون بالطبائع قالوا ان الجبال كالقباب المبنية والابخرة ترتفع اليها كما ترتفع الى سقوف الحمامات وتتكون هناك قطرات من الماء ثم تجتمع فان لم تكن قوية تحصل المياه الراكدة كالآبار وتجرى فى القنوات وان كانت قوية تشق الارض وتخرج انهارا جارية وتجتمع فتحصل الانهار العظيمة وتمدها مياه الامطار والثلوج فنقول اختصاص بعض الجبال بالعيون دليل ظاهر على الاختيار وماذكروه تعسف فالحق هو ان الله تعالى خلق الماء فى المواضع المرتفعة وساقها فى الانهار والسواقى أو صعد الماء من المواضع المتسفلة الى الاماكن المرتفعة بأمر الله وجرى فى الاودية الى البقاع التى انعم الله على أهلها ثم قال تعالى ليأكلوا من ثمره وماعملته أيديهم أفلا يشكرون والترتيب ظاهر و يظهر أيضا فى التفسير وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لم أخر التنبيه على الانتفاع بقوله ليأكلوا عن ذكر الثمار حتى قال وفجرنا فيها من العيون وقال فى الحب فمنه يأكلون عقيب ذكر الحب ولم يقل عقيب ذكر النخيل والاعناب ليأكلوا نقول الحب قوت وهو يتم وجوده بماء الامطار ولهذا يرى أكثر البلاد لايكون بها شئ من الاشجار والزرع والحراثة لاتبطل هناك اعتمادا على ماء السماء وهذا اطف من الله حيث جعل مايحتاج اليه الانسان أعم وجودا وأما الثمار فلا تتم الابالانهار ولاتصير الاشجار حاملة للثمار الابعد وجود الانهار فلهذا أخر (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله من ثمره عائد الى أى شئ نقول المشهور انه عائد الى الله أى ليأكلوا من ثمر الله (وفيه لطيفة) وهى ان الثمار بعد وجود الاشجار وجريان الانهار لم توجد الابالله تعالى ولولا خلق الله ذلك لم توجد فالثمر بعد جميع مايظن الظان انه سبب وجوده ليس الابالله تعالى وارادته فهى ثمره و يحتمل ان يعود الى النخيل وترك الاعناب لحصول العلم بانها فى حكم النخيل ويحتمل ان يقال هو راجع من المذكور أى من ثمر ماذكرنا وهذان الوجهان نقلهما الزمخشرى و يحتمل وجها آخر أغرب وأقرب وهو أن يقال المراد من الثمر الفوائد يقال ثمرة التجارة الربح و يقال ثمرة العبادة الثواب وحينئذ يكون الضمير عائدا الى التفجير المدلول عليه بقوله وفجرنا فيها من العيون تفجيرا ليأكلوا من فوائد ذلك التفجير وفوائده أكثر من الثمار بل يدخل فيه ماقال الله تعالى انا صببنا الماء صبا الى أن قال فأخرجنا به حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا والتفجير أقرب فى الذكر من النخيل ولو كان عائدا الى الله لقال من ثمرنا كما قال وجعلنا وفجرنا (المسئلة الثالثة) مافى قوله وماعملته من أى المآت هى نقول فيها وجوه (أحدها) نافية كانه قال وماعملت التفجير أيديهم بل الله فجر (وثانيها) موصولة بمعنى الذى كأنه قال

وأمعن ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى وانتصابه على المصدر بفعل لايكاد يذكر ناصبه أى أسبح سبحانه أى أنزهه عما لايليق به عقدا وعملا تنزيها خاصا به حقيقا بشأنه وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق من السبح ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما العلم المشير الى الحقيقة الحاضرة فى الذهن ومن جهة اقامته مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران أريد به التنزه التام والتباعد الكلى عن السوء ففيه مبالغة من جهة اسناد التنزه الى الذات المقدسة فالمعنى تنزه بذاته

والذى عملته أيديهم من الغراس بعد التفجير يأكلون منه أيضاو يأكلون من ثمر الله الذى أخرجها من غير سعى من الناس فعطف الذى عملته الايدى على ماخلقه الله من غير مدخل للانسان فيه (وثالثها) هى مصدرية على قراءة من قرأ وماعملت من غير ضمير عائد معناه ليأكلو من ثمره وعمل أيديهم يعنى يغرسون والله ينبتها و يخلق ثمرها فيأكلون مجموع عمل أيديهم وخلق الله وهذا الوجه لايمكن على قراءة من قرأ مع الضمير (المسئلة الرابعة) على قولنا ماموصولة يحتمل أن تكون بمعنى وماعملته أى بالتجارة كأنه ذكر نوعى مايأكل الانسان بهماوهما الزراعة والتجارة ومن النبات مايؤكل من غير عمل الايدى كالعنب والتمر وغيرهما ومنه مايعمل فيه عمل صنعة فيؤكل كالاشياء التى لاتؤكل الامطبوخة أوكالزيتون الذى لايؤكل الابعد اصلاح ثم لماعدد النعم أشار الى الشكر بقوله أفلايشكرون وذكر بصيغة الاستفهام لمابينا من فوائد الاستفهام فيما تقدم ❊ ثم قال تعالى (سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن أنفسهم ومما لايعلمون) قدذكرنا أن لفظة سبحان علم دال على التسبيح وتقديره سبح تسبيح الذى خلق الازواج كلها ومعنى سبح نزه ووجه تعلق الآية بماقبلها هو انه تعالى لماقال أفلايشكرون وشكر الله بالعبادة وهم تركوها ولم يقتنعوا بالترك بل عبدوا غيره وأتوا بالشرك فقال سبحان الذى خلق الازواج وغيره لم يخلق شيأ فقال أونقول لمابين أنهم انكروا الآيات ولم يشكروا بين ماينبغى أن يكون عليه العاقل فقال سبحان الذى خلق الازواج كلها أونقول لمابين الآيات قال سبحان الذى خلق ماذكره عن أن يكون له شريك أو يكون عاجزا عن احياء الموتى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله كلها يدل على ان أفعال العباد مخلوقة لله لان الزوج هو الصنف وأفعال العباد أصناف ولها اشباه هى واقعة تحت اجناس الاعراض فتكون من الكل الذى قال الله فيها انه خلق الازواج كلها لايقال مماتنبت الارض يخرج الكلام عن العموم لان من قال أعطيت زيدا كل ما كان لى يكون للعموم ان اقتصر عليه فاذا قال بعده من الثياب لايبقى الكلام على عمومه لانانقول ذلك اذا كانت من البيان التخصيص اما اذا كانت لتأكيد العموم فلا بدليل ان من قال أعطيته كل شئ من الدواب والثياب والعبيد والجوارى يفهم منه انه يعدد الاصناف لتاكيد العموم ويؤيد هذا قوله تعالى فى حم الذى خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون من غير تقييد (المسئلة الثانية) ذكر الله تعالى أمورا ثلاثة ينحصر فيها المخلوقات فقوله مماتنبت الارض يدخل فيها مافى الارض من الامور الظاهرة كالنبات والثمار وقوله ومن أنفسهم يدخل فيها الدلائل النفسية وقوله ومما لايعلمون يدخل مافى أقطار السموات وتخوم الارضين وهذا دليل على انه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل ان الانعام مما خلقها الله والمعادن لم يذكرها وانما ذكر الاشياء لتأكيد معنى العموم كماذكرنا فى المثال (المسئلة الثالثة) قوله ومما لايعلمون فيه معنى لطيف وهو انه تعالى انما ذكر كون الكل

عن كل مالايليق به تنزها خاصا به فالجملة على هذا اخبار من الله تعالى بتنزهه و براءته عن كل مالايليق به مما فعلوه وماتركوه وعلى الاول حكم منه عزوجل بذلك و تلقين للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوا مضمونه ولايخلوا به ولايغفلوا عنه والمراد بالازواج الاصناف والانواع (مما تنبت الارض) بيان لهـا والمراد به كل ماينبت فيهامن الاشياء المذكورة وغيرها (ومن أنفسهم) أى خلق الازواج من من أنفسهم أى الذكر والانثى (ومما لايعلمون) أى والازواج مما لم يطلعهم الله تعالى على خصوصياته لعدم قدرتهم على الاحاطة بها ولمالم يتعلق بذلك شئ من مصالحهم الدينية والدنيوية

مخلوق قال لينزه الله عن الشريك فان المخلوق لا يصلح شريكا للخالق لكن التوحيد الحقيقي لا يحصل الا بالاعتراف بأن لا اله الا الله فقال تعالى اعلموا أن المانع من التشريك فيما تعلمون ومما لا تعلمون لان الخلق عام والمانع من الشركة الخلق فلا تشركوا بالله شيأ مما تعلمون فانكم تعلمون أنه مخلوق ومما لا تعلمون فان عند الله كله مخلوق لكون كله ممكنا * ثم قال تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون) لما استدل الله باحوال الارض وهي المكان الكلي استدل بالليل والنهار وهو الزمان الكلي فان دلالة المكان والزمان مناسبة لان المكان لا تستغني عنه الجواهر والزمان لا تستغني عنه الاعراض لان كل عرض فهو في زمان ومثله مذكور في قوله تعالى ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ثم قال بعده ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت حيث استدل بالزمان والمكان هناك أيضا لكن المقصود أولا هناك اثبات الوحدانية بدليل قوله تعالى لا تسجدوا للشمس ثم الحشر بدليل قوله تعالى ان الذي أحياها لمحيي الموتى وههنا المقصود أولا اثبات الحشر لان السورة فيها ذكر الحشر أكثر يدل عليه النظر في السورة وهناك ذكر التوحيد أكثر بدليل قوله تعالى فيه قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين الى غيره وآخر السورتين يبين الامر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المكان يدفع عن أهل السنة شبه الفلاسفة والزمان يدفع عنهم شبه المشبهة (اما بيان الاول) فذلك لان الفلسفي يقول لو كان عدم العالم قبل وجوده لكان عند فرض عدم العالم قبل وقبل و بعد لا يتحقق الا بالزمان فقبل العالم زمان والزمان من جملة العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه وهو محال فنقول لهم قد وافقتمونا على أن الامكنة متناهية لان الابعاد متناهية بالاتفاق فاذن فوق السطح الاعلى من العالم يكون عدم وهو موصوف بالفوقية وفوق وتحت لا يتحقق الا بالمكان ففوق العالم مكان والمكان من العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه فان أجابوا بأن فوق السطح الاعلى لا خلا ولا ملا نقول قبل وجود العالم لا آن ولا زمان موجود (واما بيان الثاني) فلان المشبهي يقول لا يمكن وجود موجود الا في مكان فالله في مكان فنقول فيلزمكم ان تقولوا الله في زمان لان الوهم كما لا يمكنه ان يقول هو موجود ولا مكان لا يمكنه أن يقول هو كان موجودا ولا زمان وكل زمان فهو حادث وقد أجمعنا على ان الله تعالى قديم (المسئلة الثانية) لو قال قائل اذا كان المراد منه الاستدلال بالزمان فلم اختار الليل حيث قال وآية لهم الليل نقول لما استدل بالمكان الذي هو المظلم وهو الارض وقال وآية لهم الارض استدل بالزمان الذي فيه الظلمة وهو الليل (ووجه آخر) وهو أن الليل فيه سكون الناس وهدو الاصوات وفيه النوم وهو كالموت ويكون بعده طلوع الشمس كالنفخ في الصور فيتحرك الناس فذكر الموت كما قال في الارض وآية لهم الارض الميتة فذكر من الزمانين أشبههما بالموت كما ذكر من المكانين أشبههما بالموت (المسئلة الثالثة) ما معنى سلخ النهار من الليل نقول معناه تمييزه منه يقال

وانما أطلعهم على ذلك بطريق الاجمال على منهاج قوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون لمانيط به وقوفهم على عظم قدرته وسعة ملكه وسلطانه (وآية لهم الليل) جملة من خبر مقدم ومبتدا مؤخر كما مر وقوله تعالى (نسلخ منه النهار) جملة مبينة لكيفية كونه آية أي نزيله ونكشفه عن مكانه مستعار من السلخ وهو ازالة ما بين الحيوان وجلده من الاتصال والاغلب في الاستعمال تعليقه بالجلد يقال سلخت الاهاب من الشاة وقد يعكس ومنه الشاة المسلوخة (فاذا هم مظلمون) أي داخلون في الظلام مفاجأة وفيه رمز الى أن الاصل هو الظلام

انسلخ النهار من الليل اذا أتى آخر النهار ودخل أول الليل وسلخه الله منه فانسلخ هو منه وأما اذا استعمل بغير كلمة من فقيل سلخت النهار أو الشمس فمعناه دخلت فى آخره فان قيل فالليل فى نفسه آية فأية حاجة الى قوله نسلخ منه النهار نقول الشئ تتبين بضده منافعه ومحاسنه ولهذا لم يجعل الله الليل وحده آية فى موضع من المواضع الاوذكر آية النهار معها وقوله فاذاهم مظلمون أى داخلون فى الظلام واذا للمفاجأة أى ليس بيدهم بعد ذلك أمر ولابدلهم من الدخول فيه * وقوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) يحتمل أن يكون الواو للعطف على الليل تقديره وآية لهم الليل نسلخ والشمس تجرى والقمر قدرناه فهى كلها آية وقوله والشمس تجرى اشارة الى سبب سلخ النهار فانها تجرى لمستقر لها وهو وقت الغروب فينسلخ النهار وفائدة ذكر السبب هو أن الله لما قال نسلخ منه النهار وكان غير بعيد من الجهال ان يقول قائل منهم سلخ النهار ليس من الله انما يسلخ النهار بغروب الشمس فقال تعالى والشمس تجرى لمستقر لها بأمر الله فغرب الشمس سالخ للنهار فبذكر السبب يتبين صحة الدعوى ويحتمل ان يقال بان قوله والشمس تجرى لمستقر لها اشارة الى نعمة النهار بعد الليل كانه تعالى لما قال وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ذكر أن الشمس تجرى فتطلع عند انقضاء الليل فيعود النهار بمنافعه وقوله لمستقر اللام يحتمل أن تكون للوقت كقوله تعالى أقم الصلاة لدلوك الشمس وقوله تعالى فطلقوهن لعدتهن ووجه استعمال اللام للوقت هو ان اللام المكسورة فى الاسماء لتحقيق معنى الاضافة لكن اضافة الفعل الى سببه أحسن الاضافات لان الاضافة لتعريف المضاف بالمضاف اليه كما فى قوله دار زيد لكن الفعل يعرف بسببه فيقال اتجر للربح واشتر للاكل واذا علم أن اللام تستعمل للتعليل فنقول وقت الشئ يشبه سبب الشئ لان الوقت يأتى بالامر الكائن فيه والامور متعلقة باوقاتها فيقال خرج لعشر من كذا وأقم الصلاة لدلوك الشمس لان الوقت معرف كالسبب وعلى هذا فمعناه تجرى الشمس وقت استقرارها أى كلما استقرت زمانا أمرت بالجرى فجرت ويحتمل أن تكون بمعنى الى أى الى مستقر لها وتقريره هو أن اللام تذكر للوقت وللوقت طرفان ابتداء وانتهاء يقال سرت من يوم الجمعة الى يوم الخميس فجاز استعمال مايستعمل فيه فى أحد طرفيه لما بينهما من الاتصال ويؤيد هذا قراءة من قرأ والشمس تجرى الى مستقر لها وعلى هذا ففى ذلك المستقر وجوه (الاول) يوم القيامة وعنده تستقر ولايبقى لها حركة (الثانى) السنة (الثالث) الليل أى تجرى الى الليل (الرابع) ان ذلك المستقر ليس بالنسبة الى الزمان بل هو للمكان وحينئذ ففيه وجوه (الاول) هو غاية ارتفاعها فى الصيف وغاية انخفاضها فى الشتاء أى تجرى الى أن تبلغ ذلك الموضع فترجع (الثانى) هو غاية مشارقها فان فى كل يوم لها مشرق الى ستة أشهر ثم تعود الى تلك المنقطرات وهذا هو القول الذى تقدم فى الارتفاع فان اختلاف المشارق بسبب اختلاف الارتفاع (الثالث) هو وصولها الى

والنور عارض (والشمس تجرى لمستقر لها) لحد معين ينتهى اليه دورها فشبه بمستقر المسافر اذا قطع مسيرة أو لكبد السماء فان حركتها فيه توجد أبطأ بحيث يظن أن لها هناك وقفة قال * والشمس حيرى لها بالجو تدويم * أو لا استقرار لها على نهج مخصوص أو لمنتهى مقدر لكل يوم من المشارق والمغارب فان لها فى دورها ثلثمائة وستين مشرقا ومغربا تطلع كل يوم من مطلع وتغرب من مغرب ثم لا تعود اليهما الى العام القابل أو لمنقطع جريها عند خراب العالم وقرئ الى مستقر لها وقرئ لا مستقر لها أى لا سكون لها فانها متحركة دائما وقرئ

بيتها فى الابتداء (الرابع) هو الدائرة التى عليها حركتها حيث لا تميل عن منطقة البروج على مرور الشمس وسنذكرها ويحتمل أن يقال لمستقر لها أى تجرى مجرى مستقرها فان أصحاب الهيئة قالوا الشمس فى فلك والفلك يدور فيدير الشمس فالشمس تجرى مجرى مستقرها وقالت الفلاسفة تجرى لمستقرها أى لامر لو وجدها لاستقر وهو استخراج الاوضاع الممكنة وهو فى غاية السقوط وأجاب الله عنه بقوله ذلك تقدير العزيز العليم أى ليس لارادتها وانما ذلك بارادة الله وتقديره وتدبيره وتسخيره اياها فان قيل عددت الوجوه الكثيرة وماذكرت المختار فالوجه المختار عندك نقول المختار هو أن المراد من المستقر المكان أى تجرى لبلوغ مستقرها وهو غاية الارتفاع والانخفاض فان ذلك يشمل المشارق والمغارب والمجرى الذى لا يختلف والزمان وهو السنة والليل فهو أتم فائدة وقوله ذلك يحتمل أن يكون اشارة الى جرى الشمس أى ذلك الجرى تقدير الله ويحتمل ان يكون اشارة الى المستقر أى لمستقر لها وذلك المستقر تقدير الله والعزيز الغالب وهو بكمال القدرة يغلب والعليم كامل العلم أى الذى قدر على أجرائها على الوجه الانفع وعلم الانفع فاجراها على ذلك وبيانه من وجوه (الاول) هو ان الشمس فى ستة أشهر كل يوم تمر على مسامتة شئ لم تمر من أمسها على تلك المسامتة ولو قدر الله مرورها على مسامتة واحدة لاحترقت الارض التى هى مسامتة لممرها وبقى المجموع مستوليا على الاماكن الآخر فقدر الله لها بعدا لتجمع الرطوبات فى باطن الارض والاشجار فى زمان الشتاء ثم قدر قربها بتدريج لتخرج النبات والثمار من الارض والشجر وتنضج وتجفف ثم تبعد لئلا يحترق وجه الارض واغصان الاشجار (الثانى) هو ان الله قدر لها فى كل يوم طلوعا وفى كل ليلة غروبا لئلا تكل القوى والابصار بالسهر والتعب ولا يخرب العالم بترك العمارة بسبب الظلمة الدائمة (الثالث) جعل سيرها ابطأ من سير القمر وأسرع من سير زحل لانها كاملة النور فلو كانت بطيئة السير لدامت زمانا كثيرا فى مسامتة شئ واحد فتحرقه ولو كانت سريعة السير لما حصل لها لبث بقدر ما ينضج الثمار فى بقعة واحدة ❊ ثم قال تعالى (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) قال الزمخشرى لابد من تقدير لفظ يتم به معنى الكلام لان القمر لم يجعل نفسه منازل فالمعنى انا قدرنا مسيره منازل وعلى ماذكره يحتمل أن يقال المراد منه والقمر قدرناه ذا منازل لان ذا الشئ قريب من الشئ ولهذا جاز قول القائل عيشة راضية لان ذا الشئ كالقائم به الشئ فأتوا بلفظ الوصف وقوله حتى عاد كالعرجون القديم أى رجع فى الدقة الى حالته التى كان عليها من قبل والعرجون من الانعراج يقال لعود العذق عرجون والقديم المتقادم الزمان قيل ان ماغبر عليه سنة فهو قديم والصحيح أن هذه بعينها لا تشترط فى جواز اطلاق القديم عليه وانما تعتبر العادة حتى لا يقال لمدينة بنيت من سنة وسنتين انها بناء قديم أو هى قديمة ويقال لبعض الاشياء انه قديم وان لم يكن له سنة ولهذا جاز أن يقال بيت قديم وبناء قديم

لا لمستقر لها على أن لا بمعنى ليس (ذلك) اشارة الى جريها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته أى ذلك الجرى البديع المنطوى على الحكم الرائعة التى تحار فى فهمها العقول والافهام (تقدير العزيز) الغالب بقدرته على كل مقدور (العليم) المحيط علمه بكل معلوم (والقمر قدرناه) بالنصب باضمار فعل يفسره الظاهر وقرئ بالرفع على الابتداء أى قدرناه (منازل) وقيل قدرنا مسيره منازل وقيل قدرناه ذا منازل وهى ثمانية وعشرون الشرطان البطين الثريا الدبران الهقعة الهنعة الذراع

ولم يجز أن يقال فى العالم انه قديم لان القدم فى البيت والبناء يثبت بحكم تقادم العهد
ومرور السنين عليه واطلاق القديم على العالم لايعتاد الاعند من يعتقد انه لاأول له
ولاسابق عليه * ثم قال تعالى (لاالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولاالليل سابق النهار
وكل فى فلك يسبحون) اشارة الى أن كل شئ من الاشياء المذكورة خلقها على وفق
الحكمة فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر والالكان فى شهر واحد
صيف وشتاء فلاتدرك الثمار وقوله ولاالليل سابق النهار قيل فى تفسيره ان سلطان الليل
وهو القمر ليس يسبق الشمس وهى سلطان النهار وقيل معناه ولاالليل سابق النهار اى
الليل لايدخل وقت النهار والثانى بعيد لان ذلك يقع ايضاحا للواضح والاول صحيح ان
أريد به مابينته وهوان معنى قوله تعالى ولاالليل سابق النهار ان القمر اذاكان على
أفق المشرق أيام الاستقبال تكون الشمس فى مقابلته على أفق المغرب ثم ان عندغروب
الشمس يطلع القمر وعند طلوعها يغرب القمر كان لها حركة واحدة مع ان الشمس تتأخر
عن القمر فى ليلة مقدارا ظاهرا فى الحس فلو كان للقمر حركة واحدة بها يسبق الشمس
ولاتدركه الشمس وللشمس حركة واحدة بها تتأخر عن القمر ولاتدرك القمر لبقى القمر
والشمس مدة مديدة فى مكان واحد لان حركة الشمس كل يوم درجة فخلق الله تعالى
فى جميع الكواكب حركة أخرى غير حركة الشهر والسنة وهى الدورة اليومية و بهذه
الدورة لايسبق كوكب كوكبا أصلا لان كل كوكب من الكواكب اذا طلع
غرب مقابله وكلما تقدم كوكب الى الموضع الذى فيه الكوكب الآخر بالنسبة الينا
تقدم ذلك الكوكب فبهذه الحركة لايسبق القمر الشمس فتبين ان سلطان الليل
لايسبق سلطان النهار فالمراد من الليل القمر ومن النهار الشمس فقوله لاالشمس ينبغى
لها أن تدرك القمر اشارة الى حركتها البطيئة التى تتم الدورة فى سنة وقوله ولاالليل سابق
النهار اشارة الى حركتها اليومية التى بها تعود من المشرق الى المشرق مرة أخرى فى
يوم وليلة وعلى هذا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ماالحكمة فى اطلاق الليل وارادة
سلطانه وهو القمر وماذا يكون لو قال ولاالقمر سابق الشمس نقول لو قال ولاالقمر سابق
الشمس ماكان يفهم ان الاشارة الى الحركة اليومية فكان يتوهم التناقض فان الشمس
اذاكانت لاتدرك القمر والقمر أسرع ظاهرا واذاقال ولاالقمر سابق يظن أن القمر
لايسبق فليس بأسرع فقال الليل والنهار ليعلم أن الاشارة الى الحركة التى بها تتم الدورة
فى مدة يوم وليلة و يكون لجميع الكواكب أوعليها طلوع وغروب فى الليل والنهار
(المسئلة الثانية) ماالفائدة فى قوله تعالى لاالشمس ينبغى لها أن تدرك بصيغة الفعل وقوله
ولاالليل سابق النهار بصيغة اسم الفاعل ولم يقل ولاالليل يسبق ولاقال مدركة القمر
نقول الحركة الاولية التى للشمس ولايدرك بها القمر مختصة بالشمس فجعلها كالصادرة منها
وذكر بصيغة الفعل لان صيغة الفعل لاتطلق على من لايصدر منه الفعل فلا يقال هو

النثرة الطرف الجبهة
الزبرة الصرفة العواء
السماك الغفر الزبانى
الاكليل القلب الشولة
النعائم البلدة سعدالذابح
سعدبلع سعد السعود
سعدالاخبية فرغ الدلو
المقدم فرغ الدلوالمؤخر
الرشاوهو بطن الحوت
ينزل كل ليلة فى احد
منها لايتخطاها ولا
يتقاصر عنهافاذاكان
فى آخر منازله وهوالذى
يكون قبيل الاجتماع دق
واستقوس (حتى عاد
كالعرجون) كالشمراخ
المعوج فعلون من
الانعراج وهوالاعوجاج
وقرئ كالعرجون وهما
لغتان كالبزيون والبزيون
(القديم) العتيق وقيل
هو مامر عليه حول
فصاعدا (لاالشمس
ينبغى لها) أى يصح
و يتسهل (أن تدرك
القمر) فى سرعة السير

بخيط ولايكون يصدر منه الخياطة والحركة الثانية ليست مختصة بكوكب من الكواكب بل الكل فيها مشتركة بسبب حركة فلك ليس ذلك فلكالكوكب من الكواكب فالحركة ليست كالصادرة منه فأطلق اسم الفاعل لانه لايستلزم صدور الفعل يقال فلان خياط وان لم يكن خياطا فان قيل قوله تعالى يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا يدل على خلاف ماذكرتم لان النهار اذا كان يطلب الليل فالليل سابقه وقلتم ان قوله ولا الليل سابق النهار معناه ماذكرتم فيكون الليل سابقا ولايكون سابقا نقول قد ذكرنا ان المراد بالليل ههنا سلطان الليل وهو القمر وهو لايسبق الشمس بالحركة اليومية السريعة والمراد من الليل هناك نفس الليل وكل واحد لما كان في عقيب الآخر فكأنه طالبه فان قيل فلم ذكر ههنا سابق النهار وقد ذكر هناك يطلبه ولم يقل طالبه نقول ذلك لما بينا من أن المراد في هذه السورة من الليل كواكب الليل وهي في هذه الحركة كأنها لاحركة لها ولاتسبق ولامن شأنها انها سابقة والمراد هناك نفس الليل والنهار وهما زمانان والزمان لاقرار له فهو يطلب حثيثا لصدور التقضي منه وقوله تعالى وكل في فلك يسبحون و يحقق ماذكرنا أي للكل طلوع وغروب في يوم وليلة لايسبق بعضها بعضا بالنسبة الى هذه الحركة وكل حركة في فلك تخصه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) التنوين في قوله وكل عوض عن الاضافة معناه كل واحد واسقاط التنوين للاضافة حتى لايجتمع التعريف والتنكير في شئ واحد فلما سقط المضاف اليه لفظا رد التنوين عليه لفظا وفي المعنى معرف بالاضافة فان قيل فهل يختلف الامر عند الاضافة لفظا وتركها فنقول نعم وذلك لان قول القائل كل واحد من الناس كذا لايذهب الفهم الى غيرهم فيفيد اقتصار الفهم عليه فاذا قال كل كذا يدخل في الفهم عموم أكثر من العموم عند الاضافة وهذا كما في قبل و بعد اذا قلت افعل قبل كذا فاذا حذفت المضاف وقلت افعل قبل أفاد فهم الفعل قبل كل شئ فان قيل فهل بين قولنا كل منهم و بين قولنا كلهم و بين كل فرق نقول نعم عند قولك كلهم تثبت الامر للاقتصار عليهم وعند قولك كل منهم تثبت الامر أولا للعموم ثم استدركت بالتخصيص فقلت منهم وعند قولك كل تثبت الامر على العموم وتتركه عليه (المسئلة الثانية) اذا كان كل بمعنى كل واحد منهم والمذكور الشمس والقمر فكيف قال يسبحون نقول الجواب عنه من وجوه (أحدها) مابينا أن قوله كل للعموم فكأنه أخبر عن كل كوكب في السماء سيار (ثانيها) ان لفظ كل يجوز أن يوحد نظرا الى كونه لفظا موحدا غير مثنى ولامجموع و يجوز أن يجمع لكون معناه جمعا وأما التثنية فلا يدل عليها اللفظ ولا المعنى فعلى هذا يحسن أن يقول القائل زيد وعمرو كل جاء أو كل جاؤا ولايقول كل جاآ بالتثنية (وثالثها) لما قال ولا الليل سابق النهار والمراد ما في الليل من الكواكب قال يسبحون (المسئلة الثالثة) الفلك ماذا نقول الجسم المستدير أو السطح المستدير أو الدائرة لان أهل اللغة اتفقوا على أن فلكة المغزل سميت فلكة لاستدارتها وفلكة الخيمة

فان ذلك يخل بتكون النبات وتعيش الحيوان أو في الآثار والمنافع أو في المكان بأن تنزل في منزله أو في سلطانه فتطمس نوره وايلاء حرف النفي الشمس للدلالة على انها مسخرة لايتيسر لها الاماقدر لها (ولا الليل سابق النهار) أي يسبقه فيفوته ولكن يعاقبه وقيل المراد بهما آيتاهما وهما النيران و بالسبق سبق القمر الى سلطان الشمس فيكون عكسا للاول وايراد السبق مكان الادراك لانه الملائم لسرعة سيره (وكل) أي وكلهم على أن التنوين عوض عن المضاف اليه الذي هو الضمير العائد الى الشمس والقمر والجمع باعتبار التكاثر العارض لهما بتكاثر مطالعهما فان اختلاف الاحوال يوجب تعددا اما في الذات أو الى الكواكب فان ذكرهما مشعر بها (في فلك يسبحون) يسيرون بانبساط وسهولة

هى الخشبة المسطحة المستديرة التى توضع على رأس العمود لئلا يمزق العمود الخيمة وهى صفحة مستديرة فان قيل فعلى هذا تكون السماء مستديرة وقد اتفق أكثر المفسرين على أن السماء مبسوطة لها أطراف على جبال وهى كالسقف المستوى و يدل عليه قوله تعالى والسقف المرفوع نقول ليس فى النصوص مايدل دلالة قاطعة على كون السماء مبسوطة غير مستديرة ودل الدليل الحسى على كونها مستديرة فوجب المصير اليه أما الاول فظاهر لان السقف المقبب لايخرج عن كونه سقفا وكذلك كونها على جبال وأما الدليل الحسى فوجوه (أحدها) ان من أمعن فى السير فى جانب الجنوب يظهر له كواكب مثل سهيل وغيره ظهورا أبديا حتى ان من يرصد يراه دائما و يخفى عليه بنات نعش وغيرها خفاء أبديا ولوكان السماء مسطحا مستويا لبان الكل للكل بخلاف ما اذا كان مستديرا فان بعضه حينئذ يستتر باطراف الارض فلا يرى (الثانى) هو ان الشمس اذا كانت مقارنة للحمل مثلا فاذا غربت ظهر لنا كوكب فى منطقة البروج من الحمل الى الميزان ثم فى كل قليل يستتر الكوكب الذى كان غروبه بعد غروب الشمس و يظهر الكوكب الذى كان طلوعه بعد طلوع الشمس وبالعكس وهو دليل ظاهر وان بحث فيه يصير قطعيا (الثالث) هو ان الشمس قبل طلوعها و بعد غروبها يظهر ضوءها و يستنير الجو بعض الاستنارة ثم يطلع ولولا أن بعض السماء متستر بالارض وهو محل الشمس فلا يرى جرمها و ينتشر نورها لما كان كذا بل كان عند اعادتها الى السماء يظهر لكل أحد جرمها ونورها معا لكون السماء مستوية حينئذ مكشوفة كلها لكل أحد (الرابع) القمر اذا انكسف فى ساعة من الليل فى جانب الشرق ثم سئل أهل المغرب عن وقت الكسوف أخبروا عن الخسوف فى ساعة أخرى قبل تلك الساعة التى رأى أهل المشرق فيها الخسوف لكن الخسوف فى وقت واحد فى جميع نواحى العالم والليل مختلف فدل على أن الليل فى جانب المشرق قبل الليل فى جانب المغرب فالشمس غربت من عند أهل المشرق وهى بعد فى السماء ظاهرة لاهل المغرب فعلم أن استتارها بالارض ولوكانت مستوية لما كان كذلك (الخامس) لوكانت السماء مبسوطة لكان القمر عند مايكون فوق رؤسنا على المسامتة أقرب الينا وعند مايكون على الافق أبعد منا لان العمود أصغر من القطر والوتد وكذلك فى الشمس والكواكب كان يجب أن يرى أكبر لان القريب يرى أكبر وليس كذلك فان قيل جاز أن يكون وهو على الافق على سطح السماء وعند مايكون على مسامتة رؤسنا فى بحر السماء غائرا فيها لان الخرق جائز على السماء نقول لانـنازع فى جواز الخرق لكن القمر حينئذ تكون حركته فى دائرة لا على خط مستقيم وهو غرضنا ولانا نقول لو كان كذلك لكان القمر عند أهل المشرق وهو فى منتصف نهارهم أكبر مقدارا لكونه قريبا من رؤسهم ضرورة فرضه على سطح السماء الادنى وعندنا فى بحر السماء وبالجملة الدلائل كثيرة والاكثار منها يليق بكتب الهيئة التى الغرض منها بيان

ذلك العلم وليس الغرض فى التفسير بيان ذلك غير أن القدر الذى أوردناه يكفى فى بيان كونه فلكا مستديرا (المسئلة الرابعة) هذا يدل على أن لكل كوكب فلكا فالقول فيه نقول أما السبعة السيارة فلكل فلك وأما الكواكب الاخر فقيل للكل فلك واحد ولنذكر كلاما مختصرا فى هذا الباب من الهيئة حيث وجب الشروع بسبب تفسير الفلك فنقول قيل ان للقمر فلكا لان حركته أسرع من حركة الستة الباقية وكذلك لكل كوكب فلك لاختلاف غيرها بالسرعة والبطء والممر فان بعضها يمر فى دائرة وبعضها فى دائرة أخرى حتى فى بعض الاوقات يمر بعضها ببعض ولا يكسفه وفى بعض الاوقات يكسفه فلكل كوكب فلك ثم ان أهل الهيئة قالوا لكل فلك هو جسم كرة وذلك غير لازم بل اللازم أن نقول لكل فلك هو كرة أو صفحة أو دائرة يقطعها الكوكب بحركته والله تعالى قادر على أن يخلق الكوكب فى كرة يكون وجوده فيها كوجود مسمار مغرق فى ثخن كرة مجوفة و يدير الكرة فيدور الكوكب بدوران الكرة وعلى مذهب أرباب الهيئة حركة الكواكب السيارة على هذا الوجه وكذلك قادر على أن يخلق حلقة يحيط بها أربع سطوح متوازية بها فانها أربع دوائر متوازية كحجر الرحى اذا قورناه وأخرجنا من وسطه طاحونة من طواحين اليد ويبقى منه حلقة يحيط بها سطوح ودوائر كما ذكرنا وتكون الكواكب فيه وهو فلك فتدور تلك الحلقة وتدير الكوكب والحركة على هذا الوجه وان كانت مقدورة لكن لم يذهب اليه أحد ممن يعتبر وكذلك هو قادر على أن يجعل الكواكب بحيث تشق السماء فتجعل دائرة متوهمة كما لو فرضت سمكة فى الماء على وجهه تنزل من جانب وتصعد الى موضع من الجانب الآخر على استدارة وهذا هو المفهوم من قوله تعالى وكل فى فلك يسبحون والظاهر ان حركة الكواكب على هذا الوجه وأرباب الهيئة انكروا ذلك وقالوا لا تجوز الحركة على هذا الوجه لان الكوكب له جرم فاذا شق السماء وتحرك فاما أن يكون موضع دورانه ينشق و يلتئم كالماء تحركه السمكة أو لا ينشق ولا يلتئم بل هناك خلاء يدور الكواكب فيه لكن الخلاء محال والسماء لا تقبل الشق والالتئام هذا ما اعتمدوا عليه ونحن نقول كلاهما جائز أما الخلاء فلا يحتاج اليه ههنا لان قوله تعالى يسبحون يفهم منه انه يشق والتئام وأما امتناع الشق والالتئام فلا دليل لهم عليه وشبهتهم فى المحدد للجهات وهى هناك ضعيفة ثم انهم قالوا على ما يدينا تخرج الحركات وبه علمنا الكسوفات ولو كان لها حركات مختلفة لما وجب الكسوف فى الوقت الذى يحكم فيه بالكسوف والخسوف وذلك لانا نقول للشمس فلكان (أحدهما) مركزه مركز العالم (ثانيهما) مركزه فوق مركز العالم وهو مثل بياض البيض بين صفرته و بين القيض والشمس كرة فى الفلك الخارج المركز تدور بدورانه فى السنة دورة فاذا حصلت فى الجانب الاعلى تكون بعيدة عن الارض فيقال انها فى الاوج واذا حصلت فى الجانب الاسفل تكون قريبة من الارض فتكون فى الحضيض وأما القمر فله فلك شامل لجميع

قول الكفرة ان الكواكب بعضها منحوسة وبعضها سعيدة

﴿ أجزائه ﴾

أجزائه وافلاكه وفلك آخر هو بعض من الفلك الاول محيط به كالقشرة الفوقانية من البصلة وفلك ثالث فى الفلك التحتانى كما كان فى الفلك الخارج المركز فى فلك الشمس وفى الفلك الخارج المركز كرة مثل جرم الشمس وفى الكرة القمر مركوز كمسمار فى كرة مغرق فيها ويسمى الفلك الفوقانى الجوزهر والخارج المركز الفلك الحامل والفلك التحتانى الذى فيه الفلك الحامل المائل والكرة التى فى الحامل تسمى فلك التدوير وكذلك قالوا فى الكواكب الخمسة الباقية من السيارات غير ان الفوقانى الذى سموه فلك الجوزهر لم يثبتوه لها فاثبتوا أربعة وعشرين فلكا لفلك الاعلى وفلك البروج ولزحل ثلاثة أفلاك الممثل والحامل وفلك التدوير وللمشترى ثلاثة كما لزحل وللمريخ كذلك ثلاثة وللشمس فلكان الممثل والخارج المركز وللزهرة ثلاثة أفلاك كما للعلويات ولعطارد أربعة أفلاك الثلاثة التى ذكرناها فى العلويات وفلك آخر يسمونه المدير وللقمر أربعة أفلاك والرابع يسمونه فلك الجوزهر والمدير ليس كالجوزهر لان المدير غير محيط بافلاك عطارد وفلك الجوزهر محيط ومنهم من زاد فى الخمسة فى كل فلك فلكين آخرين وجعل تدويراتها مركبة من ثلاثة افلاك وقالوا ان بسبب هذه الاجرام تختلف حركات الكواكب ويكون لها عروض ورجوع واستقامة وبطء وسرعة هذا كلامهم على سبيل الاقتصاص والاقتصار ونحن نقول لايبعد من قدرة الله خلق مثل ذلك واما على سبيل الوجوب فلا نسلم ورجوعها واستقامتها بارادة الله وكذلك عرضها وطولها وبطؤها وسرعتها وقربها وبعدها ... هذا تمام الكلام (المسئلة الخامسة) قال المنجمون الكواكب أحياء بدليل انه تعالى قال يسبحو...ن وذلك لايطلق الاعلى العاقل نقول ان أردتم قدر ما يصح به التسبيح فنقول به لانه م... ... شىء من هذه الاشياء الاوهو يسبح بحمد الله وان أردتم شيئا آخر فلم يثبت ذلك والاس... ...ل كما فى قوله تعالى فى حق الاصنام مالكم لا تنطقون وقوله الا تنطقون ... (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون) ولها مناسبة مع ما تقدم من وجهين (احدهما) انه تعالى لما من باحياء الارض وهى كان الحب... ...انات بين انه لم يقصر بل جعل للانسان طريقا يتخذ من البحر خيرا ويتوسطه أو يسير فيه كما يسير فى البر وهذا حينئذ كقوله وحملناكم فى البر والبحر ويؤيد هذا قوله تعالى وخلقنا لهم من مثله ما يركبون اذا فسرناه بأن المراد الابل فانها كسفن البرارى (وثانيهما) هو انه تعالى لما بين سباحة الكوكب فى الافلاك وذكر ما هو مثله وهو سباحة الفلك فى البحار ولها وجه ثالث وهى ان الامور التى أنعم الله بها على عباده منها ضرورية ومنها نافعة والاول للحاجة والثانى للزينة فخلق الارض واحياؤها من القبيل الاول فانها المكان الذى لولاه لما وجد الانسان ولولا احياؤها لما عاش والليل والنهار فى قوله وآية لهم الليل أيضا من القبيل الاول لانه الزمان الذى لولاه لما حدث الانسان والشمس والقمر وحركتهما ولولم تكن لما عاش ثم انه تعالى لما ذكر من القبيل

(وآية لهم أنا حملنا ذريتهم) أولادهم الذين يبعثونهم الى تجاراتهم أو صبيانهم ونساءهم الذين يستصحبونهم فان الذرية تطلق عليهن لاسيما مع الاختلاط وتخصيصهم بالذكر لما أن استقرارهم فى السفن أشق واستمساكهم فيها أبدع (فى الفلك المشحون) أى المملوء وقيل هو فلك نوح عليه السلام وحمل ذرياتهم فيها حمل آبائهم الاقدمين وفى أصلابهم هؤلاء وذرياتهم وتخصيص أعقابهم بالذكر دونهم لانه أبلغ فى الامتنان وأدخل فى التعجب الذى عليه يدور كونه آية

الاول آيتين ذكر من القبيل الثانى وهو الزينة آيتين (احدهما) الفلك التى تجرى فى البحر فيستخرج من البحر مايتزين به كما قال تعالى ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر (وثانيهما) الدواب التى هى فى البر كالفلك فى البحر فى قوله وخلقنا لهم من مثله مايركبون فان الدواب زينة كما قال تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة وقال ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون فيكون استدلالا عليهم بالضرورى والنافع لايقال بان النافع ذكره فى قوله جنات من نخيل وأعناب فانها للزينة لانا نقول ذلك حصل تبعا للضرورى لان الله تعالى لما خلق الارض منبتة لدفع الضرورة وأنزل الماء عليها كذلك لزم أن يخرج من الجنة النخيل والاعناب بقدرة الله وأما الفلك فمقصود لاتبع اذا علمت المناسبة ففى الآيات ابحاث لغوية ومعنوية (اما اللغوية) قال المفسرون الذرية هم الآباء أى حملنا آباءكم فى الفلك والالف واللام للتعريف أى فلك نوح وهو مذكور فى قوله واصنع الفلك ومعلوم عند العرب فقال الفلك هذا قول بعضهم وأما الاكثرون فعلى أن الذرية لاتطلق الاعلى الولد وعلى هذا فلا بد من بيان المعنى فنقول الفلك اما أن يكون المراد الفلك المعين الذى كان لنوح واما أن يكون المراد الجنس كما قال تعالى وجعل لكم من الفلك والانعام ماتركبون وقال تعالى وترى الفلك فيه مواخر وقال تعالى فاذا ركبوا فى الفلك الى غير ذلك من استعمال لام التعريف فى الفلك لبيان الجنس فان كان المراد سفينة نوح عليه السلام ففيه وجوه (الاول) أن المراد انا حملنا أولادكم الى يوم القيامة فى ذلك الفلك ولولا ذلك [illegible] الآدمى نسل وعقب وعلى هذا فقوله حملنا ذريتهم بدل قوله حملنا [illegible] هم اشارة الى كمال النعمة أى لم تكن نعمة مقتصرة عليكم بل متعدية الى أعقابكم الى يوم القيامة هذا ماقاله [illegible] ويحتمل عندى أن يقال على هذا انه [illegible] ص الذرية بالذكر لان الموجودين كانوا كرهوا لافائدة فى وجودهم فقال حملنا [illegible] هم أى لم يكن الحمل حملا لهم وانما كان حملا لما فى اصلابهم من المؤمنين كمن حمل صندوقا لاقيمة له وفيه جواهر الا قيل لم تحمل هذا الصندوق وتتعب فى حمله وهو لايشترى بشئ يقول لا احمل الصندوق وانما أحمل ما فيه (الثانى) هو ان المراد بالذرية الجنس معناه حملنا اجناسهم وذلك لان ولد الحيوان من جنسه ونوعه والذرية تطلق على الجنس ولهذا يطلق على النساء نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن قتل الذرارى أى النساء وذلك لان المرأة وان كانت صنفا غير صنف الرجل لكنها من جنسه ونوعه يقال ذرارينا أى أمثالنا فقوله انا حملنا ذريتهم أى أمثالهم وآباؤهم حينئذ تدخل فيهم (الثالث) هو ان الضمير فى قوله وآية لهم عائد الى العباد حيث قال ياحسرة على العباد وقال بعد ذلك وآية لهم الارض وقال وآية لهم الليل وقال وآية لهم انا حملنا ذريتهم اذا علم هذا فكأنه تعالى قال وآية للعباد انا حملنا ذريات العباد ولايلزم أن يكون المراد بالضمير فى الموضعين اشخاصا معينين كما قال تعالى ولاتقتلوا أنفسكم ويريد بعضكم

بعضا وكذلك اذا تقاتل قوم ومات الكل فى القتال يقال هؤلاء القوم هم قتلوا أنفسهم فهم فى الموضعين يكون عائدا الى القوم ولا يكون المراد اشخاصا معينين بل المراد ان بعضهم قتل بعضا فكذلك قوله تعالى وآية لهم أى آية لكل بعض منهم انا حملنا ذريته كل بعض منهم أو ذرية بعض منهم وأما ان قلنا ان المراد جنس الفلك فهو أظهر لان سفينة نوح لم تكن بحضرتهم ولم يعلموا من حمل فيها فاما جنس الفلك فانه ظاهر لكل أحد وقوله تعالى فى سفينة نوح وجعلناها آية للعالمين أى بوجود جنسها ومثلها ويؤيده قوله تعالى ألم تر ان الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور فنقول قوله تعالى حملنا ذريتهم أى ذريات العباد ولم يقل حملناهم لان سكون الارض عام لكل أحد يسكنها فقال وآية لهم الارض الميتة الى ان قال فمنه يأكلون لان الاكل عام وأما الحمل فى السفينة فمن الناس من لا يركبها فى عمره ولا يحمل فيها ولكن ذرية العباد لابد لهم من ذلك فان فيهم من يحتاج اليها فيحمل فيها (المسئلة الثانية) جعل الفلك تارة جمعا حيث قال وترى الفلك فيه مواخر جمع ماخرة وأخرى فردا حيث قال فى الفلك المشحون نقول فيه تدقيق مليح من علم اللغة وهو ان الكلمة قد تكون حركتها مثل حركة تلك الكلمة فى الصورة والحركتان مختلفتان فى المعنى مثالها قولك سجد يسجد سجود المصدر وهم قوم سجود فى جمع ساجد تظن انهما كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك بل السجود عند كونه مصدرا حركته أصلية اذا قلنا ان الفعل مشتق من المصدر وحركة السجود عند كونه للجمع حركة متغيرة من حيث ان الجمع يشتق من الواحد وينبغى أن يلحق المشتق تغيير فى حركة أو حرف أو فى مجموعهما فساجد لما أردنا أن يشتق منه لفظ جمع غيرناه وجئنا بلفظ السجود فاذا السجود للمصدر والجمع ليس من قبيل الالفاظ المشتركة التى وضعت بحركة واحدة لمعنيين اذا عرفت هذا فنقول الفلك عند كونه واحدا مثل قفل وبرد وعند كونها جمعا مثل خشب ومرد وغيرهما فان قلت فاذا جعلته جمعا ماذا يكون واحدها نقول جاز أن يكون واحدها فلكة أو غيرها مما لم يستعمل كواحد النساء حيث لم يستعمل وكذا القول فى امام مبين وفى قوله ندعوا كل اناس بامامهم أى بأئمتهم عند قوله تعالى امام مبين امام كزمام وكتاب وعند قوله تعالى كل أناس بامامهم امام كسهام وكرام وجعاب وهذا من دقيق التصريف (واما المعنوية) فنذكرها فى مسائل (المسئلة الاولى) قال ههنا حملنا ذريتهم من عليهم بحمل ذريتهم وقال تعالى انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية من هناك عليهم بحمل أنفسهم نقول لان من ينفع المتعلق بالغير يكون قد نفع ذلك الغير ومن يدفع الضرر عن المتعلق بالغير لا يكون قد دفع الضرر عن ذلك الغير بل يكون قد نفعه مثاله من أحسن الى ولد انسان وفرحه فرح بفرحه أبوه واذا دفع واحد الالم عن ولد انسان يكون قد فرح أباه ولا يكون فى الحقيقة قد ازال الالم عن أبيه فعند طغيان الماء كان الضرر يلحقهم فقال دفعت عنكم الضرر ولو قال دفعت عن أولادكم الضرر لما حصل

(وخلقنا لهم من مثله) مما يماثل الفلك (ما يركبون) من الابل فانها سفائن البر أو مما يماثل ذلك الفلك من السفن والزوارق وجعلها مخلوقة لله تعالى مع كونها من مصنوعات العباد ليس لمجرد كون صنعهم باقدار الله تعالى والهامه بل لمزيد اختصاص أصلها بقدرته تعالى وحكمته حسبما يعرب عند قوله عزوجل واصنع الفلك بأعيننا ووحينا والتعبير عن ملابستهم بهذه السفن بالركوب لانها باختيارهم كما أن التعبير عن ملابسة ذريتهم بفلك نوح عليه السلام بالحمل لكونها بغير شعور منهم واختيار (وان نشأ نغرقهم) الخ من تمام الآية فانهم معترفون بمضمونه كما ينطق به قوله تعالى واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين وقرئ نغرقهم بالتشديد وفى تعليق الاغراق بمحض المشيئة اشعار بانه قد تكامل ما يوجب اهلاكهم من معاصيهم ولم يبق الا تعلق مشيئته تعالى به أى ان نشأ نغرقهم فى اليم مع ما حملناهم فيه من الفلك فحديث خلق الابل حينئذ كلام جئ به فى خلال الآية بطريق الاستطراد لكمال التماثل بين الابل والفلك فكأنها نوع منه أو مع ما يركبون من السفن والزوارق (فلا صريخ لهم) أى فلا مغيث لهم يحرسهم من الغرق ويدفعه عنهم قبل

بيان دفع الضرر وههنا أراد بيان المنافع فقال حملنا ذريتهم لان النفع حاصل بنفع الذرية ويدلك على هذا ان ههنا قال فى الفلك المشحون فان امتلاء الفلك من الاموال يحصل بذكره بيان المنفعة وأما دفع المضرة فلالان الفلك كلما كان أثقل كان الخلاص به ابطأ وهنالك السلامة فاختار هنالك مايدل على الخلاص من الضرر وهو الجارى وههنا مايدل على كمال المنفعة وهو الشحن فان قيل قال تعالى وحملناهم فى البر والبحر ولم يقل وحملنا ذريتهم مع أن المقصود فى الموضعين بيان النعمة لادفع النقمة نقول لما قال فى البر والبحر عم الخلق لان مامن أحد الاوحمل فى البر أوالبحر وأما الحمل فى البحر فلم يعم فقال ان كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره من الاولاد والاقارب والاخوان والاصدقاء (المسئلة الثانية) قوله المشحون يفيد فائدة أخرى غير ماذكرنا وهى ان الآدمى يرسب فى الماء ويغرق فحمله فى الفلك واقع بقدرته لكن من الطبيعيين من يقول الخفيف لايرسب فى الماء لان الخفيف يطلب جهة فوق فقال الفلك المشحون اثقل من الثقال التى ترسب ومع هذا حمل الله الانسان فيه مع ثقله فان قالوا ذلك لامتناع الخلاء نقول قد ذكرنا الدلائل الدالة على جواز الخلاء فى الكتب العقلية فاذن ليس حفظ الثقيل فوق الماء الابارادة الله (المسئلة الثالثة) قال تعالى وآية لهم الارض وقال وآية لهم الليل ولم يقل وآية لهم الفلك جعلناها بحيث تحملهم وذلك لان حملهم فى الفلك هو العجب أما نفس الفلك فليس بعجب لانه كبيت مبنى من خشب وأما نفس الارض فعجب ونفس الليل عجب لاقدرة عليهما لاحد الاالله * ثم قال تعالى (وخلقنا لهم من مثله مايركبون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من حيث اللغة والمعنى أما اللغة فقوله لهم يحتمل أن يكون عائدا الى الذرية أى حملنا ذريتهم وخلقنا للمحمولين مايركبون ويحتمل أن يكون عائدا الى العباد الذين عاد اليهم قوله وآية لهم وهو الحق لان الظاهر عود الضمائر الى شئ واحد (المسئلة الثانية) من يحتمل وجهين (احدهما) أن يكون صلة تقديره وخلقنا لهم مثله وهذا على رأى الاخفش وسيبويه يقول من لايكون صلة الاعند النفى تقول ماجاءنى من أحد كما فى قوله تعالى ومامسنا من لغوب (وثانيهما) هى مبينة كما فى قوله تعالى يغفر لكم من ذنوبكم كأنه لما قال خلقنا لهم والمخلوق كان اشياء قال من مثل الفلك للبيان (المسئلة الثالثة) الضمير فى مثله على قول الاكثرين عائد الى الفلك فيكون هذا كقوله تعالى وآخر من شكله أزواج وعلى هذا فالاظهر أن يكون المراد الفلك الآخر الموجود فى زمانهم ويؤيد هذا قوله تعالى قال وان نشأ نغرقهم ولوكان المراد الابل على ماقاله بعض المفسرين لكان قوله وخلقنا لهم من مثله مايركبون فاصلا بين متصلين ويحتمل أن يقال الضمير عائد الى معلوم غير مذكور تقديره أن يقال وخلقنا لهم من مثل ماذكرنا من المخلوقات فى قوله خلق الازواج كلها مما تنبت الارض وهذا كما قالوا فى قوله تعالى ليأكلوا من ثمره ان الهاء عائد الى ماذكرنا أى من ثمر ماذكرنا (وعلى هذا فقوله خلقنا لهم فيه لطيفة) وهى ان مامن

وقوعه وقيل فلا استغاثة لهم من قولهم أتاهم الصريخ (ولاهم ينقذون) أى ينجون منه بعد وقوعه وقوله تعالى (الارحمة منا ومتاعا) استثناء مفرغ من أعم العلل الشاملة للباعث ﴿ ٩٤ ﴾ المتقدم والغاية المتأخرة أى لايغاثون ولاينقذون لشئ من الاشياء الالرحمة عظيمة من قبلنا داعية الى الاغاثة والانقاذ وتمتيع بالحياة مترتب عليهما ويجوز أن يراد بالرحمة مايقارن التمتع من الرحمة الدنيوية فيكون كلاهما غاية للاغاثة والانقاذ أى لنوع من الرحمة وتمتيع (الى حين) أى الى زمان قدر فيه آجالهم كما قيل

ولم أسلم لكى ابقى ولكن * سلمت من الحمام الى الحمام *

(واذا قيل لهم اتقوا) بيان لاعراضهم عن الآيات التنزيلية بعد بيان اعراضهم عن الآيات الآفاقية التى كانوا يشاهدونها أوعدم تأملهم فيها أى اذا قيل لهم بطريق الانذار بما نزل من الآيات اوبغيره اتقوا (ما بين أيديكم وما خلفكم) من الآفات والنوازل فانها محيطة بكم أوما يصيبكم من المكاره من حيث تحتسبون ومن حيث لاتحتسبون أومن الوقائع النازلة على الامم الخالية قبلكم والعذاب المعد لكم فى الآخرة أومن نوازل السماء ونوائب الارض أومن عذاب الدنيا وعذاب

الآخرة أو ما تقدم من الذنوب وما تأخر (لعلكم ترحمون) اما حال من واو اتقوا أو غاية له أى راجين أن ترحموا أو كى ترحموا فتنجوا من ذلك لما عرفتم أن مناط النجاة * ٩٥ * ليس الا رحمة الله تعالى وجواب اذا محذوف ثقة بانفهامه من قوله تعالى (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين) انفهاما بينا أما اذا كان الانذار بالآية الكريمة فبعبارة النص وأما اذا كان بغيرها فبدلالته لانهم حين أعرضوا عن آيات ربهم فلأن يعرضوا عن غيرها بطريق الاولوية كأنه قيل واذا قيل لهم اتقوا العذاب أعرضوا حسبما اعتادوه وما نافية وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددى ومن الاولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية تبعيضية واقعة مع مجرورها صفة لآية واضافة الآيات الى اسم الرب المضاف الى ضميرهم لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترؤا عليه فى حقها والمراد بها اما الآيات التنزيلية فاتيانها نزولها والمعنى ما ينزل اليهم آية من الآيات القرآنية التى من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه الموجبة للاقبال عليها والايمان بها الا كانوا عنها معرضين على وجه التكذيب

احد الا وله ركوب مركوب من الدواب وليس كل أحد يركب الفلك فقال فى الفلك حملنا ذريتهم وان كنا ما حملناهم وأما الخلق فلهم عام وما يركبون فيه وجهان (احدهما) هو الفلك الذى مثل ذلك نوح (وثانيهما) هو الابل التى هى سفن البر فان قيل اذا كان المراد سفينة نوح فما وجه مناسبة الكلام نقول ذكرهم بحال قوم نوح وان المكذبين هلكوا والمؤمنين فازوا فكذلك هم ان آمنوا يفوزوا وان كذبوا يهلكوا * ثم قال تعالى (وان نشأ نغرقهم) اشارة الى فائدتين (احداهما) ان فى حال النعمة ينبغى أن لا يأمنوا عذاب الله (وثانيتهما) هو أن ذلك جواب سؤال مقدر وهو ان الطبيعى يقول السفينة تحمل بمقتضى الطبيعة والمجوف لا يرسب فقال ليس كذلك بل لو شاء الله أغرقهم وليس ذلك بمقتضى الطبع ولو صح كلامه الفاسد لكان لقائل أن يقول ألست توافق ان من السفن ما ينقلب و ينكسر ومنها ما ينثقبه ثاقب فيرسب وكل ذلك بمشيئة الله فان شاء الله اغراقهم أغرقهم من غير شئ من هذه الاسباب كما هو مذهب أهل السنة أو بشئ من تلك الاسباب كما تسلم أنت * وقوله تعالى (فلا صريخ لهم) أى لا مغيث لهم يمنع عنهم الغرق (ولا هم ينقذون) اذا أدركهم الغرق وذلك لان الخلاص من العذاب اما أن يكون بدفع العذاب من أصله أو برفعه بعد وقوعه فقال لا صريخ لهم يدفع ولا هم ينقذون بعد الوقوع فيه وهذا مثل قوله تعالى لا تغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون فقوله لا صريخ لهم ولا هم ينقذون فيه فائدة أخرى غير الحصر وهى أنه تعالى قال لا صريخ لهم ولم يقل ولا منقذ لهم وذلك لان من لا يكون من شأنه أن ينصر لا يشرع فى النصرة مخافة أن يغلب ويذهب ماء وجهه وانما ينصر ويغيث من يكون من شأنه ان يغيث فقال لا صريخ لهم وأما من لا يكون من شأنه ان ينقذ اذا رأى من يعز عليه فى ضر يشرع فى الانقاذ وان لم يثق بنفسه فى الانقاذ ولا يغلب على ظنه وانما يبذل المجهود فقال ولا هم ينقذون ولم يقل ولا منقذ لهم ثم استثنى فقال (الا رحمة منا ومتاعا الى حين) وهو يفيد أمرين (أحدهما) انقسام الانقاذ الى قسمين الرحمة والمتاع أى فيمن علم الله منه انه يؤمن فينقذه الله رحمة وفيمن علم انه لا يؤمن فليتمتع زمانا ويزداد اثما (وثانيهما) انه بيان لكون الانقاذ غير مفيد للدوام بل الزوال فى الدنيا لابد منه فينقذه الله رحمة ويمتعه الى حين ثم يميته فالزوال لازم ان يقع * ثم قال تعالى (واذا قيل لهم اتقوا ما بين ايديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى لما عدد الآيات بقوله وآية لهم الارض وآية لهم الليل وآية لهم انا حملنا ذريتهم وكانت الآيات تفيد اليقين وتوجب القطع بما قال تعالى ولم تفدهم اليقين قال فلا أقل من ان يحترزوا عن العذاب فان من أخبر بوقوع عذاب يتقيه وان لم يقطع بصدق قول المخبر احتياطا فقال تعالى اذا ذكر لهم الدليل القاطع لا يعترفون به واذا قيل لهم اتقوا لا يتقون فهم فى غاية الجهل ونهاية الغفلة لا مثل العلماء الذين يتبعون البرهان ولا مثل العامة الذين يبنون الامر على الاحوط ويدل على ما ذكرنا

قوله تعالى لعلكم ترحمون بحرف التمني أي في ظنكم فان من يخفى عليه وجه البرهان لايترك طريقة الاحتراز والاحتياط وجواب قوله اذا قيل لهم اتقوا محذوف معناه واذا قيل لهم ذلك لايتقون أو يعرضون وانما حذف لدلالة مابعده عليه وهو قوله تعالى وما تأتيهم من آية من آيات ربهم وفي قوله تعالى مابين أيديكم وماخلفكم وجوه (أحدها) مابين أيديكم الآخرة فانهم مستقبلون لها وماخلفكم الدنيا فانهم تاركون لها (وثانيها) مابين أيديكم من أنواع العذاب مثل الغرق والحرق وغيرهما المدلول عليه بقوله تعالى وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولاهم ينقذون وماخلفكم من الموت الطالب لكم ان نجوتم من هذه الاشياء فلا نجاة لكم منه يدل عليه قوله تعالى ومتاعا الى حين (وثالثها) مابين أيديكم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم فانه حاضر عندكم وماخلفكم من أمر الحشر فانكم اذا اتقيتم تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم والتكذيب بالحشر رحمكم الله وقوله تعالى لعلكم ترحمون مع أن الرحمة واجبة فيه وجوه ذكرناها مرارا ونزيد ههنا وجها آخر وهو أنه تعالى لما قال اتقوا بمعنى أنكم ان لم تقطعوا بناء على البراهين فاتقوا احتياطا قال لعلكم ترحمون يعني أرباب اليقين يرحمون جزما وأرباب الاحتياط يرجى أن يرحموا والحق ماذكرنا من وجهين (أحدهما) اتقوا راجين الرحمة فان الله لايجب عليه شيء (وثانيهما) هو ان الاتقاء نظرا اليه أمر يفيد الظن بالرحمة فان كان يقطع به أحد لامر من خارج فذلك لايمنع الرجاء فان الملك اذا كان في قلبه أن يعطي من يخدمه أكثر من أجرته أضعافا مضاعفة لكن الخدمة لاتقتضي ذلك يصح منه أن يقول افعل كذا ولايبعد أن يصل اليك أجرتك أكثر مما تستحق * ثم قال تعالى (وماتأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين) وهذا متعلق بما تقدم من قوله تعالى ياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن وماتأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين يعني اذا جاءتهم الرسل كذبوهم فاذا أتوا بالآيات أعرضوا عنها وماالتفتوا اليها وقوله ألم يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون الى قوله لعلكم ترحمون كلام بين كلامين متصلين ويحتمل أن يقال هو متصل بماقبله من الآيتين وبيانه هو أنه تعالى لما قال واذا قيل لهم اتقوا وكان فيه تقدير أعرضوا قال ليس اعراضهم مقتصرا على ذلك بل هم عن كل آية معرضون أو يقال اذا قيل لهم اتقوا اقترحوا آيات مثل انزال الملك وغيره فقال وماتأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين وعلى هذا كانوا في المعنى يكون زائدا معناه الا يعرضون عنها أي لاتنفعهم الآيات ومن كذب بالبعض هان عليه التكذيب بالكل * وقوله تعالى (واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله) اشارة الى أنهم يخلون بجميع ماعلى المكلف وذلك لان المكلف عليه التعظيم لجانب الله والشفقة على خلق الله وهم تركوا التعظيم حيث قيل لهم اتقوا فلم يتقوا وتركوا الشفقة على خلق الله حيث قيل لهم انفقوا فلم ينفقوا (وفيه لطائف) الاولى خوطبوا بأدنى الدرجات في التعظيم والشفقة فلم يأتوا بشيء

ستهزاء واماما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية الشاملة للمعجزات وغيرها من تعاجيب المصنوعات التي من جملتها الآيات الثلاث المعدودة آنفا فالمراد باتيانها مايعم نزول الوحي وظهور تلك الامور لهم والمعنى مايظهر لهم آية من الآيات التي من جملتها ماذكر من شؤنه الشاهدة بوحدانيته تعالى وتفرده بالالوهية الا كانوا عنها معرضين تاركين للنظر الصحيح فيها المؤدي الى الايمان به تعالى وايثاره على أن يقال الا اعرضوا عنها كما وقع مثله في قوله تعالى وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر للدلالة على استمرارهم على الاعراض حسب استمرار اتيان الآيات وعن متعلقة بمعرضين قدمت عليه مراعاة للفواصل والجملة في حيز النصب على انها حال من مفعول تأتي أو من فاعله المتخصص بالوصف لاشتمالها على ضمير كل منهما والاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أي ماتأتيهم من آية من آيات ربهم في حال من أحوالهم الا حال اعراضهم عنها (واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله) أي أعطاكم بطريق التفضل والانعام من أنواع الاموال عبر عنها بذلك تحقيقا للحق وترغيبا في الانفاق

على منهاج قوله تعالى وأحسن كما أحسن الله اليك وتنبيها على عظم جناياتهم فى ترك الامتثال بالامر وكذلك من التبعيضية
أى اذا قيل لهم بطريق النصيحة انفقوا بعض ما أعطاكم الله تعالى من فضله على المحتاجين فان ذلك مما يرد البلاء ويدفع المكاره (قال الذين كفروا) بالصانع عز وجل وهم زنادقة كانوا بمكة (للذين آمنوا) تهكما بهم وبما كانوا عليه من تعليق الامور بمشيئة الله تعالى (أنطعم) حسبما تعظوننا به (من لو يشاء الله أطعمه) أى على زعمكم وعن ابن عباس رضى الله عنهما كان بمكة زنادقة اذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا لا والله أيفقره الله ونطعمه نحن وقيل قاله مشركو قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين من أموالهم التى زعموا أنهم جعلوها لله تعالى من الحرث والانعام يوهمون أنه تعالى لما لم يشأ اطعامهم وهو قادر عليه فنحن أحق بذلك وما هو الا لفرط جهالتهم فان الله تعالى يطعم عباده بأسباب من جملتها حث الاغنياء على اطعام الفقراء وتوفيقهم لذلك (ان انتم الا فى ضلال مبين) حيث تأمروننا بما يخالف مشيئة الله تعالى وقد جوز أن يكون جوابا لهم من جهته تعالى او حكاية لجواب المؤمنين لهم (و يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) أى فيما

منه وعباد الله المخلصون خوطبوا بالادنى فأتوا بالاعلى انما قلنا ذلك لانهم فى التقوى أمروا بأن يتقوا ما بين أيديهم من العذاب أو الآخرة وما خلفهم من الموت أو العذاب وهو أدنى ما يكون من الاتقاء وأما الخاص فيتقى تغيير قلب الملك عليه وان لم يعاقبه ومتقى العذاب لا يكون الا للبعيد فهم لم يتقوا معصية الله ولم يتقوا عذاب الله والمخلصون اتقوا الله واجتنبوا مخالفته سواء كان يعاقبهم عليه أو لا يعاقبهم وأما فى الشفقة فقيل لهم انفقوا مما أى بعض ما هو لله فى أيديكم فلم ينفقوا والمخلصون آثروا على أنفسهم وبذلوا كل ما فى أيديهم بل أنفسهم صرفوها الى نفع عباد الله ودفع الضرر عنهم (الثانية) كما ان فى جانب التعظيم ما كان فائدة التعظيم راجعة الا اليهم فان الله مستغن عن تعظيمهم كذلك فى جانب الشفقة ما كان فائدة الشفقة راجعة الا اليهم فان من لا يرزقه المتمول لا يموت الا بأجله ولا بد من وصول رزقه اليه لكن السعيد من قدر الله ايصال الرزق على يده الى غيره (الثالثة) قوله مما رزقكم اشارة الى أمرين (أحدهما) ان البخل به فى غاية القبح فان ابخل البخلاء من يبخل بمال الغير (وثانيهما) أنه لا ينبغى أن يمنعكم من ذلك مخافة الفقر فان الله رزقكم فاذا أنفقتم فهو يخلفه لكم ثانيا كما رزقكم أولا * وفيه مسائل أيضا (المسئلة الاولى) عند قوله تعالى واذا قيل لهم انفقوا حذف الجواب وههنا أجاب وأتى بأكثر من الجواب وذلك لانه تعالى لو قال واذا قيل لهم انفقوا قالوا انطعم من لو يشاء الله اطعمه لكان كافيا فما الفائدة فى قوله تعالى قال الذين كفروا للذين آمنوا نقول الكفار كانوا يقولون بأن الاطعام من الصفات الحميدة وكانوا يفتخرون به وانما أرادوا بذلك القول ردا على المؤمنين فقالوا نحن نطعم الضيوف معتقدين بأن افعالنا ثناء ولولا اطعامنا لما اندفع حاجة الضيف وأنتم تقولون ان الهكم يرزق من يشاء فلم تقولون لنا أنفقوا فلما كان غرضهم الرد على المؤمنين لا الامتناع من الاطعام قال تعالى عنهم قال الذين كفروا للذين آمنوا اشارة الى الرد وأما فى قولهم اتقوا ما بين أيديكم فلم يكن لهم رد على المؤمنين فأعرضوا وأعرض الله عن ذكر اعراضهم لحصول العلم به (المسئلة الثانية) ما الفائدة فى تغيير اللفظ فى جوابهم حيث لم يقولوا أننفق على من لو يشاء الله رزقه وذلك لانهم أمروا بالانفاق فى قوله واذا قيل لهم انفقوا فكان جوابهم بان يقولوا أننفق فلم قالوا أنطعم نقول فيه بيان غاية مخالفتهم وذلك لانهم اذا أمروا بالانفاق والانفاق يدخل فيه الاطعام وغيره لم يأتوا بالانفاق ولا بأقل منه وهو الاطعام وقالوا لا نطعم وهذا كما يقول القائل لغيره أعط زيدا دينارا يقول لا أعطيه درهما مع أن المطابق هو أن يقول لا أعطيه دينارا ولكن المبالغة فى هذا الوجه أتم فكذلك ههنا (المسئلة الثالثة) كان كلامهم حقا فان الله لو شاء أطعمه فلماذا ذكره فى معرض الذم نقول لان مرادهم كان الانكار لقدرة الله أو لعدم جواز الامر بالانفاق مع قدرة الله وكلاهما فاسد بين الله ذلك فى قوله مما رزقكم فانه يدل على قدرته ويصحح أمره بالاعطاء لان من كان له فى يد الغير مال وله فى خزائنه مال فهو

مخير ان أراد أعطى مما في خزائنه وان أراد أمر من عنده المال بالاعطاء ولا يجوز ان يقول من بيده ماله في خزائنك أكثر مما في يدي أعطه منه وقوله ان أنتم الا في ضلال مبين اشارة الى اعتقادهم انهم قطعوا المؤمنين بهذا الكلام وان أمرهم بالانفاق مع قولهم بقدرة الله ظاهر الفساد واعتقادهم هو الفاسد وفيه مباحث لغوية ومعنوية (أما اللغوية) فنقول ان وردت للنفي بمعنى ما وكان الاصل في ان أن تكون للشرط والاصل في ما ان تكون للنفي لكنهما اشتركا من بعض الوجوه فتقارضا واستعمل ما في الشرط واستعمل ان في النفي أما الوجه المشترك فهو ان كل واحد منهما حرف مركب من حرفين متقاربين فان الهمزة تقرب من الالف والميم من النون ولابد من أن يكون المعنى الذي يدخل عليه ما وان لا يكون ثابتا أما في ما فظاهر وأما في ان فلانك اذا قلت ان جاءني زيد أكرمه ينبغي ان لا يكون له في الحال مجيء فاستعمل ان مكان ما وقيل ان زيد قائم أي ما زيد بقائم واستعمل ما في الشرط تقول ما تصنع اصنع والذي يدل على ما ذكرنا ان ما النافية تستعمل حيث لا تستعمل ان وذلك لانك تقول ما ان جلس زيد فتجعل ان صلة ولا تقول ان جلس زيد بمعنى النفي وبمعنى الشرط تقول اما تزين فتجعل ان أصلا وما صلة فدلنا هذا على ان ان في الشرط أصل وما دخيل وما في النفي بالعكس (البحث الثاني) قد ذكرنا ان قوله ان أنتم الا يفيد ما لا يفيد قوله أنتم في ضلال لانه يوجب الحصر وانهم ليسوا في غير الضلال (البحث الثالث) وصف الضلال بالمبين قد ذكرنا معناه انه ظاهر وهو يبين نفسه انه ضلال أي في ضلال لا يخفى على أحد انه ضلال (البحث الرابع) قد ذكرنا ان قوله في ضلال يفيد كونهم مغمورين فيه غائصين وقوله في مواضع على بينة وعلى هدى اشارة الى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه (وأما المعنوية) فهي انهم انما وصفوا الذين آمنوا بكونهم في ضلال مبين لكونهم ظانين ان المؤمن كلامه متناقض ومن تناقض كلامه يكون في غاية الضلال انما قلنا ذلك لانهم قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه اشارة الى ان الله ان شاء أن يطعمهم كان يطعمهم فلا نقدر على اطعامهم لانه يكون تحصيلا للحاصل وان لم يشأ اطعامهم لا يقدر أحد على اطعامهم لامتناع وقوع ما لم يشأ الله فلا قدرة لنا على الاطعام فكيف تأمروننا بالاطعام (ووجه آخر) وهو انهم قالوا أراد الله تجويعهم فلو أطعمناهم يكون ذلك سعيا في ابطال فعل الله وانه لا يجوز وأنتم تقولون اطعموهم فهو ضلال ولم يكن في الضلال الا هم حيث نظروا الى المراد ولم ينظروا الى الطلب والامر وذلك لان العبد اذا أمره السيد بأمر لا ينبغي ان يكشف سبب الامر والاطلاع على المقصود الذي أمر به لاجله مثاله الملك اذا أراد الركوب للهجوم على عدوه بحيث لا يطلع عليه أحد وقال لعبده أحضر المركوب فلو تطلع واستكشف المقصود الذي لاجله الركوب لنسب الى أنه يريد أن يطلع عدوه على الحذر منه وكشف سره فالادب في الطاعة وهو اتباع الامر لا تتبع المراد فالله تعالى اذ قال انفقوا مما رزقكم لا يجوز ان يقولوا لم لم يطعمهم

تعدوننا به من قيام الساعة مخاطبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لما أنهم أيضا كانوا يتلون عليهم آيات الوعيد بقيامها ومعنى القرب في هذا اما بطريق الاستهزاء واما باعتبار قرب العهد بالوعد (ما ينظرون) جواب من جهته تعالى أي ما ينتظرون (الا صيحة واحدة) هي النفخة الاولى (تأخذهم) مفاجأة (وهم يخصمون) أي يتخاصمون في متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شيء من مخايلها كقوله تعالى فأخذتهم الصاعقة بغتة وهم لا يشعرون فلا يغتروا بعدم ظهور علائمها ولا يزعموا أنها لا تأتيهم وأصل يخصمون يختصمون فسكنت التاء وأدغمت في الصاد ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين وقرئ بكسر الياء للاتباع وبفتح الخاء على القاء حركة التاء عليه وقرئ على الاختلاس وبالاسكان على تجويز الجمع بين الساكنين اذا كان الثاني مدغما وان لم يكن الاول حرف مد وقرئ يخصمون من خصمه اذا جادله (فلا يستطيعون توصية) في شيء من أمورهم ان كانوا فيما بين أهليهم (ولا الى أهلهم يرجعون) ان كانوا في خارج أبوابهم بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا (ونفخ في الصور) هي النفخة الثانية بينها

وبين الاولى أربعون سنة أى ينفخ فيه وصيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع (فاذاهم من الاجداث) أى القبور جمع جدث وقرئ بالفاء (الى ربهم) ﴿ ٩٩ ﴾ مالك أمرهم على الاطلاق (ينسلون) يسرعون بطريق الاجبار دون الاختيار لقوله تعالى لدينا محضرون وقرئ بضم السين (قالوا) أى فى ابتداء بعثهم من القبور (ياويلنا) احضر فهذا أوانك وقرئ ياويلتنا (من بعثنا من مرقدنا) وقرئ من أهبنا من هب من نومه اذا انتبه وقرئ من هبنا بمعنى أهبنا وقيل أصله هب بنا فحذف الجار واوصل الفعل الى الضمير قيل فيه ترشيح ورمز واشعار بأنهم لاختلاط عقولهم يظنون أنهم كانوا نياما وعن مجاهد ان للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم فاذا صيح بأهل القبور يقولون ذلك وعن ابن عباس وأبى بن كعب وقتادة رحمهم الله تعالى ان الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون فاذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا من أهوال القيامة ماشاهدوا دعوا بالويل وقالوا ذلك وقيل اذا عاينوا جهنم ومافيها من أنواع العذاب يصير عذاب القبر فى جنبها مثل النوم فيقولون ذلك وقرئ من بعثنا ومن هبنا بمن الجارة

الله مما فى خزائنه *ثم قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين) وهو اشارة الى ما اعتقدوه وهو ان التقوى المأمور بها فى قوله واذا قيل لهم اتقوا والانفاق المذكور فى قوله تعالى واذا قيل لهم انفقوا لا فائدة فيه لان الوعد لا حقيقة له وقوله متى هذا الوعد أى متى يقع الموعود به وفيه مسائل (المسئلة الاولى) وهى ان ان للشرط وهى تستدعى جزاء ومتى استفهام لا يصلح جزاء فما الجواب نقول هى فى الصورة استفهام وفى المعنى انكار انهم قالوا ان كنتم صادقين فى وقوع الحشر فقولوا متى يكون (المسئلة الثانية) الخطاب مع من فى قولهم ان كنتم نقول الظاهر أنه مع الانبياء لانهم لما أنكروا الرسالة قالوا ان كنتم أيها المدعون الرسالة صادقين فاخبرونا متى يكون (المسئلة الثالثة) ليس فى هذا الموضع وعد فالاشارة بقوله هذا الوعد الى أى وعد نقول هو ما فى قوله تعالى واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم من قيام الساعة أو نقول هو معلوم وان لم يكن مذكورا لكون الانبياء مقيمين على تذكيرهم بالساعة والحساب والثواب والعقاب *ثم قال تعالى (ماينظرون الا صيحة واحدة) أى لا ينتظرون الا الصيحة المعلومة والتنكير للتكثير فان قيل هم ما كانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها فنقول الانتظار فعلى لانهم كانوا يفعلون ما يستحق به فاعله البوار وتعجيل العذاب وتقريب الساعة اولا حكم الله وقدرته وعلمه فانهم لا يقولون أو نقول لما لم يكن قوله متى استفهاما حقيقيا قال ينتظرون انتظارا غير حقيقى لان القائل متى يفهم منه الانتظار نظرا الى قوله *وقد ذكروا ههنا فى الصيحة أمورا تدل على هولها وعظمها (احدها) التنكير يقال لفلان مال أى كثير وله قلب أى جرئ (وثانيها) واحدة أى لا يحتاج معها الى ثانية (وثالثها) تأخذهم أى تعمهم بالاخذ وتصل الى من فى مشارق الارض ومغاربها ولا شك ان مثلها لا يكون الا عظيما *وقوله (تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون) مما يعظم به الامر لان الصيحة المعتادة اذا وردت على غافل يرجف فان المقبل على مهم اذا صاح به صائح يرجف فؤاده بخلاف المنتظر للصيحة فاذا كان حال الصيحة ما ذكرناه من الشدة والقوة وترد على الغافل الذى هو مع خصمه مشغول يكون الارتجاف أتم والايخاف أعظم ويحتمل أن يقال يخصمون فى البعث ويقولون لا يكون ذلك أصلا فيكونون غافلين عنه بخلاف من يعتقد انه يكون فيتهيأ له وينتظر وقوعه فانه لا يرتجف وهذا هو المراد بقوله تعالى فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء ممن اعتقد وقوعها فاستعد لها وقد مثلنا ذلك فيمن شام برقا وعلم ان سيكون رعد ومن لم يشمه ولم يعلم ثم رعد الرعد ترى الشائم العالم ثابتا والغافل الذاهل مغشيا عليه ثم بين شدة الاخذ وهى بحيث لا تمهلهم الى أن يوصوا *وفيه أمور مبينة للشدة (احدها) عدم الاستطاعة فان قول القائل فلان فى هذه الحال لا يوصى دون قوله لا يستطيع التوصية لان من لا يوصى قد يستطيعها (الثانى) التوصية وهى بالقول والقول يوجد اسرع مما يوجد الفعل فقال لا يستطيعون كلمة فكيف فعلا يحتاج الى زمان

الجنس فينتظم مراقد الكل (هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون) جملة من مبتدا وخبر وما موصولة محذوفة العائد أو مصدرية وهو جواب من قبل الملائكة أو المؤمنون عدل به عن سنن ﴿ ١٠٠ ﴾ سؤالهم تذكيرا لكفرهم وتقريعا لهم عليه وتنبيها على أن الذى يهمهم هو السؤال عن نفس البعث ماذا هو دون الباعث كأنهم قالوا بعثكم الرحمن الذى وعدكم ذلك فى كتبه وأرسل اليكم الرسل فصدقوكم فيه وليس الامر كما تتوهمونه حتى تسألوا عن الباعث وقيل هو من كلام الكافرين حيث يتذكرون ما سمعوه من الرسل عليهم الصلاة والسلام فيجيبون به أنفسهم أو بعضهم بعضا وقيل هذا صفة لمرقدنا وماوعد الخ خبر مبتدا محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى ماوعد الرحمن وصدق المرسلون حق (ان كانت) أى ما كانت النفخة التى حكيت آنفا (الا صيحة واحدة) حصلت من نفخ اسرافيل عليه السلام فى الصور (فاذا هم جميع) أى مجموع (لدينا محضرون) من غير لبث ما طرفة عين وفيه من تهوين أمر البعث والحشر والايذان باستغنائهما عن الاسباب مالا يخفى (فاليوم لاتظلم نفس) من النفوس برة كانت أو فاجرة [illegible]

طويل من أداء الواجبات ورد المظالم (الثالث) اختيار التوصية من بين سائر الكلمات يدل على أنه لاقدرة له على أهم الكلمات فان وقت الموت الحاجة الى التوصية أمس (الرابع) التنكير فى التوصية للتعميم أى لايقدر على توصية ما ولو كانت بكلمة يسيرة ولان التوصية قد تحصل بالاشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها (الخامس) قوله ولا الى أهلهم يرجعون بيان لشدة الحاجة الى التوصية لان من يرجو الوصول الى أهله قد يمسك عن الوصية لعدم الحاجة اليها وأما من يقطع بانه لاوصول له الى أهله فلا بد له من التوصية فاذا لم يستطع مع الحاجة دل على غاية الشدة ❊ وفى قوله ولا الى أهلهم يرجعون وجهان (احدهما) ماذكرنا انهم يقطعون بانهم لايمهلون الى أن يجتمعوا بأهاليهم وذلك يوجب الحاجة الى التوصية (وثانيهما) انهم الى أهلهم لايرجعون يعنى يموتون ولا رجوع لهم الى الدنيا ومن يسافر سفرا ويعلم أنه لارجوع له من ذلك السفر ولا اجتماع له بأهله مرة أخرى يأتى بالوصية ❊ ثم بين مابعده الصيحة الاولى فقال (ونفخ فى الصور فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون) أى نفخ فيه أخرى كما قال تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال تعالى فى موضع آخر ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون وقال ههنا فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون والقيام غير النسلان وقوله فى الموضعين اذا هم يقتضى أن يكونا معا نقول (الجواب) عنه من وجهين (أحدهما) أن القيام لاينافى المشى السريع لان الماشى قائم ولا ينافى النظر (وثانيهما) أن لسرعة الامور كان الكل فى زمان واحد كقول القائل ❊ مكر مفر مقبل مدبر معا ❊ (المسئلة الثانية) كيف صارت النفختان مؤثرتين فى أمرين متضادين الاحياء والاماتة نقول لامؤثر غير الله والنفخ علامة ثم ان الصوت الهائل يزلزل الاجسام فعند الحياة كانت اجزاء الحى مجتمعة فزلزلها فحصل فيها تفريق وحالة الموت كانت الاجزاء متفرقة فزلزلها فحصل فيها اجتماع فالحاصل ان النفختين يؤثران تزلزلا وانتقالا للاجرام فعند الاجتماع تتفرق وعند الافتراق تجتمع (المسئلة الثالثة) ما التحقيق فى اذا التى للمفاجأة نقول هى اذا التى للظرف معناه نفخ فى الصور فاذا نفخ فيه هم ينسلون لكن الشئ قد يكون ظرفا للشئ معلوما كونه ظرفا فعند الكلام يعلم كونه ظرفا وعند المشاهدة لايتجدد علم كقول القائل اذا طلعت الشمس أضاء الجو وغير ذلك فاذا رأى اضاءة الجو عند الطلوع لم يتجدد علم زائد وأما اذا قلت خرجت فاذا أسد بالباب كان ذلك الوقت ظرف كون الاسد بالباب لكنه لم يكن معلوما فاذا رآه علمه فحصل العلم بكونه ظرفا له مفاجاة عند الاحساس فقيل اذا للمفاجاة (المسئلة الرابعة) أين يكون فى ذلك الوقت اجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال نقول يجمع الله اجزاء كل واحد فى الموضع الذى قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه (المسئلة الخامسة) الموضع موضع ذكر الهيبة وتقدم ذكر الكافر ولفظ الرب يدل على الرحمة فلو قال بدل الرب المضاف اليهم لفظا دالا على الهيبة هل يكون أليق أم لا (قلنا) هذا

ماكنتم تعملونه فى الدنيا على الأستمرار من الكفر والمعاصى على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه للتنبيه على قوة التلازم والارتباط بينهما كأنهما شئ واحد أو الا بما كنتم تعملونه أى بمقابلته أو بسببه وتعميم

اللفظ أحسن مايكون لان من أساء واضطر الى التوجه الى من أحسن اليه يكون ذلك أشد ألما وأكثر ندما من غيره (المسئلة السادسة) المسئ اذا توجه الى المحسن يقدم رجلا ويؤخر أخرى والنسلان هو سرعة المشى فكيف يوجد منهم ذلك نقول ينسلون من غير اختيارهم وقد ذكرنا فى تفسير قوله فاذاهم ينظرون انه أراد أن يبين كمال قدرته ونفوذ ارادته حيث ينفخ فى الصور فيكون فى وقته جمع وتركيب واحياء وقيام وعدو فى زمان واحد فقوله فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون يعنى فى زمان واحد ينتهون الى هذه الدرجة وهى النسلان الذى لايكون الابعد مراتب ✲ ثم قال تعالى (قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون) يعنى لما بعثوا قالوا ذلك لان قوله ونفخ فى الصور يدل على انهم بعثوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لو قال قائل لو قال الله تعالى فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون يقولون ياويلنا كان أليق نقول معاذ الله وذلك لان قوله فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون على ماذكرنا اشارة الى أنه تعالى فى أسرع زمان يجمع اجزاءهم ويؤلفها ويحييها ويحركها بحيث يقع نسلانهم فى وقت النفخ مع ان ذلك لابدله من الجمع والتأليف فلو قال يقولون لكان ذلك مثل الحال لينسلون أى ينسلون قائلين ياويلنا وليس كذلك فان قولهم ياويلنا قبل أن ينسلوا وانما ذكر النسلان لما ذكرنا من الفوائد (المسئلة الثانية) لو قال قائل قد عرفنا معنى النداء فى مثل ياحسرة وياحسرتا وياويلنا ولكن ما الفرق بين قولهم وقول الله حيث قال ياحسرة على العباد من غير اضافة وقالوا ياحسرتا وياحسرتنا وياويلنا نقول حيث كان القائل هو المكلف لم تكن لاحد علم الا بحاله أو بحال من قرب منه فكان كل واحد مشغولا بنفسه فكان كل واحد يقول ياحسرتنا وياويلنا فقوله قالوا ياويلنا أى كل واحد قال ياويلى وأما حيث قال الله قال على سبيل العموم لشمول علمه بحالهم (المسئلة الثالثة) ماوجه تعلق من بعثنا من مرقدنا بقولهم ياويلنا نقول لما بعثوا تذكروا ماكانوا يسمعون من الرسل فقالوا ياويلنا من بعثنا أبعثنا الله البعث الموعود به أم كنا نياما فنبهنا وهذا كما اذا كان انسان موعودا بان يأتيه عدو لايطيقه ثم يرى رجلا هائلا يقبل عليه فيرتجف فى نفسه ويقول هذا ذلك أم لا ويدل على ماذكرنا قولهم من مرقدنا حيث جعلوا القبور موضع الرقاد اشارة الى انهم شكوا فى انهم كانوا نياما فنبهوا أو كانوا موتى وكان الغالب على ظنهم هو البعث فجمعوا بين الامرين فقالوا من بعثنا اشارة الى ظنهم أنه بعثهم الموعود به وقالوا من مرقدنا اشارة الى توهمهم احتمال الانتباه (المسئلة الرابعة) هذا اشارة الى ماذا نقول فيه وجهان (أحدهما) انه اشارة الى المرقد كأنهم قالوا من بعثنا من مرقدنا هذا فيكون صفة للمرقد يقال كلامى هذا صدق (وثانيهما) هذا اشارة الى البعث أى هذا البعث ماوعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون (المسئلة الخامسة) اذا كان هذا صفة للمرقد فكيف يصح قوله تعالى ماوعد الرحمن وصدق المرسلون نقول يكون ماوعد الرحمن مبتدأ خبره محذوف

الخطاب للمؤمنين يرده أنه تعالى يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافا مضاعفة وهذه حكاية لما سيقال لهم حين يرون العذاب المعد لهم تحقيقا للحق وتقريعا لهم وقوله تعالى (ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون) من جملة ماسيقال يومئذ زيادة لحسرتهم وندامتهم فان الاخبار بحسن حال أعدائهم اثر بيان سوء حالهم مما يزيدهم مساءة وفى هذه الحكاية مزجرة لهؤلاء الكفرة عماهم عليه ومدعاة الى الاقتداء بسيرة المؤمنين والشغل هو الشأن الذى يصد المرء ويشغله عماسواه من شؤنه لكونه أهم عنده من الكل اما لايجابه كمال المسرة والبهجة أو كمال المساءة والغم والمراد ههنا هو الاول وما فيه من التنكير والابهام للايذان بارتفاعه عن رتبة البيان والمراد به ماهم فيه من فنون الملاذ التى تلهيهم عما عداهم بالكلية واما ان المراد به افتضاض الابكار أو السماع وضرب الاوتار أو التزاور

أوضيافة الله تعالى أوشغلهم عما فيه أهل النار على الاطلاق أوشغلهم عن أهاليهم فى النار لايهمهم أمرهم ولايبالون
بهم كيلايدخل عليهم تنغيص فى نعيمهم كما روى كل واحد منها عن واحد من أكابر السلف فليس مرادهم
بذلك حصر شغلهم فيماذكروه فقط بل بيان أنه من جملة أشغالهم وتخصيص كل منهم كلا من تلك الامور بالذكر محمول على اقتضاء مقام البيان اياه وهو مع جاره خبرلان وفاكهون خبر آخرلها أى انهم مستقرون فى شغل وأى شغل فى شغل عظيم الشان متنعمون بنعيم مقيم فائزون بملك كبير والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها بتنزيل المترقب المتوقع منزلة الواقع للايذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها ولزيادة مساءة المخاطبين بذلك وقرئ فى شغل بسكون الغين وفى شغل بفتحتين وبفتحة وسكون والكل لغات وقرئ فكهون للمبالغة وفكهون بضم الكاف وهى لغة كنطس وفاكهين وفكهين على الحال من المستكن فى الظرف وقوله تعالى (هم وأزواجهم فى ظلال على الارائك متكئون) استئناف مسوق لبيان كيفية شغلهم وتفكههم وتكميلهما بما يزيدهم بهجة وسرورا من شركة

تقديره ماوعد الرحمن حق والمرسلون صدقوا أو يقال ماوعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون حق والاول أظهر لقلة الاضمار أو يقال ماوعد الرحمن خبر مبتدا محذوف تقديره هو ماوعد الرحمن من البعث ليس تنبيها من النوم وصدق المرسلون فيما أخبروكم به (المسئلة السادسة) ان قلنا هذا اشارة الى المرقد أو الى البعث فجواب الاستفهامية ولهم من بعثنا أين يكون نقول لما كان غرضهم من قولهم من بعثنا حصول العلم بأنه بعث أو تنبيه حصل الجواب بقوله هذا بعث وعد الرحمن به ليس تنبيها كما أن الخائف اذا قال لغيره ماذا تقول أيقتلنى فلان فله أن يقول لاتخف و يسكت لعلمه ان غرضه ازالة الرعب عنه و به يحصل الجواب ❊ ثم قال تعالى (ان كانت الا صيحة واحدة فاذاهم جميع لدينا محضرون) أى ماكانت النفخة الا صيحة واحدة يدل على النفخة قوله تعالى ونفخ فى الصور ويحتمل أن يقال ان كانت الواقعة وقرئت الصيحة مرفوعة على ان كان هى التامة بمعنى ماوقعت الا صيحة وقال الزمخشرى لو كان كذلك لكان الاحسن أن يقال ان كان لان المعنى حينئذ ماوقع شئ الا صيحة لكن التأنيث جاز احالة على الظاهر و يمكن أن يقول الذى قرأ بالرفع ان قوله اذا وقعت الواقعة تأنيث تهويل ومبالغة يدل عليه قوله ليس لوقعتها كاذبة فانها للمبالغة فكذلك ههنا قال ان كانت الا صيحة مؤنثة تأنيث تهويل ولهذا جاءت اسماء يوم الحشر كلها مؤنثة كالقيامة والقارعة والحاقة والطامة والصاخة الى غيرها والزمخشرى يقول كاذبة بمعنى ليس لوقعتها نفس كاذبة وتأنيث اسماء الحشر لكون الحشر مسمى بالقيامة وقوله محضرون دل على أن كونهم ينسلون اجبارى لا اختيارى * ثم بين مايكون فى ذلك اليوم بقوله تعالى (فاليوم لاتظلم نفس شيأ ولاتجزون الا ماكنتم تعملون) فقوله لاتظلم نفس ليأمن المؤمن ولاتجزون الا ماكنتم تعملون ليبأس المجرم الكافر وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ما الفائدة فى الخطاب عند الاشارة الى بأس المجرم بقوله ولاتجزون وترك الخطاب فى الاشارة الى أمان المؤمن من العذاب بقوله لاتظلم ولم يقل ولاتظلمون أيها المؤمنون نقول لان قوله لاتظلم نفس شيأ يفيد العموم وهو كذلك فانها لاتظلم أبدا ولاتجزون مختص بالكافر فان الله يجزى المؤمن وان لم يفعل فان لله فضلا مختصا بالمؤمن وعدلا عاما وفيه بشارة (المسئلة الثانية) ما المقتضى لذكر فاء التعقيب نقول لما قال محضرون مجموعون والجمع للفصل والحساب فكأنه تعالى قال اذا جمعوا لم يجمعوا الا للفصل بالعدل فلا ظلم عند الجمع للعدل فصار عدم الظلم مترتبا على الاحضار للعدل ولهذا يقول القائل للوالى أو للقاضى جاءت للعدل فلا تظلم أى ذلك يقتضى هذا و يستعقبه (المسئلة الثالثة) لايجزون عين ماكانوا يعملون بل يجزون بما كانوا أو على ماكانوا وقوله ولاتجزون الا ماكنتم تعملون يدل على أن الجزاء بعين العمل لايقال جزى يتعدى بنفسه وبالباء يقال جزيته خيرا وجزيته بخير لان ذلك ليس من هذا لانك اذا قلت جزيته بخير لايكون الخير مفعولك بل تكون الباء للمقابلة والسببية كأنك تقول جزيته جزاء بسبب

أزواجهم لهم فيماهم فيه من الشغل والفكاهة على أن هم مبتدأ وأزواجهم عطف عليه ومتكؤن خبر والجاران صلتان له قدمتا عليه لمراعاة الفواصل أوهو والجاران بما تعلقا به من الاستقرار أخبار مترتبة وقيل الخبر هو الظرف الاول والثانى مستأنف على أنه متعلق بمتكؤن وهو خبر لمبتدأ محذوف وقيل على أنه خبر مقدم ومتكؤن مبتدأ مؤخر وقرئ متكين بلا همز نصبا على الحال من المستكن فى الظرفين أو أحدهما وقيل هم تأكيد للمستكن فى خبر ان ومتكؤن خبر آخر لها وعلى الارائك متعلق به وكذا فى ظلال أوهذا بمضمر هو حال من المعطوفين و الظلال المعطوفين و الظلال جمع ظل كشعاب جمع شعب أو جمع ظلة كقباب جمع قبة ويؤيده قراءة فى ظلل والارائك جمع أريكة وهى السرير المزين بالثياب والستور قال ثعلب لا تكون أريكة حتى تكون عليها حجلة وقوله تعالى (لهم فيها فاكهة) الخ بيان لما يتمتعون به فى الجنة من المآكل والمشارب ويتلذذون به من الملاذ الجسمانية والروحانية بعد بيان مالهم فيها من مجالس الانس ومحافل القدس تكميلا لبيان كيفية ماهم فيه من الشغل والبهجة أى لهم فيها فاكهة

مافعل فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن يكون ذلك اشارة على وجه المبالغة الى عدم الزيادة وذلك لان الشئ لا يزيد على عينه فنقول قوله تعالى يجزون بما كانوا يعملون فى المساواة كأنه عين ما عملوا يقال فلان يجاوبنى حرفا بحرف أى لا يترك شيئا وهذا يوجب اليأس العظيم (الثانى) هو ان ما غير راجع الى الخصوص وانما هى للجنس تقديره ولا تجزون الا جنس العمل أى ان كان حسنة فحسنة وان كانت سيئة فسيئة فتجزون ما تعملون من السيئة والحسنة وهذا كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها * ثم بين حال المحسن وقال (ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال على الارائك متكؤن لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون) وقوله فى شغل يحتمل وجوها (أحدها) فى شغل عن هول اليوم بأخذ ما آتاهم الله من الثواب فما عندهم خبر من عذاب ولا حساب وقوله فاكهون يكون متمما لبيان سلامتهم فان الله لو قال فى شغل جاز أن يقال هم فى شغل أعظم من التفكر فى اليوم وأهواله فان من يصيبه فتنة عظيمة ثم يعرض عليه أمر من أموره ويخبر بخسران وقع فى ماله يقول أنا مشغول عن هذا بأهم منه فقال فاكهون أى شغلوا عنه باللذة والسرور لا بالويل والثبور (وثانيها) ان يكون ذلك بيانا لحالهم ولا يريد انهم شغلوا عن شئ بل يكون معناه هم فى عمل ثم بين عملهم بانه ليس بشاق بل هو ملذ محبوب (وثالثها) فى شغل عما توقعوه فانهم تصوروا فى الدنيا أمورا وقالوا نحن اذا دخلنا الجنة لانطلب الا كذا وكذا فرأوا ما لم يخطر ببالهم فاشتغلوا به وفيه وجوه غير هذه ضعيفة (أحدها) قيل افتضاض الابكار وهذا ماذكرناه فى الوجه الثالث ان الانسان قد يترجح فى نظره الآن مداعبة الكواعب فيقول فى الجنة التذ بها ثم ان الله ربما يؤتيه ما يشغله عنها (وثانيها) قيل فى ضرب الاوتار وهو من قبيل ماذكرناه توهم (وثالثها) فى التزاور (ورابعها) فى ضيافة الله وهو قريب مما قلنا لان ضيافة الله تكون بالذ ما يمكن وحينئذ تشغله تلك عما توهمه فى دنياه وقوله فاكهون خبر ان وفى شغل بيان ما فكاهتهم فيه يقال زيد على عمله مقبل وفى بيته جالس فلا يكون الجار والمجرور خبرا ولو نصبت جالسا لكان الجار والمجرور خبرا وكذلك لو قال فى شغل فاكهين لكان معناه أصحاب الجنة مشغولون فاكهين على الحال وقرئ بالنصب والفاكهة الملتذ المتنعم به ومنه الفاكهة لانها لا تكون فى السعة الا للذة فلا تؤكل لدفع ألم الجوع وفيه معنى لطيف وهو انه اشار بقوله فى شغل عن عدمهم الالم فلا ألم عندهم ثم بين بقوله فاكهون عن وجدانهم اللذة وعادم الالم قد لا يكون واجد اللذة فبين انهم على أتم حال ثم بين الكمال بقوله هم وأزواجهم وذلك لان من يكون فى لذة قد تتنغص عليه بسبب تفكره فى حال من يهمه أمره فقال هم وأزواجهم أيضا فلا يبقى لهم تعلق قلب وأما من فى النار من أقاربهم وأخوانهم فيكونون هم عنهم فى شغل ولا يكون منهم عندهم ألم ولا يشتهون حضورهم والازواج يحتمل وجهين (أحدهما) أشكالهم فى الاحسان وأمثالهم فى الايمان كما قال تعالى من شكله أزواج (وثانيهما)

كثيرة من كل نوع من أنواع الفواكه ومافى قوله تعالى (ولهم مايدعون) موصولة أوموصوفة عبربها عن مدعو
عظيم الشان معين أومبهم أيذانا بأنه الحقيق بالدعاء دون ماعداه ثم صرح به روما لزيادة التقرير
بالتحقيق بعد التشويق
كماستعرفه أوهى باقية
على عمومها قصد بها
التعميم بعد تخصيص
بعض المواد المعتاد بالذكر
وأياما كان فهو مبتدأ
ولهم خبره والجملة معطوفة
على الجملة السابقة وعدم
الاكتفاء بعطف ما
يدعون على فاكهة لئلا
يتوهم كون ماعبارة عن
توابع الفاكهة وتماتها
والمعنى ولهم مايدعون
به لانفسهم من مدعو
عظيم الشان أوكل
مايدعون به كائناما كان
من أسباب البهجة
وموجبات السرور
وأياما كان ففيه دلالة
على أنهم فى أقصى غاية
البهجة والغبطة ويدعون
يفتعلون من الدعاء كما
أشير اليه مثل اشتوى
واجتمل اذاشوى وجمل
لنفسه وقيل بمعنى
يتداعون كالارتماء
بمعنى الترامى وقيل بمعنى
يتمنون من قولهم ادع
على ماشئت بمعنى تمنه
على وقال الزجاج هو
من الدعاء أى مايدعو به
أهل الجنة يأتيهم فيكون
الافتعال بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحلة ويعضده القراءة بالتخفيف كماذكره الكواشى ﴿وان﴾

الازواج هم المفهومون من زوج المرأة وزوجة الرجل كما فى قوله تعالى الاعلى أزواجهم أوماملكت أيمانهم وقوله تعالى ويذرون أزواجا فان المراد ليس هو الاشكال قوله فى ظلال جمع ظل وظلل جمع ظلة والمراد به الوقاية عن مكان الالم فان الجالس تحت كن لايخشى المطر ولاحر الشمس فيكون به مستعدا لدفع الالم فكذلك لهم من ظل الله مايقيهم الاسواء كما قال تعالى لايمسنا فيها نصب ولايمسنا فيها لغوب وقال لايرون فيها شمسا ولازمهريرا اشارة الى عدم الآلام (وفيه لطيفة) أيضا وهى ان حال المكلف اما ان يكون اختلالها بسبب مافيه من الشغل وان كان فى مكان عال كالقاعد فى حر الشمس فى البستان المتنزه أو يكون بسبب المكان وان كان الشغل مطلوبا كملاعبة الكواعب فى المكان المكشوف واما ان يكون بسبب المأكل كالتفرج فى البستان اذا أعوزه الطعام واما بسبب فقد الحبيب والى هذا يشير أهل القلب فى شرائط السماع بقولهم الزمان والمكان والاخوان فقال تعالى فى شغل فاكهون اشارة الى أنهم ليسوا فى تعب وقال هم وأزواجهم اشارة الى عدم الوحدة الموحشة وقال فى ظلال على الارائك متكؤن اشارة الى المكان وقال لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون اشارة الى دفع جميع حوائجهم وقوله متكئن اشارة الى أدل وضع على القوة والفراغة فان القائم قد يقوم لشغل والقاعد قد يقعد لهم وأما المتكئ فلايتكئ الاعند الفراغ والقدرة لان المريض لايقدر على الاتكاء وانما يكون مضطجعا أومستلقيا والارائك جمع أريكة وهى السرير الذى عليه الفرش وهو تحت الحجلات فيكون مرئيا هو ومافوقه وقوله لهم فيها فاكهة اشارة الى أن لاجوع هناك وليس الاكل لدفع ألم الجوع وانما مأكولهم فاكهة ولو كان لحما طريا لايقال قوله تعالى ولحم طير ممايشتهون يدل على التغاير وصدق الشهوة وهو الجوع لانا نقول قوله ممايشتهون يؤكد معنى عدم الالم لان أكل الشئ قد يكون للتداوى من غير شهوة فقال ممايشتهون لان لحم الطير فى الدنيا يؤكل فى حالتين (احداهما) حالة المتنعم (والثانية) حالة ضعف المعدة وحينئذ لايأكل لحم طير يشتهيه وانما يأكل مايوافقه ويأمره به الطبيب وأما انه يدل على التغاير فنقول مسلم ذلك لان الخاص يخالف العام على ان ذلك لايقدح فى غرضنا لانا نقول انما اختار من أنواع المأكول الفاكهة فى هذا الموضع لانها أدل على التنعم والتلذذ وعدم الجوع والتنكير لبيان الكمال وقد ذكرناه مرارا وقوله لهم فيها فاكهة ولم يقل يأكلون اشارة الى كون زمام الاختيار بيدهم وكونهم مالكين وقادرين وقوله ولهم مايدعون فيه وجوه (أحدها) لهم فيها مايدعون لانفسهم أى دعاؤهم مستجاب وحينئذ يكون هذا افتعالا بمعنى الفعل كالاحتمال بمعنى الحمل والارتحال بمعنى الرحيل وعلى هذا فليس معناه انهم يدعون لانفسهم دعاء فيستجاب دعاؤهم بعد الطلب بل معناه ولهم مايدعون لانفسهم أى ذلك لهم فلا حاجة لهم الى الدعاء والطلب كما ان الملك اذا طلب منه مملوكه شيئا يقول لك ذلك فيفهم منه تارة ان طلبك مجاب

وأن هذا أمر هين بالنعطى ماطلبت ويفهم تارة منه الرد وبيان أن ذلك حاصل فلم تطلبه فقال تعالى ولهم مايدعون ويطلبون فلا طلب لهم وتقريره هو ان يكون مايدعون بمعنى مايصح أن يطلب ويدعى بمعنى كل مايصح أن يطلب فهو حاصل لهم قبل الطلب أو نقول المراد الطلب والاجابة وذلك لان الطلب من الله أيضا فيه لذة فلو قطع الله الاسباب بينهم وبينه لما كان يطيب لهم فابقى اشياء يعطيهم اياها عند الطلب ليكون لهم عند الطلب لذة وعند العطاء فان كون المملوك بحيث يتمكن من أن يخاطب الملك فى حوائجه منصب عظيم والملك الجبار قد يدفع حوائج المماليك بأسرها قصدا منه لئلا يخاطب (الثانى) مايدعون مايتداعون وحينئذ يكون افتعالا بمعنى التفاعل كالاقتتال بمعنى التقاتل ومعناه ماذكرناه ان كل مايصح ان يدعو احد صاحبه اليه أو يطلبه أحد من صاحبه فهو حاصل لهم (الثالث) مايتمنونه (الرابع) بمعنى الدعوى ومعناه حينئذ انهم كانوا يدعون فى الدنيا أن الههم الله وهو مولاهم وان الكافرين لا مولى لهم فقال لهم فى الجنة مايدعون به فى الدنيا فتكون الحكاية محكية فى الدنيا كأنه يقول فى يومنا هذا لكم أيها المؤمنون غدا ماتدعون اليوم لا يقال بان قوله ان أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال يدل على ان القول يوم القيامة لانا نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان قوله هم مبتدأ وازواجهم عطف عليهم فيحتمل أن يكون هذا الكلام فى يومنا هذا يخبرنا أن المؤمن وأزواجه فى ظلال غدا وله مايدعيه (والجواب الثانى) وهو أولى هو ان نقول معناه لهم مايدعون أى ماكانوا يدعون * لا يقال بأنه اضمار حيث لا ضرورة وانه غير جائز لانا نقول على ماذكرنا يبقى الادعاء مستعملا فى معناه المشهور لان الدعاء هو الاتيان بالدعوى وانما قلنا ان هذا أولى لان قوله سلام قولا من رب رحيم هو فى دار الآخرة وهو كالتفسير لقوله مايدعون ولان قوله مايدعون مذكور بين جمل كلها فى الآخرة فمايدعون أيضا ينبغى أن يكون فى الآخرة وفى الآخرة لا يبقى دعوى وبينة لظهور الامور والفصل بين أهل الثبور والحبور * وقوله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) هو اكمل الاشياء وهو آخرها الذى لاشئ فوقه ولنبينه فى مسائل (المسئلة الاولى) ما الرافع لقوله سلام نقول يحتمل ذلك وجوها (أحدها) هو بدل مما يدعون كأنه تعالى لما قال لهم مايدعون بينه ببدله فقال لهم سلام فيكون فى المعنى كالمبتدأ الذى خبره جار ومجرور كما يقال فى الدار رجل ولزيد مال وان كان فى النحو ليس كذلك بل هو بدل وبدل النكرة من المعرفة جائز فتكون ما بمعنى الذى معرفة وسلام نكرة ويحتمل على هذا أن يقال ما فى قوله تعالى مايدعون لا موصوفة ولا موصولة بل هى نكرة تقديره لهم شئ يدعون ثم بين بذكر البدل فقال سلام والاول هو الصحيح (وثانيها) سلام خبر ما ولهم لبيان الجهة تقديره مايدعون سالم لهم أى خالص والسلام بمعنى السالم الخالص أو السليم يقال عبد سلام أى سليم من العيوب كما يقال لزيد الشرف متوفر والجار والمجرور يكون لبيان من له ذلك والشرف

مصدر مؤكد لفعل هو صفة لسلام ومابعده من الجار متعلق بمضمر هو صفة له كأنه قيل ولهم سلام او مايدعون سلام يقال لهم قولا كائنا (من) جهة (رب رحيم) أى يسلم عليهم من جهته تعالى بواسطة الملك أو بدونها مبالغة فى تعظيمهم قال ابن عباس رضى الله عنهما والملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب العالمين وأما على التقدير الثانى فقد قيل انه خبر لما يدعون ولهم لبيان الجهة كما يقال لزيد الشرف متوفر على أن الشرف مبتدأ ومتوفر خبره والجار والمجرور لبيان من له ذلك أى مايدعون سالم لهم خالص لا شوب فيه وقولا حينئذ مصدر مؤكد لمضمون الجملة أى عدة من رب رحيم والاوجه أن ينتصب على الاختصاص وقيل هو مبتدأ محذوف الخبر أى لهم سلام أى تسليم قولا من رب رحيم أوسلامة من الآفات

هو المبتدأ ومتوفر خبره (وثالثها) قوله تعالى سلام منقطع عما تقدم وسلام مبتدأ وخبره محذوف تقديره سلام عليهم فيكون ذلك اخبارا من الله تعالى في يومنا هذا كأنه تعالى حكى لنا وقال ان أصحاب الجنة اليوم في شغل ثم لما بين كمال حالهم قال سلام عليهم وهذا كما في قوله تعالى سلام على نوح وسلام على المرسلين فيكون الله تعالى أحسن الى عباده المؤمنين كما أحسن الى عباده المرسلين وهذا وجه مبتكر جيد مايدل عليه منقول أو نقول تقديره سلام عليكم و يكون هذا نوعا من الالتفات حيث قال لهم كذا وكذا ثم قال سلام عليكم (المسئلة الثانية) قولا منصوب بماذا نقول يحتمل وجوها (أحدها) نصب على المصدر تقديره على قولنا المراد لهم سلام هو ان يقال لهم سلام يقوله الله قولا أو تقوله الملائكة قولا وعلى قولنا مايدعون سالم لهم تقديره قال الله ذلك قولا ووعدهم بأن لهم مايدعون سالم وعدا وعلى قولنا سلام عليهم تقديره اقوله قولا وقوله من رب رحيم يكون لبيان ان السلام منه أي سلام عليهم من رب رحيم أقوله قولا ويحتمل ان يقال على هذا انه تمييز لان السلام قد يكون قولا وقد يكون فعلا فان من يدخل على الملك فيطاطئ رأسه يقول سلمت على الملك وهو حينئذ كقول القائل البيع موجود حكما لاحسا وهذا ممنوع عنه قطعا لا ظنا (المسئلة الثالثة) قال في السلام من رب رحيم وقال في غيره من أنواع الاكرام نزلا من غفور رحيم فهل بينهما فرق نقول نعم أما هناك فلان النزل ما يرزق النزيل أولا وذلك وان كان يدل عليه مابعده فان النزيل اذا أكرم أولا يدل على انه مكرم واذا أخل باكرامه في الاول يدل على انه مهان دائما غير ان ذلك غير مقطوع به لجواز ان يكون الملك واسع الرزق فيرزق نزيله أولا ولا يمنع منه الطعام والشراب ويناقشه في غيره فقال غفور لما صدر من العبيد ليأمن العبد ولا يقول بأن الاطعام قد يوجد ممن يعاقب بعده والسلام يظهر مزية تعظيمه المسلم عليه لا بمغفرة فقال رب غفور لان رب الشئ مالكه الذي اذا نظر الى علو مرتبته لا يرجى منه الالتفات اليه بالتعظيم فاذا سلم عليه يجب منه وقيل انظر هو سيده ويسلم عليه * ثم قوله تعالى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وفيه وجوه منها تبيين وجه الترتيب أيضا (الاول) امتازوا في أنفسكم وتفرقوا كما قال تعالى تكاد تميز من الغيظ أي بعضه من بعض غير أن تميزهم من الحسرة والندامة ووجه الترتيب حينئذ ان المجرم يرى منزلة المؤمن ورفعته وزوال دركته وضعته فيتحسر فيقال لهم امتازوا اليوم اذ لا دواء لألمكم ولا شفاء لسقمكم (الثاني) امتازوا عن المؤمنين وذلك لانهم يكونون مشاهدين لما يصل الى المؤمن من الثواب والاكرام ثم يقال لهم تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار فلم يبق لكم اجتماع بهم ابدا (الثالث) امتازوا بعضكم عن بعض على خلاف ماللمؤمن من الاجتماع بالاخوان الذي أشار اليه بقوله تعالى هم وأزواجهم فأهل النار يكون لهم العذاب الأليم وعذاب الفرقة أيضا ولا عذاب فوق الفرقة بل العقلاء قالوا بأن كل عذاب فهو بسبب تفرق اتصال

فيكون قولا مصدرا مؤكدا لمضمون الجملة كما سبق ﴿ ١٠٦ ﴾ وقيل تقديره سلام عليهم فيكون حكاية لما سيقال لهم من جهته تعالى يومئذ وقيل خبره الفعل المقدر ناصبا لقولا وقيل خبره من رب رحيم وقرئ سلاما بالنصب على الحالية أي لهم مرادهم سالما خالصا وقرئ سلم وهو بمعنى السلام في المعنيين (وامتازوا اليوم) عطف اما على الجملة السابقة المسوقة لبيان أحوال أهل الجنة لا على أن المقصود عطف فعل الامر بخصوصه حتى يتمحل له مشاكل يصح عطفه عليه بل على أنه عطف قصة سوء حال هؤلاء وكيفية عقابهم على قصة حسن حال أولئك ووصف ثوابهم كما في قوله تعالى وبشر الذين آمنوا الآية وكأن تغيير السبك لتخييل كمال التباين بين الفريقين وحاليهما واما على مضمر ينساق اليه حكاية حال أهل الجنة كأنه قيل اثر بيان كونهم في شغل عظيم الشأن وفوزهم بنعيم مقيم يقصر عنه البيان فليقروا بذلك عينا وامتازوا

فان

فان من قطعت يده أو احرق جسمه فانما يتألم بسبب تفرق المتصلات بعضها عن بعض لكن التفرق الجسمي دون التفرق العقلي (الرابع) امتازوا عن شفعائكم وقرنائكم فالكم اليوم حميم ولا شفيع (الخامس) امتاز وا عما ترجون واعتزلوا عن كل خير والمجرم هو الذي يأتي بالجريمة ويحتمل أن يقال ان المراد منه ان الله تعالى يقول امتازوا فيظهر عليهم سيما يعرفون بها كما قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم وحينئذ يكون قوله تعالى امتازوا أمر تكوين كما أنه يقول كن فيكون كذلك يقول امتازوا فيتميزون بسيماهم ويظهر على جباههم أو في وجوههم سواد ❊ ثم قال تعالى (ألم أعهد اليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين) لما ذكر الله تعالى حال المؤمنين والمجرمين كان لقائل أن يقول ان الانسان كان ظلوما جهولا والجهل من الاعذار فقال الله ذلك عند عدم الانذار وقد سبق ايضاح السبل بايضاح الرسل وعهدنا اليكم وتلونا عليكم ماينبغي أن تفعلوه ومالاينبغي ❊ وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) في اللغات التي في أعهد وهي كثيرة (الاولى) كسر همزة اعهد وحروف الاستقبال كلها تكسر الا الياء فلا يقال يعلم و يعلم (الثانية) كسر الهاء من باب ضرب يضرب (الثالثة) قلب العين حاء ألم أحهد وذلك في كل عين بعدها هاء (الرابعة) ادغام الهاء في الحاء بعد القلب فيقال ألم أحد وقد سمع قوم يقولون دحا محا أي دعها معها (المسئلة الثانية) في معنى أعهد وجوه أقربها وأقواها ألم ارص اليكم (المسئلة الثالثة) في هذا العهد وجوه (الاول) انه هو العهد الذي كان مع أبينا آدم بقوله وعهدنا الى آدم (الثاني) انه هو الذي كان مع ذرية آدم بقوله تعالى ألست بربكم قالوا بلى فان ذلك يقتضي أن لانعبد غير الله (الثالث) وهو الاقوى ان ذلك كان مع كل قوم على لسان رسول ولذلك اتفق العقلاء على ان الشيطان يأمر بالشرور وان اختلفوا في حقيقته وكيفيته (المسئلة الرابعة) قوله لاتعبدوا الشيطان معناه لاتطيعوه بدليل ان المنهي عنه ليس هو السجود له فحسب بل الانقياد لامره والطاعة فالطاعة عبادة لايقال فنكون نحن مأمورين بعبادة الامراء حيث أمرنا بطاعتهم في قوله تعالى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم لانا نقول طاعتهم اذا كانت بأمر الله لاتكون الا عبادة لله وطاعة له وكيف لاونفس السجود والركوع للغير اذا كان بأمر الله لايكون الا عبادة لله ألا ترى ان الملائكة سجدوا لآدم ولم يكن ذلك الا عبادة لله وانما عبادة الامراء هو طاعتهم فيما لم يأذن الله فيه فان قيل بماذا تعلم طاعة الشيطان من طاعة الرحمن مع انا لانسمع من الشيطان خبرا ولانرى منه أثرا نقول عبادة الشيطان في مخالفة أمر الله أو الاتيان بما أمر الله لا لانه أمر به ففي بعض الاوقات يكون الشيطان يأمرك وهو في غيرك وفي بعض الاوقات يأمرك وهو فيك فاذا جاءك شخص يأمرك بشئ فانظر ان كان ذلك موافقا لامر الله أو ليس موافقا فان لم يكن موافقا فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به فان أطعته فقد

عنهم (أيها المجرمون) الى مصيركم وعن قتادة اعتزلوا عن كل خير وعن الضحاك لكل كافر بيت من النار يكون فيه لايرى ولايرى وأما ماقيل من أن المضمر فليتمازوا فيعتزل من السداد لما أن المحكي عنهم ليس مصيرهم الى ماذكر من الحال المرضية حتى يتسنى ترتيب الامر المذكور عليه بل انما هو استقرارهم عليها بالفعل وكون ذلك بطريق تنزيل المترقب منزلة الواقع لايجدي نفعا لان مناط الاضمار انسياق الافهام اليه وانصباب نظم الكلام عليه فبعد ماتزلت تلك الحالة منزلة الواقع بالفعل لما اقتضاه المقام من النكتة البارعة والحكمة الرائعة حسبما مر بيانه واسقط كونها مترقبة عن درجة الاعتبار بالكلية يكون التصدي لاضمار شئ يتعلق به اخراجا للنظم الكريم عن الجزالة بالمرة (ألم أعهد اليكم يابني آدم أن لاتعبدوا الشيطان) من جملة مايقال لهم بطريق التقريع والالزام والتبكيت بين الامر بالامتياز وبين الامر بدخول جهنم

عبدت الشيطان واندعتك نفسك الى فعل فانظر أهو مأذون فيه من جهة الشرع
أو ليس كذلك فان لم يكن مأذونا فيه فنفسك هى الشيطان أو معها الشيطان يدعوك فان
اتبعته فقد عبدته ثم ان الشيطان يأمر أولا بمخالفة الله ظاهرا فمن أطاعه فقد عبده ومن
لم يطعه فلا يرجع عنه بل يقول له اعبد الله كى لا تهان وليرتفع عند الناس شأنك وينفع
بك اخوانك واعوانك فان أجاب اليه فقد عبده لكن عبادة الشيطان على تفاوت وذلك
لان الاعمال منها ما يقع والعامل موافق فيه جنانه ولسانه وأركانه ومنها ما يقع والجنان
واللسان مخالف للجوارح أو للاركان فمن الناس من يرتكب جريمة كارها بقلبه
لما يقترف ذنبه مستغفرا لربه يعترف بسوء ما يقترف فهو عبادة الشيطان بالاعضاء
الظاهرة ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب كما انك تجد كثيرا من الناس يفرح
بكونه مترددا الى أبواب الظلمة للسعاية ويعد من المحاسن كونه سار يامع الملوك ويفتخر
به بلسانه وتجدهم يفرحون بكونهم آمرين الملك بالظلم والملك ينقاد لهم أو يفرحون
بكونه يأمرهم بالظلم فيظلمون فرحين بما ورد عليهم من الامر اذا عرفت هذا فالطاعة
التى بالاعضاء الظاهرة والبواطن طاهرة مكفرة بالاسقام والآلام كما ورد فى الاخبار
ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم الحمى من فيح جهنم وقوله صلى الله عليه وسلم السيف محاء
للذنوب أى لمثل هذه الذنوب ويدل عليه ما قال صلى الله عليه وسلم فى الحدود انها كفارات
وما يكون بالقلوب فلا خلاص عنه الا بالتوبة والندم واقبال القلب على الرب وما يكون
باللسان فهو من قبيل ما يكون بالقلب فى الظاهر والمثال يوضح الحال فنقول اذا كان
عند السلطان أمير وله غلمان هم من خواص الامير واتباع بعداء هم من عوام الناس
فاذا صدر من الامير مخالفة ومسارة مع عدو السلطان ومصادقة بينهما لا يعفو الملك عن
ذلك الا اذا كان فى غاية الصفح أو يكون للامير عنده يد سابقة أو توبة لاحقة فان صدر
من خواص الامير مخالفة وهو به عالم ولم يزجره عدت المخالفة موجودة منه وان كان
كارها وأظهر الانكار حسنت معاتبته دون معاقبته لان اقدام خواصه على المخالفة
دليل على سوء التربية فان كان الصادر من الحواشى الاباعد وبلغ الامير ولم يزجره عوتب
الامير وان زجرهم استحق الامير بذلك الزجر الاكرام وحسن من الملك أن يسدى الى
المزجور الاحسان والانعام ان علم حصول انزجاره اذا علمت هذا فالقلب أمير واللسان
خاصته والاعضاء خدمه فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنب فان أقبل على محبة
غير الله فهو الويل العظيم والضلال المبين المستعقب للعقاب الأليم والعذاب المهين
وما يصدر من اللسان فهو محسوب على القلب ولا يقبل قوله ان لم ينكر فعله وما يصدر من
الاعضاء والقلب قد أظهر عليه الانكار وحصل له الانزجار فهو الذنب الذى حكى النبى
صلى الله عليه وسلم عن ربه أنه قال لو لم تذنبوا لخلقت أقواما يذنبون ويستغفرون فاغفر
لهم (وههنا لطيفة) وهى ان الشيطان قد يرجع عن عبد من عباد الله فرحانا فيظن انه قد

بقوله تعالى اصلوها اليوم الخ والعهد الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة والمراد ههنا ما كلفهم الله تعالى على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام من الاوامر والنواهى التى من جملتها قوله تعالى يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة الآية وقوله تعالى ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين وغيرهما من الآيات الكريمة الواردة فى هذا المعنى وقيل هو الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهور بنى آدم وأشهدوا على أنفسهم وقيل هو ما نصب لهم من الحجج العقلية والسمعية الآمرة بعبادته تعالى الزاجرة عن عبادة غيره والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس به اليهم ويزينه لهم عبر عنها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها ولوقوعها فى مقابلة عبادته عز وجل وقرئ اعهد بكسر الهمزة واعهد بكسر الهاء واحهد بالحاء مكان العين واحد بالادغام وهى لغة بنى تميم

﴿ حصل ﴾

حصل مقصوده من الاغواء حيث يرى ذلك العبد ارتكب الذنب ظاهرا ويكون ذلك رافعا لدرجة العبد فان بالذنب ينكسر قلب العبد فيتخلص من الاعجاب بنفسه وعبادته ويصير أقرب من المقربين لان من لم يذنب مقرب عند الله كما قال تعالى لهم درجات عند ربهم والمذنب التائب النادم منكسر القلب والله عنده كما قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه أنا عند المنكسرة قلوبهم وفرق بين من يكون عند الله وبين من يكون عنده الله ولعل ما يحكى من الذنوب الصادرة عن الانبياء من هذا القبيل لتحصل لهم الفضيلة على الملائكة حيث تبجحوا بأنفسهم بقولهم ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك وقد يرجع الشيطان عن آخر يكون قد أمره بشئ فلم يفعله والشخص يظن انه غلب الشيطان ورده خائبا فيتبجح فى نفسه وهو لا يعلم ان الشيطان رجع عنه بحصل المقصود مقبولا غير مردود ومن هذا تبين أمر اصولى وهو ان الناس اختلفوا فى ان المذنب هل يخرج من الايمان أم لا وسبب النزاع وقوع نظر الخصمين على أمرين متباينين فالذنب الذى بالجسد لا بالقلب لا يخرج بل قد يزيد فى الايمان والذى بالقلب يخاف منه الخروج عن ربقة الايمان ولذلك اختلفوا فى عصمة الانبياء من الذنوب والاشبه ان الجسدى جائز عليهم والقرآن دليل عليه والقلبى لا يجوز عليهم ثم انه تعالى لما نهى عباده عن عبادة الشيطان ذكر ما يحملهم على قبول ما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه بقوله انه لكم عدو مبين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من أين حصلت العداوة بين الشيطان والانسان فنقول ابتداؤها من الشيطان وسببه تكريم الله بنى آدم لما رأى ابليس ربه كرم آدم وبنيه عاداهم فعاداه الله تعالى والاول منه لؤم والثانى من الله كرم أما الاول فلان الملك اذا اكرم شخصا ولم ينقص من الآخر شيئا اذ لا ضيق فى الخزانة فعداوة من يعادى ذلك المكرم لا تكون الا لؤما وأما الثانى فلان الملك اذا علم ان اكرامه ليس الا منه وذلك الضعيف ما كان يقدر ان يصل الى بعض تلك المنزلة لولا اكرام الملك يعلم أن من يبغضه ينكر فعل الملك أو ينسب الى خزانته ضيقا وكلاهما يحسن التعذيب عليه فيعاديه اتماما للاكرام واكمالا للافضال ثم ان كثيرا من الناس على مذهب ابليس اذا رأوا واحدا عند ملك محترما يبغضوه وسعوا فيه اقامة لسنة ابليس فالملك ان لم يكن متخلقا باخلاق الله لا يبعد الساعى ويسمع كلامه ويترك اكرام ذلك الشخص واحترامه (المسئلة الثانية) من أين ابانة عداوة ابليس نقول لما أكرم الله آدم عاداه ابليس وظن أنه يبقى فى منزلته وآدم فى منزلته مثل متباغضين عند الملك والله كان عالما بالضمائر فأبعده وأظهر أمره وأظهر هو من نفسه ما كان يخفيه لزوال ما كان يحمله على اخفاء فقال لأقعدن لهم صراطك المستقيم وقال لاحتنكن ذريته (المسئلة الثالثة) اذا كان الشيطان للانسان عدوا مبينا فما بال الانسان يميل الى مراضيه من الشرب والزنا ويكره مساخطه من المجاهدة والعبادة نقول سبب ذلك استعانة الشيطان باعوان من عند الانسان وترك استعانة

(انه لكم عدو مبين) أى ظاهر العداوة وهو تعليل لوجوب الانتهاء عن المنهى عنه وقيل تعليل للنهى (وأن اعبدونى) عطف على أن لا تعبدوا على أن فيهما مفسرة للعهد الذى فيه معنى القول بالنهى والامر أو مصدرية حذف عنها الجار أى ألم أعهد اليكم فى ترك عبادة الشيطان وفى عبادتى وتقديم النهى على الامر لما أن حق التخلية التقدم على التحلية كما فى كلمة التوحيد وليتصل به قوله تعالى (هذا صراط مستقيم) فانه اشارة الى عبادته تعالى التى هى عبارة عن التوحيد والاسلام وهو المشار اليه بقوله تعالى هذا صراط على مستقيم والمقصود بقوله تعالى لأقعدن لهم صراطك المستقيم والتنكير للتفخيم واللام فى قوله تعالى (ولقد أضل منكم جبلا كثيرا) جواب قسم محذوف والجملة استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان أن جناياتهم ليست بنقض العهد فقط بل به وبعدم الاتعاظ بما

الانسان بالله فيستعين بشهوته التى خلقها الله تعالى فيه لمصالح بقائه وبقاء نوعه ويجعلها سببا لفساد حاله ويدعوه بها الى مسالك المهالك وكذلك يستعين بغضبه الذى خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه ويجعله سببا لو باله وفساد أحواله وميل الانسان الى المعاصى كميل المريض الى المضار وذلك حيث ينحرف المزاج عن الاعتدال فترى المحموم يريد الماء البارد وهو يزيد فى مرضه * ومن به فساد المعدة فلا يهضم القليل من الغذاء يميل الى الاكل الكثير ولا يشبع بشئ وهو يزيد فى معدته فسادا وصحيح المزاج لا يشتهى الا ما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبئ لا يستغنى الانسان فيه عن استنشاق الهواء وهو المفسد لمزاجه ولا طريق له غير اصلاح الهواء بالروائح الطيبة والاشياء الزكية والرش بالخل والماورد من جملة المصلحات فكذلك الانسان فى الدنيا لا يستغنى عن أمورها وهى المعينات للشيطان وطريقه ترك الهوى وتقليل التأميل وتحريف الهوى بالذكر الطيب والزهد فاذا صح مزاج عقله لا يميل الا الى الحق ولا يبقى عليه فى التكاليف كلفة ويحصل له مع الامور الآلهية الفة وهنالك يعترف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان * ثم قال تعالى (وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) لما منع من عبادة الشيطان حمل على عبادة الرحمن والشارع طبيب الارواح كما ان الطبيب طبيب الاشباح وكما ان الطبيب يقول للمريض لا تفعل كذا ولا تأكل من ذا وهى الحمية التى هى رأس الدواء لئلا يزيد مرضه ثم يقول له تناول الدواء الفلانى تقوية لقوته المقاومة للمريض كذلك الشارع منع من المفسد وهو اتباع الشيطان وحمل على المصلح وهو عبادة الرحمن وفيه مسائل (المسئلة الاولى) عند المنع من عبادة الشيطان قال انه لكم عدو مبين لان العداوة أبلغ الموانع من الاتباع وعند الامر بعبادة الرحمن لم يقل انه لكم حبيب لان المحبة لا توجب متابعة المحبوب بل ربما يورث ذلك الاتكال على المحبة فيقول انه يحبنى فلا حاجة الى تحمل المشقة فى تحصيل مراضيه بل ذكر ما هو أبلغ الاشياء فى الحمل على العبادة وذلك كونه طريقا مستقيما وذلك لان الانسان فى دار الدنيا فى منزل قفر مخوف وهو متوجه الى دار اقامة فيها اخوانه والنازل فى بادية خالية يخاف على روحه وماله ولا يكون عنده شئ أحب من طريق قريب آمن فلما قال الله تعالى هذا صراط مستقيم كان ذلك سببا حاثا على السلوك وفى ضمن قوله تعالى هذا صراط اشارة الى ان الانسان مجتاز لانه لو كان فى دار اقامة فقوله هذا صراط مستقيم لا يكون له معنى لان المقيم يقول وماذا أفعل بالطريق وانا من المقيمين (المسئلة الثانية) ماذا يدل على كونه طريقا مستقيما نقول الانسان مسافر اما مسافرة راجع الى وطنه واما مسافرة تاجر له متاع يتجر فيه وعلى الوجهين فالله هو المقصد وأما الوطن فلانه لا يوطن الا فى مأمن ولا أمن الا عند ملك لا يزول ملكه لان عند زوال ملك الملوك لا يبقى الأمن والراحة والله سبحانه هو الذى ملكه دائم وكل ما عداه فهو فان وأما التجارة فلأن التاجر لا يقصد الا الى موضع يسمع أو يعلم ان

شاهدوا من العقوبات النازلة على الامم الخالية بسبب طاعتهم للشيطان فالخطاب المتأخر بهم الذين من جملتهم كفار مكة خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم والجبل بكسر الجيم والباء وتشديد اللام الخلق وقرئ بضمتين وتشديد وبضمتين وتخفيف وبضمة وسكون وبكسرتين وتخفيف وبكسرة وسكون والكل لغات وقرئ جبلا جمع جبلة كفطر وخلق فى جمع فطرة وخلقة وقرئ جيلا بالياء وهو الصنف من الناس أى وبالله لقد أضل منكم خلقا كثيرا أو صنفا كثيرا عن ذلك الصراط المستقيم الذى أمرتكم بالثبات عليه فاصابهم لاجل ذلك ما أصابهم من العقوبات الهائلة التى ملأ الآفاق أخبارها وبقى مدى الدهر آثارها والفاء فى قوله تعالى (أفلم تكونوا تعقلون) للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون انها لضلالهم أو فلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا حتى

﴿ لمناعة ﴾

لتاعد هناك زواجا والله تعالى يقول ان العمل الصالح عنده مثاب عليه مقابل باضعاف مايستحق والله هو المقصود وعبادته توجه اليه ولاشك ان القاصد لجهة اذا توجه اليها يكون على الطريق المستقيم (المسئلة الثالثة) العبادة تنبئ عن معنى التذلل فلما قال لاتعبدوا الشيطان لزم أن يتكبر الانسان على ماسوى الله ولما قال وأن اعبدونى ينبغى أن لا يتكبر على الله لكن التكبر على ماسوى الله ليس معناه انه يرى نفسه خيرا من غيره فان نفسه من جملة ماسوى الله فينبغى أن لا يلتفت اليها ولو كانت متجملة بعبادة الله بل معنى التكبر على ماسوى الله ان لا ينقاد لشئ الا باذن الله وفى هذا التكبر غاية التواضع فانه حينئذ لا ينقاد الى نفسه وحظ نفسه فى التفوق على غيره فلا يتفوق فيحصل التواضع التام ولا ينقاد لامر الملوك اذا خالفوا أمر الله فيحصل التكبر التام فيرى نفسه بهذا التكبر دون الفقير وفوق الامير * ثم ان الله تعالى ذكر ما ينبه لعداوة الشيطان بقوله تعالى (ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى الجبل ست لغات كسر الجيم والباء مع تشديد اللام وضمهما مع التشديد وكسرهما مع التخفيف وضمهما معه وتسكين الباء وتخفيف اللام مع ضم الجيم ومع كسره (المسئلة الثانية) فى معنى الجبل الجيم والباء واللام لا تخلو عن معنى الاجتماع والجبل فيه اجتماع الاجسام الكثيرة وجبل الطين فيه اجتماع أجزاء الماء والتراب وشاة جبلاء اذا كانت مجتمعة اللبن الكثير لا يقال البلجة نقض على ماذكرتم فانها تنبئ عن التفرق فان الابلج خلاف المقرون لانا نقول هى لاجتماع الاماكن الخالية التى تسع الممكنات فان البلجة والبلدة بمعنى والبلد سمى بلدا للاجتماع لا للتفرق فالجبل الجمع العظيم حتى قيل ان دون العشرة آلاف لا يكون جبلا وان لم يكن صحيحا (المسئلة الثالثة) كيف الاضلال نقول على وجهين أحدهما ان الاضلال تولية عن المقصد وصد عنه فالشيطان يأمر البعض بترك عبادة الله و بعبادة غيره فهو تولية فان لم يقدر يأمره بعبادة الله لامر غير الله من رياسة وجاه وغيرهما فهو صد وهو يفضى الى التولية لان مقصوده لو حصل لترك الله وأقبل على ذلك الغير فتحصل التولية * ثم بين مآل أهل الضلال بقوله تعالى (هذه جهنم التى كنتم توعدون) وحال الضال كحال شخص خرج من وطنه مخافة عدوه فوقع فى مشقة ولو أقام فى وطنه لعل ذلك العدو كان لا يظفر به أو يرحمه كذلك حال من لم يتحرك لطاعة ولا عصيان كالمجانين وحال من استعمل عقله فأخطأ الطريق فان المجنون من اهل النجاة وان لم يكن من أهل الدرجات وقد قيل بأن البلاهة أدنى الى الخلاص من فطانة بتراء وذلك ظاهر فى المحسوس فان من لم يعرف الطريق اذا أقام بمكانه لا يبعد عن الطريق كثيرا ومن سار الى خلاف المقصد يبعد عنه كثيرا * ثم بين انهم واصلون اليها حاصلون فيها بقوله تعالى (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) وفى هذا الكلام ما يوجب شدة ندامتهم وحسرتهم من ثلاثة أوجه (أحدها) قوله تعالى اصلوها فانه أمر تنكيل واهانة كقوله

ترتدعوا عما كانوا عليه كى لا يحيق بكم العقاب وقوله تعالى (هذه جهنم التى كنتم توعدون) يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والالزام والتبكيت عند اشرافهم على شفير جهنم أى كنتم توعدونها على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام بمقابلة عبادة الشيطان مثل قوله تعالى لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا وقوله تعالى قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم أجمعين وغير ذلك مما لايحصى وقوله تعالى (اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) أمر تنكيل واهانة كقوله تعالى ذق انك أنت العزيز الخ أى ادخلوها من فوق وقاسوا فنون عذابها اليوم بكفركم المستمر فى الدنيا وقوله تعالى (اليوم نختم على أفواههم) أى ختما يمنعها عن الكلام التفات الى الغيبة للايذان بأن ذكر أحوالهم القبيحة

ذق انك أنت العزيز الكريم (والثانى) قوله اليوم يعنى العذاب حاضر ولذاتك قد مضت وأيامها قد انقضت وبقى اليوم العذاب (الثالث) قوله تعالى بما كنتم تكفرون فان الكفر والكفران ينبئ عن نعمة كانت يكفر بها وحياء الكفور من المنعم من أشد الآلام ولهذا كثيرا ما يقول العبد المجرم افعلوا بى ما يأمر به السيد ولا تحضرونى بين يديه والى هذا المعنى أشار القائل

أليس بكاف لذى نعمة * حياء المسئ من المحسن

* ثم قال تعالى (اليوم نختم على افواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون) فى الترتيب وجوه (الاول) انهم حين يسمعون قوله تعالى بما كنتم تكفرون يريدون ينكرون كفرهم كما قال تعالى عنهم ما أشركنا وقالوا آمنا به فيختم الله على أفواههم فلا يقدرون على الانكار وينطق الله غير لسانهم من الجوارح فيعترفون بذنوبهم (الثانى) لما قال الله تعالى لهم ألم أعهد اليكم لم يكن لهم جواب فسكتوا وخرسوا وتكلمت أعضاؤهم غير اللسان وفى الختم على الافواه وجوه (أقواها) ان الله تعالى يسكت ألسنتهم فلا ينطقون بها وينطق جوارحهم فتشهد عليهم وانه فى قدرة الله يسير أما الاسكات فلا خفاء فيه وأما الانطاق فلان اللسان عضو متحرك بحركة مخصوصة فكما جاز تحركه بها جاز تحرك غيره بمثلها والله قادر على الممكنات والوجه الآخر انهم لا يتكلمون بشئ لانقطاع أعذارهم وانهتاك أستارهم فيقفون ناكسى الرؤس وقوف القنوط اليؤس لا يجد عذرا فيعتذر ولا مجال توبة فيستغفر وتكلم الايدى ظهور الامور بحيث لا يسع معه الانكار حتى تنطق به الايدى والابصار كما يقول القائل الحيطان تبكى على صاحب الدار اشارة الى ظهور الحزن والاول الصحيح وفيه لطائف لفظية ومعنوية (اما اللفظية فالاولى) منها هى ان الله تعالى أسند فعل الختم الى نفسه وقال نختم وأسند الكلام والشهادة الى الايدى والارجل لانه لو قال تعالى نختم على أفواههم وننطق أيديهم يكون فيه احتمال ان ذلك منهم كان جبرا وقهرا والاقرار بالاجبار غير مقبول فقال تعالى تكلمنا أيديهم وتشهد ارجلهم أى باختيارها بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام ليكون أدل على صدور الذنب منهم (الثانية) منها هى ان الله تعالى قال تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم جعل الشهادة للارجل والكلام للايدى لان الافعال تسند الى الايدى قال تعالى وما عملته أيديهم أى ما عملوه وقال ولا تلقوا بأيديكم أى ولا تلقوا بأنفسكم فاذا الايدى كالعاملة والشاهد على العامل ينبغى أن يكون غيره فجعل الارجل والجلود من جملة الشهود لبعد اضافة الافعال اليها وأما المعنوية (فالاولى) منها ان يوم القيامة من تقبل شهادته من المقربين والصديقين كلهم أعداء للمجرمين وشهادة العدو على العدو غير مقبولة وان كان من الشهود العدول وغير الصديقين من الكفار والفساق غير مقبول الشهادة فجعل الله الشاهد عليهم منهم لا يقال الايدى والارجل أيضا صدرت

استدعى أن يعرض عنهم ويحكى أحوالهم الفظيعة لغيرهم مع مافيه من الايماء الى أن ذلك من مقتضيات الختم لان الخطاب لتلقى الجواب وقد انقطع بالكلية وقرئ يختم (وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) يروى أنهم يجحدون ويخاصمون فيشهد عليهم جيرانهم وأهاليهم وعشائرهم فيحلفون ما كانوا مشركين فحينئذ يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وفى الحديث يقول العبد يوم القيامة انى لا أجيز على شاهدا الا من نفسى فيختم على فيه ويقال لاركانه انطقى فتنطق باعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل وقيل تكليم الاركان وشهادتها دلالتها على أفعالها وظهور آثار المعاصى عليها وقرئ وتتكلم ايديهم وقرئ ولتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام كى والنصب على معنى ولذلك نختم على أفواههم وقرئ وتكلمنا أيديهم ولتشهد بلام الامر والجزم

(ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) الطمس تعفية شق العين حتى تعود ممسوحة ومفعول المشيئة محذوف على القاعدة المستمرة التى هى وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء أى لو نشاء أن نطمس على أعينهم لفعلناه وايثار صيغة الاستقبال وان كان المعنى على المضى لافادة أن عدم الطمس على أعينهم لاستمرار عدم المشيئة فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى افادة انتفاء استمرار الفعل بل قد يفيد ﴿ ١١٣ ﴾ استمرار انتفائه بحسب المقام كما مر فى قوله تعالى ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير (فاستبقوا الصراط) فأرادوا أن يستبقوا الى الطريق الذى اعتادوا سلوكه على نزع الجار أو هو بما به الاستباق فى معنى الابتدار أو بالظرفية (فأنى يبصرون) الطريق وجهة السلوك (ولو نشاء لمسخناهم) بتغيير صورهم وابطال قواهم (على مكانتهم) أى مكانهم الا أن المكانة أخص كالمقامة والمقام وقرئ على مكاناتهم أى لمسخناهم مسخا يجمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه باقبال ولا ادبار ولا رجوع وذلك قوله تعالى (فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون) أى ولا رجوعا فوضع موضعه الفعل لمراعاة الفاصلة عن ابن عباس رضى الله عنهما قردة وخنازير وقيل حجارة وعن قتادة لأقعدناهم على أرجلهم وأزمناهم وقرئ مضيا بكسر الميم وفتحها وليس مساق الشرطيتين لمجرد بيان قدرته تعالى على ما ذكر من عقوبة الطمس والمسخ بل لبيان أنهم بما هم عليه من الكفر ونقض العهد وعدم الاتعاظ بما شاهدوا من آثار دمار أمثالهم أحقاء بان يفعل ﴿ ١٥ ﴾ سا بهم فى الدنيا تلك العقوبة كما فعل بهم فى الآخرة عقوبة الختم وأن المانع من ذلك ليس الا عدم تعلق المشيئة الالهية به كأنه قيل لو نشاء عقوبتهم بما ذكر من الطمس والمسخ جريا على موجب جناياتهم المستدعية لها لفعلناها ولكنا لم نشأها جريا على سنن الرحمة والحكمة الداعيتين الى امهالهم

الذنوب منها فهى فسقه فينبغى أن لا تقبل شهادتها الا انا نقول فى رد شهادتها قبول شهادتها لانها ان كذبت فى مثل ذلك اليوم فقد صدر الذنب منها فى ذلك اليوم والمذنب فى ذلك اليوم مع ظهور الامور لابد من أن يكون مذنبا فى الدنيا وان صدقت فى ذلك اليوم فقد صدر منها الذنب فى الدنيا وهذا كما قال لفاسق ان كذبت فى نهار هذا اليوم فعبدى حر فقال الفاسق كذبت فى نهار هذا اليوم عتق العبد لانه ان صدق فى قوله كذبت فى نهار هذا اليوم فقد وجد الشرط ووجب الجزاء وان كذب فى قوله كذبت فقد كذب فى نهار ذلك اليوم فوجد الشرط أيضا بخلاف مالو قال فى اليوم الثانى كذبت فى نهار اليوم الذى علقت عتق عبدك على كذبى فيه (المسئلة الثانية) الختم لازم للكفار فى الدنيا على قلوبهم وفى الآخرة على أفواههم ففى الوقت الذى كان الختم على قلوبهم كان قولهم بأفواههم كما قال تعالى ذلك قولهم بأفواههم فلما ختم على أفواههم أيضا لزم أن يكون قولهم بأعضائهم لان الانسان لا يملك غير القلب واللسان والاعضاء فاذا لم يبق القلب واللسان تعين الجوارح والاركان * ثم قال تعالى (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون) قد ذكرنا مرارا أن الصراط المستقيم هو بين الجبر والقدر وهو الطريقة الوسطى والله تعالى فى كل موضع ذكر ما يتمسك به المجبرة ذكر عقيبه ما يتمسك به القدرية وبالعكس وههنا كذلك لما قال الله تعالى وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون وقال اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون وكان ذلك متمسك القدرية حيث أسند الله الكفر والكسب اليهم وأحال الخير والشر عليهم ذكر عقيبه ما يدل على أن كفرهم وكسبهم بمشيئة الله وذلك لان الكفر يعمى البصيرة ويضعف القوة العقلية وعمى البصيرة بارادة الله ومشيئته اذا شاء أعمى البصائر كما أنه لو شاء لطمس على أعينهم المبصرة وسلب القوة العقلية باختياره ومشيئته كما ان سلب القوة الجسمية بمشيئته حتى لو شاء لمسخ المكلف على مكانته واقامه بحيث لا يتحرك يمنة ولا يسرة ولا يقدر على المضى والرجوع فاعماء البصائر عنده كاعماء الابصار وسلب القوة العقلية كسلب القوة الجسمية فقال ولو نشاء لطمسنا على أعينهم اشارة الى أنه شاء وأراد اعماء بصائرهم فضلوا وانه لو شاء طمس أعينهم لما اهتدوا الى طريقتهم الظاهرة وشاء واختار سلب قوة عقولهم فزالوا وانه لو شاء سلب قوة أجسامهم ومسخهم لما قدروا على تقدم ولا تأخر وفى الآيتين أبحاث لفظية (البحث الاول) فى قوله فاستبقوا الصراط قال الزمخشرى فيه وجوه (الاول) انه يكون فيه حذف حرف الى واتصال الفعل من غير حرف وأصله فاستبقوا الى الصراط (الثانى) أن يكون المراد من الاستباق الابتدار فاعمله اعمال الابتدار (الثالث) ان يجعل الصراط مستبقا لا مستبقا اليه يقال استبقنا فسبقتهم وحينئذ يكون مبالغة فى الاهتداء الى الطريق كأنه يقول الصراط الذى هو معهم ليسوا طالبين له قاصدين اياه وانما هم

وتخلقه على عكس ماخلقناه أولا فلا يزال يتزايد ضعفه ويتناقص قوته وتنتقص بنيته ويتغير شكله وصورته حتى يعود الى حالة شبيهة بحال الصبى فى ضعف الجسد وقلة العقل والخلو عن الفهم والادراك وقرئ ننكسه من الثلاثى المجرد وننكسه من الانكاس (أفلا يعقلون) أى أيرون ذلك فلا يعقلون أن من قدر على ذلك يقدر على ماذكر من الطمس والمسخ وأن عدم ايقاعهما لعدم تعلق مشيئته تعالى بهما وقرئ تعقلون بالتاء لجرى الخطاب قبله (وماعلمناه الشعر) رد وابطال لما كانوا يقولونه فى حقه عليه الصلاة والسلام من أنه شاعر وما يقوله شعر أى ما علمناه الشعر بتعليم القرآن على معنى أن القرآن ليس بشعر فان الشعر كلام متكلف موضوع ومقال مزخرف مصنوع منسوج على منوال الوزن والقافية مبنى على خيالات وأوهام واهية فاين ذلك من التنزيل الجليل الخطر المنزه عن مماثلة كلام البشر المشحون بفنون الحكم والاحكام الباهرة الموصولة الى سعادة الدنيا والآخرة ومن أين اشتبه عليهم الشؤن واختلط بهم الظنون قاتلهم الله أنى يؤفكون (وماينبغى له) ومايصح له الشعر ولايتأتى له لو طلبه أى جعلناه بحيث لوأراد قرض الشعر لم يتأت له كما جعلناه أميا لايهتدى للخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدحض وأما قوله عليه الصلاة والسلام أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب وقوله عليه الصلاة والسلام هل أنت الا اصبع دميت * وفى سبيل الله مالقيت * فمن قبيل الاتفاقات الواردة من غير قصد اليها وعزم على ترتيبها وقيل الضمير فى له للقرآن أى ومايتبغى للقرآن أن يكون شعرا (ان هو) أى ما القرآن (الاذكر) أى عظة من الله عزوجل وارشاد للثقلين كما قال تعالى ان هو الاذكر للعالمين (وقرآن مبين) أى كتاب سماوى بين كونه كذلك أوفارق بين الحق والباطل يقرأ فى المحاريب ويتلى فى المعابد وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز

عليه اذا طمس الله على أعينهم لا يبصرونه فكيف ان لم يكونوا على الصراط (البحث الثانى) قدم الطمس والاعماء على المسخ والاعجاز ليكون الكلام مدرجا كأنه قال ان أعماهم لم يروا الطريق الذى هم عليه وحينئذ لايهتدون اليه فان قال قائل الاعمى قد يهتدى الى الطريق بامارات عقلية أوحسية غير حس البصر كالاصوات والمشى بحس اللمس فارتقى وقال فلو مسخهم وسلب قوتهم بالكلية لايهتدون الى الصراط بوجه من الوجوه (البحث الثالث) قدم المضى على الرجوع لان الرجوع أهون من المضى لان المضى لاينبئ عن سلوك الطريق من قبل وأما الرجوع فينبئ عنه ولاشك ان سلوك طريق قد روئى مرة أهون من سلوك طريق لم ير فقال لايستطيعون مضيا ولاأقل من ذلك وهو الرجوع الذى هو أهون من المضى * ثم قال تعالى (ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون) قد ذكرنا ان قوله تعالى ألم أعهد اليكم قطع للاعذار بسبق الانذار ثم لما قرر ذلك وأتمه شرع فى قطع عذر آخر وهو أن الكافر يقول لم يكن لبثنا فى الدنيا الا يسيرا ولو عمرتنا لما وجدت منا تقصيرا فقال الله تعالى أفلا تعقلون أنكم كلما دخلتم فى السن ضعفتم وقد عمرناكم مقدار ما تتمكنون من البحث والادراك كما قال تعالى أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر ثم انكم علمتم أن الزمان كلما يعبر عليكم يزداد ضعفكم فضيعتم زمان الامكان فلو عمرناكم أكثر من ذلك لكان بعده زمان الازمان ومن لم يأت بالواجب زمان الامكان ماكان يأتى به زمان الازمان * ثم قال تعالى (وماعلمناه الشعر وماينبغى له ان هو الاذكر وقرآن مبين) فى الترتيب وجهان قد ذكرنا أن الله فى كل موضع ذكر أصلين من الاصول الثلاثة وهى الوحدانية والرسالة والحشر ذكر الاصل الثالث منها وههنا ذكر الاصلين الوحدانية والحشر اما الوحدانية ففى قوله تعالى ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان وفى قوله وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم وأما الحشر ففى قوله تعالى اصلوها اليوم وفى قوله اليوم نختم على أفواههم الى غير ذلك فلما ذكرهما وبينهما ذكر الاصل الثالث وهو الرسالة فقال وماعلمناه الشعر وماينبغى له ان هو الاذكر وقرآن مبين وقوله وماعلمناه الشعر اشارة الى أنه معلم من عند الله فعلمه ماأراد ولم يعلمه مالم يرد وفى تفسير الآية مباحث (البحث الاول) خص الشعر بنفى التعليم مع أن الكفار كانوا ينسبون الى النبى صلى الله عليه وسلم أشياء من جملتها السحر ولم يقل وماعلمناه السحر وكذلك كانوا ينسبونه الى الكهانة ولم يقل وماعلمناه الكهانة فنقول أما الكهانة فكانوا ينسبون النبى صلى الله عليه وسلم اليها عند ماكان يخبر عن الغيوب ويكون كما يقول وأما السحر فكانوا ينسبونه اليه عند ماكان يفعل مالايقدر عليه الغير كشق القمر وتكلم الحصى والجذع وغير ذلك وأما الشعر فكانوا ينسبونه اليه عند ماكان يتلو القرآن عليهم لكنه صلى الله عليه وسلم ماكان يتحدى الا بالقرآن كما قال تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله الى غير ذلك ولم يقل ان كنتم فى شك من رسالتى فأنطقوا

الدارين فكم بينه و بين ماقالوا (لينذر) أى القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام و يؤيده القراءة بالتاء وقرئ لينذر من نذر به أى علمه ولينذر مبنيا للمفعول من الانذار (من كان حيا) أى عاقلا متأملا فان الغافل بمنزلة الميت أو مؤمنا فى علم الله تعالى فان الحياة الابدية بالايمان وتخصيص الانذار به لانه المنتفع به (و يحق القول) أى تجب كلمة العذاب (على الكافرين) المصرين على الكفر وفى ايرادهم بمقابلة من كان حيا اشعار بأنهم لخلوهم عن آثار الحياة وأحكامها التى هى المعرفة أموات فى الحقيقة (أولم يروا) الهمزة للانكار والتعجيب والواو للعطف على جملة منفية مقدرة مستدعية للمعطوف أى ألم يتفكروا أو ألم يلاحظوا ولم يعلموا علما يقينيا متاخما للمعاينة (انا خلقنا لهم) أى لاجلهم وانتفاعهم (مما عملت أيدينا) أى مما تولينا احداثه بالذات وذكر الايدى واسناد العمل اليها استعارة تفيد مبالغة فى الاختصاص والتفرد بالاحداث والاعتناء به (انعاما) مفعول خلقنا وتأخيره عن الجارين المتعلقين به مع أن حقه التقدم عليهما لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ماحقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مترقبة له فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن لاسيما عند كون المقدم منبئا عن كون المؤخر أمرا نافعا خطيرا كما فى النظم الكريم فان الجار الاول المعرب عن كون المؤخر من منافعهم والثانى المفصح عن كونه من الامور الخطيرة يزيدان النفس شوقا اليه ورغبة فيه ولان فى تأخيره جمعا بينه و بين أحكامه المتفرعة عليه بقوله تعالى (فهم لها مالكون) الآيات الثلاث أى فملكناها اياهم وايثار الجملة الاسمية على ذلك للدلالة على استقرار مالكيتهم لها واستمرارها واللام متعلقة بمالكون مقوية لعمله أى فهم مالكون لها بتمليكنا اياها لهم متصرفون فيها بالاستقلال مختصون بالانتفاع بها لايزاحمهم فى ذلك غيرهم أو قادرون على ضبطها متمكنون من التصرف فيها باقدارنا وتمكيننا وتسخيرنا اياها لهم كما فى قول من قال

الجذوع أو أشبعوا الخلق العظيم او اخبروا بالغيوب فلما كان تحديه صلى الله عليه وسلم بالكلام وكانوا ينسبونه الى الشعر عند الكلام خص الشعر بنفى التعليم (البحث الثانى) مامعنى قوله وماينبغى له فلنا قال قوم ما كان يتأتى له وآخرون مايتسهل له حتى انه ان تمثل ببيت شعر سمع منه مزاحفا يروى أنه كان يقول صلى الله عليه وسلم و يأتيك من لم تزود بالاخبار (وفيه وجه) أحسن من ذلك وهو ان يحمل ماينبغى له على مفهومه الظاهر وهو ان الشعر ما كان يليق به ولايصلح له وذلك لان الشعر يدعو الى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن فالشارع يكون اللفظ منه تبعا للمعنى والشاعر يكون المعنى منه تبعا للفظ لانه يقصد لفظا به يصح وزن الشعر أو قافيته فيحتاج الى التحيل لمعنى يأتى به لاجل ذلك اللفظ وعلى هذا نقول الشعر هو الكلام الموزون الذى قصد الى وزنه قصدا أوليا وامامن يقصد المعنى فيصدر موزونا مقفى فلايكون شاعرا ألا ترى الى قوله تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ليس بشعر والشاعر اذا صدر منه كلام فيه متحركات وساكنات بعدد مافى الآية تقطيعه بفاعلاتن فاعلاتن يكون شعرا الا انه قصد الاتيان بألفاظ حروفها متحركة وساكنة كذلك والمعنى تبعه والحكيم قصد المعنى فجاء على تلك الالفاظ وعلى هذا يحصل الجواب عن قول من يقول ان النبى صلى الله عليه وسلم ذكر بيت شعر وهو قوله أنا النبى لا كذب ✲ أنا عبد ابن المطلب أو بيتين لانا نقول ذلك ليس بشعر لعدم قصده الى الوزن والقافية وعلى هذا لو صدر من النبى صلى الله عليه وسلم كلام كثير موزون مقفى لايكون شعرا لعدم قصده اللفظ قصدا أوليا و يؤيد ماذكرنا أنك اذا تتبعت كلام الناس فى الاسواق تجد فيه مايكون موزونا واقعا فى بحر من بحور الشعر ولايسمى المتكلم به شاعرا ولا الكلام شعرا لفقد القصد الى اللفظ أولا ثم قوله تعالى ان هو الاذكر وقرآن مبين يحقق ذلك المعنى أى هو ذكر وموعظة للقصد الى المعنى والشعر لفظ مزخرف بالقافية والوزن (وههنا لطيفة) وهى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال ان من الشعر لحكمة يعنى قد يقصد الشاعر اللفظ فيوافقه معنى حكمى كما أن الحكيم قد يقصد معنى فيوافقه وزن شعرى لكن الحكيم بسبب ذلك الوزن لايصير شاعرا والشاعر بسبب ذلك الذكر يصير حكيما حيث سمى النبى صلى الله عليه وسلم شعره حكمة ونفى الله كون النبى شاعرا وذلك لان اللفظ قالب المعنى والمعنى قلب اللفظ وروحه فاذا وجد القلب لانظر الى القالب فيكون الحكيم الموزون كلامه حكيما ولايخرجه عن الحكمة وزن كلامه والشاعر الموعظ كلامه حكيما ✲ ثم قال تعالى (لينذر من كان حيا و يحق القول على الكافرين) قرئ بالتاء والياء بالتاء خطابا مع النبى صلى الله عليه وسلم و بالياء على وجهين (أحدهما) أن يكون المنذر هو النبى صلى الله عليه وسلم حيث سبق ذكره فى قوله وماعلمناه وقوله وماينبغى له (وثانيهما) أن يكون المراد أن القرآن ينذر والاول أقرب الى المعنى (والثانى) أقرب الى اللفظ اما الاول

أصبحت لا أحمل السلاح ولا * أملك رأس البعير ان نفرا والاول هو الاظهر ليكون قوله تعالى (وذللناها لهم) تأسيسا لنعمة على حيالها الاتية لماقبلها أى صيرناها منقادة لهم بحيث لا تستعصى عليهم فى شئ مما يريدون بها حتى الذبح حسبما ينطق به قوله تعالى (فنها ركوبهم) الخ فان الفاء فيه لتفريع أحكام التذليل عليه وتفصيلها أى فبعض منها ركوبهم أى مركوبهم أى معظم منافعها الركوب وعدم التعرض للحمل لكونه من تتمات الركوب وقرئ ركوبتهم وهى بمعناه كالحلوب والحلوبة وقيل الركوبة اسم جمع وقرئ ركوبهم أى ذو ركوبهم (ومنها يأكلون) أى وبعض منها يأكلون لحمه (ولهم فيها) أى فى الانعام بكلا قسميها (منافع) أخر غير الركوب والاكل كالجلود والاصواف والاوبار وغيرها وكالحراثة بالثيران (ومشارب) من اللبن جمع مشرب وهذا مجمل ما فصل فى سورة النحل (أفلا يشكرون) أى أيشاهدون هذه النعم أو أيتنعمون بها فلا يشكرون المنعم بها (واتخذوا من دون الله) أى متجاوزين الله تعالى الذى شاهدوا تفرده بتلك القدرة الباهرة وتفضله عليهم بهاتيك النعم المتظاهرة (آلهة) من الاصنام وأشركوها به تعالى فى العبادة (لعلهم ينصرون) رجاء أن ينصروا من جهتهم فيما حزبهم من الامور أو يشفعوا لهم فى الآخرة وقوله تعالى (لا يستطيعون نصرهم) الخ استئناف سيق لبيان بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس تدبيرهم أى لا تقدر آلهتهم على نصرهم (وهم) أى المشركون (لهم) أى لآلهتهم (جند محضرون) يشيعونهم عند مساقهم الى النار وقيل معدون فى الدنيا لحفظهم وخدمتهم والذب عنهم ولا يساعده مساق النظم الكريم فان الفاء فى قوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) لترتيب النهى على ماقبله فلا بد أن يكون عبارة عن خسرانهم وحرمانهم عما علقوا به أطماعهم الفارغة وانعكاس الامر عليهم بترتب الشر على ما رتبوه لرجاء الخير فان ذلك مما يهون ﴿ وأزواجهم ﴾

فلان المنذر صفة للرسل أكثر ورودا من المنذر صفة للكتب (وأما الثانى) فلان القرآن اقرب المذكورين الى قوله لينذر وقوله من كان حيا أى من كان حى القلب ويحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون المراد من كان حيا فى علم الله فينذره به فيؤمن (الثانى) أن يكون المراد لينذر به من كان حيا فى نفس الامر أى من آمن فينذره بما على المعاصى من العقاب وبما على الطاعة من الثواب ويحق القول على الكافرين اما قول العذاب وكلمته كما قال تعالى ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وقوله تعالى حقت كلمة العذاب وذلك لان الله تعالى قال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فاذا جاء حق التعذيب على من وجد منه التكذيب واما القول المقول فى الوحدانية والرسالة والحشر وسائر المسائل الاصولية الدينية فان القرآن فيه ذكر الدلائل التى بها تثبت المطالب ثم انه تعالى أعاد التوحيدانية ودلائل دالة عليها * فقال تعالى (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما) أى من جملة ما عملت أيدينا أى ما عملناه من غير معين ولا ظهير بل عملناه بقدرتنا وارادتنا * وقوله تعالى (فهم لها مالكون) اشارة الى اتمام الانعام فى خلق الانعام فانه تعالى لو خلقها ولم يملكها الانسان ما كان ينتفع بها * وقوله تعالى (وذللناها لهم) زيادة انعام فان المملوك اذا كان آبيا متمردا لا ينفع فلولا تذليل الانسان بملك الانعام وهى زيادة صادة لما تم الانعام الذى فى الركوب وان كان يحصل الاكل كما فى الحيوانات الوحشية بل ما كان يكمل نعمة الاكل أيضا الا بالتعب الذى فى الاصطياد ولعل ذلك لا يتهيأ للبعض وفى البعض * وقوله تعالى (فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) بيان لمنفعة التذليل اذ لولا التذليل لما وجدت احدى المنفعتين وكانت الاخرى قليلة الوجود ثم بين تعالى غير الركوب والاكل من الفوائد * بقوله تعالى (ولهم فيها منافع ومشارب) وذلك لان من الحيوانات ما لا يركب كالغنم فقال منافع لتعمها والمشارب كذلك عامة ان قلنا بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية فان من الجلود ما يتخذ أوانى للشرب والادوات من القرب وان قلنا ان المراد المشروب وهو الالبان والاسمان فهى مختصة بالاناث ولكن بسبب الذكور فان ذلك متوقف على الحمل وهو بالذكور والاناث * ثم قال تعالى (افلا يشكرون) هذه النعم التى توجب العبادة شكرا ولو شكرتم لزادكم من فضله ولو كفرتم لسلبها منكم فاو لكم أفلا تشكرون استدامة لها واستزادة فيها * ثم قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون) اشارة الى بيان زيادة ضلالهم ونهايتها فانهم كان الواجب عليهم عبادة الله شكرا لانعمه فتركوها وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال عنهم حرقوه وانصروا آلهتكم وفى الحقيقة لا هى ناصرة ولا منصورة * وقوله تعالى (لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) اشارة الى الحشر بعد تقرير التوحيد وهذا كقوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون وقوله احشروا الذين ظلموا

وأزواجهم وماكانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم وقوله أولئك فى العذاب محضرون وهو يحتمل معنيين (أحدهما) أن يكون العابدون جندا لما اتخذوه آلهة كما ذكرنا (الثانى) أن يكون الاصنام جندا للعابدين وعلى هذا ففيه معنى لطيف وهو أنه تعالى لما قال لا يستطيعون نصرهم أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال مايكونوا جندا لهم ومحضرون لنصرتهم فان ذلك دال على عدم الاستطاعة فان من حضر واجتمع ثم عجز عن النصرة يكون فى غاية الضعف بخلاف من لم يكن متأهبا ولم يجمع انصاره * وقوله تعالى (فلا يحزنك قولهم) اشارة الى الرسالة لان الخطاب معه بما يوجب تسلية قلبه دليل اجتبائه واختياره اياه * وقوله تعالى (انا نعلم مايسرون ومايعلنون) يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون ذلك تهديدا للمنافقين والكافرين فقوله مايسرون من النفاق ومايعلنون من الشرك (والثانى) مايسرون من العلم بك ومايعلنون من الكفر بك (الثالث) مايسرون من العقائد الفاسدة ومايعلنون من الافعال القبيحة ثم انه تعالى لما ذكر دليلا من الآفاق على وجوب عبادته بقوله أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما ذكر دليلا من الانفس * فقال (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة) قيل ان المراد بالانسان أبى بن خلف فان الآية وردت فيه حيث أخذ عظما باليا وأتى النبى صلى الله عليه وسلم وقال انك تقول ان الهك يحيى هذه العظام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم ويدخلك جهنم وقد ثبت فى أصول الفقه أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ألا ترى ان قوله تعالى قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها نزلت فى واحدة وأراد الكل فى الحكم فكذلك كل انسان ينكر الله أو الحشر فهذه الآية رد عليه اذا علمت عمومها فنقول فيها لطائف (اللطيفة الاولى) قوله أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا معناه الكافرون المنكرون التاركون عبادة الله المتخذون من دونه آلهة أولم يروا خلق الانعام لهم وعلى هذا فقوله تعالى أولم ير الانسان كلام أعم من قوله أولم يروا لانه مع جنس الانسان وهو مع جمع منهم فنقول سبب ذلك أن دليل الانفس أشمل وأكمل وأتم والزم فان الانسان قد يغفل عن الانعام وخلقها عند غيبتها ولكن هو مع نفسه متى مايكون وأينما يكون فقال ان غاب عن الحيوان وخلقه فهو لا يغيب عن نفسه فما باله أولم ير أنا خلقناه من نطفة وهو أتم نعمة فان سائر النعم بعد وجوده وقوله من نطفة اشارة الى وجه الدلالة وذلك لان خلقه لو كان من أشياء مختلفة الصور كان يمكن أن يقال العظم خلق من جنس صلب واللحم من جنس رخو وكذلك الحال فى كل عضو ولما كان خلقه من نطفة متشابهة الاجزاء وهو مختلف الصور دل على الاختيار والقدرة والى هذا أشار بقوله تعالى يسقى بماء واحد * وقوله (فاذا هو خصيم مبين) (فيه لطيفة) غريبة وهى انه تعالى قال اختلاف صور أعضائه مع تشابه أجزاء ما خلق منه آية ظاهرة ومع هذا فهنالك ماهو أظهر وهو نطقه وفهمه وذلك لان النطفة جسم فهب ان جاهلا يقول انه استحال

وحفظهم فينعزل من ذلك والنهى وان كان بحسب الظاهر متوجها الى قولهم لكنه فى الحقيقة متوجه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى له عليه السلام عن التأثر منه بطريق الكناية على أبلغ وجه وآكده فان النهى عن أسباب الشئ ومباديه المؤدية اليه نهى عنه بالطريق البرهانى وابطال للسببية وقد يوجه النهى الى المسبب ويراد النهى عن السبب كما فى قوله لا أرينك ههنا يريد به نهى مخاطبه عن الحضور لديه ﴿١١٧﴾ والمراد بقولهم ماينبئ عنه ما ذكر من اتخاذهم الاصنام آلهة فان ذلك مما لا يخلو عن التفوه بقولهم هؤلاء آلهتنا وانهم شركاء الله سبحانه فى المعبودية وغير ذلك مما يورث الحزن وقرئ يحزنك بضم الياء وكسر الزاى من أحزن المنقول من حزن اللازم وقوله تعالى (انا نعلم مايسرون ومايعلنون) تعليل صريح للنهى بطريق الاستئناف بعد تعليله بطريق الاشعار فان العلم بما ذكر مستلزم للمجازاة قطعا أى انا نجازيهم بجميع جناياتهم الخافية والبادية التى لا يعزب عن علمنا شئ منها وفيه فضل تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديم السر على العلن اما للمبالغة فى بيان شمول علمه تعالى لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع استوائهما فى الحقيقة فان علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها بل وجود كل شئ فى نفسه علم بالنسبة اليه تعالى وفى هذا المعنى لا يختلف الحال بين الاشياء البارزة والكامنة واما لان مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شئ يعلن الا وهو او مباديه مضمر فى القلب قبل ذلك فتعلق علمه تعالى بحالته الاولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة (أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة) كلام مستأنف مسوق لبيان بطلان انكارهم البعث بعد ماشاهدوا فى أنفسهم أوضح دلائله وأعدل شواهده كما أن ماسبق مسوق لبيان بطلان اشراكهم بالله تعالى بعد ما عاينوا فيما بأيديهم مايوجب التوحيد والاسلام

وتكون جسما آخر لكن القوة الناطقة والقوة الفاهمة من أين تقتضيهما النطفة فابداع النطق والفهم أعجب وأغرب من ابداع الخلق والجسم وهو الى ادراك القدرة والاختيار منه أقرب فقوله خصيم أى ناطق وانما ذكر الخصيم مكان الناطق لانه أعلى أحوال الناطق فان الناطق مع نفسه لايبين كلامه مثل ما يبينه وهو يتكلم مع غيره والمتكلم مع غيره اذا لم يكن خصما لايبين ولايجتهد مثل ما يجتهد اذا كان كلامه مع خصمه وقوله مبين اشارة الى قوة عقله واختار الابانة لان العاقل عند الافهام أعلى درجة منه عند عدمه لان المبين بان عنده الشئ ثم أبانه فقوله تعالى من نطفة اشارة الى أدنى ما كان عليه وقوله خصيم مبين اشارة الى أعلى ما حصل عليه وهذا مثل قوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة الى أن قال تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر فما تقدم من خلق النطفة علقة وخلق العلقة مضغة وخلق المضغة عظاما اشارة الى التغيرات فى الجسم وقوله ثم أنشأناه خلقا آخر اشارة الى ما أشار اليه بقوله فاذا هو خصيم مبين أى ناطق عاقل * ثم قوله تعالى (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه) اشارة الى بيان الحشر وفى هذه الآيات الى آخر السورة غرائب وعجائب نذكرها بقدر الامكان ان شاء الله تعالى فنقول المنكرون للحشر منهم من لم يذكر فيه دليلا ولاشبهة واكتفى بالاستبعاد وادعى الضرورة وهم الاكثرون ويدل عليه قوله تعالى حكاية عنهم فى كثير من المواضع بلفظ الاستبعاد كما قال وقالوا أئذا ضللنا فى الارض أئنا لفى خلق جديد أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون الى غير ذلك فكذلك ههنا قال (قال من يحيى العظام وهى رميم) على طريق الاستبعاد فبدأ أولا بابطال استبعادهم بقوله ونسى خلقه أى نسى أنا خلقناه من تراب ومن نطفة متشابهة الاجزاء ثم جعلنا لهم من النواصى الى الاقدام أعضاء مختلفة الصور والقوام وما اكتفينا بذلك حتى أودعناهم ماليس من قبيل هذه الاجرام وهو النطق والعقل الذى بهما استحقوا الاكرام فان كانوا يقنعون بمجرد الاستبعاد فهلا يستبعدون خلق الناطق العاقل من نطفة قذرة لم تكن محل الحياة أصلا ويستبعدون اعادة النطق والعقل الى محل كانا فيه ثم ان استبعادهم كان من جهة ما فى المعاد من التفتت والتفرق حيث قالوا من يحيى العظام وهى رميم اختاروا العظم للذكر لانه أبعد عن الحياة لعدم الاحساس فيه ووصفوه بما يقوى جانب الاستبعاد من البلا والتفتت والله تعالى دفع استبعادهم من جهة ما فى المعيد من القدرة والعلم فقال وضرب لنا مثلا أى جعل قدرتنا كقدرتهم ونسى خلقه العجيب وبدأه الغريب ومنهم من ذكر شبهة وان كانت فى آخرها تعود الى مجرد الاستبعاد وهى على وجهين (أحدهما) انه بعد العدم لم يبق شيا فكيف يصح على العدم الحكم بالوجود وأجاب عن هذه الشبهة * بقوله تعالى (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) يعنى كما خلق الانسان ولم يكن شيأ مذكورا كذلك يعيده وان لم يبق شيأ مذكورا (وثانيهما)

انكارهم الحشر فكلا والهمزة للانكار والتعجيب والواو للعطف على جملة مقدرة هى مستتبعة للمعطوف كما مر فى الجملة الانكارية السابقة أى ألم يتفكر الانسان ولم يعلم علما يقينيا انا خلقناه من نطفة الخ أوهى عين الجملة السابقة أعيدت تأكيدا للنكير السابق وتمهيدا لانكار ماهو أحق منه بالانكار والتعجيب لما أن المنكر هناك عدم علمهم بما يتعلق بخلق أسباب معايشهم وههنا عدم علمهم بما يتعلق بخلق أنفسهم ولاريب فى أن علم الانسان باحوال نفسه أهم واحاطته بها أسهل وأكمل فالانكار والتعجيب من الاخلال بذلك أدخل كأنه قيل ألم يعلموا خلقه تعالى لاسباب معايشهم ولم يعلموا خلقه تعالى لانفسهم أيضا مع كون العلم بذلك فى غاية الظهور ونهاية الاهمية على معنى أن المنكر الاول بعيد قبيح والثانى أبعد وأقبح ويجوز أن تكون الواو لعطف الجملة الانكارية الثانية على الاولى على أنها متقدمة فى الاعتبار وان تقدم الهمزة عليها لاقتضائها الصدارة فى الكلام كما هو رأى الجمهور وايراد الانسان مورد الضمير لان مدار الانكار متعلق بأحواله من حيث هو انسان كما فى قوله تعالى أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيأ وقوله تعالى (فاذا هو خصيم مبين) أى شديد الخصومة والجدال بالباطل عطف على الجملة المنفية داخل فى حيز الانكار والتعجيب كأنه قيل أولم ير أنا خلقناه من أخس الاشياء وأمهنها ففاجأ خصومتنا فى أمر يشهد بصحته وتحققه مبدأ فطرته شهادة بينة وايراد الجملة الاسمية للدلالة على استقراره فى الخصومة واستمراره عليها روى أن جماعة من كفار قريش منهم أبى ﴿ أن ﴾ بن خلف الجمحى وأبو جهل والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة تكلموا فى ذلك فقال لهم أبى بن خلف الاترون الى ما يقول محمد ان الله يبعث الاموات ثم قال واللات والعزى لاصيرن اليه ولاخصمنه وأخذ عظما باليا فجعل يفته بيده ويقول يا محمد أترى الله

هو بعدما كان ماء مهينا رجل مميز منطيق قادر على الخصام مبين معرب عما فى نفسه فصيح فهو حينئذ معطوف على خلقناه غير داخل تحت الانكار والتعجيب بل هو من متممات شواهد صحة البعث فقوله تعالى (وضرب لنا مثلا) معطوف حينئذ على الجملة المنفية داخل فى حيز الانكار والتقبيح وأما على التقدير الاول فهو عطف على الجملة الفجائية والمعنى ففاجأ خصومتنا وضرب لنا مثلا أى أورد فى شأننا قصة عجيبة فى نفس ﴿١١٩﴾ الامر هى فى الغرابة والبعد عن العقول كالمثل هى انكار احيائنا العظام أو عجيبة فى زعمه واستبعدها وعدها من قبيل المثل وأنكرها أشد الانكار اياها وجعل لنا التى هى احياؤنا نظيرا من الخلق وقاس قدرتنا على قدرتهم ونفى الكل على وقوله تعالى (ونسى خلقه) خلقنا اياه على الوجه المذكور الدال على بطلان ما ضرب به اما عطف على ضرب داخل فى حيز الانكار والتعجيب أو حال من فاعله باضمار قد أو بدونه وقوله تعـالى (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية ضرب المثل كأنه قيل أى مثل ضرب أو ماذا قال فقيل قال (من يحيى العظام) منكرا له أشد النكير مؤكدا له بقوله تعالى (وهى رميم) أى بالية أشد البلا بعيدة من الحياة غاية البعد فالمثل على الاول هو انكار احيائه تعالى للعظام فانه امر عجيب فى نفس الامر حقيق لغرابته وبعده من العقول بأن يعد مثلا ضرورة جزم العقول ببطلان الانكار ووقوع المنكر لكونه كالانشاء بل أهون منه فى قياس العقل وعلى الثانى هو احياؤه تعالى لها فانه أمر عجيب فى زعمه قد استبعده وعده من قبيل المثل وأنكره أشد الانكار مع أنه فى نفس الامر أقرب شئ من الوقوع لما سبق من كونه مثل الانشاء أو أهون منه وأما على الثالث فلا فرق بين أن يكون المثل هو الانكار أو المنكر وعدم تأنيث الرميم مع وقوعه خبر المؤنث لانه اسم لما بلى من العظام غير صفة كالرفات وقد تمسك بظاهر الآية الكريمة من أثبت للعظم حياة وبنى عليه الحكم بنجاسة عظم الميتة وأما

أن من تفرق أجزاؤه فى مشارق العالم ومغاربه وصار بعضه فى أبدان السباع وبعضه فى جدران الرباع كيف يجمع وأبعد من هذا هو أن انسانا اذا أكل انسانا وصار اجزاء المأكول فى أجزاء الآكل فان أعيد فاجزاء المأكول اما أن تعاد الى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول اجزاء تخلق منها اعضاؤه واما أن تعاد الى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء فقال تعالى فى ابطال هذه الشبهة (وهو بكل خلق عليم) ووجهه هو أن فى الآكل أجزاء أصلية وأجزاء فضلية وفى المأكول كذلك فاذا أكل انسان انسانا صار الاصلى من أجزاء المأكول فضليا من أجزاء الآكل والاجزاء الاصلية للآكل هى ما كان له قبل الاكل والله بكل خلق عليم يعلم الاصلى من الفضلى فيجمع الاجزاء الاصلية للآكل وينفخ فيها روحه ويجمع الاجزاء الاصلية للمأكول وينفخ فيها روحه وكذلك يجمع الاجزاء المتفرقة فى البقاع المبددة فى الاصقاع بحكمته الشاملة وقدرته الكاملة ثم انه تعالى عاد الى تقرير ما تقدم من دفع استبعادهم وابطال انكارهم وعنادهم * فقال تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون) ووجهه هو ان الانسان مشتمل على جسم يحس به وحياة سارية فيه وهى كحرارة جارية فيه فان استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه فان النار فى الشجر الاخضر الذى يقطر منه الماء أعجب وأغرب وأنتم تحضرون حيث منه توقدون وان استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والارض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فان الله خلق السموات والارض فبان لطف قوله تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون * وقوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم) قدم ذكر النار فى الشجر على ذكر الخلق الاكبر لان استبعادهم كان بالصريح واقعا على الاحياء حيث قالوا من يحيى العظام ولم يقولوا من يجمعها ويؤلفها والنار فى الشجر تناسب الحياة * وقوله تعالى (بلى وهو الخلاق) اشارة الى انه فى القدرة كامل * وقوله تعالى (العليم) اشارة الى ان علمه شامل ثم أكد بيانه * بقوله تعالى (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) وهذا اظهار فساد تمثيلهم وتشبيههم وضرب مثلهم حيث ضربوا لله مثلا وقالوا لا يقدر أحد على مثل هذا قياسا للغائب على الشاهد فقال فى الشاهد الخلق يكون بالآلات البدنيـة والانتقالات المكانية ولا يقع الا فى الازمنة الممتدة والله يخلق بكن فيكون فكيف تضربون المثل الادنى وله المثـل الاعلى من أن يدرك وفى الآية مباحث (البحث الاول) قالت المعتزلة هذه الآية دالة على أن المعدوم شئ لانه يقول لما أراده كن فيكون فهو قبل القول له كن لا يكون وهو فى تلك الحالة شئ حيث قال انما أمره اذا أراد شيئا والجواب ان هذا بيان لعدم تخلف الشئ عن تعلق ارادته به فقوله اذا مفهوم الحين والوقت والآية دالة على أن المراد شئ حين تعلق الارادة به ولا دلالة فيها على أنه شئ قبل ما اذا أراد وحينئذ لا يرد ما ذكروه لان الشئ حين تعلق الارادة به شئ

أصحابنا فلا يقولون بحياته كالشعر ويقولون المراد باحياء العظام ردها الى ما كانت عليه من الغضاضة والرطوبة فى بدن حى حساس (قل) تبكيتاله بتذكير ما نسيه من فطرته الدالة على حقيقة الحال وارشاده الى طريقة الاستشهاد بها (يحييها الذى أنشأها أول مرة) فان قدرته كما هى لاستحالة التغير فيها والمادة على حالها (وهو بكل خلق عليم) مبالغ فى العلم تفاصيل كيفيات الخلق والايجاد واعادة محيط بجميع الاجزاء المتفتتة ﴿ ١٢٠ ﴾ المتبددة لكل شخص من الاشخاص أصولها وفروعها وأوضاع بعضها من بعض من الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق فيعيد كلا من ذلك على النمط السابق مع القوى التى كانت قبل والجملة اما اعتراض تذييلى مقرر لمضمون الجواب أو معطوفة على الصلة والعدول الى الجملة الاسمية للتنبيه على أن علمه تعبب بما ذكر أمر مستمر ليس كانشائه للمنشآت وقوله تعالى (الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا) بدل من الموصول الاول وعدم الاكتفاء بعطف صلته على صلته للتأكيد ولتفاوتهما فى كيفية الدلالة أى خلق لاجلكم ومنفعتكم منه نارا على أن الجعل ابداعى والجاران متعلقان به قدما على مفعوله الصريح مع تأخرهما عنه رتبة لما مر من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ووصف الشجر بالاخضر نظرا اللفظ وقد قرئ الخضراء نظرا الى المعنى وهو المرخ والعفار يقطع الرجل منهما عصيتين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ وهو ذكر على العفار وهو أنثى فتنقدح النار باذن الله تعالى وذلك قوله تعالى (فاذا أنتم منه توقدون) فمن قدر على احداث النار من الشجر الاخضر مع ما فيه من المائية المضادة لها بكيفيته كان أقدر على اعادة الغضاضة الى ما كان غضا مطرأ عليه اليبوسة والبلا وقوله تعالى (أوليس الذى خلق السموات) الخ استئناف مسوق من جهته عز وجل لتحقيق مضمون الجواب الذى أمر عليه

موجود لا يريده فى زمان ويكون فى زمان آخر بل يكون فى زمان تعلق الارادة فاذا الشئ هو الموجود لا المعدوم لا يقال كيف يريد الموجود وهو موجود فيكون ذلك ايجادا لموجود نقول هذا الاشكال من باب المعقولات ونجيب عنه فى موضعه وانما غرضنا ابطال تمسكهم باللفظ وقد ظهر أن المفهوم من هذا الكلام انه يريد ما هو شئ اذا أراد وليس فى الآية أنه اذا أراد ما كان شيئا قبل تعلق الارادة (البحث الثانى) قالت الكرامية لله ارادة محدثة بدليل قوله تعالى اذا أراد ووجه دلالته من أمرين (أحدهما) من حيث انه جعل للارادة زمانا فان اذا ظرف زمان وكل ما هو زمانى فهو حادث (وثانيهما) هو أنه تعالى جعل ارادته متصلة بقوله كن وقوله كن متصل بكون الشئ ووقوعه لانه تعالى قال فيكون بفاء التعقيب لكن الكون حادث وما قبل الحادث متصل به حادث والفلاسفة وافقوهم فى هذا الاشكال من وجه آخر فقالوا ارادته متصلة بأمره وأمره متصل بالكون لكن ارادته قديمة فالكون قديم فكونات الله قديمة وجواب الضالين من التمسك باللفظ هو أن المفهوم من قوله اذا أراد من حيث اللغة اذا تعلقت ارادته بالشئ لان قوله أراد فعل ماض واذا دخلت كلمة اذا على الماضى تجعله فى معنى المستقبل ونحن نقول بأن مفهوم قولنا أراد ويريد وعلم ويعلم يجوز أن يدخله الحدوث وانما نقول لله تعالى صفة قديمة هى الارادة وتلك الصفة اذا تعلقت بشئ نقول أراد ويريد وقبل التعلق لا نقول أراد وانما نقول له ارادة وهو بها مريد ولنضرب مثالا للافهام الضعيفة ليزول ما يقع فى الاوهام السخيفة فنقول قولنا فلان خياط يراد به أن له صنعة الخياطة فلولم يصح منا أن نقول انه خاط ثوب زيد أو يخيط ثوب زيد لا يلزم منه نفى صحة قولنا انه خياط بمعنى ان له صنعة بها يطلق عليه عند استعماله تلك الصنعة فى ثوب زيد فى زمان ماض خاط ثوبه وبها يطلق عليه عند استعماله الصنعة فى ثوب زيد فى زمان مستقبل يخيط ثوبه ولله المثل الاعلى فافهم أن الارادة أمر ثابت ان تعلقت بوجود شئ نقول أراد وجوده أى يريد وجوده واذا علمت هذا فهو فى المعنى من كلام أهل السنة تعلق الارادة حادث وخرج بما ذكرنا جواب الفريقين (البحث الثالث) قالت المعتزلة والكرامية كلام الله حرف وصوت وحادث لان قوله كن كلام وكن من حرفين والحرف من الصوت ويلزم من هذا ان كلامه من الحروف والاصوات وأما انه حادث فلما تقدم من الوجهين (أحدهما) انه زمانى (والثانى) أنه متصل بالكون والكون حادث والجواب يعلم مما ذكرنا وذلك لان الكلام صفة اذا تعلقت بشئ نقول قال ويقول فتعلق الخطاب حادث والكلام قديم فقوله تعالى انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فيه تعلق واضافة لان قوله تعالى يقول له باللام للاضافة صريح فى التعلق ونحن نقول ان قوله للشئ الحادث حادث لانه مع التعلق وانما القديم قوله وكلامه لا مع التعلق وكل قديم وحادث اذا نظرت الى مجموعهما لا تجدهما فى الازل وانما تجدهما جميعا فيما لا يزال فله

بذلك ويلزمهم الحجة والهمزة للانكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أليس الذي انشأها أول مرة وليس الذي جعل لهم من الشجر الأخضر نارا ﴿١٢١﴾ وليس الذي خلق السموات والارض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما (بقادر على أن يخلق مثلهم) في الصغر والقماءة بالنسبة اليهما فان بديهة العقل قاضية بأن من قدر على خلقهما فهو على خلق الأناسي أقدر كما قال تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وقرئ يقدر وقوله تعالى (بلى) جواب من جهته تعالى وتصريح بما أفاده الاستفهام الانكاري من تقرير ما بعد النفي وايذان بتعين الجواب نطقوا به او تلعثموا فيه مخافة الالزام وقوله تعالى (وهو الخلاق العليم) عطف على ما يفيده الايجاب أي بلى هو قادر على ذلك وهو المبالغ في الخلق والعلم كيفا وكما (انما أمره) أي شأنه (اذا اراد شيئا) من الاشياء (أن يقول له كن) أي أن يعلق به قدرته (فيكون) فيحدث من غير توقف على شيء آخر أصلا وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر الآمر المطاع للمأمور المطيع في سرعة حصول المأمور به من غير توقف على شيء ما وقرئ فيكون بالنصب عطفا على يقول

معنى الحدوث ولكن الاطلاق موهم فتفكر جدا ولا تقل المجموع حادث من غير بيان مرادك فان ذلك قد يفهم منه ان الجميع حادث بل حقق الاشارة وجود العبارة وقل أحد طرفي المجموع قديم والآخر حادث ولم يكن الآخر معه في الازل واما قوله كن من الحروف نقول الكلام يطلق على معنيين (أحدهما) ما عند المتكلم (والثاني) ما عند السامع ثم ان أحدهما يطلق عليه انه هو الآخر ومن هذا يظهر فوائد أما بيان ما ذكرناه فلان الانسان اذا قال لغيره عندي كلام أريد أن أقوله لك غدا ثم ان السامع أتاه غدا وسأله عن الكلام الذي عنده أمس فيقول له اني أريد أن تحضر عندي اليوم فهذا الكلام أطلق عليه المتكلم انه كان عندك أمس ولم يكن عند السامع ثم حصل عند السامع بحرف وصوت ويطلق عليه أن هذا الذي سمعت هو الذي كان عندي ويعلم كل عاقل أن الصوت لم يكن عند المتكلم أمس ولا الحرف لان الكلام الذي عنده جاز أن يذكره بالعربي فيكون له حروف وجاز أن يذكره بالفارسية فيكون له حروف أخر والكلام الذي عنده ووعد به واحد والحروف مختلفة كثيرة فاذا معنى قوله هذا ما كان عندي هو ان هذا يؤدي اليك ما كان عندي وهذا أيضا مجاز لان الذي عنده ما انتقل اليه وانما علم ذلك وحصل عنده به علم مستفاد من السمع أو البصر في القراءة والكتابة أو الاشارة اذا علمت هذا فالكلام الذي عند الله وصفة له ليس بحرف على ما بان والذي يحصل عند السامع حرف وصوت وأحدهما الآخر لما ذكرنا من المعنى وتوسع الاطلاق فاذا قال تعالى يقول له حصل قائل وسامع فاعتبرها من جانب السامع لكون وجود الفعل من السامع لذلك القول فعبر عنه بالكاف والنون الذي يحدث عند السامع ويحدث به المطلوب * ثم قال تعالى (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون) لما تقررت الوحدانية والاعادة وأنكروها وقالوا بأن غير الله آلهة قال تعالى وتنزه عن الشريك الذي بيده ملكوت كل شيء وكل شيء ملكه فكيف يكون المملوك للمالك شريكا وقالوا بأن الاعادة لا تكون فقال واليه ترجعون ردا عليهم في الامرين وقد ذكرنا ما يتعلق بالنحو في قوله سبحان أي سبحوا تسبيح الذي أو سبح من في السموات والارض تسبيح الذي فسبحان علم للتسبيح والتسبيح هو التنزيه والملكوت مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت وهو فعلول أو فعلوت فيه كلام ومن قال هو فعلول جعلوه ملحقا به * ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس وقال الغزالي فيه ان ذلك لان الايمان صحته بالاعتراف بالحشر والحشر مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه فجعله قلب القرآن لذلك واستحسنه فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى سمعته يترحم عليه بسبب هذا الكلام ويمكن ان يقال بأن هذه السورة ليس فيها الا تقرير الاصول الثلاثة بأقوى البراهين فابتداؤها بيان الرسالة بقوله انك لمن المرسلين ودليلها ما قدمه عليها بقوله والقرآن الحكيم وما أخر عنها بقوله لتنذر قوما وانتهاؤها بيان الوحدانية والحشر بقوله فسبحان الذي بيده

ملكوت كل شئ اشارة الى التوحيد وقوله واليه ترجعون اشارة الى الحشر وليس في هذه السورة الا هذه الاصول الثلاثة ودلائله وثوابه ومن حصل من القرآن هذا القدر فقد حصل نصيب قلبه وهو التصديق الذي بالجنان واما وظيفة اللسان التي هي القول فكما في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا وفي قوله تعالى ومن أحسن قولا وقوله تعالى بالقول الثابت وألزمهم كلمة التقوى واليه يصعد الكلم الطيب الى غير هذه مما في غير هذه السورة وظيفة الاركان وهو العمل كما في قوله تعالى وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وقوله تعالى ولا تقربوا الزنا ولا تقتلوا النفس وقوله واعملوا صالحا وأيضا مما في غير هذه السورة فلما لم يكن فيها الا أعمال القلب لاغير سماها قلبا ولهذا ورد في الاخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم ندب الى تلقين يس لمن دنا منه الموت وقراءتها عند رأسه لان في ذلك الوقت يكون اللسان ضعيف القوة والاعضاء الظاهرة ساقطة البنية لكن القلب يكون قد اقبل على الله ورجع عن كل ما سواه فيقرأ عند رأسه مايزاد به قوة قلبه ويشتد تصديقه بالاصول الثلاثة وهي شفاؤه وأسرار كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لايعلمها الا الله ورسوله وماذكرناه ظن لانقطع به ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين تم تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين

(سورة الصفات مائة واثنان وثمانون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ان الهكم لواحد رب السموات والارض ومابينهما ورب المشارق) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو وحمزة والصافات صفا بادغام التاء فيما يليه وكذلك في قوله فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا والباقون بالاظهار وقال الواحدي رحمه الله ادغام التاء في الصاد حسن لمقاربة الحرفين الاترى انهما من طرف اللسان وأصول الثنايا يسمعان في الهمس والمدغم فيه يزيد على المدغم بالاطباق والصفير وادغام الانقص في الازيد حسن ولا يجوز أن يدغم الازيد في الانقص وأيضا ادغام التاء في الزاي في قوله فالزاجرات زجرا حسن لان التاء مهموسة والزاي مجهورة وفيها زيادة صفير كما كان في الصاد وأيضا حسن ادغام التاء في الذال في قوله فالتاليات ذكرا لاتفاقهما في انهما من طرف اللسان وأصول الثنايا واما من قرأ بالاظهار وترك الادغام فذلك لاختلاف المخارج والله أعلم (المسئلة الثانية) في هذه الاشياء الثلاثة المذكورة المقسم بها يحتمل أن تكون صفات ثلاثة لموصوف واحد ويحتمل أن تكون أشياء ثلاثة متباينة اما على التقدير الأول ففيه وجوه (الاول) انها صفات الملائكة وتقديره أن الملائكة يقفون صفوفا اما في السموات لاداء العبادات كما أخبر الله عنهم انهم قالوا وانا لنحن الصافون وقيل انهم يصفون أجنحتهم في الهواء

(فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ) تنزيه له عز وعلا عما وصفوه تعالى به وتعجيب مما قالوا في شأنه تعالى وقد مر تحقيق معنى سبحان والفاء للاشارة الى أن مافصل من شؤنه تعالى موجبة لتنزهه وتنزيهه أكمل ايجاب كما أن وصفه تعالى بالمالكية الكلية المطلقة للاشعار بأنها مقتضية لذلك أتم اقتضاء والملكوت مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت وقرئ ملكة كل شئ ومملكة كل شئ وملك كل شئ (واليه ترجعون) لا الى غيره وقرئ ترجعون بفتح التاء من الرجوع وفيه من الوعد والوعيد مالايخفى *عن ابن عباس رضي الله عنهما كنت لا أعلم ماروى في فضائل يس وقراءتها كيف خصت بذلك فاذا انه لهذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لكل شئ قلبا وان قلب القرآن يس من قرأها يريد بها وجه الله تعالى غفر الله له وأعطي من الاجر كأنما قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة وأيما مسلم قرئ عنده اذا نزل به ملك الموت سورة يس نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفا يصلون عليه ويستغفرون له ويشهدون غسله ويتبعون جنازته ويصلون عليه ويشهدون دفنه وايما مسلم قرأ يس وهو في سكرات الموت لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان خازن الجنة بشربة

﴿ ويقفون ﴾

من شراب الجنة فيشربها وهو على فراشه فيقبض ملك الموت روحه وهو ريان ويمكث فى قبره وهو ريان ولا يحتاج الى حوض من حياض الانبياء حتى يدخل الجنة ﴿ ١٢٣ ﴾ وهو ريان وقال صلى الله تعالى عليه وسلم ان فى القرآن سورة

و يقفون منتظرين بوصول أمر الله اليهم و يحتمل أيضا أن يقال معنى كونهم صفوفا أن لكل واحد منهم مرتبة معينة ودرجة معينة فى الشرف والفضيلة أو فى الذات والعلية وتلك الدرجة المرتبة باقية غير متغيرة وذلك يشبه الصفوف وأما قوله فالزاجرات زجرا فقال الليث يقال زجرت البعير فأنا أزجره زجرا اذا أحثثته ليمضى وزجرت فلانا عن سوء فانزجر أى نهيته فانتهى فعلى هذا الزجر للبعير كالحث وللانسان كالنهى اذا عرفت هذا فنقول فى وصف الملائكة بالزجر وجوه (الاول) قال ابن عباس يريد الملائكة الذين وكلوا بالسحاب يزجرونها بمعنى انهم يأتون بها من موضع الى موضع (الثانى) المراد منه ان الملائكة لهم تأثيرات فى قلوب بنى آدم على سبيل الالهامات فهم يزجرونهم عن المعاصى زجرا (الثالث) لعل الملائكة أيضا يزجرون الشياطين عن التعرض لبنى آدم بالشر والايذاء وأقول قد ثبت فى العلوم العقلية أن الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثر لا يقبل الاثر وهو الله سبحانه وتعالى وهو أشرف الموجودات ومتأثر لا يؤثر وهو عالم الاجسام وهو أخس الموجودات وموجود يؤثر فى شىء ويتأثر عن شىء آخر وهو عالم الارواح وذلك لانها تقبل الاثر عن عالم كبرياء الله ثم انها تؤثر فى عالم الاجسام واعلم أن الجهة التى باعتبارها تقبل الاثر من عالم كبرياء الله غير الجهة التى باعتبارها تستولى على عالم الاجسام وتقدر على التصرف فيها وقوله فالتاليات ذكرا اشارة الى الاشرف من الجهة التى باعتبارها تقوى على التأثير فى عالم الاجسام اذا عرفت هذا فقوله والصافات صفا اشارة الى وقوفها صفا صفا فى مقام العبودية والطاعة بالخشوع والخضوع وهى الجهة التى باعتبارها تقبل تلك الجواهر القدسية أصناف الانوار الالهية والكمالات الصمدية وقوله تعالى فالزاجرات زجرا اشارة الى تأثير الجواهر الملكية فى تنوير الارواح القدسية البشرية واخراجها من القوة الى الفعل وذلك لما ثبت أن هذه الارواح النطقية البشرية بالنسبة الى أرواح الملائكة كالقطرة بالنسبة الى البحر وكالشعلة بالنسبة الى الشمس وان هذه الارواح البشرية انما تنتقل من القوة الى الفعل فى المعارف الالهية والكمالات الروحانية بتأثيرات جواهر الملائكة ونظيره قوله تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده وقوله نزل به الروح الامين على قلبك وقوله تعالى فالملقيات ذكرا اذا عرفت هذا فنقول فى هذه الآية دقيقة أخرى وهى ان الكمال المطلق للشىء انما يحصل اذا كان تاما وفوق التام والمراد بكونه تاما أن تحصل جميع الكمالات اللائقة به حصولا بالفعل والمراد بكونه فوق التام أن تفيض منه أصناف الكمالات والسعادات على غيره ومن المعلوم ان كونه كاملا فى ذاته مقدم على كونه مكملا لغيره اذا عرفت هذا فقوله والصافات صفا اشارة الى استكمال جواهر الملائكة فى ذواتها وقت وقوفها فى مواقف العبودية وصفوف الخدمة والطاعة وقوله تعالى فالزاجرات زجرا اشارة الى كيفية تأثيراتها فى ازالة مالا ينبغى عن جواهر الارواح البشرية وقوله تعالى فالتاليات ذكرا

تشفع لقارئها وتستغفر لمستمعها الا وهى سورة يس * (سورة والصافات مكية وآيها مائة واحدى أو اثنتان وثمانون آية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) * (والصافات صفا) اقسام من الله عز وجل بطوائف الملائكة الفاعلات للصفوف على أن المراد ايقاع نفس الفعل من غير قصد الى المفعول أو الصافات أنفسها أى الناظمات لها فى سلك الصفوف بقيامها فى مقاماتها المعلومة حسبما ينطق به قوله تعالى ومامنا الا له مقام معلوم وعلى هذين المعنيين مدار قوله تعالى وانا لنحن الصافون وقيل الصافات أقدامها فى الصلاة وقيل اجنحتها فى الهواء (فالزاجرات زجرا) أى الفاعلات للزجر او الزاجرات لما نيط به زجره من الاجرام العلوية والسفلية وغيرها على وجه يليق بالزجر ومن جملة ذلك زجر العباد عن المعاصى وزجر الشياطين عن الوسوسة والاغواء وعن استراق السمع كما سيأتى وصفا وزجرا مصدران مؤكدان لما قبلهما أى صفا بديعا وزجرا بليغا وأما ذكرا

فى قوله تعالى (فالتاليات ذكرا) مفعول التاليات أى التاليات ذكرا عظيم الشان من آيات الله تعالى وكتبه المنزلة على الانبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرها من التسبيح والتقديس والتحميد والتمجيد وقيل هو ايضا مصدر مؤكد لماقبله فان التلاوة من باب الذكر ثم ان هذه الصفات ان أجريت على الكل فعطفها بالفاء للدلالة على ترتبها فى الفضل أما يكون الفضل للصف ثم للزجر ثم للتلاوة أو على العكس وان أجريت كل واحدة منهن على طوائف معينة فهو للدلالة على ترتب الموصوفات فى مراتب الفضل بمعنى أن طوائف الصافات ذوات فضل والزاجرات أفضل والتاليات أبهر فضلا أو على العكس وقيل المراد بالمذكورات نفوس العلماء العمال الصافات أنفسها فى صفوف الجماعات وأقدامها فى الصلوات الزاجرات بالمواعظ والنصائح التاليات آيات الله تعالى الدارسات شرائعه وأحكامه وقيل طوائف الغزاة الصافات أنفسهم فى مواطن الحروب كأنهم بنيان مرصوص أو طوائف قوادهم الصافات لهم فيها الزاجرات الخيل للجهاد سوقا والعدو فى المعارك طردا التاليات آيات الله تعالى وذكره وتسبيحه فى تضاعيف ذلك والكلام فى العطف ولالته على ترتب الصافات فى الفضل او ترتب موصوفاتها فيه ﴿ مايقال ﴾

اشارة الى كيفية تأثيراتها فى افاضة الجلايا القدسية والانوار الالهية على الارواح الناطقة البشرية فهذه مناسبات عقلية واعتبارات حقيقية تنطبق عليها هذه الالفاظ الثلاثة قال أبو مسلم الاصفهانى لايجوز حمل هذه الالفاظ على الملائكة لانها مشعرة بالتأنيث والملائكة مبرؤن عن هذه الصفة والجواب من وجهين (الاول) ان الصافات جمع الجمع فانه يقال جماعة صافة ثم يجمع على صافات (والثانى) انهم مبرؤن عن التأنيث المعنوى أما التأنيث فى اللفظ فلا وكيف وهم يسمون بالملائكة مع أن علامة التأنيث حاصلة فى هذا الوجه (الثانى) ان تحمل هذه الصفات على النفوس البشرية الطاهرة المقدسة المقبلة على عبودية الله تعالى الذين هم ملائكة الارض وبيانه من وجهين (الاول) ان قوله تعالى والصافات صفا المراد الصفوف الحاصلة عند أداء الصلوات بالجماعة وقوله فالزاجرات زجرا اشارة الى قراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كأنهم بسبب قراءة هذه الكلمة يزجرون الشياطين عن القاء الوساوس فى قلوبهم فى اثناء الصلاة وقوله فالتاليات ذكرا اشارة الى قراءة القرآن فى الصلاة وقيل فالزاجرات زجرا اشارة الى رفع الصوت بالقراءة كأنه يزجر الشيطان بواسطة رفع الصوت روى انه صلى الله عليه وسلم طاف على بيوت أصحابه فى الليالى فسمع أبابكر يقرأ بصوت منخفض وسمع عمر يقرأ بصوت رفيع فسأل أبابكر لم تقرأ هكذا فقال المعبود سميع عليم وسأل عمر لم تقرأ هكذا فقال أوقظ الوسنان وأطرد الشيطان (الوجه الثانى) فى تفسير هذه الالفاظ الثلاث فى هذه الآية ان المراد من قوله والصافات صفا الصفوف الحاصلة من العلماء المحقين الذين يدعون الى دين الله تعالى والمراد من قوله والزاجرات زجرا اشتغالهم بالزجر عن الشبهات والشهوات والمراد من قوله تعالى فالتاليات ذكرا اشتغالهم بالدعوة الى دين الله والترغيب فى العمل بشرائع الله (الوجه الثالث) فى تفسير هذه الالفاظ الثلاثة أن نحملها على احوال الغزاة والمجاهدين فى سبيل الله فقوله والصافات صفا المراد منه صفوف القتال لقوله تعالى ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا وأما الزاجرات زجرا فالزجرة والصيحة سواء والمراد منع رفع الصوت بزجر الخيل وأما التاليات ذكرا فالمراد اشتغال الغزاة وقت شروعهم فى محاربة العدو بقراءة القرآن وذكر الله تعالى بالتهليل والتقديس (الوجه الرابع) فى تفسير هذه الالفاظ الثلاثة ان نجعلها صفات لآيات القرآن فقوله والصافات صفا المراد آيات القرآن فانها انواع مختلفة بعضها فى دلائل التوحيد وبعضها فى دلائل العلم والقدرة والحكمة وبعضها فى دلائل النبوة وبعضها فى دلائل المعاد وبعضها فى بيان التكليف والاحكام وبعضها فى تعليم الاخلاق الفاضلة وهذه الآيات مرتبة ترتيبا لايتغير ولايتبدل فهذه الآيات تشبه اشخاصا واقفين فى صفوف معينة وقوله فالزاجرات زجرا المراد منه الآيات الزاجرة عن الافعال المنكرة وقوله فالتاليات ذكرا المراد منه الآيات الدالة على وجوب الاقدام على أعمال البر والخير وصف الآيات بكونها تالية على قانون

كالذي سلف واما الدلالة على الترتب في الوجود كما في قوله يالهف زيابة للحرث الصابح فالغانم فالآيب فغير ظاهرة
في شيء من الطوائف المذكورة فانه ﴿١٢٥﴾ وسلم تقدم الصف على الزجر في الملائكة والقراءة فتأخر التلاوة عن الزجر

مايقال شعر شاعر وكلام قائل قال تعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم وقال يس والقرآن الحكيم قيل الحكيم بمعنى الحاكم فهذه جملة الوجوه المحتملة على تقدير ان تجعل هذه الالفاظ الثلاثة صفات لشيء واحد (وأما الاحتمال الثاني) وهو أن يكون المراد بهذه الثلاثة أشياء متغايرة فقيل المراد بقوله والصافات صفا الطير من قوله تعالى والطير صافات والزاجرات كل ما زجر عن معاصي الله والتاليات كل ما يتلى من كتاب الله وأقول فيه وجه آخر وهو أن مخلوقات الله اما جسمانية واما روحانية أما الجسمانية فانها مرتبة على طبقات ودرجات لا تتغير البتة فالارض وسط العالم وهي محفوفة بكرة الماء والماء محفوف بالهواء والهواء محفوف بالنار ثم هذه الاربعة محفوفة بكرات الافلاك الى آخر العالم الجسماني فهذه الاجسام كأنها صفوف واقفة على عتبة جلال الله تعالى وأما الجواهر الروحانية الملكية فهي على اختلاف درجاتها وتباين صفاتها مشتركة في صفتين أحدهما التأثير في عالم الاجسام بالتحريك والتصريف واليه الاشارة بقوله فالزاجرات زجرا فانا بينا أن المراد من هذا الزجر السوق والتحريك والثاني الادراك والمعرفة والاستغراق في معرفة الله تعالى والثناء عليه واليه الاشارة بقوله تعالى فالتاليات ذكرا ولما كان الجسم أدنى منزلة من الارواح المستقلة فالتصرف في الجسمانيات أدون منزلة من الارواح المستغرقة في معرفة جلال الله المقبلة على تسبيح الله كما قال ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته لا جرم بدأ في المرتبة الاولى بذكر الاجسام فقال والصافات صفا ثم ذكر في المرتبة الثانية الارواح المدبرة لاجسام هذا العالم ثم ذكر في هذه المرتبة الثالثة أعلى الدرجات وهي الارواح المقدسة المتوجهة بكليتها الى معرفة جلال الله والاستغراق في الثناء عليه فهذه احتمالات خطرت بالبال والعالم باسرار كلام الله تعالى ليس الا الله (المسئلة الثالثة) للناس في هذا الموضع قولان (الاول) قول من يقول المقسم به ههنا خالق هذه الاشياء لا أعيان هذه الاشياء واحتجوا عليه بوجوه (الاول) انه صلى الله عليه وسلم نهى عن الحلف بغير الله فكيف يليق بحكمة الله أن يحلف بغير الله (والثاني) ان الحلف بالشيء في مثل هذا الموضع تعظيم عظيم للمحلوف به ومثل هذا التعظيم لا يليق الا بالله (الثالث) أن هذا الذي ذكرناه تأكد بما أنه تعالى صرح به في بعض السور وهو قوله تعالى والسماء ومابناها والارض وماطحاها ونفس وماسواها (والقول الثاني) قول من يقول ان القسم واقع باعيان هذه الاشياء واحتجوا عليه بوجوه (الاول) أن القسم وقع بهذه الاشياء بحسب ظاهر اللفظ فالعدول عنه خلاف الدليل (والثاني) أنه تعالى قال والسماء ومابناها فعلق لفظ القسم بالسماء ثم عطف عليه القسم بالباني للسماء فلو كان المراد من القسم بالسماء القسم بمن بنى السماء لزم التكرار في موضع واحد وانه لا يجوز (الثالث) انه لا يبعد أن تكون الحكمة في قسم الله تعالى بهذه الاشياء التنبيه على شرف ذواتها

غير ظاهر وقيل الصافات الطير من قوله تعالى والطير صافات والزاجرات كل ما يزجر عن المعاصي والتاليات كل من يتلو كتاب الله تعالى وقيل الزاجرات القوارع القرآنية وقرئ بادغام التاء في الصاد والزاي والذال (ان الهكم لواحد) جواب للقسم والجملة تحقيق للحق الذي هو التوحيد بما هو المألوف في كلامهم من التأكيد القسمي وتمهيد لما يعقبه من البرهان الناطق به أعني قوله تعالى (رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق) فان وجودها وانتظامها على هذا النمط البديع من أوضح دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وأعدل شواهد وحدته كما في قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ورب خبر ثان لان أو خبر لمبتدأ محذوف أي مالك السموات والارض وما بينهما من الموجودات ومربيها ومبلغها الى كمالاتها والمراد بالمشارق مشارق الشمس واعادة الرب فيها لغاية ظهور آثار الربوبية فيها وتجددها كل يوم فانها ثلثمائة

وستون مشرقا تشرق كل يوم من مشرق منها وبحسبها تختلف المغارب وتغرب كل يوم في مغرب منها وأما قوله تعالى رب المشرقين ورب المغربين فهما مشرقا الصيف والشتاء ومغرباهما ﴿١٢٦﴾ (انا زينا السماء الدنيا) أى القربى منكم (بزينة) عجيبة بديعة (الكواكب) بالجر بدل من زينة على أن المراد بها الاسم أى مايزان به لا المصدر فان الكواكب بانفسها وأوضاع بعضها من بعض زينة وأى زينة وقرئ بالاضافة على أنها بيانية لما أن الزينة مبهمة صادقة على كل ما يزان به فتقع الكواكب بيانا لها ويجوز أن يراد بزينة الكواكب مازينت هى به وهو ضوؤها وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما بزينة الكواكب بضوء الكواكب هذا وأما على تقدير كون الزينة مصدرا فالمعنى على تقدير اضافتها الى الفاعل بان زانت الكواكب اياها وأصله بزينة الكواكب وعلى تقدير اضافتها الى المفعول بان زان الله الكواكب وحسنها وأصله بزينة الكواكب والمراد هو التزيين فى رأى العين فان جميع الكواكب من الثوابت والسيارات تبدو للناظرين كأنها جواهر متلألئة فى سطح سماء الدنيا بصور بديعة واشكال رائعة ❊ لاعمال ❊ ولا يقدح فى ذلك ارتكاز الثوابت فى الفلك الثامن وما عدا القمر فى الستة المتوسطة

وكمال حقائقها لاسيما اذا حملنا هذه الالفاظ على الملائكة فانه تكون الحكمة فى القسم بها التنبيه على جلالة درجاتها وكمال مراتبها والله أعلم فان قيل ذكر الحلف فى هذا الموضع غير لائق وبيانه من وجوه (الاول) ان المقصود من هذا القسم اما اثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر والاول باطل لان المؤمن مقر به من غير هذا الحلف والثانى باطل لان الكافر لا يقر به سواء حصل الحلف أولم يحصل فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات (الثانى) انه تعالى حلف فى أول هذه السورة على ان الاله واحد وحلف فى أول سورة والذاريات على أن القيامة حق فقال والذاريات ذروا الى قوله انما توعدون لصادق وان الدين لواقع واثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف واليمين لايليق بالعقلاء والجواب من وجوه (الاول) انه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة فى سائر السور بالدلائل اليقينية فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيد الما تقدم لاسيما والقرآن انما أنزل بلغة العرب واثبات المطالب بالحلف واليمين طريقة مألوفة عند العرب (والوجه الثانى) فى الجواب انه تعالى لما أقسم بهذه الاشياء على صحة قوله تعالى ان الهكم لواحد ذكر عقيبه ماهو كالدليل اليقينى فى كون الاله واحدا وهو قوله تعالى رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق وذلك لانه تعالى بين فى قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ان انتظام احوال السموات والارض يدل على ان الاله واحد فههنا قال ان الهكم لواحد أردفه بقوله رب السموات والارض وما بينهما ورب المشارق كأنه قيل قد بينا ان النظر فى انتظام هذا العالم يدل على كون الاله واحدا فتأملوا فى ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد (الوجه الثالث) فى الجواب ان المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الاصنام فى قولهم بانها آلهة فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ فى السقوط والركاكة الى حيث يكفى فى ابطالها مثل هذه الحجة والله أعلم (المسئلة الرابعة) اما دلالة أحوال السموات والارض على وجود الاله القادر العالم الحكيم وعلى كونه واحدا منزها عن الشريك فقد سبق تقريرها فى هذا الكتاب مرارا وأطوارا وأما قوله تعالى ورب المشارق فيحتمل أن يكون المراد مشارق الشمس قال السدى المشارق ثلثمائة وستون مشرقا وكذلك المغارب فانه تطلع الشمس كل يوم من مشرق وتغرب كل يوم فى مغرب ويحتمل أن يكون المراد مشارق الكواكب لان لكل كوكب مشرقا ومغربا فان قيل لم اكتفى بذكر المشارق قلنا لوجهين (الاول) أنه اكتفى بذكر المشارق كقوله تقيكم الحر والثانى أن الشروق أقوى حالا من الغروب وأكثر نفعا من الغروب فذكر الشرق تنبيها على كثرة احسان الله تعالى على عباده ولهذه الدقيقة استدل ابراهيم عليه السلام بالمشرق فقال ان الله يأتى بالشمس من المشرق (المسئلة الخامسة) احتج الاصحاب بقوله تعالى رب السموات والارض وما بينهما على كونه تعالى خالقا

لاعمال العباد قالوا لان أعمال العباد موجودة فيما بين السموات والارض وهذه الآية دالة على ان كل ماحصل بين السموات والارض فالله ربه ومالكه فهذا يدل على ان فعل العبد حصل بخلق الله وان قالوا الاعراض لايصح وصفها بانها حصلت بين السموات والارض لان هذا الوصف انما يليق بما يكون حاصلا فى حيز وجهة والاعراض ليست كذلك قلنا انها لما كانت حاصلة فى الاجسام الحاصلة بين السموات والارض فهى أيضا حاصلة بين السماء والارض * ثم قال تعالى (انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لايسمعون الى الملا الاعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب الامن خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة وحفص عن عاصم زينة منونة الكواكب بالجر وهو قراءة مسروق بن الاجدع قال الفراء وهو رد معرفة على نكرة كما قال بالناصية ناصية فرد نكرة على معرفة وقال الزجاج الكواكب بدل من الزينة لانها هى كما تقول مررت بأبى عبدالله زيد وقرأ عاصم بالتنوين فى الزينة ونصب الكواكب قال الفراء يريد زينا الكواكب وقال الزجاج يجوز أن تكون الكواكب فى النصب بدلا من قوله بزينة لان بزينة فى موضع نصب وقرأ الباقون بزينة الكواكب بالجر على الاضافة (المسئلة الثانية) بين تعالى انه زين السماء الدنيا وبين انه انما زينها لمنفعتين (احداهما) تحصيل الزينة (والثانية) الحفظ من الشيطان المارد فوجب ان نحقق الكلام فى هذه المطالب الثلاثة (أما الاول) وهو تزيين السماء الدنيا بهذه الكواكب فلقائل أن يقول انه ثبت فى علم الهيئة ان هذه الثوابت مركوزة فى الكرة الثامنة وان السيارات الستة مركوزة فى الكرات الستة المحيطة بسماء الدنيا فكيف يصح قوله انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب والجواب أن الناس الساكنين على سطح كرة الارض اذا نظروا الى السماء فانهم يشاهدونها مزينة بهذه الكواكب فصح قوله تعالى انا زينا السما الدنيا بزينة الكواكب وعلى انا قد بينا فى علم الهيئة ان الفلاسفة لم يتم لهم دليل فى بيان ان هذه الكواكب مركوزة فى الفلك الثامن ولعلنا شرحنا هذا الكلام فى تفسير سورة تبارك الذى بيده الملك فى تفسير قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح (وأما المطلوب الثانى) وهو كون هذه الكواكب زينة السماء الدنيا ففيه بحثان (البحث الاول) ان الزينة مصدر كالنسبة واسم لما يزان به كالليقة اسم لما تلاق به الدواة قال صاحب الكشاف وقوله بزينة الكواكب يحتملهما فان أردت المصدر فعلى اضافته الى الفاعل أى بأن زينتها الكواكب أو على أضافته الى المفعول أى بأن زان الله الكواكب وحسنها لانها انما زينت السماء بحسنها فى أنفسها وان أردت الاسم فللاضافة وجهان أن تقع الكواكب بيانا للزينة لان الزينة قد تحصل بالكواكب وبغيرها وان يراد ما زينت به الكواكب (البحث الثانى) فى بيان كيفية كون الكواكب زينة للسماء

ان ثبت ذلك (وحفظا) منصوب امابعطفه على زينة باعتبار المعنى كانه قيل انا خلقنا الكواكب زينة للسماء وحفظا (من كل شيطان مارد) أى خارج عن الطاعة

برمى الشهب وامابإضمار فعله واما بتقدير فعل مؤخر معلل به كأنه قيل وحفظا من كل شيطان مارد زينا بالكواكب كقوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وقوله تعالى (لايسمعون الى الملا الاعلى) كلام مبتدأ مسوق لبيان حالهم بعد بيان حفظ السماء عنهم مع التنبيه على كيفية الحفظ ومايعتريهم فى أثناء ذلك من العذاب ولاسبيل الى جعله صفة لكل شيطان ولاجوابا عن سؤال مقدر لعدم استقامة المعنى ولاعلة للحفظ على أن يكون الاصل لئلا يسمعوا فحذفت اللام كما حذفت من قولك جئتك أن تكرمنى فبقى أن لايسمعوا ثم يحذف أن ويهدر عملها كما فى قول من قال * ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى * لما أن كل واحد من ذينك الحذفين غير منكر بانفراده فاما اجتماعهما فمن أنكر المنكرات التى يجب تنزيه ساحة التنزيل الجليل عن أمثالها وأصل يسمعون يتسمعون والملأ الاعلى الملائكة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هم الكتبة وعنه أشراف الملائكة عليهم

وجوه (الاول) أن النور والضوء أحسن الصفات وأكملها فان تحصل هذه الكواكب المشرقة المضيئة فى سطح الفلك لاجرم بقى الضوء والنور فى جرم الفلك بسبب حصول هذه الكواكب فيها قال ابن عباس بزينة الكواكب أى بضوء الكواكب (الوجه الثانى) يجوز أن يراد اشكالها المتناسبة المختلفة كشكل الجوزاء وبنات نعش والثريا وغيرها (الوجه الثالث) يجوز أن يكون المراد بهذه الزينة كيفية طلوعها وغروبها (الوجه الرابع) ان الانسان اذا نظر فى الليلة الظلماء الى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الازرق فلا شك انها أحسن الاشياء وأكملها فى التركيب والجوهر وكل ذلك يفيد كون هذه الكواكب زينة (وأما المطلوب الثالث) وهو قوله وحفظا من كل شيطان مارد ففيه بحثان (البحث الاول) فيما يتعلق باللغة فقوله وحفظا أى وحفظناها قال المبرد اذا ذكرت فعلا ثم عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لانه قد دل على فعله مثل قولك افعل وكرامة لانه لما قال افعل علم ان الاسماء لا تعطف على الافعال فكان المعنى افعل ذلك وأكرمك كرامة قال ابن عباس يريد حفظ السماء بالكواكب من كل شيطان مارد يريد الذى تمرد على الله قيل انه الذى لا يتمكن منه وأصله من الملاسة ومنه قوله صرح ممرد ومنه الامرد وذكرنا تفسير المارد عند قوله مردوا على النفاق (البحث الثانى) فيما يتعلق بالمباحث العقلية فى هذا الموضع فنقول الاستقصاء فيه مذكور فى قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين قال المفسرون الشياطين كانوا يصعدون الى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة وعرفوا به ما سيكون من الغيوب وكانوا يخبرونهم به ويوهمونهم انهم يعلمون الغيب فمنعهم الله تعالى من الصعود الى قرب السماء بهذه الشهب فانه تعالى يرميهم بها فيحرقهم بها (وبقى ههنا سؤالات السؤال الاول) هذه الشهب هل هى من الكواكب التى زين السماء بها أم لا والاول باطل لان هذه الشهب تبطل وتضمحل فلو كانت هذه الشهب تلك الكواكب الحقيقية لوجب أن يظهر نقصان كثير فى أعداد كواكب السماء ومعلوم ان هذا المعنى لم يوجد البتة فان أعداد كواكب السماء باقية على حالة واحدة من غير تغير البتة وأيضا فجعلها رجوما للشياطين مما يوجب وقوع النقصان فى زينة السماء فكان الجمع بين هذين المقصودين كالمتناقض وأما القسم الثانى وهو أن يقال ان هذه الشهب جنس آخر غير الكواكب المركوزة فى الفلك فهذا أيضا مشكل لانه تعالى قال فى سورة تبارك الذى بيده الملك ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فالضمير فى قوله وجعلناها عائد الى المصابيح فوجب ان تكون تلك المصابيح هى الرجوم بأعيانها من غير تفاوت والجواب ان هذه الشهب غير تلك الثواقب الباقية وأما قوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين فنقول كل نير يحصل فى الجو العالى فهو مصابيح لاهل الارض الا ان

الصلاة والسلام أى يتطلبون السماع والاصغاء اليهم وقرئ يسمعون بالتخفيف (ويقذفون) يرمون (من كل جانب) من جميع جوانب السماء اذا قصدوا الصعود اليها (دحورا) علة للقذف أى للدحور وهو الطرد أو حال بمعنى مدحورين أو مصدر مؤكد له لانهما من واد واحد وقرئ دحورا بفتح الدال أى قذفا دحورا مبالغا فى الطرد وقد يجوز أن يكون مصدرا كالقبول والولوع (ولهم عذاب واصب) أى ولهم فى الآخرة غير ما فى الدنيا من عذاب الرجم بالشهب عذاب شديد دائم غير منقطع كقوله تعالى واعتدنا لهم عذاب السعير (الا من خطف الخطفة) استثناء من واو يسمعون ومن بدل منه والخطف الاختلاس والمراد اختلاس كلام الملائكة مسارقة كما يعرب عنه تعريف الخطفة وقرئ بكسر الخاء والطاء المشددة وبفتح الخاء وكسر الطاء وتشديدها وأصلهما اختطف (فأتبعه شهاب) أى تبعه ولحقه وقرئ فاتبعه والشهاب ما يرى منقضا من السماء (ثاقب) مضئ فى الغاية كأنه يثقب الجو بضوئه يرجم به الشياطين اذا صعدوا لاستراق السمع فيقتلهم او يحرقهم أو يخبلهم قالوا وانما يعود من يسلم منهم حياطيما فى السلامة ونيل المراد كراكب السفينة

تلك المصابيح منها باقية على وجه الدهر آمنة من التغير والفساد ومنها ما لا يكون كذلك وهي هذه الشهب التي يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوما للشياطين وبهذا التقدير فقد زال الاشكال والله أعلم (السؤال الثاني) كيف يجوز أن تذهب الشياطين الى حيث يعلمون بالتجويز ان الشهب تحرقهم ولا يصلون الى مقصودهم البتة وهل يمكن أن يصدر مثل هذا الفعل عن عاقل فكيف من الشياطين الذين لهم مزية في معرفة الحيل الدقيقة والجواب ان حصول هذه الحالة ليس له موضع معين والا لم يذهبوا اليه وانما يمنعون من المصير الى مواضع الملائكة ومواضعها مختلفة فربما صاروا الى موضع تصيبهم فيه الشهب وربما صاروا الى غيره ولا يصادفون الملائكة فلا تصيبهم الشهب فلما هلكوا في بعض الاوقات وسلموا في بعض الاوقات جاز أن يصيروا الى مواضع يغلب على ظنونهم انه لا تصيبهم الشهب فيها كما يجوز فيمن يسلك البحران يسلكه في موضع يغلب على ظنه حصول النجاة هذا ما ذكره أبو على الجبائي من الجواب عن هذا السؤال في تفسيره ولقائل ان يقول انهم اذا صعدوا فاما ان يصلوا الى مواضع الملائكة أو الى غير تلك المواضع فان وصلوا الى مواضع الملائكة احترقوا وان وصلوا الى غير مواضع الملائكة لم يفوزوا بمقصودهم أصلا فعلى كلا التقديرين المقصود غير حاصل واذا حصلت هذه التجربة وثبت بالاستقراء ان الفوز بالمقصود محال وجب ان يمتنعوا عن هذا العمل وان لا يقدموا عليه أصلا بخلاف حال المسافرين في البحر فان الغالب عليهم السلامة والفوز بالمقصود أما ههنا فالشيطان الذي يسلم من الاحتراق انما يسلم اذا لم يصل الى مواضع الملائكة واذا لم يصل الى تلك المواضع لم يفز بالمقصود فوجب أن لا يعود الى هذا العمل البتة والا قرب في الجواب أن نقول هذه الواقعة انما تتفق في الندرة فلعلها لا تشتهر بسبب كونها نادرة بين الشياطين والله أعلم (السؤال الثالث) قالوا دلت التواريخ المتواترة على ان حدوث الشهب كان حاصلا قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم فان الحكماء الذين كانوا موجودين قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم بزمان طويل ذكروا ذلك وتكلموا في سبب حدوثه واذا ثبت ان ذلك كان موجودا قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم امتنع حمله على مجيء النبي صلى الله عليه وسلم أجاب القاضي بأن الاقرب ان هذه الحالة كانت موجودة قبل النبي صلى الله عليه وسلم لكنها كثرت في زمان النبي صلى الله عليه وسلم فصارت بسبب الكثرة معجزة (السؤال الرابع) الشيطان مخلوق من النار قال تعالى حكاية عن ابليس خلقتني من نار وقال والجان خلقناه من قبل من نار السموم ولهذا السبب يقدر على الصعود الى السموات واذا كان كذلك فكيف يعقل احراق النار بالنار والجواب يحتمل ان الشياطين وان كانوا من النيران الا انها نيران ضعيفة فاذا وصلت نيران الشهب اليهم وتلك النيران أقوى حالا منهم لا جرم صار الاقوى مبطلا للاضعف ألا ترى ان السراج الضعيف اذا رجع في النار القوية فانه ينطفئ فكذلك ههنا (السؤال الخامس) ان مقر

الملائكة هو السطح الاعلى من الفلك والشياطين لايمكنهم الوصول الاالى الاقرب من السطح الاسفل من الفلك فيبقى جرم الفلك مانعا من وصول الشياطين الى القرب من الملائكة ولعل الفلك عظيم المقدار فمع حصول هذا المانع العظيم كيف يعقل أن تسمع الشياطين كلام الملائكة فان قلتم ان الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة فنقول فعلى هذا التقدير اذا كان الله تعالى يقوى سمع الشيطان حتى يسمع كلام الملائكة وجب ان لا ينفي سمع الشيطان وان كان لا يريد منع الشيطان من العمل فما الفائدة فى رميه بالرجوم فالجواب مذهبنا ان أفعال الله تعالى غير معللة فيفعل الله مايشاء و يحكم مايريد ولا اعتراض لاحد عليه فى شئ من أفعاله فهذا ما يتعلق بمباحث هذا الباب واذا اضيف ما كتبناه ههنا الى ما كتبناه فى سورة الملك وفى سائر الآيات المشتملة على هذه المسئلة بلغ تمام الكفاية فى هذا الباب والله أعلم * وأما قوله لايسمعون الى الملأ الأعلى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم لايسمعون بتشديد السين والميم وأصله يتسمعون فادغمت التاء فى السين لاشتراكهما فى الهمس والتسمع تطلب السماع يقال تسمع سمع أولم يسمع والباقون بتخفيف السين واختار أبو عبيد التشديد فى يسمعون قال لان العرب تقول تسمعت الى فلان و يقولون سمعت فلانا ولا يكادون يقولون سمعت الى فلان وقيل فى تقوية هذه القراءة اذا نفى التسمع فقد نفى سمعه وحجة القراءة الثانية قوله تعالى انهم عن السمع لمعزولون وروى مجاهد عن ابن عباس ان الشياطين يسمعون الى الملا الاعلى ثم يمنعون فلايسمعون وللاولين ان يجيبوا فيقولون التنصيص على كونهم معزولين عن السمع لايمنع من كونهم معزولين أيضا عن التسمع بدلالة هذه الآية بل هو أقوى فى ردع الشياطين ومنعهم من استماع أخبار السماء فان الذى منع من الاستماع فبأن يكون ممنوعا من السمع أولى (المسئلة الثانية) الفرق بين قولك سمعت حديث فلان و بين قولك سمعت الى حديثه بأن قولك سمعت حديثه يفيد الادراك وسمعت الى حديثه يفيد الاصغاء مع الادراك (المسئلة الثالثة) فى قوله لايسمعون الى الملأ الاعلى قولان (الاول) وهو المشهور ان تقدير الكلام لئلا يسمعوا فلما حذف الناصب عاد الفعل الى الرفع كما قال يبين الله لكم أن تضلوا وكما قال رواسى أن تميد بكم قال صاحب الكشاف حذف أن واللام كل واحد منهما جائز بانفراده أما اجتماعهما فمن المنكرات التى يجب صون القرآن عنها (والقول الثانى) وهو الذى اختاره صاحب الكشاف انه كلام مبتدا منقطع عما قبله وهو حكاية حال المسترقة للسمع وانهم لايقدرون أن يسمعوا الى كلام الملائكة و يتسمعوا وهم مقذوفون بالشهب مدحورون عن ذلك المقصود (المسئلة الرابعة) الملأ الأعلى الملائكة لانهم يسكنون السموات وأما الانس والجن فهم الملأ الاسفل لانهم سكان الارض واعلم أنه تعالى وصف أولئك الشياطين بصفات ثلاثة (الاولى) انهم لايسمعون (الثانية) انهم يقذفون

من كل جانب دحور اوفيه ابحاث (الاول) قدذكرنا معنى الدحور فى سورة الاعراف عند قوله اخرج منها مذؤما مدحورا قال المبرد الدحور أشد الصغار والذل وقال ابن قتيبة دحرته دحرا ودحورا أى دفعته وطردته (البحث الثانى) فى انتصاب قوله دحورا وجوه (الاول) انه انتصب بالمصدر على معنى يدحرون دحورا ودل على الفعل قوله تعالى ويقذفون (الثانى) التقدير يقذفون للدحور ثم حذف اللام (الثالث) قال مجاهد دحورا مطرودين فعلى هذا هو حال سميت بالمصدر كالركوع والسجود والحضور (البحث الثالث) قرأ أبو عبد الرحمن السلمى دحورا بفتح الدال قال الفراء كأنه قال يقذفون بما يدحر ثم قال ولست اشتهى الفتح لانه لو وجد ذلك على صحة لكان فيها الباء كما تقول يقذفون بالحجارة ولا تقول يقذفون الحجارة الا انه جائز فى الجملة كما قال الشاعر * تعالى اللحم للاضياف نيئا * أى تعالى باللحم (الصفة الثالثة) قوله تعالى ولهم عذاب واصب والمعنى انهم مرجومون بالشهب وهذا العذاب مسلط عليهم على سبيل الدوام وقد ذكرنا تفسير الواصب فى سورة النحل عند قوله تعالى وله الدين واصبا قالوا كلهم انه الدائم قال الواحدى ومن فسر الواصب بالشديد والموجع فهو معنى وليس بتفسير * ثم قال تعالى الا من خطف الخطفة ذكرنا معنى الخطف فى سورة الحج قال الزجاج وهو أخذ الشئ بسرعة واصل خطف اختطف قال صاحب الكشاف من فى محل الرفع بدل من الواو فى لا يسمعون أى لا يسمع الشياطين الا الشيطان الذى خطف الخطفة أى اختلس الكلمة على وجه المسارقة فأتبعه يعنى لحقه وأصابه يقال تبعه وأتبعه اذا مضى فى أثره واتبعه اذا لحقه وأصله من قوله تعالى فأتبعه الشيطان وقدم تفسيره وقوله تعالى شهاب ثاقب قال الحسن ثاقب أى مضئ وأقول سمى ثاقبا لانه يثقب بنوره الهواء قال ابن عباس فى تفسير قوله والنجم الثاقب قال انه رجل سمى بذلك لانه يثقب بنوره سمك سبع سموات والله أعلم * قوله تعالى (فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا انا خلقناهم من طين لازب) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى بيان النظم اعلم أنا قد ذكرنا أن المقصد الاقصى من هذا الكتاب الكريم اثبات الاصول الاربعة وهى الالهيات والمعاد والنبوة واثبات القضاء والقدر فنقول انه تعالى افتتح هذه السورة باثبات ما يدل على وجود الصانع ويدل على علمه وقدرته وحكمته ويدل على وحدانيته وهو خالق السموات والارض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب فلما أحكم الكلام فى هذا الباب فرع عليها اثبات القول بالحشر والنشر والقيامة واعلم أن الكلام فى هذه المسئلة يتعلق بطرفين أولهما اثبات الجواز العقلى وثانيهما اثبات الوقوع أما الكلام فى المطلوب الاول فاعلم أن الاستدلال على الشئ يقع على وجهين (أحدهما) أى يقال انه قدر على ما هو أصعب وأشد وأشق منه فوجب أيضا أن يقدر عليه (والثانى) أن يقال انه قدر عليه فى احدى الحالتين والفاعل والقابل باقيين كما كانا فوجب أن تبقى القدرة عليه فى

(فاستفتهم) فاستخبر مشركى مكة (أهم أشد خلقا) أى أقوى خلقة وأمتن بنية أو أصعب خلقا وأشق ايجادا (أم من خلقنا) من الملائكة والسماء والارض وما بينهما والمشارق والكواكب والشهب الثواقب ومن لتغليب العقلاء على غيرهم ويدل عليه اطلاقه ومجيئه بعد ذلك لاسيما قراءة من قرأ أم من عددنا وقوله تعالى (انا خلقناهم من طين لازب) فانه الفارق بينهم وبينها لا بينهم وبين من قبلهم من الامم كعاد وثمود ولان المراد اثبات المعاد ورد استحالتهم والامر فيه بالاضافة اليهم والى من قبلهم سواء وقرئ لازم ولاتب

الحالة الثانية والله تعالى ذكر هذين الطريقين في بيان أن القول بالبعث والقيامة أمر جائز ممكن (أما الطريق الاول) فهو المراد من قوله فاستفتهم أهم أشد خلقا والتقدير كأنه تعالى يقول استفت يا محمد هؤلاء المنكرين أهم أشد خلقا أمن خلقنا من خلق السموات والارض وما بينهما وخلق المشارق والمغارب وخلق الشياطين الذين يصعدون الفلك ولاشك أنهم يعترفون بأن خلق هذا القسم أشق وأشد في العرف من خلق القسم الاول فلما ثبت بالدلائل المذكورة في اثبات التوحيد كونه تعالى قادرا على هذا القسم الذي هو أشد وأصعب فبأن يكون قادرا على اعادة الحياة في هذه الاجساد كان أولى ونظير هذه الدلالة قوله تعالى في آخر يس أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم وقوله تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس (وأما الطريق الثاني) فهو المراد من قوله انا خلقناهم من طين لازب والمعنى ان هذه الاجسام قابلة للحياة اذ لو لم تكن قابلة للحياة لما صارت حية في المرة الاولى والاله قادر على خلق هذه الحياة في هذه الاجسام ولولا كونه تعالى قادرا على هذا المعنى لما حصلت الحياة في المرة الاولى ولاشك أن قابلية تلك الاجسام باقية وان قادرية الله تعالى باقية لان هذه القابلية وهذه القادرية من الصفات الذاتية فامتنع زوالها فثبت بهذين الطريقين ان القول بالبعث والقيامة أمر ممكن ولما بين تعالى امكان هذا المعنى بهذين الطريقين بين وقوعه بقوله قل نعم وأنتم داخرون وذلك لانه ثبت صدق الرسول صلى الله عليه وسلم لاجل ظهور المعجزات عليه والصادق اذا أخبر عن أمر ممكن الوقوع وجب الاعتراف بوقوعه فهذا تقرير نظم هذه الآية وهو في غاية الحسن والله أعلم (المسئلة الثانية) في تفسير ألفاظ هذه الآية أما قوله فاستفتهم يعني أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة كونه تعالى خالقا للسموات والارض وما بينهما فاستفت هؤلاء المنكرين وقل لهم أهم أشد خلقا أم هذه الاشياء التي بينا كونه تعالى خالقا لها ولم يحك عنهم أنهم أقروا أن خلق هذه الاشياء أصعب لاجل ان ظهور ذلك كالمعلوم بالضرورة فلا حاجة أن يحكى عنهم صحة ان الامر كذلك ثم قال تعالى انا خلقناهم من طين لازب يعني انا لما قدرنا على خلق الحياة في ذواتهم أولا وجب ان نبقى قادرين على خلق الحياة فيهم ثانيا لما بينا أن حال القابل وحال الفاعل ممتنع التغير وفيه دقيقة أخرى وهي ان القوم قالوا كيف يعقل تولد الانسان لامن النطفه ولو من الابوين فكأنه قيل لهم انكم لما أقررتم بحدوث العالم واعترفتم بان السموات والارض وما بينهما انما حصل بتخليق الله تعالى وتكوينه فلا بد وان تعترفوا بان الانسان الاول انما حدث لامن الابوين فاذا عقلتم ذلك واعترفتم به فقد سقط قولكم الانسان كيف يحدث من غير النطفة ومن غير الابوين وأيضا قد اشتهر عند الجمهور أن آدم مخلوق من الطين اللازب ومن قدر على خلق الحياة في الطين اللازب فكيف يعجز عن اعادة الحياة الى هذه الذوات وأما كيفية خلق الانسان من الطين اللازب فهي مذكورة في السورة المتقدمة واعلم ان

هذا الوجه انما يحسن اذا قلنا المراد من قوله تعالى انا خلقناهم من طين لازب هو انا خلقنا أباهم آدم من طين لازب وفيه وجوه أخر وهو أن يكون المراد انا خلقنا كل انسان من طين لازب وتقريره ان الحيوان انما يتولد من المنى ودم الطمث والمنى يتولد من الدم فالحيوان انما يتولد من الدم والدم انما يتولد من الغذاء والغذاء اما حيوانى واما نباتى أما تولد الحيوان الذى صار غذاء فالكلام فى كيفية تولده كالكلام فى تولد الانسان فثبت أن الاصل فى الاغذية هو النبات والنبات انما يتولد من امتزاج الارض بالماء وهو الطين اللازب واذا كان الامر كذلك فقد ظهر ان كل الخلق متولدون من الطين اللازب واذا ثبت هذا فنقول ان هذه الاجزاء التى منها تركب هذا الطين اللازب قابلة للحياة والله تعالى قادر عليها وهذه القابلية والقادرية واجبة البقاء فوجب بقاء هذه الصحة فى كل الاوقات وهذه بيانات ظاهرة واضحة وأما اللازب فقيل اللاصق وقيل اللازج وقيل الحتدوأ كثر أهل اللغة على ان الباء لازب بدل من الميم يقال لازب ولازم * ثم قال تعالى (بل عجبت ويسخرون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) تقرير الكلام ان يقال ان هؤلاء المنكرين أقروا بانه تعالى قادر على تكوين أشياء أصعب من اعادة الحياة الى هذه الاجساد وقد تقرر فى صرائح العقول ان القادر على الاشق الاشد يكون قادرا على الاسهل الأيسر ثم مع قيام هذه الحجة البديهية بقى هؤلاء الاقوام مصرين على انكار البعث والقيامة وهذا فى موضع التعجب الشديد فان مع ظهور هذه الحجة الجلية الظاهرة كيف يعقل بقاء القوم على الاصرار فانت يا محمد تتعجب من اصرارهم على الانكار وهم فى طرف الانكار وصلوا الى حيث يسخرون منك فى قولك باثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة فهذا هو المراد من قوله بل عجبت ويسخرون (المسئلة الثانية) قرأ حمزة والكسائى عجبت بضم التاء والباقون بفتحها قال الواحدى والضم قراءة ابن عباس وابن مسعود وابراهيم ويحيى ابن وثاب والاعمش وقراءة أهل الكوفة واختيار أبى عبيدة أما الذين قرؤا بالفتح فقد احتجوا بوجوه (الاول) ان القراءة بالضم تدل على اسناد التعجب الى الله تعالى وذلك محال لان التعجب حالة تحصل عند الجهل بصفة الشئ ومعلوم ان الجهل على الله محال (والثانى) ان الله تعالى أضاف التعجب الى محمد صلى الله عليه وسلم فى آية أخرى فى هذه المسئلة فقال وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا (والثالث) انه تعالى قال بل عجبت ويسخرون والظاهر انهم انما سخروا لاجل ذلك التعجب فلما سخروا منه وجب أن يكون ذلك التعجب صادرا منه وأما الذين قرؤا بضم التاء فقد أجابوا عن الحجة الاولى من وجوه (الاول) ان القراءة بالضم لانسلم أنها تدل على اسناد التعجب الى الله تعالى وبيانه أنه يكون التقدير قل يا محمد بل عجبت ويسخرون ونظيره قوله تعالى أسمع بهم وأبصر معناه أن هؤلاء ما تقولون فيه أنتم هذا النحو من الكلام وكذلك قوله تعالى فما أصبرهم على النار الثانى سلمنا أن ذلك يقتضى اضافة التعجب الى الله تعالى فلم قلتم ان ذلك محال وروى ان شريحا كان

(بل عجبت) أى من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وانكارهم للبعث (ويسخرون) من تعجبك وتقريرك البعث وقرئ بضم التاء على معنى انه بلغ كمال قدرتى وكثرة مخلوقاتى الى حيث عجبت منها وهؤلاء لجهلهم يسخرون منها أو عجبت من أن ينكروا البعث ممن هذه أفاعيله ويسخروا ممن يجوزه والعجب من الله تعالى اما على الفرض والتخييل أو على معنى الاستعظام اللازم له فانه روعة تعترى الانسان عند استعظام الشئ وقيل انه مقدر بالقول أى قل يا محمد بل عجبت

(واذا ذكروا) أى ودأبهم المستمر أنهم اذا وعظوا بشئ من المواعظ (لايذكرون) لايتعظون واذا ذكر لهم مايدل على صحة البعث لاينتفعون به لغاية بلادتهم وقصور فكرهم ﴿ ١٣٤ ﴾ (واذا رأوا آية) أى معجزة تدل على صدق القائل به (يستسخرون) يبالغون فى السخرية و يقولون انه سحر أو يستدعى بعضهم من بعض أن يسخر منها (وقالوا ان هذا) أى مايرونه من الآيات الباهرة (الا سحر مبين) ظاهر سحريته (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما) أى كان بعض أجزائنا ترابا وبعضها عظاما وتقديم التراب لانه منقلب من الاجزاء البادية والعامل فى اذا مادل عليه مبعوثون فى قوله تعالى (أئنا لمبعوثون) أى نبعث لانفسه لان دونه خطوبا لوتفرد واحد منها لكفى فى المنع وتقديم الظرف لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه الى حالة منافية له غاية المنافاة وكذا تكرير الهمزة فى أئنا للمبالغة والتشديد فى ذلك وكذا تحلية الجملة بان واللام لتأكيد الانكار لالانكار التاكيد كما يوهمه ظاهر النظم الكريم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى مثل قوله أولا تعقلون على رأى الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لاانكار التعقيب كما هو المشهور وقرئ بطرح الهمزة

يختار القراءة بالنصب و يقول العجب لايليق الا بمن لايعلم قال الاعمش فذكرت ذلك لابراهيم فقال ان شريحا يعجب بعلمه وكان عبدالله أعلم وكان يقرأ بالضم وتحقيق القول فيه أن نقول دل القرآن والخبر على جواز اضافة العجب الى الله تعالى أما القرآن فقوله تعالى وان تعجب فعجب قولهم والمعنى وان تعجب يامحمد من قولهم فهو أيضا عجب عندى وأجيب عنه انه لايمتنع أن يكون المراد وان تعجب فعجب قولهم عندكم وأما الخبر فقوله صلى الله عليه وسلم عجب ربكم من الكم وقنوطكم وعجب ربكم من شاب ليست له صبوة واذا ثبت هذا فنقول العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين كما قال و يمكرون و يمكر الله وقال سخر الله منهم وقال تعالى وهو خادعهم والمكر والخداع والسخرية من الله تعالى بخلاف هذه الاحوال من العباد وقد ذكرنا ان القانون فى هذا الباب ان هذه الالفاظ محمولة على نهايات الاعراض لا على بدايات الاعراض وكذلك ههنا من تعجب من شئ فانه يستعظمه فالتعجب فى حق الله تعالى محمول على أنه تعالى يستعظم تلك الحالة ان كانت قبيحة فيترتب العقاب العظيم عليه وان كانت حسنة فيترتب الثواب العظيم عليه فهذا تمام الكلام فى هذه المناظرة والاقرب ان يقال القراءة بالضم ان ثبتت بالتواتر وجب المصير اليها و يكون التأويل ماذكرناه وان لم تثبت هذه القراءة بالتواتر كانت القراءة بفتح التاء أولى والله أعلم ❊ ثم قال تعالى (واذا ذكروا لايذكرون واذا رأوا آية يستسخرون وقالوا ان هذا الا سحر مبين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أوآباؤنا الاولون قل نعم وأنتم داخرون) اعلم أنه تعالى لما قرر الدليل القاطع فى اثبات امكان البعث والقيامة حكى عن المنكرين أشياء أولها أن النبى صلى الله عليه وسلم يتعجب من اصرارهم على الانكار وهم يسخرون منه فى اصراره على الاثبات وهذا يدل على انه صلى الله عليه وسلم مع أولئك الاقوام كانوا فى غاية التباعد وفى طرفى النقيض وثانيها قوله واذا ذكروا لايذكرون وثالثها قوله واذا رأوا آية يستسخرون ويجب أن يكون المراد من هذا الثانى والثالث غير الاول لان العطف يوجب التغاير ولان التكرير خلاف الاصل والذى عندى فى هذا الباب أن يقال القوم كانوا يستبعدون الحشر والقيامة و يقولون من مات وصار ترابا وتفرقت أجزاؤه فى العالم كيف يعقل عوده بعينه و بلغوا فى هذا الاستبعاد الى حيث كانوا يستسخرون ممن يذهب الى هذا المذهب واذا كان كذلك فلا طريق الى ازالة هذا الاستبعاد عنهم الا من وجهين (أحدهما) ان يذكر لهم الدليل الدال على صحة الحشر والنشر مثل أن يقال لهم هل تعلمون أن خلق السموات والارض أشد وأصعب من اعادة انسان بعد موته وهل تعلمون ان القادر على الاصعب الاشق يجب أن يكون قادرا على الاسهل الايسر فهذا الدليل وان كان جليا قويا الا أن أولئك المنكرين اذا عرض على عقولهم هذه المقدمات لايفهمونها ولايقفون عليها واذا ذكروا لم يذكروها لشدة بلادتهم وجهلهم فلاجرم لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان (والطريق

﴿ الثانى ﴾

الثانى) ان يثبت الرسول صلى الله عليه وسلم جهة رسالته بالمعجزات ثم يقول لما ثبت بالمعجز كونى رسولا صادقا من عند الله فانا أخبركم بأن البعث والقيامة حق ثم ان أولئك المنكرين لا ينتفعون بهذا الطريق أيضا لانهم اذا رأوا معجزة قاهرة وآية باهرة حملوها على كونها سحرا وسخروا بها واستهزؤا منها وهذا هو المراد من قوله واذا رأوا آية يستسخرون فظهر بالبيان الذى ذكرناه أن هذه الالفاظ الثلاثة منبهة على هذه الفوائد الجليلة واعلم أن أكثر الناس لم يقفوا على هذه الدقائق فقالوا انه تعالى قال بل عجبت ويسخرون ثم قال واذا رأوا آية يستسخرون فوجب أن يكون المراد من قوله يستسخرون غير ما تقدم ذكره من قوله ويسخرون فقال هذا القائل المراد من قوله ويسخرون اقدامهم على السخرية والمراد من قوله يستسخرون طلب كل واحد منهم من صاحبه ان يقدم على السخرية وهذا التكليف انما لزمهم لعدم وقوفهم على الفوائد التى ذكرناها والله أعلم (والرابع) من الامور التى حكاها الله تعالى عنهم أنهم قالوا ان هذا الا سحر مبين يعنى أنهم اذا رأوا آية ومعجزة سخروا منها والسبب فى تلك السخرية اعتقادهم أنها من باب السحر وقوله مبين معناه ان كونه سحرا أمر بين لا شبهة لاحد فيه ثم بين تعالى ان السبب الذى يحملهم على الاستهزاء بالقول بالبعث وعلى عدم الالتفات الى الدلائل الدالة على صحة القول وعلى الاستهزاء بجميع المعجزات هو قولهم ان الذى مات وتفرقت أجزاؤه فى جملة العالم فما فيه من الارضية اختلط بتراب الارض وما فيه من المائية والهوائية اختلط ببخارات العالم فهذا الانسان كيف يعقل عوده بعينه حيا فاهما فهذا الكلام هو الذى يحملهم على تلك الاحوال الثلاثة المتقدمة ثم انه تعالى لما حكى عنهم هذه الشبهة قال قل يا محمد نعم وأنتم داخرون وانما اكتفى تعالى بهذا القدر من الجواب لانه ذكر فى الآية المتقدمة بالبرهان اليقينى القطعى انه أمر ممكن واذا ثبت الجواز القطعى فلا سبيل الى القطع بالوقوع الا باخبار المخبر الصادق فلما قامت المعجزات على صدق محمد صلى الله عليه وسلم كان واجب الصدق فكان مجرد قوله قل نعم دليلا قاطعا على الوقوع ومن تأمل فى هذه الآيات علم أنها وردت على أحسن وجوه الترتيب وذلك لانه بين الامكان بالدليل العقلى وبين وقوع ذلك الممكن بالدليل السمعى ومن المعلوم ان الزيادة على هذا البيان كالامر الممتنع * أما قوله أوآباؤنا فالمعنى أوتبعث آباؤنا وهذه ألف الاستفهام دخلت على حرف العطف وقرأ نافع وابن عامر ههنا وفى سورة الواقعة ساكنة الواو وذكرنا الكلام فى هذا فى سورة الاعراف عند قوله أوأمن أهل القرى * أما قوله تعالى قل نعم فنقول قرأ الكسائى وحده نعم بكسر العين * أما قوله تعالى وأنتم داخرون أى صاغرون قال أبو عبيد الدخور أشد الصغار وذكرنا تفسير هذه اللفظة عند قوله سجدا لله وهم داخرون * قوله تعالى (فانما هى زجرة واحدة فاذا هم ينظرون وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) اعلم أنه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة

الاولى وبطرح الثانية فقط (آباؤنا الاولون) رفع على الابتداء وخبره محذوف عند سيبويه أى وآباؤنا الاولون أيضا مبعوثون وقيل عطف على محل ان واسمها وقيل على الضمير فى مبعوثون للفصل بهمزة الانكار الجارية مجرى حرف النفى فى قوله تعالى ما أشركنا ولا آباؤنا وأياما كان فمرادهم زيادة الاستبعاد بناء على أنهم أقدم فبعثهم أبعد على زعمهم وقرئ أوآباؤنا (قل) تبكيتا لهم (نعم) والخطاب فى قوله تعالى (وأنتم داخرون) لهم ولآبائهم بطريق التغليب والجملة حال من فاعل ما دل عليه نعم أى كلكم مبعوثون والحال أنكم صاغرون أذلاء وقرئ نعم بكسر العين وهى لغة فيه (فانما هى زجرة واحدة) هى اما ضمير مبهم يفسره خبره أو ضمير البعثة والجملة جواب شرط مضمر أو تعليل لنهى مقدر أى اذا كان كذلك فانما هى الخ أو لا تستصعبوه فانما هى الخ والزجرة الصيحة من زجر الراعى غنمه اذا صاح عليها وهى النفخة

الثانية (فاذاهم) قائمون من مراقدهم أحياء (ينظرون) يبصرون كما كانوا أو ينتظرون مايفعل بهم (وقالوا) أى المبعوثون وصيغة الماضى للدلالة على التحقق والتقرر (ياويلنا) أى هلا كنا احضر فهذا أوان حضورك وقوله تعالى (هذا يوم الدين) تعليل لدعائهم الويل بطريق الاستئناف أى اليوم الذى نجازى فيه بأعمالنا وانما علموا ذلك لانهم كانوا يسمعون فى الدنيا أنهم يبعثون ويحاسبون ويجزون باعمالهم فلما شاهدوا البعث أيقنوا بما بعده أيضا وقوله تعالى (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) كلام الملائكة جوابا لهم بطريق التوبيخ والتقريع وقيل هو أيضا من كلام بعضهم لبعض والفصل القضاء أو الفرق بين فرق الهدى والضلال

مايدل على امكان البعث والقيامة ثم أردفه بمايدل على وقوع القيامة ذكر فى هذه الآيات بعض تفاصيل أحوال القيامة وانه تعالى ذكر فى هذه الآية أنواعا من تلك الاحوال (فالحالة الاولى) قوله تعالى فانما هى زجرة واحدة فاذاهم ينظرون وفيه ابحاث (البحث الاول) قوله فانما جواب شرط مقدر والتقدير اذا كان كذلك فما هى الازجرة واحدة (البحث الثانى) الضمير فى قوله فانما هى ضمير على شريطة التفسير والتقدير فانما البعث زجرة واحدة (البحث الثالث) الزجرة فى اللغة الصيحة التى يزجر بها كالزجرة بالنعم والابل عند الحث ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة وان لم يكن فيها معنى الزجر كما فى هذه الآية وأقول لايبعد ان يقال ان تلك الصيحة انما سميت زجرة لانها تزجر الموتى عن الرقود فى القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور فى موقف القيامة فاذا عرفت هذا فنقول المراد من هذه الزجرة ماذكره الله تعالى فى قوله ثم نفخ فيه أخرى فاذاهم قيام ينظرون فبالنفخة الاولى يموتون وبالنفخة الثانية يحيون ويقومون * وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الفائدة فى هذه الصيحة فان القوم فى تلك الساعة أموات لان النفخة جارية مجرى السبب لحياتهم فتكون مقدمة على حصول حياتهم فثبت أن هذه الصيحة انما حصلت حال كون الخلق أمواتا فتكون تلك الصيحة عديمة الفائدة فهى عبث والعبث لايجوز فى فعل الله (والجواب) أما أصحابنا فيقولون يفعل الله مايشاء واما المعتزلة فقال القاضى فيه وجهان (الاول) ان تعتبر بها الملائكة (الثانى) أن تكون الفائدة التخويف والارهاب (السؤال الثانى) هل لتلك الصيحة تأثير فى اعادة الحياة والجواب لابدليل أن الصيحة الاولى استعقبت الموت والثانية الحياة وذلك يدل على أن الصيحة لاأثر لها فى الموت ولافى الحياة بل خالق الموت والحياة هو الله تعالى كما قال الذى خلق الموت والحياة (السؤال الثالث) تلك الصيحة صوت الملائكة أو الله تعالى يخلقها ابتداء (الجواب) الكل جائز الا انه روى أن الله تعالى يأمر اسرافيل حتى ينادى أيتها العظام النخرة والجلود البالية والاجزاء المتفرقة اجتمعوا باذن الله تعالى (اللفظ الرابع) من الالفاظ المذكورة فى هذه الآية قوله تعالى فاذاهم ينظرون فيحتمل أن يكون المراد ينتظرون مايحدث بهم ويحتمل ينظر بعضهم الى بعض وان يكون المراد ينظرون الى البعث الذى كذبوا به (الحالة الثانية) من وقائع القيامة ماأخبر الله عنهم أنهم بعد القيام من القبور قالوا ياويلنا هذا يوم الدين قال الزجاج الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة والمقصود أنهم لما شاهدوا القيامة قالوا هذا يوم الدين أى يوم الجزاء هذا والمقصود أن الله تعالى ذكر فى آيات كثيرة من القرآن انا نرى فى الدنيا محسنا ومسيئا وعاصيا ومطيعا ونريد ونقاصد ونقاصد وراأينا انه لم يصل اليهم فى الدنيا مايليق بهم من الجزاء فوجب القول باثبات القيامة ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى وبالجملة فهذا يدل على أن الجزاء انما يحصل بعد الموت والكفار وان سمعوا هذا الدليل

وقوله تعالى (احشروا الذين ظلموا) خطاب من الله عز وجل للملائكة أو من بعضهم لبعض بحشر الظلمة من مقامهم الى الموقف وقيل من الموقف الى الجحيم (وأزواجهم) أى أشباههم ونظراءهم من العصاة عابد الصنم مع عبدته وعابد الكوكب مع عبدته كقوله تعالى وكنتم ﴿ ١٣٧ ﴾ أزواجا ثلاثة وقيل قرناءهم من الشياطين وقيل نساءهم

القوى لكنهم أنكروا وتمردوا ثم انه تعالى اذا أحياهم يوم القيامة فاذا شاهدوا القيامة يذكرون ذلك اليوم ويقولون هذا يوم الدين أى يوم الجزاء الذى ذكر الله الدلائل الكثيرة عليه فى القرآن فكفرنا بها ونظيره ان من خوف بشئ ولم يلتفت اليه ثم عاينه بعد ذلك فقد يقول هذا يوم الواقعة الفلانية فكذا ههنا وفيه احتمال آخر وهو انه تعالى قال فى سورة الفاتحة مالك يوم الدين فبين أنه لامالك فى ذلك اليوم الا الله فقولهم هذا يوم الدين اشارة الى أن هذا هو اليوم الذى لاحكم فيه لاحد الا الله وانما ذكروه لما حصل فى قلوبهم من الخوف الشديد أما قوله تعالى هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ففيه بحثان (الاول) اختلفوا فى أن هذا هل هو من بقية كلام الكفار أو يقال تم كلامهم عند قوله تعالى هذا يوم الدين وأما قوله هذا يوم الفصل فهو كلام غيرهم فبعضهم قال بالاول وزعم ان قوله يوم الفصل الآية من كلام بعضهم لبعض والاكثرون على القول الثانى واحتجوا بوجهين (الاول) ان قوله كنتم به تكذبون من كلام بعضهم لبعض خطاب مع جمع الكفار فقائل هذا القول لابد وأن يكون غير الكفار (الثانى) أن قوله احشروا الذين ظلموا وأزواجهم منسوق على قوله هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون فلما كان قوله احشروا الذين ظلموا كلام غير الكفار فكذلك قوله هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون يجب أن يكون كلام غير الكفار وعلى هذا التقدير فقوله هذا يوم الدين من كلام الكفار وقوله هذا يوم الفصل من كلام الملائكة جوابا لهم والوجه فى كونه جوابا لهم ان أولئك الكفار انما اعتقدوا فى انفسهم كونهم محقين فى انكار دعوة الانبياء عليهم السلام وكونهم محقين فى تلك الاديان الفاسدة فقالوا هذا يوم الدين أى هذا هو اليوم الذى يصل فيه الينا جزاء طاعاتنا وخيراتنا فالملائكة يقولون لهم انه لااعتبار بظواهر الامور فى هذا اليوم فان هذا اليوم يفصل فيه الجزاء الحقيقى عن الجزاء الظاهرى وتميز فيه الطاعات الحقيقية عن الطاعات المقرونة بالرياء والسمعة فبهذا الطريق صار هذا الكلام من الملائكة جوابا لما ذكره الكفار * ثم قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم) وفى الآية ابحاث (البحث الاول) اعلم انه لانزاع فى ان هذا من كلام الملائكة فان قيل مامعنى احشروا مع انهم قد حشروا من قبل وحضروا فى محفل القيامة وقالوا هذا يوم الدين وقالت الملائكة لهم بل هذا يوم الفصل أجاب القاضى عنه فقال المراد احشروهم الى دار الجزاء وهى النار ولذلك قال بعده فاهدوهم الى صراط الجحيم أى خذوهم الى ذلك الطريق ودلوهم عليه ثم سأل نفسه فقال كيف يصح ذلك وقد قال بعده وقفوهم انهم مسؤلون ومعلوم أن حشرهم الى الجحيم انما يكون بعد المسئلة وأجاب انه ليس فى العطف بحرف الواو ترتيب فلا يمتنع ان يقال احشروهم وقفوهم مع أنا بعقولنا نعلم أن الوقوف كان قبل الحشر الى النار هذا ماقاله القاضى وعندى فيه وجه آخر وهو أن يقال انهم اذا قاموا من قبورهم لم يبعد أن يقفوا هناك بحيرة تلحقهم بسبب

اللاتى على دينهم (وما كانوا يعبدون من دون الله) من الاصنام ونحوها زيادة فى تحسيرهم وتخجيلهم قيل هو عام مخصوص بقوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية الكريمة وأنت خبير بأن الموصول عبارة عن المشركين خاصة جئ به لتعليل الحكم بما فى حيز صلته فلا عموم ولا تخصيص (فاهدوهم الى صراط الجحيم) أى عرفوهم طريقها ووجهوهم اليها وفيه تهكم بهم (وقفوهم) احبسوهم فى الموقف كأن الملائكة سارعوا الى ما أمروا به من حشرهم الى الجحيم فأمروا بذلك وعلل بقوله تعالى (انهم مسؤلون) ايذانا من أول الامر بأن ذلك ليس للعفو عنهم ولا ليستريحوا بتأخير العذاب فى الجملة بل ليسألوا لكن لاعن عقائدهم وأعمالهم كما قيل فان ذلك قد وقع قبل الامر بهم الى الجحيم بل عما ينطق به قوله تعالى (مالكم لاتناصرون)

بطريق التوبيخ والتقريع والتهكم أى لاينصر بعضكم بعضا كما كنتم تزعمون فى الدنيا وتأخير

﴿ ١٨ ﴾ سا

اليوم مستسلمون) منقادون خاضعون لظهور عجزهم وانسداد باب الحيل عليهم أو أسلم بعضهم بعضا وخذله عن عجزه كلهم مستسلم غير منتصر (وأقبل) حينئذ (بعضهم على بعض) هم الاتباع والرؤساء أو الكفرة والقرناء (يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال (قالوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية تساؤلهم كأنه قيل كيف تساءلوا فقيل قالوا أى الاتباع للرؤساء أو الكل للقرناء (انكم كنتم تأتوننا) فى الدنيا (عن اليمين) عن أقوى الوجوه وأمتنها أو عن الدين أو عن الخير كأنكم تنفعوننا نفع السانح فتبعناكم فهلكنا مستعار من يمين الانسان الذى هو أشرف الجانبين وأقواهما وأنفعهما ولذلك سمى يمينا ويتيمن بالسانح أو عن القوة والقسر فتقسروننا على الغى وهو الاوفق للجواب أو عن الحلف حيث كانوا يحلفون أنهم على الحق (قالوا) استئناف كما سبق أى قال الرؤساء أو القرناء (بل لم تكونوا مؤمنين) أى لم نمنعكم من الايمان بل لم تؤمنوا باختياركم وأعرضتم عنه مع تمكنكم منه وآثرتم الكفر عليه (وما كان لنا عليكم من سلطان) من قهر وتسلط نسلبكم به اختياركم (بل كنتم قوما طاغين) مختارين للطغيان مصرين عليه (فحق علينا) أى لزمنا وثبت علينا (قول ربنا) وهو قوله تعالى لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (انا لذائقون) أى العذاب الذى ورد به الوعيد (فأغويناكم) فدعوناكم الى ... دعوة غير ملجئة فاستجبتم لنا باختياركم ...

﴿ عقلاء ﴾

معاينة أهوال القيامة ثم ان الله تعالى يقول للملائكة احشروا الذين ظلموا واهدوهم الى صراط الجحيم أى سوقوهم الى طريق جهنم وقفوهم هناك وتحصل المسئلة هناك ثم من هناك يساقون الى النار وعلى هذا التقدير فظاهر النظم موافق لما عليه الوجه (البحث الثانى) الآمر فى قوله تعالى احشروا الذين ظلموا هو الله فهو تعالى أمر الملائكة أن يحشروا الكفار الى موقف السؤال والمراد من الحشر أن الملائكة يسوقونهم الى ذلك الموقف (البحث الثالث) أن الله أمر الملائكة بحشر ثلاثة أشياء الظالمين وأزواجهم والاشياء التى كانوا يعبدونها وفيه فوائد (الفائدة الاولى) انه تعالى قال احشروا الذين ظلموا ثم ذكر من صفات الذين ظلموا كونهم عابدين لغير الله وهذا يدل على ان الظالم المطلق هو الكافر وذلك يدل على أن كل وعيد ورد فى حق الظالم فهو مصروف الى الكفار ومما يؤكد هذا قوله تعالى والكافرون هم الظالمون (الفائدة الثانية) اختلفوا فى المراد بأزواجهم وفيه ثلاثة أقوال (الاول) المراد بأزواجهم اشباههم أى احزابهم ونظراؤهم من الكفرة فاليهودى مع اليهودى والنصرانى مع النصرانى والذى يدل على جواز أن يكون المراد من الازواج الاشباه وجوه (الاول) قوله تعالى وكنتم أزواجا ثلاثة أى أشكالا واشباها (الثانى) انك تقول عندى من هذا أزواج أى امثال وتقول زوجان من الخف لكون كل واحد منهما نظير الآخر وكذلك الرجل والمرأة سميا زوجين لكونهما متشابهين فى أكثر أحكام النكاح وكذلك العدد الزوج سمى بهذا الاسم لكون كل واحد من سميه مثالا للقسم الثانى فى العدد الصحيح قال الواحدى فعلى هذا القول يجب أن يكون المراد بالذين ظلموا الرؤساء لانك لو جعلت الذين ظلموا عاما فى كل من أشرك لم يكن للازواج معنى (القول الثانى) فى تفسير الازواج ان المراد قرناؤهم من الشياطين لقوله تعالى واخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون (والقول الثالث) أن المراد نساؤهم اللواتى على دينهم اما قوله وما كانوا يعبدون من دون الله ففيه قولان (الاول) المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الاوثان والطواغيت ونظيره قوله فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة قيل المراد بالناس عباد الاوثان والمراد بالحجارة الاصنام التى هى أحجار منحوتة فان قيل ان تلك الاحجار جمادات فما الفائدة فى حشرها الى جهنم أجاب القاضى بأنه ورد الخبر بأنها تعاد وتحيى لتحصل المبالغة فى توبيخ الكفار الذين كانوا يعبدونها ولقائل أن يقول هب ان الله تعالى يحيى تلك الاصنام الا أنه لم يصدر عنها ذنب فكيف يجوز من الله تعالى تعذيبها والاقرب أن يقال ان الله تعالى لا يحيى تلك الاصنام بل يتركها على الجمادية ثم يلقيها فى جهنم لان ذلك مما يزيد فى تخجيل الكفار (القول الثانى) أن المراد من قوله وما كانوا يعبدون من دون الله الشياطين الذين دعوهم الى عبادة ما عبدوه فلما قبلوا منهم ذلك الذين صاروا كالعابدين لاولئك الشياطين وتأكد هذا بقوله تعالى ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشياطين والقول الاول أولى لان الشياطين

المرتبة من الدعوة لتكونوا امثالنا فى الغواية (فانهم) أى الاتباع والمتبوعين (يومئذ فى العذاب مشتركون) حسبما كانوا مشتركين فى الغواية (انا كذلك) أى مثل ذلك الفعل البديع الذى تقتضيه الحكمة التشريعية (نفعل بالمجرمين) المتناهين فى الاجرام ﴿ ١٣٩ ﴾ وهم المشركون كما يعرب عنه التعليل بقوله تعالى (انهم كانوا اذا قيل لهم) بطريق الدعوة والتلقين (لا اله الا الله يستكبرون) عن القبول (و يقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين) رد عليهم وتكذيب لهم ببيان ان ماجاء به من التوحيد هو الحق الذى قام به البرهان وأجمع عليه كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة (انكم) بما فعلتم من الاشراك وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام والاستكبار (لذائقوا العذاب الاليم) والالتفات لاظهار كمال الغضب عليهم وقرئ بنصب العذاب على تقدير النون كقوله ولا ذاكر الله الا قليلا وقرئ لذائقون العذاب على الاصل (وما تجزون الا ما كنتم تعملون) أى الا جزاء ما كنتم تعملونه من السيئات أو الا بما كنتم تعملونه منها (الا عباد الله المخلصين) استثناء منقطع من ضمير ذائقو وما بينهما اعتراض جئ به مسارعة الى تحقيق الحق ببيان أن ذوقهم العذاب ليس الا من جهتهم لا من جهة [illegible]

عقلاء وكلمة مالا تليق بالعقلاء والله أعلم ثم قال فاهدوهم الى صراط الجحيم قال ابن عباس دلوهم يقال هديت الرجل اذا دللته وانما استعملت الهداية ههنا لانه جعل بدل الهداية الى الجنة كما قال فبشرهم بعذاب أليم فوقعت البشارة بالعذاب لهؤلاء بدل البشارة بالنعيم لاولئك وعن ابن عباس فاهدوهم سوقوهم وقال الاصم قدموهم قال الواحدى وهذا وهم لانه يقال هدى اذا تقدم ومنه الهداية والهوادى والهاديات لوحش قال ولا يقال هدى بمعنى قدم ثم قال وقفوهم يقال وقفت الدابة اقفها وقفا فوقفت هى وقوفا والمعنى احبسوهم وفى الآية قولان (أحدهما) على التقديم والتأخير والمعنى قفوهم واهدوهم والاصوب أنه لاحاجة اليه بل كأنه قيل فاهدوهم الى صراط الجحيم فاذا انتهوا الى الصراط قيل وقفوهم فان السؤال يقع هناك وقوله انهم مسؤلون قيل عن أعمالهم فى الدنيا وأقوالهم وقيل المراد سألتهم الخزنة ألم يأتكم رسل منكم بالبينات قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين و يجوز أن يكون هذا السؤال ماذكر بعد ذلك وهو قوله تعالى مالكم لاتناصرون أى انهم يسئلون توبيخا لهم فيقال مالكم لاتناصرون قال ابن عباس رضى الله عنهما لاينصر بعضكم بعضا كما كنتم فى الدنيا وذلك ان أبا جهل قال يوم بدر نحن جميع منتصر فقيل لهم يوم القيامة مالكم غير متناصرين وقيل يقال للكفار ماشركاؤكم لايمنعونكم من العذاب ✻ ثم قال تعالى (بل هم اليوم مستسلمون) يقال استسلم للشئ اذا انقاد له وخضع ومعناه فى الاصل طلب السلامة بترك المنازعة والمقصود انهم صاروا منقادين لاحيلة لهم فى دفع تلك المضار لا العابد ولا المعبود ✻ ثم قال تعالى (وأقبل بعضهم على بعض) قيل هم والشياطين وقيل الرؤساء والاتباع (يتساءلون) أى يسأل بعضهم بعضا وهذا التساؤل عبارة عن التخاصم وهو سؤال التبكيت يقولون غررتمونا و يقول أولئك لم قبلتم منا وبالجملة فليس ذلك تساؤل المستفهمين بل هو تساؤل التوبيخ واللوم والله أعلم قوله تعالى ﴿ قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين قالوا بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين فحق علينا قول ربنا انا لذائقون فأغويناكم انا كنا غاوين فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون انا كذلك نفعل بالمجرمين انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون و يقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين انكم لذائقوا العذاب الاليم وما تجزون الا ما كنتم تعملون الا عباد الله المخلصين ﴾ واعلم أن الله تعالى لما حكى عنهم انه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون شرح كيفية ذلك التساؤل فقال قالوا انكم تأتوننا عن اليمين وهذا قول الاتباع لمن دعاهم الى الضلالة وفى تفسير اليمين وجوه (الاول) ان لفظ اليمين ههنا استعارة عن الخيرات والسعادات وبيان كيفية هذه الاستعارة ان الجانب الايمن أفضل من الجانب الايسر لوجوه (أحدها) اتفاق الكل على ان أشرف الجانبين هو اليمين (والثانى) لايباشرون الاعمال الشريفة الا باليمين مثل مصافحة الاخيار والاكل

والشرب وما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى (الثالث) انهم كانوا يتفاءلون وكانوا يتيمنون بالجانب الايمن ويسمونه بالبارح (الرابع) ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب التيامن في كل شئ (الخامس) ان الشريعة حكمت بأن الجانب الايمن لكاتب الحسنات والايسر لكاتب السيآت (السادس) ان الله تعالى وعد المحسن أن يؤتى كتابه بيمينه والمسئ أن يؤتى كتابه بيساره فثبت ان الجانب الايمن أفضل من الجانب الايسر واذا كان كذلك لاجرم استعير لفظ اليمين للخيرات والحسنات والطاعات فقوله انكم كنتم تأتوننا عن اليمين يعنى انكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا ان مقصودكم من الدعوة الى تلك الاديان نصرة الحق وتقوية الصدق (والوجه الثانى) في تأويل أنه يقال فلان يمين فلان اذا كان عنده بالمنزلة الحسنة فقال هؤلاء الكفار لائمتهم الذين اضلوهم وزينوا لهم الكفر انكم كنتم تخدعوننا وتوهموننا انا عندكم بمنزلة اليمين أى بالمنزلة الحسنة فوثقنا بكم وقبلنا عنكم (الوجه الثالث) ان أئمة الكفار كانوا قد حلفوا لهؤلاء المستضعفين أن ما يدعونهم اليه هو الحق فوثقوا بايمانهم وتمسكوا بعهودهم التى عهدوها لهم فمعنى قوله كنتم تأتوننا عن اليمين أى من ناحية المواثيق والايمان التى قدمتموها لنا (الوجه الرابع) أن لفظ اليمين مستعار من القوة والقهر لان اليمين موصوفة بالقهر وبها يقع البطش والمعنى انكم كنتم تأتوننا عن القوة والقهر وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتجبرونا عليه ثم حكى الله تعالى عن الرؤساء انهم أجابوا الاتباع من وجوه (الاول) انهم قالوا لهم بل لم تكونوا مؤمنين يعنى انكم ماكنتم موصوفين بالايمان حتى يقال انا ازلناكم عنه (الثانى) قولهم وما كان لنا عليكم من سلطان يعنى لاقدرة لنا عليكم حتى نقهركم ونجبركم (الثالث) بل كنتم قوما طاغين أى ضالين غاوين في معصية الله (الرابع) قولهم فحق علينا قول ربنا انا لذائقون والمعنى ان الله تعالى لما أخبر عن وقوعنا في العذاب فلو لم يحصل وقوعنا في العذاب لما كان خبر الله حقا بل كان باطلا ولما كان خبر الله أمرا واجبا لاجرم كان الوقوع في العذاب الاليم لازما قال مقاتل قوله تعالى فحق علينا قول ربنا اشارة الى قول الله لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين وقوله تعالى انا لذائقون يعنى لما وجب أن يحق علينا قول ربنا وجب أن نكون ذائقين لهذا العذاب (الخامس) قولهم فأغويناكم انا كنا غاوين والمعنى انا انما أقدمنا على اغوائكم لانا كنا موصوفين في أنفسنا بالغواية وفيه دقيقة أخرى كأنهم قالوا ان اعتقدتم ان غوايتكم بسبب اغوائنا فغوايتنا ان كانت بسبب اغواء غاو آخر لزم التسلسل وذلك محال فعلمنا أن حصول الغواية والرشاد ليس من قبلنا بل من قبل غيرنا وذلك الغير هو الذى ذكره فيما قبل وهو قوله فحق علينا قول ربنا ولما حكى الله تعالى كلام الاتباع للرؤساء وكلام الرؤساء للاتباع قال بعده فانهم يومئذ في العذاب مشتركون يعنى فالمتبوع والتابع والمخدوم والخادم مشتركون في الوقوع في العذاب

ليس في حيز الاحتمال فالمعنى انكم لذائقوا العذاب الاليم لكن عباد الله المخلصين الموحدين ليسوا كذلك وقوله تعالى (اولئك) اشارة اليهم للايذان بأنهم ممتازون بما اتصفوا به من الاخلاص في عبادة الله تعالى عمن عداهم امتيازا بالغا منتظمون بسببه في سلك الامور المشاهدة وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار بعلو طبقتهم وبعد منزلتهم في الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (لهم) اما خبر له وقوله تعالى (رزق) مرتفع على الفاعلية بما فيه من الاستقرار أو مبتدأ ولهم خبر مقدم والجملة خبر لاولئك والجملة الكبرى استئناف مبين لما أفاده الاستثناء اجمالا بيانا تفصيليا وقيل هى خبر للاستثناء المنقطع على أنه متأول بالابتدا وقوله تعالى (معلوم) أى معلوم الخصائص من حسن المنظر ولذة الطعم وطيب الرائحة ونحوها من نعوت الكمال وقيل معلوم الوقت كقوله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وقوله تعالى (فواكه) اما بدل من رزق أو خبر مبتدأ مضمر أى ذلك الرزق فواكه وتخصيصها بالذكر لان أرزاق أهل الجنة كلها فواكه أى ما يؤكل لمجرد التلذذ دون الاقتيات لانهم مستغنون عن القوت لكون خلقتهم محكمة محفوظة من التحلل المحوج الى البدل وقيل لان الفواكه من أتباع سائر الاطعمة فذكرها مغن عن ذكرها (وهم مكرمون) عند الله عز وجل لا يلحقهم هوان ﴿كا﴾

كما كانوا فى الدنيا مشتركين فى الغواية ثم قال أيضا انا كذلك نفعل بالمجرمين وعنى بالمجرمين ههنا الكفار بدليل انه تعالى قال بعد هذه الكلمة انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون والضمير فى قوله انهم عائد الى المذكور السابق وهو قوله بالمجرمين وهذا يدل على أن لفظ المجرم المطلق مخصص فى القرآن بالكافر ثم بين تعالى انهم انما وقعوا فى ذلك العذاب لانهم كانوا مكذبين بالتوحيد وبالنبوة اما التكذيب بالتوحيد فهو قوله تعالى انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون يعنى يتكبرون ويتعصبون لاثبات الشرك ويستنكفون عن الاقرار بالتوحيد وأما التكذيب بالنبوة فهو قولهم أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ويعنون محمدا ثم انه تعالى كذبهم فى ذلك الكلام فقال بل جاء بالحق وصدق المرسلين وتقرير هذا الكلام انه جاء بالدين الحق لانه ثبت بالعقل انه تعالى منزه عن الضد والند والشريك فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بتقرير هذه المعانى كان مجيئه بالدين الحق قرأ ابن كثير أينا لتاركو آلهتنا بهمزة وياء بعدها خفيفة ساكنة بلا مد وقرأ نافع فى رواية قالون وابو عمرو على هذا التفسير ويمدان والباقون بهمزتين بلا مد وقوله تعالى وصدق المرسلين يعنى صدقهم فى مجيئهم بالتوحيد ونفى الشريك وهذا تنبيه على أن القول بالتوحيد دين لكل الانبياء ولما حكى الله عنهم تكذيبهم بالتوحيد وبالنبوة نقل الكلام من الغيبة الى الحضور فقال انكم لذائقوا العذاب الاليم كأنه قيل فكيف يليق بالرحيم الكريم المتعالى عن النفع والضر أن يعذب عباده فأجاب عنه بقوله وما تجزون الا ما كنتم تعملون والمعنى ان الحكمة تقتضى الامر بالحسن والطاعة والنهى عن القبيح والمعصية والامر والنهى لا يكمل المقصود منهما الا بالترغيب فى الثواب والترهيب بالعقاب واذا وقع الاخبار عنه وجب تحقيقه صونا للكلام عن الكذب فلهذا السبب وقعوا فى العذاب ثم قال الا عباد الله المخلصين يعنى ولكن عباد الله من الاستثناء المنقطع

❁ قوله تعالى (أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون فى جنات النعيم على سرر متقابلين يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) اعلم انه تعالى لما وصف أحوال المتكبرين عن قبول التوحيد المصرين على انكار النبوة أردفه بذكر حال المخلصين فى كيفية الثواب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكرنا فى فتح اللام وكسرها من المخلصين قراءتين فالفتح ان الله تعالى أخلصهم بلطفه واصطفاهم بفضله والكسر هو انهم اخلصوا الطاعة لله تعالى (المسئلة الثانية) اعلم انه تعالى وصف رزقهم بكونه معلوما ولم يبين ان أى الصفات منه هو المعلوم فلذلك اختلفت الاقوال فقيل معناه ان ذلك الرزق معلوم الوقت وهو مقدار غدوة وعشية وان لم يكن ثمة لا بكرة ولا عشية قال تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وقيل معناه ان ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصا بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر وقيل معناه

أى فى جنات ليس فيها الا النعيم وهو ظرف أو حال من المستكن فى مكرمون أو خبر ثان لاولئك وقوله تعالى (على سرر) يحتمل الحالية والخبرية فقوله تعالى (متقابلين) حال من المستكن فيه أو فى مكرمون وقوله تعالى (يطاف عليهم) اما استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية تكامل مجالس أنسهم أو حال من الضمير فى متقابلين أو فى أحد الجارين وقد جوز كونه صفة لمكرمون (بكأس) باناء فيه خمر أو بخمر فان الكأس تطلق على نفس الخمر كما فى قول من قال وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها (من معين) متعلق بمضمر هو صفة لكأس أى كائنة من شراب معين أو من نهر معين وهو الجارى على وجه الارض الظاهر للعيون أو الخارج من العيون من عان الماء اذا نبع وصف به الخمر وهو للماء لانها تجرى فى الجنة فى أنهار كما يجرى الماء قال تعالى وأنهار من خمر (بيضاء لذة للشاربين) صفتان أيضا لكأس ووصفها بلذة اما للمبالغة كأنها نفس اللذة أو لانها تأنيث اللذ بمعنى اللذيذ ووزنه فعل قال ولذ كطعم الصرخدى تركته بأرض العدا من خيفة الحدثان يريد به النوم (لا فيها غول) أى غائلة كما فى خمور الدنيا من غاله اذا أفسده وأهلكه ومنه الغول (ولا هم عنها ينزفون) يسكرون من نزف الشارب فهو نزيف ومنزوف اذا ذهب عقله ويقال

نوع من أنواع الفساد من مغص أو صداع أو خمار أو عربدة ولغو وتأثيم ولاهم يسكرون وقرئ ينزفون بكسر الزاى من انزف الشارب اذا نفد عقله أو شرابه وقرئ ينزفون بضم الزاى من نزف ينزف بضم الزاى فيهما (وعندهم قاصرات الطرف) قصرن أبصارهن على أزواجهن لا يمدن طرفا الى ❊ ١٤٢ ❊ غيرهم (عين) نجل العيون جمع عيناء والنجل سعة العين (كأنهن بيض مكنون) شبههن ببيض النعام المصون من الغبار ونحوه فى الصفاء والبياض المخلوط بأدنى صفرة فان ذلك أحسن ألوان الابدان (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) معطوف على يطاف أى يشربون فيتحادثون على الشراب كما هو عادة الشرب قال وما بقيت من اللذات الا أحاديث الكرام على المدام فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الفضائل والمعارف وعما جرى لهم وعليهم فى الدنيا فالتعبير عنه بصيغة الماضى للتأكيد والدلالة على تحقق الوقوع حتما (قال قائل منهم) فى تضاعيف محاوراتهم (انى كان لى) فى الدنيا (قرين) مصاحب (يقول) لى على طريقة التوبيخ بما كنت عليه من الايمان والتصديق بالبعث (أئنك لمن المصدقين) اى بالبعث وقرئ بتشديد الصاد من التصدق والاول هو الاوفق لقوله تعالى (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) أى لمبعوثون ❊ رحمه ❊

انهم يتيقنون دوامه لا كرزق الدنيا الذى لا يعلم متى يحصل ومتى ينقطع وقيل معناه انه القدر الذى يستحقونه بأعمالهم من ثواب الله وكرامته عليهم وقد بين تعالى انه يعطيهم غير ذلك على سبيل التفضل ثم لما ذكر تعالى أن لهم رزقا بين أن ذلك الرزق ما هو فقال فواكه وفيه قولان (الاول) أن الفاكهة عبارة عما يؤكل لاجل التلذذ لا لاجل الحاجة وارزاق أهل الجنة كلها فواكه لانهم مستغنون عن حفظ الصحة بالاقوات فانهم أجسام محكمة مخلوقة للابد فكل ما يأكلونه فهو على سبيل التلذذ (والثانى) أن المقصود من ذكر الفاكهة التنبيه بالادنى على الاعلى يعنى لما كانت الفاكهة حاضرة أبدا كان الادام أولى بالحضور والقول الاول أقرب الى التحقيق واعلم انه تعالى لما ذكر الاكل بين ان ذلك الاكل حاصل مع الاكرام والتعظيم فقال وهم مكرمون لان الاكل الخالى عن التعظيم يليق بالبهائم ولما ذكر تعالى مأكولهم وصف تعالى مساكنهم فقال فى جنات النعيم على سرر متقابلين ومعناه انه لا كلفة عليهم فى التلاقى الانس والتخاطب وفى بعض الاخبار انهم اذا أرادوا القرب سار السرير تحتهم ولا يجوز أن يكونوا متقابلين الامع حصول الخواطر والسرائر وان يكونوا كذلك الا مع الفسحة والسعة ولا يجوز أن يسمع بعضهم خطاب بعض ويراه على بعد الا بان يقوى الله أبصارهم وأسماعهم وأصواتهم ولما شرح الله صفة المأكل والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال يطاف عليهم بكأس من معين يقال للزجاجة التى فيها الخمر كأسا وتسمى الخمرة نفسها كأسا قال ❊ وكأس شربت على لذة ❊ وعن الاخفش كل كأس فى القرآن فهى الخمر وقوله من معين أى من شراب معين أو من نهر معين المعين مأخوذ من عين الماء أى يخرج من العيون كما يخرج الماء وسمى معينا لظهوره يقال عان الماء اذا ظهر جاريا قاله ثعلب فهو مفعول من العين نحو مبيع ومكيل وقيل سمى معينا لانه يجرى ظاهر العين ويجوز أن يكون فعيلا من المعين وهو الماء الشديد الجرى ومنه أمعن فى المسير اذا اشتد فيه وقوله بيضاء صفة للخمر قال الاخفش خمر الجنة اشد بياضا من اللبن وقوله لذة فيه وجوه (أحدها) انها وصفت باللذة كأنها نفس اللذة وعينها كما يقال فلان جود وكرم اذا أرادوا المبالغة فى وصفه بهاتين الصفتين (وثانيها) قال الزجاج أى ذات لذة فعلى هذا حذف المضاف (وثالثها) قال الليث اللذ واللذيذ يجريان مجرى واحدا فى النعت ويقال شراب لذ ولذيذ قال تعالى بيضاء لذة للشاربين وقال تعالى من خمر لذة للشاربين ولذلك سمى النوم لذا الاستلذاذه وعلى هذا لذة بمعنى لذيذة والاقرب من هذه الوجوه الاول ثم قال تعالى لا فيها غول وفيه ابحاث (البحث الاول) قال الفراء العرب تقول ليس فيها غيلة وغائلة وغول سواء وقال أبو عبيدة الغول ان يغتال عقولهم وأنشد قول مطيع بن اياس

وما زالت الكأس تغتالهم ❊ وتذهب بالاول الاول

وقال الليث الغول الصداع والمعنى ليس فيها صداع كما فى خمر الدنيا قال الواحدى

تعالى فى الآخرة خيرامنه فقال أئنك لمن المصدقين بيوم الدين أومن المتصدقين اطلب الثواب والله لاأعطيك شيئا فيكون التعرض لذكر موتهم وكونهم ترابا وعظاما حينئذ لتأكيد انكار الجزاء المبنى على انكار البعث (قال) أى ذلك القائل بعدما حكى لجلسائه مقالة قرينه ﴿ ١٤٣ ﴾ فى الدنيا (هل أنتم مطلعون) أى الى أهل النار لاريكم ذلك

رحمه الله وحقيقته الاهلاك يقال غاله غولا أى أهلكه والغول والغائل المهلك ثم سمى الصداع غولا لانه يؤدى الى الهلاك ثم قال تعالى ولاهم عنها ينزفون وقرئ بكسر الزاى قال الفراء من كسر الزاى فله معنيان يقال انزف الرجل اذا نفدت خمرته وأنزف اذا ذهب عقله من السكر ومن فتح الزاى فمعناه لايذهب عقولهم أى لايسكرون يقال نزف الرجل فهو منزوف ونزيف والمعنى ليس فيها قط نوع من أنواع الفساد التى تكون فى شراب الخمر من صداع أوخمار أوعربدة ولاهم يسكرون أيضا وخصه بالذكر لانه أعظم المفاسد فى شرب الخمر ولماذكر الله تعالى صفة مشروبهم ذكر عقيبه صفة منكوحهم من ثلاثة أوجه (الاول) قوله وعندهم قاصرات الطرف ومعنى القصر فى اللغة الحبس ومنه قوله تعالى حور مقصورات فى الخيام والمعنى انهن يحبسن نظرهن ولاينظرن الى غير أزواجهن (الصفة الثانية) قوله تعالى عين قال الزجاج كبار الاعين حسانها واحدها عيناء (الصفة الثالثة) قوله تعالى كأنهن بيض مكنون المكنون فى اللغة المستور يقال كننت الشئ واكننته ومعنى هذا التشبيه ان ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة فاذا كان مكنونا كان مصونا عن الغبرة والقترة فكان هذا اللون فى غاية الحسن والعرب كانوا يسمون النساء بيضات الخدور ولما تمم الله صفات أهل الجنة قال فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فان قيل على أى شئ عطف قوله فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون قلنا على قوله يطاف عليهم والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب قال الشاعر

وما بقيت من اللذات الا * محادثة الكرام على المدام

والمعنى فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم فى الدنيا * قوله تعالى (قال قائل منهم انى كان لى قرين يقولون أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه فى سواء الجحيم قال تالله ان كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين أفما نحن بميتين الاموتتنا الاولى ومانحن بمعذبين ان هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لماذكر فى أهل الجنة انهم يتساءلون عند الاجتماع على شرب خمر الجنة فان محادثة العقلاء بعضهم مع بعض على الشرب من الامور اللذيذة وتذكر الخلاص عند اجتماع أسباب الهلاك من الامور اللذيذة ذكر تعالى فى هذه الآية ان أهل الجنة اذا اجتمعوا على الشرب وأخذوا فى المكالمة والمساءلة كان من جملة تلك الكلمات انهم يتذكرون انهم كان قد حصل لهم فى الدنيا مايوجب لهم الوقوع فى عذاب الله ثم انهم تخلصوا عنه وفازوا بالسعادة الابدية والمقصود من ذكر هذه الاشياء ان أهل الجنة يتكامل سرورهم وبهجتهم اماقوله قال قائل منهم انى كان لى قرين أى قال قائل من أهل الجنة انى كان لى قرين فى الدنيا يقول أئنك لمن المصدقين أى كان يوبخنى على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجبا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون أى

القرين يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه وقيل القائل هو الله تعالى أو بعض الملائكة يقول لهم هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار لاريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم قيل ان فى الجنة كوى ينظر منها أهلها الى أهل النار (فاطلع) أى عليهم (فرآه) أى قرينه (فى سواء الجحيم) أى فى وسطها وقرئ فأطلع على لفظ المضارع المنصوب وقرئ مطلعون فأطلع وفأطلع بالتخفيف على لفظ الماضى والمضارع المنصوب يقال طلع علينا فلان واطلع وأطلع بمعنى واحد والمعنى هل أنتم مطلعون الى القرين فأطلع انا أيضا أوعرض عليهم الاطلاع فقبلوا ماعرضه فاطلع هو بعد ذلك وان جعل الاطلاع متعديا فالمعنى انه لما شرط فى اطلاعه اطلاعهم كما هو ديدن الجلساء فكأنهم مطلعوه وقيل الخطاب على هذا للملائكة وقرئ مطلعون بكسر النون أراد مطلعون اياى فوضع المتصل موضع المنفصل كقوله * هم الفاعلون الخير والآمرونه أوشبه اسم الفاعل بالفعل ... (قال) أى القائل مخاطبا لقرينه (تالله ان كدت لتردين) أى لتهلكنى بالاغواء وقرئ

محذوف واللام فارقة أى تالله ان الشان كدت لتردين (ولولا نعمة ربى) بالهداية والعصمة (لكنت من المحضرين)
أى من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأضرابك وقوله تعالى (أفما نحن بميتين) رجوع الى محاورة جلسائه
بعد اتمام الكلام مع قرينه تبجحا وابتهاجا بما أتاح الله عز وجل

لهم من الفضل العظيم والنعيم المقيم

لمحاسبون ومجازون والمعنى أن ذلك القرين كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار ثم ان ذلك الرجل الذى هو من أهل الجنة يقول لجلسائه يدعوهم الى كمال السرور بالاطلاع الى النار لمشاهدة ذلك القرين ومخاطبته هل أنتم مطلعون فاطلع والاقرب انه تكلف أمرا اطلع معه لانه لو كان مطلعا بلا تكلف لم يكن الى اطلاعه حاجة فلذلك قال بعضهم انه ذهب الى بعض اطراف الجنة فاطلع عندها الى النار فرآه فى سواء الجحيم أى فى وسط الجحيم قال له موبخا تالله ان كدت لتردين أى لتهلكنى بدعائك اياى الى انكار البعث والقيامة ولولا نعمة ربى بالارشاد الى الحق والعصمة عن الباطل لكنت من المحضرين فى النار مثلك ولما تمم ذلك الكلام مع الرجل الذى كان فى الدنيا قرينا له وهو الآن من أهل النار عاد الى مخاطبة جلسائه الذين هم من أهل الجنة فقال أفما نحن بميتين وفيه قولان (الاول) ان أهل الجنة لايعلمون فى أول دخولهم فى الجنة انهم لايموتون فاذا جئ بالموت على صورة كبش أملح وذبح فعند ذلك يعلمون أنهم لايموتون فلعل هذا الكلام حصل قبل ذبح الموت (والثانى) ان الذى يتكامل خيره وسعادته فاذا عظم تعجبه بها قد يقول أيدوم هذا الى أفيبقى هذا الى وان كان على يقين من دوامه ثم عند فراغهم من هذه المباحثات يقولون ان هذا لهو الفوز العظيم واما قوله لمثل هذا فليعمل العاملون فقيل انه من بقية كلامهم وقيل انه ابتداء كلام من الله تعالى أى لطلب مثل هذه السعادات يجب أن يعمل العاملون (المسئلة الثانية) قال بعضهم المراد من هذا القائل ومن قرينه ماذكره الله تعالى فى سورة الكهف فى قوله واضرب لهم مثلا رجلين الى آخر الآيات وروى أن رجلين كانا شريكين فحصل لهما ثمانية آلاف دينار فقال أحدهما للآخر أقاسمك فقاسمه واشترى دارا بالف دينار فأراها صاحبه وقال وكيف ترى حسنها فقال ما أحسنها فخرج وقال اللهم ان صاحبى هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وانى أسألك دارا من دور الجنة فتصدق بألف دينار ثم ان صاحبه تزوج بامرأة حسناء بألف دينار فتصدق هذا بألف دينار لاجل ان يزوجه الله من الحور العين ثم ان صاحبه اشترى بساتين بألفى دينار فتصدق هذا بألفى دينار ثم ان الله أعطاه فى الجنة ماطلب فعند هذا قال انه كان لى قرين فاطلع فرآه فى سواء الجحيم (المسئلة الثالثة) قوله أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون اختلف القراء فى هذه الاستفهامات الثلاثة قرأ نافع الاولى والثانية بالاستفهام بهمزة غير ممدودة والثالثة بكسر الالف من غير استفهام ووافقه الكسائى الا انه يستفهم الثالثة بهمزتين وقرأ ابن عامر الاولى والثالثة بالاستفهام بهمزتين والثانية بكسر الالف من غير استفهام وقرأ الباقون بالاستفهام فى جميعها ثم اختلفوا فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة و بعدها ياء ساكنة خفيفة وأبو عمرو مطولة وعاصم وحمزة بهمزتين وأما قوله ان كدت لتردين قرأ نافع برواية ورش لتردينى باثبات الياء فى الوصل والباقون بحذفها (المسئلة الرابعة) احتج أصحابنا على أن الهدى

والهمزة للتقرير وفيها معنى التعجب والفاء للعطف على مقدر يقتضيه نظم الكلام أى أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين أى بمن شأنه الموت وقرئ بمائتين (الا موتتنا الاولى) التى كانت فى الدنيا وهى متناولة لما فى القبر بعد الاحياء للسؤال قاله تصديقا لقوله تعالى لايذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وقيل ان أهل الجنة أول ما دخلوا الجنة لايعلمون أنهم لايموتون فاذا جئ بالموت على صورة كبش أملح فذبح ونودى يا أهل الجنة خلود فلا موت و يا أهل النار خلود فلا موت يعلمونه فيقولون ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى واغتباطا بها (وما نحن بمعذبين) كالكفار فان النجاة من العذاب أيضا نعمة جليلة مستوجبة للتحدث بها (ان هذا) أى الامر العظيم الذى نحن فيه (لهو الفوز العظيم) وقيل هو من قول الله عز وجل تقريرا لقولهم وتصديقا له وقرئ لهو الرزق العظيم وهو ما رزقوه من السعادة العظمى

﴿ والضلال ﴾

والضلال من الله تعالى بقوله تعالى ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين وقالوا مذهب الخصم ان كل ما فعله الله تعالى من وجوه الانعام فى حق المؤمن فقد فعله فى حق الكافر واذا كان ذلك الانعام مشتركا فيه امتنع أن يكون سببا لحصول الهداية للمؤمن وان يكون سببا لخلاصه من الكفر والردى فوجب أن تكون تلك النعمة المخصوصة أمرا زائدا على تلك الانعامات التى حصل الاشتراك فيها وما ذلك الا بقوة الداعى الى الايمان وتكميل الصارف عن الكفر (المسئلة الخامسة) احتج نفاة عذاب القبر بقول الرجل الذى من أهل الجنة أفما نحن بميتين الا موتتنا الاولى فهذا يدل على ان الانسان لا يموت الا مرة واحدة ولو حصلت الحياة فى القبر لكان الموت حاصلا مرتين (والجواب) أن قوله الا موتتنا الاولى المراد منه كل ما وقع فى الدنيا والله أعلم ❊ قوله تعالى (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم انا جعلناها فتنة للظالمين انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالؤن منها البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم ثم ان مرجعهم لالى الجحيم انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين ولقد ارسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الا عباد الله المخلصين) اعلم أنه تعالى لما قال بعد ذكر أهل الجنة ووصفها لمثل هذا فليعمل العاملون أتبعه بقوله أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يورد ذلك على كفار قومه ليصير ذلك زاجرا لهم عن الكفر وكما وصف من قبل مأكل أهل الجنة ومشاربهم وصف أيضا فى هذه الآية مأكل أهل النار ومشاربهم ❊ أما قوله أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم فالمعنى ان الرزق المعلوم المذكور لاهل الجنة خير نزلا أى خير حاصلا أم شجرة الزقوم وأصل النزل الفضل الواسع فى الطعام يقال طعام كثير النزل فاستعير للحاصل من الشئ ويقال أرسل الامير الى فلان نزلا وهو الشئ الذى يصلح حال من ينزل بسببه اذا عرفت هذا فنقول حاصل الرزق المعلوم لاهل الجنة اللذة والسرور وحاصل شجرة الزقوم الالم والغم ومعلوم انه لا نسبة لاحدهما الى الآخر فى الخيرية الا أنه جاء هذا الكلام اما على سبيل السخرية بهم أو لاجل ان المؤمنين لما اختاروا ما أوصلهم الى الرزق الكريم والكافرين اختاروا ما أوصلهم الى العذاب الاليم فقيل لهم ذلك توبيخا لهم على سوء اختيارهم وأما الزقوم فقال الواحدى رحمه الله لم يذكر المفسرون للزقوم تفسيرا الا الكلبى فانه روى انه لما نزلت هذه الآية قال ابن الزبعرى أكثر الله فى بيوتكم الزقوم فان أهل اليمن يسمون التمر والزبد بالزقوم فقال أبو جهل لجاريته زقمينا فأتته بزبد وتمر وقال تزقموا ثم قال الواحدى ومعلوم أن الله تعالى لم يرد بالزقوم ههنا الزبد والتمر قال ابن دريد لم يكن للزقوم اشتقاق من التزقم وهو الافراط من أكل الشئ حتى يكره ذلك يقال بات فلان يتزقم وظاهر لفظ القرآن يدل على انها شجرة كريهة الطعم منتنة الرائحة شديدة الخشونة موصوفة بصفات كل من تناولها عظم من تناولها ثم انه تعالى يكره أهل النار على

(أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) أصل النزل الفضل والريع فاستعير للحاصل من الشئ وانتصابه على التمييز اى أذلك الرزق المعلوم الذى حاصله اللذة والسرور خير نزلا أم شجرة الزقوم التى حاصلها الألم والغم ويقال النزل لما يقام ويهيأ من الطعام الحاضر للنازل فانتصابه على الحالية والمعنى أن الرزق المعلوم نزل أهل الجنة وأهل النار نزلهم شجرة الزقوم فأيهما خير فى كونه نزلا والزقوم اسم شجرة صغيرة ❊ ١٤٥ ❊ الورق دفرة مرة كريهة الرائحة تكون فى تهامة سميت به الشجرة الموصوفة (انا جعلناها فتنة للظالمين) محنة وعذابا لهم فى الآخرة وابتلاء فى الدنيا فانهم لما سمعوا أنها فى النار قالوا كيف يمكن ذلك والنار تحرق الشجر ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش فى النار ويتلذذ بها أقدر على خلق الشجر فى النار وحفظه من الاحراق (انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم) منبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع الى دركاتها وقرئ نابتة فى أصل الجحيم (طلعها) أى حملها الذى يخرج منها مستعار من طلع النخلة لمشاركته له فى الشكل والطلوع من الشجر فانه أول الثمر طلع ثم خلال ثم بلح ثم بسر ثم رطب ثم تمر (كأنه رؤس الشياطين) فى تناهى القبح والهول وهو تشبيه بالمخيل كتشبيه الفائق فى الحسن بالملك وقيل الشياطين الحيات الهائلة القبيحة المنظر لها اعراف وقيل ان شجرا ❊ ٩١ ❊ سا يقال له الاستن خشنا منتنا مرا منكر الصورة يسمى ثمره رؤس الشياطين (فانهم لآكلون منها) أى من الشجرة أو من طلعها فالتأنيث مكتسب من المضاف اليه (فمالؤن منها البطون) لغلبة الجوع أو للقسر

كما ينبئ عنه كلمة ثم ويجوز أن تكون لما فى شرابهم من مزيد الكراهة والبشاعة (لشوبا من حميم) لشرابا من غساق أو صديد مشوبا بماء حميم يقطع امعاءهم وقرئ بالضم وهو اسم لما يشاب به والاول مصدر سمى به (ثم ان مرجعهم) أى مصيرهم وقد قرئ كذلك (لالى الجحيم) لالى دركاتها أو الى نفسها فان الزقوم والحميم نزل يقدم اليهم قبل دخولها وقيل الجحيم خارج عنها لقوله تعالى هذه جهنم التى ﴿ ١٤٦ ﴾ يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن يذهب بهم عن مقارهم ومنازلهم فى الجحيم الى شجرة الزقوم فيأكلون منها الى أن يتملؤا ثم يسقون من الحميم ثم يردون الى الجحيم ويؤيده أنه قرئ ثم ان منقلبهم (انهم ألفوا آباءهم ضالين) تعليل لاستحقاقهم ماذكر من فنون العذاب بتقليد الآباء فى الدين من غير أن يكون لهم ولا لآبائهم شئ يتمسك به أصلا أى وجدوهم ضالين فى نفس الامر ليس لهم مايصلح شبهة فضلا عن صلاحية الدليل (فهم على آثارهم يهرعون) من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أولا مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل والاهراع الاسراع الشديد كأنهم يزعجون ويحثون حثا على الاسراع على آثارهم وقيل هو اسراع فيه شبه رعدة (ولقد ضل قبلهم) أى قبل قومك قريش (أكثر الاولين) من الامم السالفة وهو جواب قسم محذوف وكذا قوله تعالى (ولقد أرسلنا فيهم منذرين) أى أنبياء أولى عدد ﴿ الاول ﴾
كثير وذوى شأن خطير [illegible]

تناول بعض اجزائها ✲ أما قوله تعالى انا جعلناها فتنة للظالمين ففيه أقوال (الاول) انها انما صارت فتنة للظالمين من حيث ان الكفار لما سمعوا هذه الآية قالوا كيف يعقل أن تنبت الشجرة فى جهنم مع ان النار تحرق الشجرة والجواب عنه ان خالق النار قادر على أن يمنع النار من احراق الشجر ولانه اذا جاز أن يكون فى النار زبانية والله تعالى يمنع النار عن احراقهم فلم لا يجوز مثله فى هذه الشجرة اذا عرفت هذا السؤال والجواب فمعنى كون شجرة الزقوم فتنة للظالمين هو انهم لما سمعوا هذه الآية وقعت تلك الشبهة فى قلوبهم وصارت تلك الشبهة سببا لتماديهم فى الكفر فهذا هو المراد من كونها فتنة لهم (والوجه الثانى) فى التفسير أن يكون المراد صيرورة هذه الشجرة فتنة لهم فى النار لانهم اذا كلفوا تناولها وشق ذلك عليهم فحينئذ يصير ذلك فتنة فى حقهم (الوجه الثالث) أن يكون المراد من الفتنة الامتحان والاختبار فان هذا شئ بعيد عن العرف والعادة مخالف للمألوف والمعروف فاذا ورد على سمع المؤمن فوض علمه الى الله واذا ورد على الزنديق توسل به الى الطعن فى القرآن والنبوة ✲ ثم انه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وصفها بصفات (الصفة الاولى) قوله انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم قيل منبتها فى قعر جهنم وأغصانها ترتفع من دركاتها (الصفة الثانية) قوله طلعها كأنه رؤس الشياطين قال صاحب الكشاف الطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها اما استعارة لفظية أو معنوية وقال ابن قتيبة سمى طلعا لطلوعه كل سنة ولذلك قيل طلع النخل الاول مايخرج من ثمره واما تشبيه هذا الطلع برؤس الشياطين ففيه سؤال لانه قيل انا مارأينا رؤس الشياطين فكيف يمكن تشبيه شئ بها وأجابوا عنه من وجوه (الاول) وهو الصحيح ان الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى الصورة والسيرة واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح والتشويه فى الصورة والسيرة فكما حسن التشبيه بالملك عند ارادة تقرير الكمال والفضيلة فى قوله ان هذا الا ملك كريم فكذلك وجب أن يحسن التشبيه برؤس الشياطين فى القبح وتشويه الخلقة والحاصل ان هذا من باب التشبيه لا بالمحسوس بل بالمتخيل كأنه قيل ان أقبح الاشياء فى الوهم والخيال هو رؤس الشياطين فهذه الشجرة تشبهها فى قبح النظر وتشويه الصورة والذى يؤكد هذا ان العقلاء اذا رأوا شيئا شديد الاضطراب منكر الصورة قبيح الخلقة قالوا انه شيطان واذا رأوا شيئا حسن الصورة والسيرة قالوا انه ملك وقال امرؤ القيس

أتقتلنى والمشرفى مضاجعى ✲ ومسنونة زرق كأنياب اغوال

(والقول الثانى) أن الشياطين حيات لها رؤس واعراف وهى من أقبح الحيات وبها يضرب المثل فى القبح والعرب اذا رأت منظرا قبيحا قالت كأنه شيطان الحماطة والحماطة شجرة معينة (والقول الثالث) ان رؤس الشياطين نبت معروف قبيح الرأس والوجه الاول هو الجواب الحق واعلم انه تعالى لما ذكر هذه الشجرة وذكر صفتها بين أن الكفار لآكلون منها فمالئون منها البطون واعلم أن اقدامهم على ذلك الاكل يحتمل وجهين

كان المعنى انهم اهلكوا اهلاكا فظيعا استثنى منهم المخلصون بقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) اى الذين اخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للايمان والعمل بموجب الانذار وقرئ المخلصين بكسر اللام أي الذين أخلصوا دينهم لله تعالى (ولقد نادانا نوح) نوع تفصيل لما أجمل فيما قبل ببيان أحوال بعض المرسلين وحسن عاقبتهم متضمن لبيان سوء عاقبة بعض المنذرين ﴿ ١٤٧ ﴾ حسبما أشير اليه بقوله تعالى فانظر كيف كان عاقبة المنذرين كقوم نوح وآل فرعون وقوم لوط وقوم الياس ولبيان حسن عاقبة بعضهم الذين أخلصهم الله تعالى ووفقهم للايمان كما أشار اليه الاستثناء كقوم يونس عليه السلام ووجه تقديم قصة نوح على سائر القصص غنى عن البيان واللام جواب قسم محذوف وكذا ما فى قوله تعالى (فلنعم المجيبون) أى وبالله لقد دعانا نوح حين يئس من ايمان قومه بعد ما دعاهم اليه أحقابا ودهورا فلم يزدهم دعاؤه الا فرارا ونفورا فأجبناه أحسن الاجابة فوالله لنعم المجيبون نحن فحذف ما حذف ثقة بدلالة ما ذكر عليه والجمع دليل العظمة والكبرياء (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) أى من الغرق وقيل من اذية قومه (وجعلنا ذريته هم الباقين) فحسب حيث أهلكنا الكفرة بموجب دعائه رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا وقد روى انه مات كل من كان معه فى السفينة غير أبنائه وأزواجهم اوهم الذين بقوا متناسلين الى يوم القيامة قال قتادة الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام وكان له ثلاثة أولاد سام وحام ويافث

(الاول) انهم أكلوا منها لشدة الجوع فان قيل وكيف يأكلونها مع نهاية خشونتها ونتنها ومرارة طعمها قلنا ان الواقع فى الضرر العظيم ربما استروح منه الى ما يقارب به فى الضرر فاذا جوعهم الله جوع الشديد فزعوا فى ازالة ذلك الجوع الى تناول هذا الشئ وان كان بالصفة التى ذكرتموها (الوجه الثانى) أن يقال الزبانية يكرهونهم على الاكل من تلك الشجرة تكميلا لعذابهم ❊ واعلم انهم اذا شبعوا فحينئذ يشتد عطشهم ويحتاجون الى الشراب فعند هذا وصف الله شرابهم فقال ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم قال الزجاج الشوب اسم عام فى كل ما خلط بغيره والحميم الماء الحار المتناهى فى الحرارة والمعنى انه اذا غلبهم ذلك العطش الشديد سقوا من ذلك الحميم فحينئذ يشوب الزقوم بالحميم نعوذ بالله منهما واعلم أن الله وصف شرابهم فى القرآن بأشياء منها كونه غساقا ومنها قوله وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ومنها ما ذكره فى هذه الآية (فان قيل) ما الفائدة فى كلمة ثم فى قوله ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم قلنا فيه وجهان (الاول) انهم يملؤن بطونهم من شجرة الزقوم وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم ثم انهم لا يسقون الا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب (والثانى) انه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة ثم وصف الشراب بما هو ابشع منه فكان المقصود من كلمة ثم بيان أن حال المشروب فى البشاعة أعظم من حال المأكول ثم قال تعالى ثم أن مرجعهم لالى الجحيم قال مقاتل أى بعد أكل الزقوم وشرب الحميم وهذا يدل على انهم عند شرب الحميم لم يكونوا فى الجحيم وذلك بأن يكون الحميم من موضع خارج عن الجحيم فهم يوردون الحميم لاجل الشرب كما تورد الابل الى الماء ثم يوردون الى الجحيم فهذا قول مقاتل واحتج على صحته بقوله تعالى هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن وذلك يدل على صحة ما ذكرناه ثم انه تعالى لما وصف عذابهم فى أكلهم وشربهم قال انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون قال الفراء الاهراع الاسراع يقال هرع وأهرع اذا استحث والمعنى انهم يتبعون آباءهم اتباعا فى سرعة كأنهم يزعجون الى اتباع آبائهم والمقصود من الآية انه تعالى علل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد كلها بتقليد الآباء فى الدين وترك اتباع الدليل ولو لم يوجد فى القرآن آية غير هذه الآية فى ذم التقليد لكفى ❊ ثم انه تعالى ذكر لرسوله ما يوجب التسلية له فى كفرهم وتكذيبهم فقال ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين ولقد أرسلنا فيهم منذرين فبين تعالى ان ارساله للرسل قد تقدم والتكذيب لهم قد سلف ويجب أن يكون له صلى الله عليه وسلم أسوة بهم حتى يصبر كما صبروا ويستمر على الدعاء الى الله وان تمردوا فليس عليه الا البلاغ ❊ ثم قال تعالى فانظر كيف كان عاقبة المنذرين وهذا وان كان فى الظاهر خطابا مع الرسول صلى الله عليه وسلم الا أن المقصود منه خطاب الكفار لانهم سمعوا بالاخبار جميع ما جرى من أنواع العذاب على قوم نوح وعلى عاد وثمود وغيرهم فان لم يعلموا ذلك فلا أقل من ظن وخوف يصلح أن يكون زاجرا لهم عن كفرهم ❊ وقوله تعالى

سورة أنزلناها والمعنى يسلمون عليه تسليما ويدعون له على الدوام امة بعد أمة وقيل ثمة قول مقدر اى فقلنا وقيل ضمن تركنا معنى قلنا وقوله تعالى (فى العالمين) متعلق بالجار والمجرور ومعناه الدعاء بثبات هذه التحية واستمرارها أبدا فى العالمين من الملائكة والثقلين جميعا وقوله تعالى (انا كذلك نجزى المحسنين) تعليل لما فعل به عليه الصلاة والسلام من التكرمة السنية من اجابة دعائه

أحسن اجابة وابقاء ذريته وتبقية ذكره الجميل وتسليم العالمين عليه الى آخر الدهر بكونه من زمرة المعروفين بالاحسان الراسخين فيه وأن ذلك من قبيل مجازاة الاحسان بالاحسان وذلك اشارة الى ماذكر من الكرامات السنية التى وقعت جزاء عليه الصلاة والسلام وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الفضل والشرف والكاف متعلقة بما بعدها أى مثل ذلك الجزاء الكامل نجزى الكاملين فى الاحسان لا جزاء أدنى منه وقوله تعالى (انه من عبادنا المؤمنين) تعليل لكونه من المحسنين بخلوص عبوديته وكمال ايمانه وفيه من الدلالة على جلالة قدرهما مالا يخفى (ثم أغرقنا الآخرين) أى المغايرين لنوح وأهله وهم كفار قومه أجمعين (وان من شيعته) أى ممن شايعه فى اصول الدين (لابراهيم) وان اختلف فروع شرائعهما ويجوز أن يكون بين شريعتيهما اتفاق كلى أو أكثرى

الا عباد الله المخلصين فيه قولان (أحدهما) انه استثناء من قوله ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين (والثانى) انه استثناء من قوله كيف كان عاقبة المنذرين فانها كانت أقبح العواقب وأفظعها الا عاقبة عباد الله المخلصين فانها كانت مقرونة بالخير والراحة ❊ قوله تعالى (ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وجعلنا ذريته هم الباقين وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين ثم اغرقنا الآخرين) اعلم انه تعالى لما قال من قبل ولقد ضل قبلهم أكثر الاولين وقال فانظر كيف كان عاقبة المنذرين أتبعه بشرح وقائع الانبياء عليهم السلام (فالقصة الاولى) حكاية حال نوح عليه السلام وقوله ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون فيه مباحث (الاول) ان اللام فى قوله فلنعم المجيبون جواب قسم محذوف والمخصوص بالمدح محذوف أى فلنعم المجيبون نحن (البحث الثانى) انه تعالى ذكر أن نوحا نادى ولم يذكر أن ذلك النداء فى أى الوقائع كان لا جرم حصل فيه قولان (الاول) وهو المشهور عند الجمهور انه نادى الرب تعالى فى أن ينجيه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة (والقول الثانى) ان نوحا عليه السلام لما اشتغل بدعوة قومه الى الدين الحق بالغوا فى ايذائه وقصدوا قتله ثم انه عليه السلام نادى ربه واستنصره على كفار قومه فأجابه الله تعالى ومنعهم من قتله وايذائه واحتج هذا القائل على ضعف القول الاول بانه عليه السلام انما دعا عليهم لاجل أن ينجيه الله تعالى وأهله وأجاب الله دعاءه فيه فكان حصول تلك النجاة كالمعلوم المتيقن فى دعائه وذلك يمنع من أن يقال المطلوب من هذا النداء حصول هذه النجاة ❊ ثم انه تعالى لما حكى عن نوح انه ناداه قال بعده فلنعم المجيبون وهذه اللفظة تدل على أن تلك الاجابة كانت من النعم العظيمة وبيانه من وجوه (الاول) انه تعالى عبر عن ذاته بصيغة الجمع فقال ولقد نادانا نوح والقادر العظيم لا يليق به الا الاحسان العظيم (والثانى) انه أعاد صيغة الجمع فى قوله فلنعم المجيبون وذلك أيضا يدل على تعظيم تلك النعمة لاسيما وقد وصف تلك الاجابة بأنها نعمت الاجابة (والثالث) أن الفاء فى قوله فلنعم المجيبون يدل على أن حصول هذه الاجابة مرتب على ذلك النداء والحكم المرتب على الوصف المناسب يقتضى كونه معللا به وهذا يدل على ان النداء بالاخلاص سبب لحصول تلك الاجابة ثم انه تعالى لما بين سبحانه نعم المجيب على سبيل الاجمال بين أن الانعام حصل فى تلك الاجابة من وجوه (الاول) قوله تعالى ونجيناه وأهله من الكرب العظيم وهو على القول الاول الكرب الحاصل بسبب الخوف من الغرق وعلى الثانى الكرب الحاصل من أذى قومه (والثانى) قوله وجعلنا ذريته هم الباقين يفيد الحصر وذلك يدل على أن كل من سواه وسوى ذريته فقد فنوا قال ابن عباس ذريته بنوه الثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب وفارس والروم وحام أبو السودان ويافث أبو الترك (النعمة الثالثة) قوله تعالى وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين يعنى يذكرون هذه الكلمة فان

﴿ قبل ﴾

سليم) اى من آفات القلوب أومن العلايق الشاغلة عن التبتل الى الله عزوجل ومعنى المجئ به ربه اخلاصه له كأنه جاء به متحفا اياه بطريق التمثيل (اذقال لابيه وقومه ماذا تعبدون) بدل من الاولى أوظرف لجاء أولسليم أى أى شئ تعبدونه (أئفكا آلهة دون الله تريدون) ﴿١٤٩﴾ أى أتريدون آلهة من دون الله افكا أى للافك فقدم المفعول على الفعل للعناية ثم المفعول له على المفعول به لان الاهم مكافحتهم بأنهم على أفك وباطل فى شركهم ويجوز أن يكون افكا مفعولا به بمعنى أتريدون افكا ثم يفسر الافك بقوله آلهة من دون الله دلالة على أنها افك فى نفسها للمبالغة أو يراد بها عبادتها بحذف المضاف ويجوز ان يكون حالا بمعنى آفكين (فماظنكم برب العالمين) أى بمن هو حقيق بالعبادة لكونه ربا للعالمين حتى تركتم عبادته خاصة وأشركتم به أخس مخلوقاته أوفماظنكم به أى شئ هو من الاشياء حتى جعلتم الاصنام له أندادا أوفماظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم بعد مافعلتم مافعلتم من الاشراك به (فنظر نظرة فى النجوم) قيل كانت له عليه الصلاة والسلام حمى لها نوبة معينة فى بعض ساعات الليل فنظر ليعرف هل هى تلك الساعة فاذا

فان قيل فما معنى قوله فى العالمين قلنا معناه الدعاء بثبوت هذه التحية فيهم جميعا اى لايخلو أحد منهم منها كانه قيل أثبت الله التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين فيسلمون عليه بكليتهم ثم انه تعالى لما شرح تفاصيل انعامه عليه قال انا كذلك نجزى المحسنين والمعنى انا انما خصصنا نوحا عليه السلام بتلك التشريفات الرفيعة من جعل الدنيا مملوأة من ذريته ومن تبقية ذكره الحسن فى ألسنة جميع العالمين لاجل انه كان محسنا ثم علل كونه محسنا بأنه كان عبدالله مؤمنا والمقصود منه بيان ان أعظم الدرجات وأشرف المقامات الايمان بالله والانقياد لطاعته (القصة الثانية) قصة ابراهيم عليه السلام * قوله تعالى (وان من شيعته لابراهيم اذجاء ربه بقلب سليم اذقال لابيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون فماظنكم برب العالمين فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم فتولوا عنه مدبرين فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون مالكم لاتنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين فاقبلوا اليه يزفون) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الضمير فى قوله من شيعته الى ماذا يعود فيه قولان (الاول) وهو الاظهر انه عائد الى نوح عليه السلام أى من شيعة نوح أى من أهل بيته وعلى دينه ومنهاجه لابراهيم قالوا وما كان بين نوح وابراهيم الانبيان هود وصالح وروى صاحب الكشاف انه كان بين نوح وابراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة (الثانى) قال الكلبى المراد من شيعة محمد لابراهيم بمعنى انه كان على دينه ومنهاجه فهو من شيعته وان كان سابقا له والاول أظهر لانه تقدم ذكر نوح عليه السلام ولم يتقدم ذكر النبى صلى الله عليه وسلم فعود الضمير الى نوح أولى (المسئلة الثانية) العامل فى اذ ما دل عليه قوله وان من شيعته من معنى المشايعة يعنى وان ممن شايعه على دينه وتقواه حين جاء ربه بقلب سليم لابراهيم أما قوله اذجاء ربه بقلب سليم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله بقلب سليم قولان (الاول) قال مقاتل والكلبى يعنى خالص من الشرك والمعنى انه سلم من الشرك فلم يشرك بالله (والثانى) قال الاصوليون المراد انه عاش ومات على طهارة القلب من كل دنس من المعاصى فيدخل فيه كونه سليما عن الشرك وعن الشك وعن الغل والغش والحقد والحسد عن ابن عباس انه كان يحب للناس مايحب لنفسه وسلم جميع الناس من غشه وظلمه وأسلمه الله تعالى فلم يعدل به أحدا واحتج الذاهبون الى القول الاول بانه تعالى ذكر بعد هذه الكلمة انكاره على قومه الشرك بالله وهو قوله اذقال لابيه وقومه ماذا تعبدون واحتج الذاهبون الى القول الثانى بأن اللفظ مطلق فلا يقيد بصفة دون صفة ويتأكد هذا بقوله تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين مع انه تعالى قال الله أعلم حيث يجعل رسالاته وقال وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فان قيل مامعنى المجئ بقلبه ربه قلنا معناه انه أخلص لله قلبه فكأنه أتحف حضرة الله بذلك القلب ورأيت فى التوراة ان الله قال لموسى أجب الهك بكل قلبك واعلم انه تعالى لما ذكر أن ابراهيم جاء ربه بقلب سليم ذكر أن من جملة آثار تلك السلامة ان دعا

فى علم النجوم على انه سقيم أى مشارف للسقم وهو الطاعون وكان اغلب اسقام عليهم وكانوا يخافون العدوى ليتفرقوا عنه فهربوا منه الى معبدهم وتركوه فى بيت الاصنام وذلك قوله تعالى (فتولوا عنه مدبرين) أى هاربين مخافة العدوى (فراغ الى آلهتهم) اى ذهب اليها فى خفية وأصله الميل بحيلة (فقال) للاصنام استهزاء (ألا تأكلون) أى من الطعام الذى كانوا يصنعونه عندها لتبرك عليه (مالكم لاتنطقون) أى بجوابى (فراغ عليهم) فمال مستعليا عليهم وقوله تعالى (ضربا باليمين) مصدر مؤكد لراغ عليهم فانه بمعنى ضربهم أولفعل مضمر هوحال من فاعله أى فراغ عليهم يضربهم ضربا أوهو الحال منه على أنه مصدر بمعنى الفاعل أى فراغ عليهم ضاربا باليمين أى ضربا باشد يدا قويا وذلك لان اليمين أقوى الجارحتين وأشدهما وقوة الآلة تقتضى قوة الفعل وشدته وقيل بالقوة والمتانة كما فى قوله

اذامارايةرفعت لمجد
تلقاها عرابة باليمين

أى بالقوة وعلى ذلك مدار تسمية الحلف باليمين لانه يقوى الكلام ويؤكده وقيل بسبب الحلف وهو قوله تعالى وتالله لأكيدن أصنامكم (فأقبلوا اليه) أى المأمورون باحضاره عليه الصلاة والسلام بعدمارجعوا من عيدهم الى بيت الاصنام فوجدوها مكسورة فسألوا عن الفاعل

أباه وقومه الى التوحيد فقال اذقال لابيه وقومه ماذاتعبدون والمقصود من هذا الكلام تعيين تلك الطريقة وتقبيحها ثم قال أئفكا آلهة دون الله تريدون قال صاحب الكشاف أئفكا مفعول له تقديره أتريدون آلهة من دونه افكا وانما قدم المفعول على الفعل للعناية وقدم المفعول له على المفعول به لانه كان الاهم عنده أن يقرر عندهم بانهم على افك وباطل فى شركهم ويجوزأن يكون افكا مفعولا به يعنى أتريدون افكا ثم فسر الافك بقوله آلهة دون الله على انها افك فى أنفسها ويجوزأن يكون حالا بمعنى تريدون آلهة من دون الله آفكين * ثم قال فماظنكم برب العالمين وفيه وجهان (أحدهما) أتظنون برب العالمين انه يجوز جعل هذه الجمادات مشاركة له فى المعبودية (وثانيها) أتظنون برب العالمين انه من جنس هذه الاجسام حتى جعلتموها مساوية له فى المعبودية فنبههم بذلك على انه ليس كمثله شئ ثم قال فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم عن ابن عباس انهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم وذلك انه أراد أن يكايدهم فى أصنامهم ليلزمهم الحجة فى انها غير معبودة وكان لهم من الغد يوم عيد يخرجون اليه فأراد أن يتخلف عنهم ليبقى خاليا فى بيت الاصنام فيقدر على كسرها وههنا سؤالان (الاول) ان النظر فى علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه ابراهيم (والثانى) انه عليه السلام ماكان سقيما فلما قال انى سقيم كان ذلك كذبا واعلم أن العلماء ذكروا فى الجواب عنهما وجوها كثيرة (الاول) انه نظر نظرة فى النجوم فى أوقات الليل والنهار وكانت تأتيه سقامة كالحمى فى بعض ساعات الليل والنهار فنظر ليعرف هل هى فى تلك الساعة وقال انى سقيم فجعله عذرا فى تخلفه عن العيد الذى لهم وكان صادقا فيما قال لان السقم كان يأتيه فى ذلك الوقت وانما تخلف لاجل تكسير أصنامهم (الوجه الثانى) فى الجواب أن قوم ابراهيم عليه السلام كانوا أصحاب النجوم يعظمونها ويقضون بها على غائب الامور فلذلك نظر ابراهيم فى النجوم أى فى علوم النجوم وفى معانيه لانه نظر بعينه اليها وهو كما يقال فلان نظر فى الفقه وفى النحو وانما أراد أن يوهمهم أنه يعلم مايعلمون ويتعرف من حيث يتعرفون حتى اذا قال انى سقيم سكنوا الى قوله وأما قوله انى سقيم فمعناه سأسقم كقوله انك ميت أى ستموت (الوجه الثالث) أن قوله فنظر نظرة فى النجوم هو قوله تعالى فلما جن عليه الليل رأى كوكبا الى آخر الآيات وكان ذلك النظر لاجل أن يتعرف أحوال هذه الكواكب هل هى قديمة أومحدثة وقوله انى سقيم بمعنى سقيم القلب غيرعارف بربى وكان ذلك قبل البلوغ (الوجه الرابع) قال ابن زيد كان له نجم مخصوص وكلما طلع على صفة مخصوصة مرض ابراهيم ولاجل هذا الاستقراء لمارآه فى ذلك الوقت طالعا على تلك الصفة المخصوصة قال انى سقيم أى هذا السقم واقع لامحالة (الوجه الخامس) أن قوله انى سقيم أى مريض القلب بسبب اطباق ذلك الجمع العظيم على الكفر والشرك قال تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم لعلك باخع نفسك (الوجه السادس) فى الجواب انا لانسلم أن النظر فى

على البناء للمفعول أى يحملون على الزفيف و يزفون من وزف يزف اذا أسرع و يزفون من زفاه اذا حداه كأن بعضهم يزفو بعضا لتسارعهم اليه عليه الصلاة والسلام (قال) أى بعدما أتوا به عليه الصلاة والسلام وجرى بينه صلى الله عليه وسلم و بينهم من المحاورات مانطق به ﴿ ١٥١ ﴾ قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم الى قوله تعالى لقد علمت ماهؤلاء ينطقون (أتعبدون ماتنحتون) ماتنحتونه من الاصنام وقوله تعالى (والله خلقكم وماتعملون) حال من فاعل تعبدون مؤكدة للانكار والتوبيخ أى والحال أنه تعالى خلقكم وخلق ماتعملونه فان جواهر أصنامهم و مادتها بخلقه تعالى وشكلها وان كان بفعلهم لكنه باقداره تعالى اياهم عليه وخلقه مايتوقف عليه فعلهم من الدواعى والعدد والاسباب وما تعملون اما عبارة عن الاصنام فوضعه موضع ضمير ماتنحتون للايذان بأن مخلوقيتها لله عزوجل ليس من حيث نحتهم لها فقط بل من حيث سائر أعمالهم أيضا من التصوير و التحلية والتزيين ونحوها واما على عمومه فينتظم الاصنام انتظاما أوليا مع مافيه من تحقيق الحق ببيان أن جميع مايعملونه كائنا ما كان مخلوق له سبحانه وقيل مامصدرية أى عملكم على أنه بمعنى المعمول ... فان فعلهم اذا كان بخلق الله تعالى كان مفعولهم المتوقف على فعلهم أولى بذلك (قالوا ابنوا له

علم النجوم والاستدلال بمقايستها حرام لان من اعتقد أن الله تعالى خص كل واحد من هذه الكواكب بقوة و بخاصية لاجلها يظهر منه أثر مخصوص فهذا العلم على هذا الوجه ليس بباطل وأما الكذب فغير لازم لانه ذكر قوله انى سقيم على سبيل التعريض بمعنى أن الانسان لاينفك فى أكثر أحواله عن حصول حالة مكروهة امافى بدنه واما فى قلبه وكل ذلك سقم (الوجه السابع) قال بعضهم ذلك القول عن ابراهيم عليه السلام كذبة ورووا فيه حديثا عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما كذب ابراهيم الا ثلاث كذبات قلت لبعضهم هذا الحديث لاينبغى أن يقبل لان نسبة الكذب الى ابراهيم لاتجوز فقال ذلك الرجل فكيف يحكم بكذب الرواة العدول فقلت لما وقع التعارض بين نسبة الكذب الى الراوى و بين نسبته الى الخليل عليه السلام كان المعلوم بالضرورة أن نسبته الى الراوى أولى ثم نقول لم لايجوز أن يكون المراد بكونه كذبا خبرا شبيها بالكذب (والوجه الثامن) أن المراد من قوله فنظر نظرة فى النجوم أى نظر فى نجوم كلامهم ومتفرقات أقوالهم فان الاشياء التى تحدث قطعة قطعة يقال انها منجمة أى متفرقة ومنه نجوم الكتابة والمعنى انه لما سمع كلماتهم المتفرقة نظر فيها حتى يستخرج منها حيلة يقدر بها على اقامة عذر لنفسه فى التخلف عنهم فلم يجد عذرا أحسن من قوله انى سقيم والمراد انه لابد من أن أصير سقيما كما تقول لمن رأيته على أوقات السفر انك مسافر واعلم أن ابراهيم عليه السلام لما قال انى سقيم تولوا عنه معرضين فتركوه وعذروه فى أن لايخرج اليوم فكان ذلك مراده فراغ الى آلهتهم يقال راغ اليه اذا مال اليه فى السر على سبيل الخفية ومنه روغان الثعلب وقوله ألا تأكلون يعنى الطعام الذى كان بين أيديهم وانما قال ذلك استهزاء بها وكذا قوله مالكم لاتنطقون فراغ عليهم ضربا فاقبل عليهم مستخفيا كأنه قال فضربهم ضربا لان راغ عليهم فى معنى ضربهم أو فراغ عليهم ضربا بمعنى ضاربا * وفى قوله باليمين قولان (الاول) معناه بالقوة والشدة لان اليمين أقوى الجارحتين (والثانى) انه أتى بذلك الفعل بسبب الحلف وهو قوله تعالى عنه وتالله لاكيدن أصنامكم ثم قال فأقبلوا اليه يزفون قرأ حمزة يزفون بضم الياء والباقون بفتحها وهما لغتان قال ابن عرفة من قرأ بالنصب فهو من زف يزف ومن قرأ بالضم فهو من أزف يزف قال الزجاج يزفون يسرعون وأصله من زفيف النعامة وهو ابتداء عدوها وقرأ حمزة يزفون أى يحملون غيرهم على الزفيف قال الاصمعى يقال ازففت الابل اذا حملتها على أن تزف قال وهو سرعة الخطو ومقاربة المشى والمفعول محذوف على قراءته كأنهم حملوا دوابهم على الاسراع فى المشى فان قيل مقتضى هذه الآية أن ابراهيم عليه السلام لما كسرها عدوا اليه واخذوه وقال فى سورة أخرى فى عين هذه القصة قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وهذا يقتضى انهم فى أول الامر ماعرفوه فبين هاتين الآيتين تناقض قلنا لايبعد أن يقال ان جماعة عرفوه فعدوا اليه مسرعين والاكثرون ماعرفوه فتعرفوا ان ذلك

الكاسر من هو والله أعلم * قوله تعالى (قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه في الجحيم فارادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن القوم لما عاتبوا ابراهيم على كسر الاصنام فهو أيضا ذكر لهم الدليل الدال على فساد المصير الى عبادتها فقال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ووجه الاستدلال ظاهر وهو أن الخشب والحجر قبل النحت والاصلاح ما كان معبودا للانسان البتة فاذا نحته وشكله على الوجه المخصوص لم يحدث فيه الا آثار تصرفه فلو صار معبودا عند ذلك لكان معناه ان الشئ الذي ما كان معبودا لما حصلت آثار تصرفاته فيه صار معبودا عند ذلك وفساد ذلك معلوم ببديهة العقل (المسئلة الثانية) احتج جمهور الاصحاب بقوله والله خلقكم وما تعملون على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقالوا النحويون اتفقوا على أن لفظ ما مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله وما تعملون معناه وعملكم وعلى هذا التقدير صار معنى الآية والله خلقكم وخلق عملكم فان قيل هذه الآية حجة عليكم من وجوه (الاول) انه تعالى قال أتعبدون ما تنحتون اضاف العبادة والنحت اليهم اضافة الفعل الى الفاعل ولو كان ذلك واقعا بتخليق الله لاستحال كونه فعلا للعبد (الثاني) انه تعالى انما ذكر هذه الآية توبيخا لهم على عبادة الاصنام لانه تعالى بين انه خالقهم وخالق لتلك الاصنام والخالق هو المستحق للعبادة دون المخلوق فلما تركوا عبادته سبحانه وهو خالقهم وعبدوا الاصنام لا جرم انه سبحانه وتعالى وبخهم على هذا الخطا العظيم فقال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ولو لم يكونوا فاعلين لافعالهم لما جاز توبيخهم عليها سلمنا أن هذه الآية ليست حجة عليكم لكن لا نسلم انها حجة لكم قوله لفظة ما مع ما بعدها في تقدير المصدر قلنا هذا ممنوع وبيانه أن سيبويه والاخفش اختلفا في أنه هل يجوز أن يقال أعجبني ما قمت أي قيامك فجوزه سيبويه ومنعه الاخفش وزعم أن هذا لا يجوز الا في الفعل المتعدي وذلك يدل على أن ما مع ما بعدها في تقدير المفعول عند الاخفش سلمنا أن ذلك قد يكون بمعنى المصدر لكنه أيضا قد يكون بمعنى المفعول ويدل عليه وجوه (الاول) قوله أتعبدون ما تنحتون والمراد بقوله ما تنحتون المنحوت لا النحت لانهم ما عبدوا النحت وانما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله ما تعملون المعمول لا العمل حتى يكون كل واحد من هذين اللفظين على وفق الآخر (والثاني) انه تعالى قال فاذا هي تلقف ما يأفكون وليس المراد انها تلقف نفس الافك بل أراد العصي والحبال التي هي متعلقات ذلك الافك وكذا ههنا (الثالث) أن العرب تسمي محل العمل عملا يقال في الباب والخاتم هذا عمل فلان والمراد محل عمله فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن لفظة ما مع ما بعدها كما تجئ بمعنى المصدرية فقد تجئ أيضا بمعنى المفعول فكان حمله ههنا على المفعول أولى لان المقصود في هذه الآية تزييف مذهبهم في

وهي شدة التأجج واللام عوض من المضاف اليه أي جحيم ذلك البنيان وقد ذكر كيفية بنائهم له في سورة الانبياء (فارادوا به كيدا) فانه عليه الصلاة والسلام لما قهرهم بالحجة وألقمهم الحجر قصدوا اما قصدوا والثلا يظهر للعامة عجزهم (فجعلناهم الاسفلين) الاذلين بابطال كيدهم وجعله برهانا نيرا على علو شأنه عليه الصلاة والسلام بجعل النار عليه بردا وسلاما (وقال اني ذاهب الى ربي) أي مهاجر الى حيث أمرني ربي كما قال اني مهاجر الى ربي وهو الشام أو الى حيث أتجرد فيه لعبادته تعالى (سيهدين) أي الى ما فيه صلاح ديني أو الى مقصدي وبت القول بذلك لسبق الوعد اولفرط توكله أو للبناء على عادته تعالى معه ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ولذلك أتى بصيغة التوقع (رب هب لي من الصالحين) أي بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة يعني الولد لان لفظ الهبة على الاطلاق خاص به وان كان قد ورد مقيدا بالاخوة في قوله تعالى ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا ولقوله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) فانه صريح في أن المبشر به عين ما استوهبه عليه الصلاة والسلام ولقد جمع فيه بشارات ثلاث بشارة أنه غلام وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حليما وأي حلم يعادل حلمه عليه الصلاة والسلام حين عرض عليه [illegible]

عبادة الاصنام لابيان انهم لايوجدون افعال أنفسهم لان الذي جرى ذكره في اول الآية الى هذا الموضع هو مسألة عبادة الاصنام لاخلق الاعمال واعلم أن هذه السؤالات قوية وفي دلائلنا كثرة فالاولى ترك الاستدلال بهذه الآية والله أعلم واعلم أن ابراهيم عليه السلام لما أورد عليهم هذه الحجة القوية ولم يقدروا على الجواب عدلوا الى طريق الايذاء فقالوا ابنوا له بنيانا واعلم أن كيفية ذلك البناء لايدل عليها لفظ القرآن قال ابن عباس بنوا حائطا من حجر طوله في السماء ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا وملؤه نارا فطرحوه فيها وذلك هو قوله تعالى فألقوه في الجحيم وهي النار العظيمة قال الزجاج كل نار بعضها فوق بعض فهي جحيم والالف واللام في الجحيم يدل على النهاية والمعنى في جحيمه أي في جحيم ذلك البنيان ثم قال تعالى فارادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين والمعنى ان في وقت المحاجة حصلت الغلبة له وعند ما ألقوه في النار صرف الله عنه ضرر النار فصار هو الغالب عليهم واعلم انه لما انقضت هذه الواقعة قال ابراهيم اني ذاهب الى ربي سيهدين ونظير هذه الآية قوله تعالى وقال اني مهاجر الى ربي وفيه مسائل (المسئلة الاولى) دلت هذه الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الاعداء تجب مهاجرته وذلك لان ابراهيم صلوات الله عليه وسلامه مع ان الله سبحانه خصه بأعظم أنواع النصرة لما أحس منهم بالعداوة الشديدة هاجر من تلك الديار فلان يجب ذلك على الغير كان أولى (المسئلة الثانية) في قوله اني ذاهب الى ربي قولان (الاول) المراد منه مفارقة تلك الديار والمعنى اني ذاهب الى مواضع دين ربي (والقول الثاني) قال الكلبي ذاهب بعبادتي الى ربي فعلى القول الاول المراد بالذهاب الى الرب هو الهجرة من الديار وبه اقتدى موسى حيث قال كلا ان معي ربي سيهدين وعلى القول الثاني المراد رعاية أحوال القلوب وهو ان لايأتي بشئ من الاعمال الا لله تعالى كما قال وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض قيل ان القول الاول أولى لان المقصود من هذه الآية بيان مهاجرته الى أرض الشأم وأيضا يبعد حمله على الهداية في الدين لانه كان على الدين في ذلك الوقت الا أن يحمل ذلك على الثبات عليه أو يحمل ذلك على الاهتداء الى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في أمر الدين (المسئلة الثالثة) قوله سيهدين يدل على ان الهداية لاتحصل الا من الله تعالى كما يقول أصحابنا ولا يمكن حمل هذه الهداية على وضع الادلة وازاحة الاعذار لان كل ذلك قد حصل في الزمان الماضي وقوله سيهدين يدل على اختصاص تلك الهداية بالمستقبل فوجب حمل الهداية في هذه الآية على تحصيل العلم والمعرفة في قلبه فان قيل ابراهيم عليه السلام جزم في هذه الآية بأنه تعالى سيهديه وان موسى عليه السلام لم يجزم به بل قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل فما الفرق قلنا العبد اذا تجلى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود واذا تجلى له مقامات كونه غنيا عن العالمين فحينئذ يستحقر نفسه فلا يجزم بل لا يظهر الا الرجاء والطمع (المسئلة الرابعة) قوله تعالى اني ذاهب الى ربي يدل على فساد تمسك

(فلما بلغ معه السعي) فصيحة معربة عن مقدر ﴿١٥٣﴾ قد حذف تعويلا على شهادة الحال وايذانا بعدم الحاجة الى التصريح به لاستحالة التخلف والتأخر بعد البشارة كما مر في قوله تعالى فلما رأينه أكبرنه وفي قوله تعالى فلما رآه مستقرا عنده أي فوهبناه له فنشأ فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه ومعه متعلق بمحذوف ينبئ عنه السعي لا بنفسه لان صلة المصدر لاتتقدمه ولا ببلغ لان بلوغهما لم يكن معا كأنه لما ذكر السعي قيل مع من فقيل معه وتخصيصه لان الاب أكمل في الرفق والاستصلاح فلا يستسعيه قبل أوانه أولانه استوهبه لذلك وكان له يومئذ ثلاث عشرة سنة (قال) أي ابراهيم عليه السلام (يابني اني أرى في المنام اني أذبحك) أي أرى هذه الصورة بعينها أو ما هذه عبارته وتأويله وقيل انه رأى ليلة التروية كأن قائلا يقول له ان الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح روى في ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثمة سمي يوم التروية فلما ﴿٢٠ سا﴾ أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنه من الله تعالى فمن ثمة سمي يوم عرفة ثم

المشبهة بقوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب لان كلمة الى موجودة فى قوله انى ذاهب الى ربى مع انه لم يلزم أن يكون الاله موجودا فى ذلك المكان فكذلك ههنا واعلم انه صلوات الله عليه لما هاجر الى الارض المقدسة أراد الولد فقال هب لى من الصالحين أى هب لى بعض الصالحين يريد الولد لان لفظ الهبة غلب فى الولد وان كان قد جاء فى الاخ فى قوله تعالى ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا وقال تعالى ووهبنا له اسحق ويعقوب ووهبنا له يحيى وقال على بن أبى طالب لابن عباس رضى الله عنهم حين هنأه بولد على أبى الاملاك شكرت الواهب و بورك لك فى الموهوب ولذلك وقعت التسمية بهبة الله تعالى و بموهوب ووهب واعلم أن هذا الدعاء اشتمل على ثلاثة أشياء على أن الولد غلام ذكر وانه يبلغ الحلم وانه يكون حليما وأى حلم يكون أعظم من ولد حين عرض عليه أبوه الذبح قال ستجدنى ان شاء الله من الصابرين ثم استسلم لذلك وأيضا فان ابراهيم عليه السلام كان موصوفا بالحلم قال تعالى ان ابراهيم لأواه حليم ان ابراهيم لحليم أواه منيب فبين ان ولده موصوف بالحلم وانه قائم مقامه فى صفات الشرف والفضيلة واعلم أن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه فقال رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين وطلبه للولد فقال هب لى من الصالحين وطلبه سليمان عليه السلام بعد كمال درجته فى الدين والدنيا وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد * قوله تعالى (فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن ياابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى اسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) اعلم انه سبحانه وتعالى لما قال فبشرناه بغلام حليم أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به و بلوغه فقال فلما بلغ معه السعى ومعناه فلما أدرك و بلغ الحد الذى يقدر فيه على السعى وقوله معه فى موضع الحال والتقدير كائنا معه والفائدة فى اعتبار هذا المعنى أن الاب أرفق الناس بالولد وغيره ربما عنف به فى الاستسعاء فلا يحتمله لانه لم تستحكم قوته قال بعضهم كان فى ذلك الوقت ابن ثلاث عشرة سنة والمقصود من هذا الكلام ان الله تعالى لما وعده فى الآية الاولى بكون ذلك الغلام حليما بين فى هذه الآية ما يدل على كمال حلمه وذلك لانه كان به من كمال الحلم وفسحة الصدر ما قواه على احتمال تلك البلية العظيمة والاتيان بذلك الجواب الحسن اما قوله انى أرى فى المنام انى أذبحك ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير هذه اللفظة وجهان (الاول) قال السدى كان ابراهيم حين بشر باسحق قبل أن يولد له قال هو اذن لله ذبيح فقيل لابراهيم قد نذرت نذرا فف بنذرك فلما أصبح قال يابنى انى أرى فى

المنام

رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى اليوم يوم النحر وقيل ان الملائكة حين بشرته بغلام حليم قال اذن هو ذبيح الله فلما ولد و بلغ حد السعى معه قيل له أوف بنذرك * والاظهر الاشهر أن المخاطب اسمعيل عليه السلام اذ هو الذى وهب أثر المهاجرة ولان البشارة باسحق بعده معطوف على البشارة بهذا الغلام ولقوله عليه الصلاة والسلام أنا ابن الذبيحين فأحدهما جده اسمعيل عليه السلام والآخر أبوه عبد الله فان عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا ان سهل الله تعالى له حفر بئر زمزم أو بلغ بنوه عشرة فلما حصل ذلك وخرج السهم على عبد الله فداه بمائة من الابل ولذلك سنت الدية مائة ولان ذلك كان بمكة وكان قرنا الكبش معلقين بالكعبة حتى احترقا فى أيام ابن الزبير ولم يكن اسحق ثمة ولان بشارة اسحق كانت مقرونة بولادة يعقوب منه فلا يناسبه الامر بذبحه مراهقا وما روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل أى النسب أشرف فقال يوسف صديق الله ابن يعقوب اسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله فالصحيح أنه عليه الصلاة

المنام انى اذبحك وروى من طريق آخر انه رأى ليلة التروية فى منامه كأن قائلا يقول له ان الله يأمرك بذبح ابنك هذا فلما أصبح تروى فى ذلك من الصباح الى الرواح أمن الله هذا الحلم أم من الشيطان فمن ثم سمى يوم التروية فلما أمسى رأى مثل ذلك فعرف انه من الله فسمى يوم عرفة ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة فهم بنحره فسمى يوم النحر فهذا هو قول أهل التفسير وهو يدل على أنه رأى فى المنام ما يوجب أن يذبح ابنه فى اليقظة وعلى هذا فتقدير اللفظ انى أرى فى المنام ما يوجب أن أذبحك (والقول الثانى) انه رأى فى المنام انه يذبحه ورؤيا الانبياء عليهم السلام من باب الوحى وعلى هذا القول فالمرئى فى المنام ليس الا انه يذبح فان قيل اما أن يقال انه ثبت بالدليل عند الانبياء عليهم السلام ان كل ما رآه فى المنام فهو حق وحجة أولم يثبت ذلك بالدليل عندهم فان كان الاول فلم راجع الولد فى هذه الواقعة بل كان من الواجب عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور وان لا يراجع الولد فيه وان لا يقول له فانظر ماذا ترى وان لا يوقف العمل على أن يقول له الولد افعل ما تؤمر وأيضا فقد قلتم انه بقى فى اليوم الاول متفكرا ولو ثبت عنده بالدليل ان كل ما رآه فى النوم فهو حق لم يكن الى هذا التروى والتفكر حاجة وان كان الثانى وهو انه لم يثبت بالدليل عندهم ان ما يرونه فى المنام حق فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الطفل بمجرد رؤيا لم يدل الدليل على كونها حجة (والجواب) لا يبعد أن يقال انه كان عند الرؤيا مترددا فيه ثم تأكدت الرؤيا بالوحى الصريح والله أعلم (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان هذا الذبيح من هو فقيل انه اسحق وهذا قول عمر وعلى والعباس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الاحبار وقتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهرى والسدى ومقاتل رضى الله عنهم وقيل انه اسمعيل وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد بن المسيب والحسن والشعبى ومجاهد والكلبى واحتج القائلون بأنه اسمعيل بوجوه (الاول) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أنا ابن الذبيحين وقال له أعرابى يا ابن الذبيحين فتبسم فسئل عن ذلك فقال ان عبد المطلب لما حفر بئر زمزم نذر لله لئن سهل الله له أمرها ليذبحن أحد ولده فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا له افد ابنك بمائة من الابل ففداه بمائة من الابل والذبيح الثانى اسمعيل (الحجة الثانية) نقل عن الاصمعى انه قال سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال يا أصمعى أين عقلك ومتى كان اسحق بمكة وانما كان اسمعيل بمكة والذى بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة (الحجة الثالثة) ان الله تعالى وصف اسمعيل بالصبر دون اسحق فى قوله واسمعيل واليسع وذا الكفل كل من الصابرين وهو صبره على الذبح ووصفه أيضا بصدق الوعد فى قوله انه كان صادق الوعد لانه وعد اباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به (الحجة الرابعة) قوله تعالى فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فنقول لو كان الذبيح اسحق لكان الامر بذبحه اما أن يقع قبل ظهور يعقوب منه أو بعد ذلك (فالاول) باطل لانه تعالى لما بشرها باسحق وبشرها

والسلام قال يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم والزوائد من الزاوى وماروى من أن يعقوب كتب الى يوسف مثل ذلك لم يثبت وقرئ انى بفتح الياء فيهما (فانظر ماذا ترى) من الرأى وانما شاوره فيه وهو أمر محتوم ليعلم ما عنده فيما نزل من بلاء الله تعالى فيثبت قدمه ان جزع ويأمن عليه ان سلم وليوطن نفسه عليه فيهون ويكتسب المثوبة عليه بالانقياد له قبل نزوله وقرئ ماذا ترى بضم التاء وكسر الراء وبفتحها مبنيا للمفعول (قال يا أبت افعل ما تؤمر) أى تؤمر به فحذف الجار أولا على القاعدة المطردة ثم حذف العائد الى الموصول بعد انقلابه منصوبا بايصاله الى الفعل أو حذفا دفعة أو افعل أمرك على اضافة المصدر الى المفعول وتسمية المأمور به أمرا وقرئ ما تؤمر به وصيغة المضارع للدلالة على أن الامر متعلق به متوجه اليه مستمر الى حين الامتثال به (ستجدنى ان شاء الله من الصابرين) على الذبح أو على قضاء الله تعالى (فلما أسلما) أى استسلما لامر الله تعالى وانقادا وخضعا له يقال سلم لامر الله وأسلم

واستسلم بمعنى واحد وقد قرئ بهن جميعا وأصلها من قولك سلم هذا لفلان اذا خلص له ومعناه

معه بأنه يحصل منه يعقوب فقبل ظهور يعقوب منه لم يجز الامر بذبحه والا حصل الخلف فى قوله ومن وراء اسحق يعقوب (والثانى) باطل لان قوله فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك يدل على ان ذلك الابن لما قدر على السعى ووصل الى حد القدرة على الفعل امر الله تعالى ابراهيم بذبحه وذلك ينافى وقوع هذه القصة فى زمان آخر فثبت انه لا يجوز أن يكون الذبيح هو اسحق (الحجة الخامسة) حكى الله تعالى عنه انه قال انى ذاهب الى ربى سيهدين ثم طلب من الله تعالى ولدا يستأنس به فى غربته فقال رب هب لى من الصالحين وهذا السؤال انما يحسن قبل أن يحصل له الولد لانه لو حصل له ولد واحد لما طلب الولد الواحد لان طلب الحاصل محال وقوله هب لى من الصالحين لا يفيد الا طلب الولد الواحد وكلمة من للتبعيض وأقل درجات البعضية الواحد فكان قوله من الصالحين لا يفيد الا طلب الولد الواحد فثبت ان هذا السؤال لا يحسن الا عند عدم كل الاولاد فثبت ان هذا السؤال وقع حال طلب الولد الاول وأجمع الناس على ان اسمعيل متقدم فى الوجود على اسحق فثبت ان المطلوب بهذا الدعاء هو اسمعيل ثم ان الله تعالى ذكر عقيبه قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح هو اسمعيل (الحجة السادسة) الاخبار الكثيرة فى تعليق قرن الكبش بالكعبة فكان الذبيح بمكة ولو كان الذبيح اسحق لكان الذبيح بالشام واحتج من قال ان ذلك الذبيح هو اسحق بوجهين (الوجه الاول) ان أول الآية وآخرها يدل على ذلك اما أولها فانه تعالى حكى عن ابراهيم عليه السلام قبل هذه الآية انه قال انى ذاهب الى ربى سيهدين وأجمعوا على أن المراد منه مهاجرته الى الشام ثم قال فبشرناه بغلام حليم فوجب أن يكون هذا الغلام ليس الا اسحق ثم قال بعده فلما بلغ معه السعى وذلك يقتضى أن يكون المراد من هذا الغلام الذى بلغ معه السعى هو ذلك الغلام الذى حصل فى الشام فثبت ان مقدمة هذه الآية تدل على أن الذبيح هو اسحق وأما آخر الآية فهو أيضا يدل على ذلك لانه تعالى لما تمم قصة الذبيح قال بعده وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين ومعناه انه بشره بكونه نبيا من الصالحين وذكر هذه البشارة عقيب حكاية تلك القصة يدل على انه تعالى انما بشره بهذه النبوة لاجل انه تحمل هذه الشدائد فى قصة الذبيح فثبت بما ذكرنا ان أول الآية وآخرها يدل على أن الذبيح هو اسحق عليه السلام (الحجة الثانية) على صحة ذلك ما اشتهر من كتاب يعقوب الى يوسف عليه السلام من يعقوب اسرائيل نبى الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله فهذا جملة الكلام فى هذا الباب وكان الزجاج يقول الله أعلم أيهما الذبيح والله أعلم واعلم انه يتفرع على ما ذكرنا اختلافهم فى موضع الذبح فالذين قالوا الذبيح هو اسمعيل قالوا كان الذبح بمنى والذين قالوا انه اسحق قالوا هو بالشام وقيل ببيت المقدس والله أعلم (المسئلة الثالثة) اختلف الناس فى ان ابراهيم عليه السلام كان مأمورا بهذا بما رأى وهذا الاختلاف مفرع على مسئلة من مسائل أصول الفقه وهى انه هل يجوز نسخ الحكم قبل حضور مدة الامتثال فقال أكثر أصحابنا انه يجوز وقالت المعتزلة وكثير من فقهاء الشافعية والحنفية انه لا يجوز

سلم من أن ينازع فيه وقولهم سلم لامر الله وأسلم له منقولان منه ومعناهما أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه له تعالى وعن قتادة رضى الله عنه فى أسلما أسلم ابراهيم ابنه واسمعيل نفسه (وتله للجبين) صرعه على شقه فوقع جبينه على الارض وهو أحد جانبى الجبهة وقيل كبه على وجهه باشارته كيلا يرى منه ما يورث رقة تحول بينه وبين أمر الله تعالى وكان ذلك عند الصخرة من منى وقيل فى الموضع المشرف على مسجد منى وقيل فى المنحر الذى ينحر اليوم فيه (وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا) بالعزم على الاتيان بالمأمور به وترتيب مقدماته وروى أنه أمر السكين بقوته على حلقه مرارا فلم يقطع ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين فعند ذلك وقع النداء وجواب لما محذوف

يؤ ايذانا بعدم وفاء التعبير بتفاصيله كأنه قيل كان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان ﴿ فعلى ﴾

فا

من استبشارهما وشكرهما الله تعالى على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء بعد حلوله والتوفيق لما لم يوفق

فعلى القول الاول انه سبحانه وتعالى أمره بالذبح ثم انه تعالى نسخ هذا التكليف قبل حضور وقته وعلى القول الثانى انه تعالى ما أمره بالذبح وانما أمره بمقدمات الذبح وهذه مسئلة شريفة من مسائل باب النسخ واحتج أصحابنا على انه يجوز نسخ الامر قبل مجئ مدة الامتثال بأن الله تعالى أمر ابراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم انه تعالى نسخه عنه قبل اقدامه عليه وذلك يفيد المطلوب انما قلنا انه تعالى أمره بذبح الولد لوجهين (الاول) انه عليه السلام قال لولده انى أرى فى المنام انى أذبحك فقال الولد افعل ما تؤمر وهذا يدل على انه عليه السلام كان مأمورا بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح ثم انه أتى بمقدمات الذبح وأدخلها فى الوجود فحينئذ يكون قد أمر بشئ وقد أتى به وفى هذا الموضع لا يحتاج الى الفداء لكنه احتاج الى الفداء بدليل قوله تعالى وفديناه بذبح عظيم فدل هذا على انه أتى بالمأمور به وقد ثبت انه أتى بكل مقدمات الذبح وهذا يدل على انه تعالى كان قد أمره بنفس الذبح واذا ثبت هذا فنقول انه تعالى نسخ ذلك الحكم قبل اثباته وذلك يدل على المقصود وقالت المعتزلة لا نسلم ان الله أمره بذبح الولد بل نقول انه تعالى أمره بمقدمات الذبح ويدل عليه وجوه (الاول) انه ما أتى بالذبح وانما أتى بمقدمات الذبح ثم ان الله تعالى أخبر عنه بأنه أتى بما أمر به بدليل قوله تعالى وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا وذلك يدل على انه تعالى انما أمره فى المنام بمقدمات الذبح لا بنفس الذبح وتلك المقدمات عبارة عن اضجاعه ووضع السكين على حلقه والعزم الصحيح على الاتيان بذلك الفعل ان ورد (الامر الثانى) الذبح عبارة عن قطع الحلقوم فلعل ابراهيم عليه السلام قطع الحلقوم الا انه كلما قطع جزأ أعاد الله التأليف اليه فلهذا السبب لم يحصل الموت (والوجه الثالث) وهو الذى عليه تعويل القوم انه تعالى لو أمر شخصا معينا بايقاع فعل معين فى وقت معين فهذا يدل على أن ايقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت حسن فاذا نهاه عنه فذلك النهى يدل على أن ايقاع ذلك الفعل فى ذلك الوقت قبيح فلو حصل هذا النهى عقيب ذلك الامر لزم أحد أمرين لانه تعالى ان كان عالما بحال ذلك الفعل لزم أن يقال انه أمر بالقبيح أو نهى عن الحسن وان لم يكن عالما به لزم جهل الله تعالى وانه محال فهذا تمام الكلام فى هذا الباب (والجواب) عن الاول انا قد دللنا على انه تعالى انما أمره بالذبح اما قوله تعالى قد صدقت الرؤيا فهذا يدل على انه اعترف بكون تلك الرؤيا واجب العمل بها ولا يدل على انه أتى بكل ما رآه فى ذلك المنام واما قوله ثانيا كلما قطع ابراهيم عليه السلام جزأ أعاد الله تعالى التأليف اليه فنقول هذا باطل لان ابراهيم عليه السلام لو أتى بكل ما أمر به لما احتاج الى الفداء وحيث احتاج اليه علمنا انه لم يأت بما أمر به وأما قوله ثالثا انه يلزم اما الامر بالقبيح واما الجهل فنقول هذا بناء على ان الله تعالى لا يأمر الا بما يكون حسنا فى ذاته ولا ينهى الا عما يكون قبيحا فى ذاته وذلك بناء على تحسين العقل وتقبيحه وهو باطل أيضا فهب أنا نسلم ذلك الا انا نقول لم لا يجوز أن يقال ان الامر بالشئ

أحد لمثله واظهار فضلهما بذلك على العالمين مع احراز الثواب العظيم الى غير ذلك (انا كذلك نجزى المحسنين) تعليل لتفريج تلك الكربة باحسانهما واحتج به من جوز النسخ قبل وقوع المأمور به فانه عليه الصلاة والسلام كان مأمورا بالذبح لقوله تعالى افعل ما تؤمر ولم يحصل (ان هذا لهو البلاء المبين) الابتلاء البين الذى يتميز فيه المخلص عن غيره أو المحنة البينة الصعوبة اذ لا شئ أصعب منها (وفديناه بذبح) بما يذبح بدله فيتم به الفعل (عظيم) أى عظيم الجثة سمين أو عظيم القدر لانه يفدى به الله نبيا ابن نبى وأى نبى من نسله سيد المرسلين قيل كان ذلك كبشا من الجنة عن ابن عباس رضى الله عنهما انه الكبش الذى قربه هابيل فتقبل منه وكان يرعى فى الجنة حتى فدى به اسمعيل عليه السلام وقيل فدى بوعل أهبط عليه من ثبير وروى انه هرب من ابراهيم عليه السلام عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه فبقى سنة فى الرمى وروى انه رمى الشيطان

تارة بحسن كون المأمور به حسنا وتارة لاجل ان ذلك الامر يفيد صحة مصلحة من المصالح وان لم يكن المأمور به حسنا ألا ترى ان السيد اذا أراد أن يروض عبده فانه يقول له اذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلانى و يكون ذلك الفعل من الافعال الشاقة و يكون مقصود السيد من ذلك الامر ليس أن يأتى ذلك العبد بذلك الفعل بل أن يوطن العبد نفسه على الانقياد والطاعة ثم ان السيد اذا علم منه انه وطن نفسه على الطاعة فقد يزيل عنه ذلك التكليف فكذا ههنا فالم تقيموا الدلالة على فساد هذا الاحتمال لم يتم كلامكم (المسئلة الرابعة) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان الله تعالى قد يأمر بما لا يريد وقوعه والدليل عليه انه أمر بالذبح وما أراد وقوعه أما انه أمر بالذبح فلما تقدم فى المسئلة الاولى واما انه ما أراد وقوعه فلأن عندنا ان كل ما أراد الله وقوعه فانه يقع وحيث لم يقع هذا الذبح علمنا انه تعالى ما أراد وقوعه واما عند المعتزلة فلان الله تعالى نهى عن ذلك الذبح والنهى عن الشئ يدل على ان الناهى لا يريد وقوعه فثبت انه تعالى أمر بالذبح وثبت انه تعالى ما أراده وذلك يدل على ان الامر قد يوجد بدون الارادة وتمام الكلام فى ان الله تعالى أمر بالذبح ما تقدم فى المسئلة المتقدمة والله أعلم (المسئلة الخامسة) فى بيان الحكمة فى ورود هذا التكليف فى النوم لا فى اليقظة و بيانه من وجوه (الاول) ان هذا التكليف كان فى نهاية المشقة على الذابح والمذبوح فورد أولا فى النوم حتى يصير ذلك كالمنبه لورود هذا التكليف الشاق ثم يتأكد حال النوم بأحوال اليقظة فحينئذ لا يهجم هذا التكليف دفعة واحدة بل شيأ فشيأ (الثانى) ان الله تعالى جعل رؤيا الانبياء عليهم السلام حقا قال تعالى فى حق محمد صلى الله عليه وسلم لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام وقال عن يوسف عليه السلام انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين وقال فى حق ابراهيم عليه السلام انى أرى فى المنام أنى أذبحك والمقصود من ذلك تقوية الدلالة على كونهم صادقين لان الحال اما حال يقظة واما حال منام فاذا تظاهرت الحالتان على الصدق كان ذلك هو النهاية فى بيان كونهم محقين صادقين فى كل الاحوال والله أعلم ثم نقول مقامات الانبياء عليهم السلام على ثلاثة أقسام منها ما يقع على وفق الرؤية كما فى قوله تعالى فى حق رسولنا صلى الله عليه وسلم لتدخلن المسجد الحرام ثم وقع ذلك الشئ بعينه ومنها ما يقع على الضد كما فى حق ابراهيم عليه السلام فانه رأى الذبح وكان الحاصل هو الفداء والنجاة ومنها ما يقع على ضرب من التأويل والمناسبة كما فى رؤيا يوسف عليه السلام فلهذا السبب أطبق أهل التعبير على أن المنامات واقعة على هذه الوجوه الثلاثة (المسئلة السادسة) قرأ حمزة والكسائى ترى بضم التاء وكسر الراء أى ماذا ترى من نفسك من الصبر والتسليم وقيل ما تشير والباقون بفتح التاء ثم منهم من يميل ومنهم من لا يميل (المسئلة السابعة) الحكمة فى مشاورة الابن فى هذا الباب أن يطلع ابنه على هذه الواقعة ليظهر له صبره فى طاعة الله فتكون فيه قرة عين لابراهيم حيث يراه قد

حين تعرض له بالوسوسة عند ذبح ولده وروى أنه لما ذبحه قال جبريل عليه السلام الله اكبر الله اكبر فقال الذبيح لا اله الا الله والله أكبر فقال ابراهيم الله أكبر ولله الحمد فبقى سنة والفادى فى الحقيقة هو ابراهيم وانما قيل وفديناه لانه تعالى هو المعطى له والآمر به على التجوز فى الفداء أو الاسناد (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على ابراهيم) قد سلف بيانه فى خاتمة قصة نوح عليه السلام (كذلك نجزى المحسنين) ذلك اشارة الى ابقاء ذكره الجميل فيما بين الامم لا الى ما أشير اليه فيما سبق فلا تكرار وعدم تصدير الجملة بانا للاكتفاء بما مر آنفا (انه من عبادنا المؤمنين) الراسخين فى الايمان على وجه الايقان والاطمئنان (وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين) أى مقضيا بنبوته مقدرا كونه من الصالحين وبهذا الاعتبار وقعا حالين ولا حاجة الى وجود المبشر به وقت البشارة فان وجود ذى الحال ليس بشرط وانما الشرط مقارنة تعلق الفعل به لاعتبار معنى الحال فلا حاجة الى تقدير مضاف يجعل عاملا فيهما مثل وبشرناه بوجود اسحق أى بأن يوجد اسحق ﴿ بلغ ﴾

بلغ فى الحلم الى هذا الحد العظيم وفى الصبر على أشد المكاره الى هذه الدرجة العالية ويحصل للابن الثواب العظيم فى الآخرة والثناء الحسن فى الدنيا ثم انه تعالى حكى عن والد ابراهيم عليه السلام انه قال أفعل ماتؤمر ومعناه افعل ماتؤمر به فحذف الجار كما حذف من قوله أمرتك الخير فافعل ماأمرت ثم قال ستجدنى ان شاء الله من الصابرين وانما علق ذلك بمشيئة الله تعالى على سبيل التبرك والتيمن وانه لاحول عن معصية الله الا بعصمة الله ولاقوة على طاعة الله الا بتوفيق الله ثم قال تعالى فلما أسلما يقال سلم لامر الله وأسلم واستسلم بمعنى واحد وقد قرئ بهن جميعا اذا انقاد له وخضع وأصلهامن قولك سلم هذا لفلان اذا خلص له ومعناه سلم من أن ينازع فيه وقولهم سلم لامر الله وأسلم له منقولان عنه بالهمزة وحقيقة معناها أخلص نفسه لله وجعلها سالمة له خالصة وكذلك معنى استسلم استخلص نفسه لله وعن قتادة فى أسلما أسلم هذا ابنه وهذا نفسه ثم قال تعالى وتله للجبين اى صرعه على شقه فوقع أحد جبينيه على الارض وللوجه جبينان والجبهة بينهما قال الاعرابى التليل والمتلول المصروع والمتل الذى يتل به أى يصرع فالمعنى انه صرعه على جبينه وقال مقاتل كبه على جبهته وهذا خطأ لان الجبين غير الجبهة * ثم قال تعالى وناديناه أن ياابراهيم قد صدقت الرؤيا وفيه قولان (الاول) ان هذا جواب فلما عند الكوفيين والفراء والواو زائدة (والقول الثانى) أن عند البصريين لايجوز ذلك والجواب مقدر والتقدير فلما فعل ذلك وناداه الله أن ياابراهيم قد صدقت الرؤيا سعد سعادة عظيمة وآتاه الله نبوة ولده وأجزل له الثواب قالوا وحذف الجواب ليس بغريب فى القرآن والفائدة فيه انه اذا كان محذوفا كان أعظم وأفخم قال المفسرون لما أضجعه للذبح نودى من الجبل ياابراهيم قد صدقت الرؤيا قال المحققون السبب فى هذا التكليف كمال طاعة ابراهيم لتكاليف الله تعالى فلما كلفه الله تعالى بهذا التكليف الشاق الشديد وظهر منه كمال الطاعة وظهر من ولده كمال الطاعة والانقياد لاجرم قال قد صدقت الرؤيا يعنى حصل المقصود من تلك الرؤيا وقوله انا كذلك نجزى المحسنين ابتداء اخبار من الله تعالى وليس يتصل بما تقدم من الكلام والمعنى أن ابراهيم وولده كانا محسنين فى هذه الطاعة فكما جزيناهذين المحسنين فكذلك نجزى كل المحسنين * ثم قال تعالى ان هذا لهو البلاء المبين أى الاختبار البين الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم او المحنة البينة الصعوبة التى لامحنة أصعب منها وفديناه بذبح عظيم الذبح مصدر ذبحت والذبح أيضا مايذبح وهو المراد فى هذه الآية وههنا مباحث تتعلق بالحكايات (فالاول) حكى فى قصة الذبيح ان ان ابراهيم عليه السلام لما أراد ذبحه قال يابنى خذ الحبل والمدية وانطلق بنا الى الشعب نحتطب فلما توسطا شعب ثبير أخبره بما أمر به فقال ياأبت اشدد رباطى فى كى لااضطرب واكفف عنى ثيابك لاينتضح عليها شئ من دمى فتراه أمى فتحزن واستحد شفرتك وأسرع امرارها على حلقى ليكون أهون فان الموت شديد واقرأ على أمى سلامى وان رأيت ان ترد قميصى على امى فافعل فانه عسى أن يكون أسهل

نبيا من الصالحين ومع ذلك لايصير نظير قوله تعالى فادخلوها خالدين فان الداخلين كانوا مقدرين خلودهم وقت الدخول واسحق عليه السلام لم يكن مقدرا نبوة نفسه وصلاحها حينما يوجد ومن فسر الغلام باسحق جعل المقصود من البشارة نبوته عليه الصلاة والسلام وفى ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشانه وايماء الى انه الغاية لها لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الاطلاق (وباركنا عليه) على ابراهيم فى أولاده (وعلى اسحق) بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بنى اسرائيل وغيرهم كأيوب وشعيب عليهم السلام أو أفضنا عليهما بركات الدين والدنيا وقرئ وبركنا (ومن ذريتهما محسن) فى عمله أو لنفسه بالايمان والطاعة (وظالم لنفسه) بالكفر والمعاصى (مبين) ظاهر ظلمه وفيه تنبيه على أن النسب لاتأثير له فى الهداية والضلال وأن الظلم فى أعقابهما لايعود اليهما بنقيصة ولاعيب (ولقد مننا على موسى وهرون) أى أنعمنا عليهما بالنبوة وغيرها من النعم الدينية والدنيوية (ونجيناهما وقومهما) وهم بنو اسرائيل (من الكرب العظيم) هو

ملكة آل فرعون وتسلطهم عليهم بألوان الغشم والعذاب كما فى قوله تعالى

لها فقال ابراهيم عليه السلام نعم العون أنت يا بنى على أمر الله ثم أقبل عليه يقبله وقد ربطه وهما يبكيان ثم وضع السكين على حلقه فقال كبنى على وجهى فانك اذا نظرت وجهى رحمتنى وأدركتك رقة تحول بينك وبين أمر الله سبحانه وتعالى ففعل ثم وضع السكين على قفاه فانقلبت السكين ونودى يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا (البحث الثانى) اختلفوا فى ذلك الكبش فقيل انه الكبش الذى تقرب به هابيل ابن آدم الى الله تعالى فقبله وكان فى الجنة يرعى حتى فدى الله تعالى به اسمعيل وقال آخرون أرسل الله كبشا من الجنة قد رعى أربعين خريفا وقال السدى نودى ابراهيم فالتفت فاذا هو بكبش أملح انحط من الجبل فقام عند ابراهيم فأخذه فذبحه وخلى عن ابنه ثم اعتنق ابنه وقال يا بنى اليوم وهبت لى وأما قوله عظيم فقيل سمى عظيما لعظمه وسمنه وقال سعيد بن جبير حق له أن يكون عظيما قد رعى فى الجنة أربعين خريفا وقيل سمى عظيما لعظم قدره حيث قبله الله تعالى فداء عن ولد ابراهيم ثم قال تعالى انه من عبادنا المؤمنين الضمير فى قوله انه عائد الى ابراهيم ثم قال تعالى وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين فقوله نبيا حال مقدرة أى بشرناه بوجود اسحق مقدرة نبوته ولمن يقول ان الذبيح هو اسمعيل أن يحتج بهذه الآية وذلك لان قوله نبيا حال ولا يجوز أن يكون المعنى فبشرناه باسحق حال كون اسحق نبيا لان البشارة به متقدمة على صيرورته نبيا فوجب أن يكون المعنى وبشرناه باسحق حال ما قدرناه نبيا وحال ما حكمنا عليه فصبر واذا كان الامر كذلك فحينئذ كانت هذه البشارة بشارة بوجود اسحق حاصلة بعد قصة الذبيح فوجب أن يكون الذبيح غير اسحق اقصى ما فى الباب أن يقال لا يبعد أن يقال هذه الآية وان كانت متأخرة فى التلاوة عن قصة الذبيح الا انها كانت متقدمة عليها فى الوقوع والوجود الا انا نقول الاصل رعاية الترتيب وعدم التغيير فى النظم والله اعلم بالصواب ثم قال تعالى وباركنا عليه وعلى اسحق وفى تفسير هذه البركة وجهان (الاول) انه تعالى أخرج جميع أنبياء بنى اسرائيل من صلب اسحق (والثانى) انه أبقى الثناء الحسن على ابراهيم واسحق الى قيام القيامة لان البركة عبارة عن الدوام والثبات ثم قال تعالى ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين وفى ذلك تنبيه على انه لا يلزم من كثرة فضائل الاب فضيلة الابن لئلا تصير هذه الشبهة سببا لمفاخرة اليهود ودخل تحت قوله محسن الانبياء والمؤمنون وتحت قوله ظالم الكافر والفاسق والله اعلم * قوله تعالى

(ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزى المحسنين انهما من عبادنا المؤمنين) اعلم ان هذا هو القصة الثالثة من القصص المذكورة فى هذه السورة واعلم أن وجوه الانعام وان كانت كثيرة الا انها محصورة فى نوعين ايصال المنافع اليه ودفع المضار عنه والله تعالى ذكر القسمين ههنا فقوله ولقد مننا على موسى وهرون اشارة الى ايصال

﴿ المنافع ﴾

واذا نجينا كم من آل فرعون وقيل هو الغرق وهو بعيد لانه لم يكن عليهم كربا ومشقة (ونصرناهم) أى اياهما وقومهما على عدوهم (فكانوا) بسبب ذلك (هم الغالبين) عليهم غلبة لا غاية وراءها بعد أن كان قومهما فى أسرهم وقسرهم مقهورين تحت أيديهم العادية يسومونهم سوء العذاب وهذه التنجية وان كانت بحسب الوجود مقارنة لما ذكر من النصر والغلبة لكنها لما كانت بحسب المفهوم عبارة عن التخليص من المكروه بدئ بها ثم بالنصر الذى يتحقق مدلوله بمحض تنجية المنصور من عدوه ومن غير تغليبه عليه ثم بالغلبة لتوفية مقام الامتنان حقه باظهار أن كل مرتبة من هذه المراتب الثلاث نعمة جليلة على حيالها (وآتيناهما) بعد ذلك (الكتاب المستبين) أى البليغ فى البيان والتفصيل وهو التوراة (وهديناهما) بذلك (الصراط المستقيم) الموصل الى الحق والصواب بما فيه من تفاصيل الشرائع وتفاريع الاحكام (وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهرون) أى أبقينا فيما بين الامم الآخرين هذا الذكر الجميل والثناء الجزيل (انا كذلك) الجزاء الكامل (نجزى المحسنين) الذين هما من جملتهم لا جزاء قاصرا عنه (انهما من عبادنا المؤمنين) سبق بيانه

(وان الياس لمن المرسلين) هو الياس بن ياسين من سبط هرون أخي موسى عليهم السلام بعث بعده وقيل ادريس لانه قرئ مكانه ادريس وادراس وقرئ ايليس وقرئ الياس بحذف الهمزة (اذ قال لقومه ألا تتقون) أي عذاب الله تعالى (أتدعون بعلا) أتعبدونه وتطلبون الخير وهو اسم صنم كان لاهل بك من الشام وهو البلد المعروف اليوم ببعلبك قيل كان من ذهب طوله عشرون ذراعا وله أربعة أوجه فتنوا به وعظموه حتى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء فكان الشيطان يدخل جوفه ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها ويعلمونها الناس وقيل البعل الرب بلغة اليمن أي أتعبدون بعض البعول (وتذرون أحسن الخالقين) أي وتتركون عبادته وقد أشير الى المقتضى للانكار المعنى بالهمزة ثم صرح به بقوله تعالى (الله ربكم ورب آبائكم الاولين) بالنصب على البدلية من أحسن الخالقين وقرئ بالرفع على الابتداء والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم لتأكيد انكار تركهم عبادته تعالى والاشعار ببطلان آراء آبائهم أيضا (فكذبوه فانهم) بسبب تكذيبهم ذلك (لمحضرون) أي العذاب والاطلاق للاكتفاء بالقرائن على ان الاحضار المطلق مخصوص بالشر عرفا (الا عباد الله المخلصين) استثناء من ضمير محضرون (وتركنا عليه فى الآخرين سلام على آل ياسين) هو لغة فى الياس كسيناء فى سينين وقيل هو جمع له أريد به هو وأتباعه كالمهلبين والخبيبين وفيه أن العلم اذا جمع يجب تعريفه كالمثالين وقرئ باضافة آل الى ياسين لانهما فى المصحف مفصولان فيكون ياسين أبا الياس (انا كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المؤمنين) مر تفسيره (وان لوطا لمن المرسلين اذ نجيناه) أي اذكر وقت تنجيتنا اياه (وأهله أجمعين الا عجوزا فى الغابرين) أي الباقين فى العذاب أو الماضين بالهلاك (ثم دمرنا الآخرين) فان فى ذلك شواهد على جلية أمره وكونه من جملة المرسلين (وانكم) يا أهل مكة (لتمرون

المنافع اليهما وقوله ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم اشارة الى دفع المضار عنهما (أما القسم الاول) وهو ايصال المنافع فلا شك أن المنافع على قسمين منافع الدنيا ومنافع الدين أما منافع الدنيا فالوجود والحياة والعقل والتربية والصحة وتحصيل صفات الكمال فى ذات كل واحد منهما وأما منافع الدين فالعلم والطاعة وأعلى هذه الدرجات النبوة الرفيعة المقرونة بالمعجزات الباهرة ولما ذكر الله تعالى هذه التفاصيل فى سائر السور لاجرم اكتفى ههنا بهذا الرمز (وأما القسم الثانى) وهو دفع الضرر فهو المراد من قوله ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم وفيه قولان قيل انه الغرق أغرق الله فرعون وقومه ونجى الله بنى اسرائيل وقيل المراد انه تعالى نجاهم من ايذاء فرعون حيث كان يذبح ابناءهم و يستحيى نساءهم واعلم انه تعالى لما ذكر انه من على موسى وهرون فصل أقسام تلك المنة والهناء فى قوله ونصرناهم أي نصرنا موسى وهرون وقومهما ركانوا هم الغالبين فى كل الاحوال بظهور الحجة وفى آخر الامر بالدولة والرفعة (وثانيهما) قوله تعالى آتيناهما الكتاب المستبين والمراد منه التوراة وهو الكتاب المشتمل على جميع العلوم التى يحتاج اليها فى مصالح الدين والدنيا كما قال انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور (وثالثها) قوله تعالى وهديناهما الصراط المستقيم أي دللناهما على طريق الحق عقلا وسمعا وأمددناهما بالتوفيق والعصمة وتشبيه الدلائل الحقة بالطريق المستقيم الواضح (ورابعها) قوله تعالى وتركنا عليهما فى الآخرين وفيه قولان (الاول) ان المراد وتركنا عليهما فى الآخرين وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم قولهم سلام على موسى وهرون (والثانى) ان المراد وتركنا عليهما فى الآخرين وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الثناء الحسن والذكر الجميل وعلى هذا التقدير فقوله بعد ذلك سلام على موسى وهرون هو كلام الله تعالى ولما ذكر تعالى هذه الاقسام الاربعة من أبواب التعظيم والتفضيل قال انا كذلك نجزي المحسنين وقد سبق تفسيره ثم قال تعالى انهما من عبادنا المؤمنين والمقصود التنبيه على ان الفضيلة الحاصلة بسبب الايمان أشرف وأعلى وأكمل من كل الفضائل ولولا ذلك لما حسن ختم فضائل موسى وهرون بكونهما من المؤمنين والله أعلم * قوله تعالى (وان الياس لمن المرسلين اذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا وتذرون احسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الاولين فكذبوه فانهم لمحضرون الا عباد الله المخلصين وتركنا عليه فى الآخرين سلام على آل ياسين انا كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المؤمنين) اعلم أن هذه القصة الرابعة من القصص المذكورة فى هذه السورة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عامر وان الياس بغير همزة على وصل الالف والباقون بالهمزة وقطع الالف قال أبو بكر بن مهران من ذكر عند الوصل الالف فقد أخطأ وكان أهل الشام ينكرونه ولا يعرفونه قال الواحدى وله وجهان (احدهما) انه حذف الهمزة من الياس حذفا كما حذفها ابن كثير من قوله انها لاحدى الكبر وكقول الشاعر

(مصبحين) داخلين فى الصباح (وبالليل) أى ومساء أونهارا وليلا ولعلهـا وقعت بقرب منزل يمر بهـا المرتحل عنه صباحا والقاصد له مساء (أفلا تعقلون) أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم (وان يونس لمن المرسلين) وقرئ بكسر النون (اذ أبق) أى هرب وأصله الهرب من السيد لكن لما كان هربه من قومه بغير اذن ربه حسن اطلاقه عليه (الى الفلك المشحون) أى المملوء (فساهم) فقارع أهله (فكان من المدحضين) فصار من المغلوبين بالقرعة وأصله المزلق عن مقام الظفر روى أنه عليه الصلاة والسلام لما وعد قومه بالعذاب خرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى به فركب السفينة فوقفت فقالوا فيهـا عبد آبق فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فقال أنا الآبق ورمى بنفسه فى الماء (فالتقمه الحوت) فابتلعه من اللقمة (وهو مليم) داخل فى الملامة أوآت بما يلام عليه أومليم نفسه وقرئ مليم بالفتح مبنيا من ليم كمشيب فى مشوب (فلولا أنه كان من المسبحين) الذاكرين الله كثيرا بالتسبيح مدة عمره أوفى بطن الحوت وهو قوله لا اله الا انت سبحانك انى كنت من الظالمين وقيل من المصلين فانه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة فى الرخاء (للبث فى بطنه الى يوم يبعثون) حيا وقيل ميتا وفيه حث على اكثار الذكر وتعظيم لشانه ومن أقبل عليه فى السراء أخذ بيده عند الضراء (فنبذناه بالعراء) بأن حملنا الحوت على لفظه بالمكان الخالى عما يغطيه من شجر أونبت روى أن الحوت سار مع السفينة رافعا رأسه يتنفس فيه يونس عليه السلام ويسبح ولم يفارقهم حتى انتهوا الى البر فلفظه سالما لم يتغير منه شئ فأسلموا وروى أن الحوت قذفه بساحل قرية من الموصل واختلف فى مقدار لبثه فقيل أربعون يوما وقيل عشرون وقيل سبعة وقيل ثلاثة وقيل لم يلبث الا قليلا ثم أخرج من بطنه بعيد الوقت الذى التقم فيه روى عطاء أنه حين ❊ وقف ❊

و يلها فى هواء الجوطالبة ❊ والآخر انه جعل الهمزة التى تصحب اللام للتعريف كقوله واليسع (المسئلة الثانية) فى الياس قولان يروى عن ابن مسعود انه قرأ وان ادريس وقال ان الياس هو ادريس وهذا قول عكرمة وأما أكثر المفسرين فهم متفقون على انه نبى من أنبياء بنى اسرائيل وهو الياس بن ياسين من ولد هرون أخى موسى عليهم السلام ثم قال تعالى اذ قال لقومه الا تتقون والتقدير اذكر يا محمد لقومك اذ قال لقومه ألا تتقون أى ألا تخافون الله وقال الكلبى ألا تخافون عبادة غير الله واعلم انه لما خوفهم أولا على سبيل الاجمال ذكر ما هو السبب لذلك الخوف فقال أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين وفيه ابحاث الاول فى بعل قولان (أحدهما) انه اسم علم لصنم كان لهم كمناة وهبل وقيل كان من ذهب وكان طوله عشرين ذراعا وله أربعة أوجه وفتنوا به وعظموه حتى عينوا له أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء وكان الشيطان يدخل فى جوف بعل ويتكلم بشريعة الضلالة والسدنة يحفظونها و يعلمونها الناس وهم أهل بعلبك من بلاد الشام و به سميت مدينتهم بعلبك واعلم أن قولهم بعل اسم لصنم من أصنامهم لا بأس به وأما قولهم ان الشيطان كان يدخل فى جوف بعلبك و يتكلم بشريعة الضلالة فهذا مشكل لانا ان جوزنا هذا كان ذلك قادحا فى كثير من المعجزات لانه نقل فى معجزات النبى صلى الله عليه وسلم كلام الذئب معه وكلام الجمل معه وحنين الجذع ولو جوزنا أن يدخل الشيطان فى جوف جسم و يتكلم فحينئذ يكون هذا الاحتمال قائما فى الذئب والجمل والجذع وذلك يقدح فى كون هذه الاشياء معجزات (والقول الثانى) أن البعل هو الرب بلغة اليمن يقال من بعل هذه الدار أى من ربها وسمى الزوج بعلا لهذا المعنى قال تعالى و بعولتهن أحق بردهن وقال تعالى وهذا بعلى شيخا فعلى هذا التقدير المعنى أتعبدون بعض البعول وتتركون عبادة الله (البحث الثانى) المعتزلة احتجوا بهذه الآية على كون العبد خالقا لافعال نفسه قالوا ولو لم يكن غير الله خالقا لما جاز وصف الله بأنه أحسن الخالقين والكلام فيه قد تقدم فى قوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين (البحث الثالث) كان الملقب بالرشيد الكاتب يقول لو قيل أتدعون بعلا وتدعون أحسن الخالقين أوهم انه أحسن لانه كان قد تحصل فيه رعاية معنى التجنيس وجوابه ان فصاحة القرآن ليست لاجل رعاية هذه التكاليف بل لاجل قوة المعانى وجزالة الالفاظ واعلم انه لما عابهم على عبادة غير الله صرح بالتوحيد ونفى الشركاء فقال الله ربكم ورب آبائكم الاولين وفيه مباحث (الاول) انا ذكرنا فى هذا الكتاب أن حدوث الاشخاص البشرية كيف يدل على وجود الصانع المختار وكيف يدل على وحدته و براءته عن الاضداد والانداد فلا فائدة فى الاعادة (البحث الثانى) قرأ حمزة والكسائى وحفص عن عاصم الله ربكم ورب آبائكم كلهـا بالنصب على البدل من قوله أحسن الخالقين والباقون بالرفع على الاستئناف والاول اختيار أبى حاتم وأبى عبيدة ونقل صاحب الكشاف أن حمزة اذا وصل نصب واذا

الطفل حين يولد (وانبتنا عليه) اى فوقه مظلة عليه (شجرة من يقطين) وهو كل ما ينبسط على الارض ولا يقوم على ساق كشجر البطيخ والقثاء والحنظل وهو يفعيل من قطن بالمكان اذا أقام به والاكثرون على أنه الدباء غطته بأوراقها عن الذباب فانه لا يقع عليه ويدل عليه أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك تحب القرع قال أجل هى شجرة أخى يونس وقيل هى التين وقيل الموز تغطى بورقه واستظل بأغصانه وأفطر على ثماره وقيل كان يستظل بالشجرة وكانت وعلة تختلف اليه فيشرب

وقف رفع ولما حكى الله عنه انه قرر مع قومه التوحيد قال فكذبوه فانهم لمحضرون أى لمحضرون النار غدا وقد ذكرنا الكلام فيه عند قوله لكنت من المحضرين ثم قال تعالى الا عباد الله المخلصين وذلك لان قومه ما كذبوه بكليتهم بل كان فيهم من قبل ذلك التوحيد فلهذا قال تعالى الا عباد الله المخلصين يعنى الذين أتوا بالتوحيد الخالص فانهم لا يحضرون ثم قال وتركنا عليه فى الآخرين سلام على آل ياسين قرأ نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين على اضافة لفظ آل الى لفظ ياسين والباقون بكسر الالف وجزم اللام موصولة بياسين أما القراءة الاولى ففيها وجوه (الاول) وهو الاقرب انا ذكرنا انه الياس بن ياسين فكان الياس آل ياسين (الثانى) آل ياسين آل محمد صلى الله عليه وسلم (والثالث) أن ياسين اسم القرآن كأنه قيل سلام الله على من آمن بكتاب الله الذى هو ياسين والوجه هو الاول لانه أليق بسياق الكلام وأما القراءة الثانية ففيها وجوه (الاول) قال الزجاج يقال ميكال وميكائيل وميكالين فكذا ههنا الياس والياسين (والثانى) قال الفراء هو جمع وأراد به الياس وأتباعه من المؤمنين كقولهم المهلبون والسعدون قال

* أنا ابن سعد أكرم السعدينا * ثم قال تعالى انا كذلك نجزى المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وقد سبق تفسيره والله أعلم * قوله تعالى (وان لوطا لمن المرسلين اذ نجيناه واهله أجمعين الا عجوزا فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون) هذا هو القصة الخامسة وانه تعالى انما ذكر هذه القصة ليعتبر بها مشركوا العرب فان الذين كفروا من قومه هلكوا والذين آمنوا نجوا وقد تقدم شرح هذه القصة وقد نبههم بقوله تعالى وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل وذلك لان القوم كانوا يسافرون الى الشام والمسافر فى أكثر الامر انما يمشى فى الليل وفى أول النهار فلهذا السبب عين تعالى هذين الوقتين ثم قال تعالى أفلا تعقلون يعنى أليس فيكم عقول تعتبرون بها والله أعلم

* قوله تعالى (وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم وانبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم الى حين) اعلم ان هذا هو القصة السادسة وهو آخر القصص المذكورة فى هذه السورة وانما صارت هذه القصة خاتمة للقصص لاجل انه لما لم يصبر على أذى قومه وأبق الى الفلك وقع فى تلك الشدائد فيصير هذا سببا لتصبر النبى صلى الله عليه وسلم على أذى قومه أما قوله وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك المشحون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرئ يونس بضم النون وكسرها (المسئلة الثانية) دلت هذه الآية على أن هذه الواقعة انما وقعت ليونس عليه السلام بعد ان صار رسولا لان قوله وان يونس لمن المرسلين اذ أبق الى الفلك معناه انه كان من المرسلين حين ما أبق الى الفلك ويمكن أن يقال انه جاء فى كثير من الروايات انه أرسله ملك زمانه الى أولئك القوم ليدعوهم

من لبنها (وأرسلناه الى مائة ألف) هم قومه الذين هرب منهم وهم أهل نينوى والمراد به ارساله السابق أخبر أولا بأنه من المرسلين على الاطلاق ثم أخبر بأنه قد أرسل الى أمة جمة وكأن توسيط تذكير وقت هربه الى الفلك وما بعده بينهما لتذكير سببه وهو ما جرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين قومه من انذاره اياهم عذاب الله تعالى وتعيينه لوقت حلوله وتعللهم وتعليقهم لايمانهم بظهوره أماراته كما مر تفصيله فى سورة يونس ليعلم أن ايمانهم الذى سيحكى بعد لم يكن عقيب الارسال كما هو المتبادر من ترتيب الايمان عليه بالفاء بل بعد اللتيا والتى وقيل هو ارسال آخر اليهم وقيل الى غيرهم وليس بظاهر (أو يزيدون) أى فى مرأى الناظر فانه اذا نظر اليهم قال انهم مائة ألف أو يزيدون والمراد هو الوصف بالكثرة وقرئ بالواو (فآمنوا) أى بعد ما شاهدوا علائم حلول العذاب ايمانا خالصا (فمتعناهم) أى بالحياة الدنيا (الى حين) قدره الله سبحانه لهم قيل ولعل عدم ختم هذه القصة وقصة لوط بما ختم به سائر القصص للتفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع وأولى العزم من الرسل أو اكتفاء بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين فى آخر السورة (فاستفتهم) أمر الله عز وجل فى صدر السورة الكريمة رسوله صلى الله عليه وسلم بتبكيت قريش وابطال مذهبهم فى انكار البعث بطريق الاستفتاء وساق البراهين القاطعة الناطقة بتحققه لا محالة وبين

منهم عباده المخلصين وفصل مالهم من النعيم المقيم ثم ذكر انه قد ضل من قبلهم أكثر الاولين وانه تعالى أرسل اليهم منذرين على وجه الاجمال ثم أورد قصص كل واحد منهم على وجه التفصيل مبينا في كل قصة منها أنهم من عباده تعالى واصفالهم تارة بالاخلاص وأخرى بالايمان ثم أمره عليه الصلاة والسلام ههنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه أمر منكر خارج عن العقول بالكلية وهي القسمة الباطلة اللازمة لما كانوا عليه من الاعتقاد الزائغ ﴿ ١٦٤ ﴾ حيث كانوا يقولون كبعض أجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح الملائكة بنات الله والفاء لترتيب الامر على ماسبق من كون أولئك الرسل الذين هم أعلام الخلق عليهم الصلاة والسلام عباده تعالى فان ذلك مما يؤكد التبكيت ويظهر بطلان مذهبهم الفاسد ثم تبكيتهم بما يتضمنه كفرهم المذكور من الاستهانة بالملائكة بجعلهم اناثا ثم أبطل أصل كفرهم المنطوي على هذين الكفرين وهو نسبة الولد اليه سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ولم ينظمه في سلك التبكيت لمشاركتهم النصارى في ذلك أي فاستخبرهم (ألربك البنات) اللاتي هن أوضع الجنسين ((ولهم البنون) الذين هم أرفعهما فان ذلك مما لا يقول به من له أدنى شئ من العقل وقوله تعالى (أم خلقنا الملائكة اناثا) اضراب وانتقال من التبكيت بالاستفتاء السابق الى التبكيت بهذا كما أشير اليه أي بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق وأبعدهم من صفات الاجسام ورذائل الطبائع اناثا والانوثة من أخس صفات الحيوان

الى الله ثم أبق والتقمه الحوت فعند ذلك أرسله الله تعالى والحاصل أن قوله لمن المرسلين لا يدل على انه كان في ذلك الوقت مرسلا من عند الله تعالى ويمكن أن يجاب بأنه سبحانه وتعالى ذكر هذا الوصف في معرض تعظيمه ولن يفيد هذه الفائدة الا اذا كان المراد من قوله لمن المرسلين انه من المرسلين عند الله تعالى (المسئلة الثالثة) أبق من اباق العبد وهو هربه من سيده ثم اختلف المفسرون فقال بعضهم انه أبق من الله تعالى وهذا بعيد لان ذلك لا يقال الا فيمن يتعمد مخالفة ربه وذلك لا يجوز على الانبياء واختلفوا فيما لاجله صار مخطئا فقيل لانه أمر بالخروج الى بني اسرائيل فلم يقبل ذلك التكليف وخرج مغاضبا لربه وهذا بعيد سواء أمره الله تعالى بذلك بوحي أو بلسان نبي آخر وقيل ان ذنبه انه ترك دعاء قومه ولم يصبر عليهم وهذا أيضا بعيد لان الله تعالى لما أمره بهذا العمل فلا يجوز أن يتركه والاقرب فيه وجهان (الاول) ان ذنبه كان لان الله تعالى وعده انزال الاهلاك بقومه الذين كذبوه فظن انه نازل لا محالة فلاجل هذا الظن لم يصبر على دعائهم فكان الواجب عليه أن يستمر على الدعاء لجواز أن لا يهلكهم الله بالعذاب وان انزله وهذا هو الاقرب لانه اقدام على أمر ظهرت أماراته فلا يكون تعمدا للمعصية وان كان الاولى في مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظن ثم انكشف ليونس من بعد انه أخطأ في ذلك الظن لاجل انه ظهر الايمان منهم فمعنى قوله اذ أبق الى الفلك ما ذكرناه (الوجه الثاني) أن يونس كان وعد قومه بالعذاب فلما تأخر عنهم العذاب خرج كالمستور عنهم فقصد البحر وركب السفينة فذلك هو قوله اذ أبق الى الفلك وتمام الكلام في مشكلات هذه الآية ذكرناه في قوله تعالى وذا النون اذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه وقوله الى الفلك المشحون مفسر في سورة يونس والسفينة اذا كان فيها الحمل الكثير والناس يقال انها مشحونة ثم قال تعالى فساهم المساهمة هي المقارعة يقال أسهم القوم اذا اقترعوا قال المبرد وانما أخذ من السهام التي تجال للقرعة فكان من المدحضين أي المغلوبين يقال أدحض الله حجته فدحضت أي ازالها فزالت وأصل الكلمة من الدحض الذي هو الزلق يقال دحضت رجل البعير اذا زلقت وذكر ابن عباس في قصة يونس عليه السلام انه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة اسباط ونصفا وبقي سبطان ونصف وكان الله تعالى أوحى الى بني اسرائيل اذا اسركم عدوكم أو أصابتكم مصيبة فادعوني أستجب لكم فلما نسوا ذلك وأسروا أوحى الله تعالى بعد حين الى نبي من أنبيائهم أن اذهب الى ملك هؤلاء الاقوام وقل له حتى يبعث الى بني اسرائيل نبيا فاختار يونس عليه السلام لقوته وأمانته قال يونس آلله أمرك بهذا قال لا ولكن أمرت أن أبعث قويا أمينا وأنت كذلك فقال يونس وفي بني اسرائيل من هو أقوى مني فلم لا تبعثه فالح الملك عليه فغضب يونس منه وخرج حتى أتى بحر الروم ووجد سفينة مشحونة فحملوه فيها فلما دخلت لجة البحر أشرفت على الغرق فقال الملاحون ان فيكم عاصيا والا لم يحصل في السفينة ماتراه من غير ريح ولا سبب ظاهر وقال التجار قد جربنا

وقوله تعالى (وهم شاهدون) استهزاء بهم وتجهيل لهم كقوله تعالى أشهدوا خلقهم وقوله تعالى ما أشهدتهم خلق ﴿ مثل ﴾ السموات والارض ولا خلق أنفسهم فان أمثال هذه الامور لا تعلم الا بالمشاهدة اذ لا سبيل الى معرفتها بطريق العقل وانتفاء النقل مما لا ريب فيه فلا بد أن يكون القائل بأنوثتهم شاهدا عند خلقهم والجملة اما حال من فاعل خلقنا أي بل أخلقناهم اناثا والحال انهم حاضرون حينئذ

وقوله تعالى (ألا انهم من افكهم ليقولون ولد الله) استئناف من جهته غير داخل تحت الامر بالاستفتاء مسوق لابطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه ليس الا الافك الصريح والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل أو شبهة قطعا (وانهم لكاذبون) فى قولهم ذلك كذبا بينا لاريب فيه وقرئ ولد الله على أنه خبر مبتدأ محذوف أى الملائكة ولده تعالى عن ذلك علوا كبيرا فان الولد فعل بمعنى مفعول ﴿ ١٦٥ ﴾ يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث (أصطفى البنات على البنين) اثبات لافكهم وتقرير لكذبهم فيما قالوا ببيان استلزامه لامر بين الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى البنات على البنين والاصطفاء أخذ صفوة الشئ لنفسه وقرئ بكسر الهمزة على حذف حرف الاستفهام ثقة بدلالة القرائن عليه وجعله بدلا من ولد الله ضعيف وتقدير القول اى لكاذبون فى قولهم اصطفى الخ تعسف بعيد (مالكم كيف تحكمون) بهذا الحكم الذى يقضى ببطلانه بديهة العقل (أفلا تذكرون) بحذف احدى التاءين من تتذكرون وقرئ تذكرون من ذكر والفاء للعطف على مقدر أى ألا تلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه فانه مركوز فى عقل كل ذكى وغبى (أم لكم سلطان مبين) اضراب وانتقال من توبيخهم وتبكيتهم بما ذكر الى تبكيتهم بتكليفهم مالا يدخل تحت الوجود أصلا أى بل ألكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بان الملائكة بناته تعالى ضرورة أن الحكم بذلك لابد له من سند حسى أو عقلى وحيث انتفى كلاهما فلابد من سند نقلى (فأتوا بكتابكم) الناطق بصحة دعواكم (ان كنتم صادقين) فيها وفى هذه الآيات من الانباء عن السخط العظيم والانكار الفظيع لاقاويلهم والاستبعاد الشديد لاباطيلهم وتسفيه أحلامهم وتركيك عقولهم

مثل هذا فاذا رأيناه نقترع فمن خرج سهمه نغرقه فلأن يغرق واحد خير من غرق الكل فخرج سهم يونس فقال التجار نحن أولى بالمعصية من نبى الله ثم عادوا ثانيا وثالثا يقترعون فيخرج سهم يونس فقال ياهؤلاء أنا العاصى وتلفف فى كساء ورمى بنفسه فابتلعته السمكة فأوحى الله تعالى الى الحوت لاتكسر منه عظما ولاتقطع له وصلا ثم ان السمكة أخرجته الى نيل مصر ثم الى بحر فارس ثم الى بحر البطائح ثم دجلة فصعدت به ورمته بأرض نصيبين بالعراء وهو كالفرخ المنتوف لاشعر ولالحم فأنبت الله عليه شجرة من يقطين فكان يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى تشدد ثم ان الارضة أكلتها فخرت من أصلها فحزن يونس لذلك حزنا شديدا فقال يارب كنت أستظل تحت هذه الشجرة من الشمس والريح وأمص من ثمرها وقد سقطت فقيل له يايونس تحزن على شجرة أنبتت فى ساعة واقتلعت فى ساعة ولاتحزن على مائة ألف أو يزيدون تركتهم انطلق اليهم فانطلق اليهم والله أعلم بحقيقة الواقعة ثم قال تعالى فالتقمه الحوت وهو مليم يقال التقمه والتهمه والكل بمعنى واحد وقوله تعالى وهو مليم يقال الام اذا أتى بما يلام عليه فالمليم المستحق للوم الآتى بما يلام عليه ثم قال تعالى فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون وفى تفسير كونه من المسبحين قولان (الاول) أن المراد منه ما حكى الله تعالى عنه فى آية اخرى انه كان يقول فى تلك الظلمات لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين (الثانى) انه لولا انه كان قبل أن التقمه الحوت من المسبحين يعنى المصلين وكان فى اكثر الاوقات مواظبا على ذكر الله وطاعته للبث فى بطن ذلك الحوت وكان بطنه قبرا له الى يوم البعث قال بعضهم اذكروا الله فى الرخاء يذكركم فى الشدة فان يونس عليه السلام كان عبدا صالحا ذاكرا لله تعالى فلما وقع فى بطن الحوت قال الله تعالى فلولا انه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون وان فرعون كان عبدا طاغيا ناسيا فلما أدركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذى آمنت به بنوا اسرائيل قال الله تعالى آلآن وقد عصيت قبل واختلفوا فى انه كم لبث فى بطن الحوت ولفظ القرآن لايدل عليه قال الحسن لم يلبث الا قليلا وأخرج من بطنه بعد الوقت الذى التقمه وعن مقاتل بن حيان ثلاثة أيام وعن عطاء سبعة ايام وعن الضحاك عشرين يوما وقيل شهرا ولا أدرى بأى دليل عينوا هذه المقادير وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال سبح يونس فى بطن الحوت فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا ربنا انا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة فقال ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر فقالوا العبد الصالح الذى كان يصعد اليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال نعم فشفعوا له فأمر الحوت فقذفه فى الساحل فذلك هو قوله فنبذناه بالعراء وفيه مباحث (الاول) العراء المكان الخالى قال أبو عبيدة انما قيل له العراء لانه لاشجر فيه ولاشئ يغطيه (الثانى) انه تعالى قال فنبذناه بالعراء فأضاف ذلك النبذ الى نفسه والنبذ انما حصل بفعل الحوت وهذا يدل على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ثم قال تعالى وهو سقيم قيل المراد انه بلى لحمه

وصار ضعيفا كالطفل المولود كالفرخ الممعط الذى ليس عليه ريش وقال مجاهد سقيم أى سليب ثم قال تعالى وانبتنا عليه شجرة من يقطين ظاهر اللفظ يدل على أن الحوت لما نبذه فى العراء فالله تعالى أنبت عليه شجرة من يقطين وذلك المعجزله قال المبرد والزجاج كل شجر لا يقوم على ساق وانما يمتد على وجه الارض فهو يقطين نحو الدباء والحنظل والبطيخ قال الزجاج أحسب اشتقاقها من قطن بالمكان اذا أقام به وهذا الشجر ورقه كله على وجه الارض فلذلك قيل له اليقطين روى الفراء انه قيل عند ابن عباس هو ورق القرع فقال ومن جعل القرع من بين الشجر يقطينا كل ورقة اتسعت وسترت فهى يقطين قال الواحدى رحمه الله والآية تقتضى شيئين لم يذكرهما المفسرون (أحدهما) أن هذا اليقطين لم يكن قبل فأنبته الله لاجله (والآخر) أن اليقطين معروشا ليحصل له ظل لانه لو كان منبسطا على الارض لم يمكن أن يستظل به ثم قال تعالى وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وفيه مباحث (الاول) يحتمل أن يكون المراد وأرسلناه قيل أن يلتقمه الحوت وعلى هذا الارسال وان ذكر بعد الالتقام فالمراد به التقديم والواو معناها الجمع ويحتمل أن يكون المراد به الارسال بعد الالتقام عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون أرسل الى قوم آخرين سوى القوم الاول ويجوز أن يكون أرسل الى الاولين ثانيا بشريعة فآمنوا بها (البحث الثانى) ظاهر قوله أو يزيدون يوجب الشك وذلك على الله تعالى محال ونظيره قوله تعالى عذرا أو نذرا وقوله تعالى لعله يتذكر أو يخشى وقوله تعالى لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا وقوله تعالى وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب وقوله تعالى فكان قاب قوسين أو أدنى وأجابوا عنه من وجوه كثيرة والاصح منها وجه واحد وهو أن يكون المعنى أو يزيدون فى تقديركم بمعنى انهم اذا رآهم الرائى قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة وهذا هو الجواب عن كل ما يشبه هذا ثم قال تعالى فآمنوا فمتعناهم الى حين والمعنى ان أولئك الاقوام لما آمنوا أزال الله الخوف عنهم وآمنهم من العذاب ومتعهم الله الى حين أى الى الوقت الذى جعله الله أجلا لكل واحد منهم * قوله تعالى (فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ام خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر أقاصيص الانبياء عليهم السلام عاد الى شرح مذاهب المشركين وبيان قبحها وسخافتها ومن جملة أقوالهم الباطلة انهم أثبتوا الاولاد لله سبحانه وتعالى ثم زعموا انها من جنس الاناث لا من جنس الذكور فقال فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون وهذا معطوف على قوله فى أول السورة فاستفتهم أهم

وافهامهم مع استهزائهم وتعجيب من جهلهم مالا يخفى على من تأمل فيها وقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) التفات الى الغيبة للايذان بانقطاعهم عن الجواب سقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم وتحكى جناياتهم لآخرين والمراد بالجنة الملائكة قالوا الجنس واحد ولكن من خبث من الجن ومرد وكان شرا كله فهو شيطان ومن طهر منهم ونسك وكان خيرا كله فهو ملك وانما عبر عنهم بذلك الاسم وضعا منهم وتقصيرا بهم مع عظم شأنهم فيما بين الخلق أن يبلغوا منزلة المناسبة التى أضافوها اليهم فجعلهم هذا عبارة عن قولهم الملائكة بنات الله وانما أعيد ذكره تمهيدا لما يعقبه من قوله تعالى (ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون) أى وبالله لقد علمت الجنة التى عظموها بان جعلوا بينه تعالى نسبا وهم الملائكة ان الكفرة لمحضرون النار معذبون بها لكذبهم وافترائهم فى قولهم ذلك والمراد به المبالغة فى التكذيب ببيان أن الذين يدعى هؤلاء لهم تلك النسبة ويعلمون أنهم أعلم منهم بحقيقة الحال يكذبونهم فى ذلك ويحكمون بانهم معذبون لاجله حكما مؤكدا وقيل ان قوما من الزنادقة يقولون الله تعالى وابليس أخوان فالله هو الخير الكريم وابليس هو الشرير اللئيم وهو المراد بقوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا قال الامام الرازى وهذا القول عندى اقرب الاقاويل وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان واهرمن وقال مجاهد قالت قريش الملائكة بنات الله فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فمن أمهاتهم تبكيتا لهم فقالوا سروات الجن وقيل معنى جعلوا بينه ❀ اشد ❀ وبين الجنة نسبا جعلوا بينهما مناسبة حيث أشركوا به تعالى الجن فى استحقاق العبادة فعلى هذه الاقاويل يجوز أن

يكون الضمير فى انهم لمحضرون للجنة فالمعنى لقد علمت الشياطين أن الله تعالى يحضرهم النار و يعذبهم بها ولو كانوا مناسبين له تعالى أوشركاء فى استحقاق العبادة لما عذبهم والوجه هو الاول فان قوله (سبحان الله عما يصفون) حكاية لتنزيه الملائكة اياه تعالى عما وصفه المشركون به بعد تكذيبهم لهم فى ذلك بتقدير قول معطوف على علمت وقوله تعالى (الا عباد الله المخلصين) شهادة ﴿ ١٦٧ ﴾ منهم ببراءة المخلصين من أن يصفوه تعالى بذلك متضمنة

لتبريهم منه بحكم اندراجهم فى زمرة المخلصين على ابلغ وجه وآكده على أنه استثناء منقطع من واو يصفون كأنه قيل ولقد علمت الملائكة أن المشركين لمعذبون لقولهم ذلك وقالوا سبحان الله عما يصفونه به لكن عباد الله الذين نحن من جملتهم برآء من ذلك الوصف وقوله تعالى (فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين) تعليل وتحقيق لبراءة المخلصين مما ذكر ببيان عجزهم عن اغوائهم واضلالهم والالتفات الى الخطاب لاظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام وما تعبدون عبارة عن الشياطين الذين أغووهم وفيه ايذان بتبرئهم عنهم وعن عبادتهم كقولهم بل كانوا يعبدون الجن وما نافية وأنتم خطاب لهم ولمعبوديهم تغليبا وعلى متعلقة بفاتنين يقال فتن فلان على فلان امرأته أى أفسدها عليه والمعنى فانكم ومعبوديكم أيها المشركون لستم بفاتنين عليه تعالى بافساد عباده واضلالهم (الا من هو صال الجحيم) منهم أي داخلها لعلمه تعالى بأنه

يصبر على الكفر بسوء اختياره و يصير من أهل النار لا محالة وأما المخلصون منهم فأنتم بمعزل من افسادهم واضلالهم فهم لاجرم برآء من أن يفتنوا بكم و يسلكوا مسلككم فى وصفه تعالى بما وصفتموه به وقرئ صال بضم اللام على أنه

أشد خلقا أمن خلقنا وذلك لانه تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم باستفتاء قريش عن وجه انكار البعث أولا ثم ساق الكلام موصولا بعضه ببعض الى ان أمره بان يستفتيهم فى انهم لم أثبتوا لله سبحانه البنات ولانفسهم البنين ونقل الواحدى عن المفسرين انهم قالوا ان قريشا واجناس العرب جهينة وبنى سلمة وخزاعة و بنى مليح قالوا الملائكة بنات الله واعلم أن هذا الكلام يشتمل على أمرين (أحدهما) اثبات البنات لله وذلك باطل لان العرب كانوا يستنكفون من البنت والشيء الذى يستنكف المخلوق منه كيف يمكن اثباته للخالق (والثاني) اثبات ان الملائكة اناث وهذا أيضا باطل لان طريق العلم اما الحس واما الخبر واما النظر اما الحس فمفقود ههنا لانهم ما شهدوا كيفية تخليق الله الملائكة وهو المراد من قوله أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون وأما الخبر فمفقود أيضا لان الخبر انما يفيد العلم اذا علم كونه صدقا قطعا وهؤلاء الذين يخبرون عن هذا الحكم كذابون أفاكون لم يدل على صدقهم لا دلالة ولا أمارة وهو المراد من قوله الا انهم من افكهم ليقولون ولد الله وانهم لكاذبون * وأما النظر فمفقود و بيانه من وجهين (الاول) أن دليل العقل يقتضى فساد هذا المذهب لان الله تعالى أكمل الموجودات والاكمل لا يليق به اصطفاء الاخس وهو المراد من قوله أصطفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون يعنى اسناد الافضل الى الافضل أقرب عند العقل من اسناد الاخس الى الافضل فان كان حكم العقل معتبرا فى هذا الباب كان قولكم باطلا (والوجه الثانى) ان نترك الاستدلال على فساد مذهبهم بل نطالبهم باثبات الدليل الدال على صحة مذهبهم فاذا لم يجدوا ذلك الدليل فعنده يظهر انه لم يوجد ما يدل على صحة قولهم وهذا هو المراد من قوله أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين فثبت بما ذكرنا ان القول الذى ذهبوا اليه لم يدل على صحته لا الحس ولا الخبر ولا النظر فكان المصير اليه باطلا قطعا واعلم انه تعالى لما طالبهم بما يدل على صحة مذهبهم دل ذلك على ان التقليد باطل وان الدين لا يصح الا بالدليل (المسئلة الثانية) قوله أصطفى البنات على البنين قراءة العامة بفتح الهمزة وقطعها من أصطفى ثم بحذف ألف الوصل وهو استفهام توبيخ وتقريع كقوله تعالى أم اتخذ مما يخلق بنات وقوله تعالى أم له البنات ولكم البنون وقوله تعالى ألكم الذكر وله الانثى وكان هذه المواضع كلها استفهام فكذلك فى هذه الآية وقرأ نافع فى بعض الروايات لكاذبون اصطفى موصولة بغير استفهام واذا ابتدأ كسر الهمزة على وجه الخبر والتقدير اصطفى البنات فى زعمهم كقوله ذق انك أنت العزيز الكريم فى زعمه واعتقاده ثم قال تعالى وجعلوا بينه و بين الجنة نسبا واختلفوا فى المراد بالجنة على وجوه (الاول) قال مقاتل أثبتوا نسبا بين الله تعالى و بين الملائكة حين زعموا انهم بنات الله وعلى هذا القول فالجنة هم الملائكة سموا جنا لاجتنانهم عن الابصار أو لانهم خزان الجنة وأقول هذا القول عندى مشكل لانه تعالى أبطل قولهم الملائكة بنات الله ثم عطف عليه قوله وجعلوا بينه

سقط واوه لالتقاء الساكنين وقوله تعالى (ومامنا الاله مقام معلوم) تبيين لجلية أمرهم وتعيين لحيزهم فى موقف العبودية بعد ماذكر من تكذيب الكفرة فيما قالوا وتنزيه الله تعالى عن ذلك وتبرئه المخلصين عنه واظهار لقصور شأنهم وقماءتهم أى ومامنا أحد الاله مقام معلوم فى العبادة والانتهاء الى أمر الله تعالى مقصور عليه لايتجاوزه ولايستطيع أن يزل عنه خضوعا لعظمته وخشوعا لهيبته وتواضعا لجلاله ﴿ ١٦٨ ﴾ كما روى فنهم راكع لايقيم صلبه وساجد لايرفع رأسه قال ابن عباس رضى الله عنهما مافى السموات موضع شبر الاوعليه ملك يصلى أو يسبح وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال أطت السماء وحق لها أن تئط والذى نفسى بيده مافيها موضع أربع أصابع الاوفيه ملك واضع جبهته ساجد لله تعالى وقال السدى الاله مقام معلوم فى القربة والمشاهدة (وانا لنحن الصافون) فى مواقف الطاعة ومواطن الخدمة (وانا لنحن المسبحون) المقدسون لله سبحانه عن كل مالايليق بجناب كبريائه وتحلية كلامهم بفنون التاكيد لابراز أن صدوره عنهم بكمال الرغبة والنشاط هذا هو الذى تقتضيه جزالة التنزيل وقد ذكر فى تفسير الآيات الكريمة واعرابها وجوه أخر فتأمل والله الموفق (وان كانوا ليقولون) ان هى المخففة من الثقيلة وضمير الشان محذوف واللام هى الفارقة أى ان الشأن كانت قريش تقول (لوأن عندنا ذكرا من الاولين) أى كتابا من كتب الاولين من التوراة والانجيل (لكنا عبادا الله المخلصين) أى لاخلصنا العبادة لله تعالى ولما خالفنا كما خالفوا وهذا كقولهم لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى من احدى ﴿ فحمل ﴾ الامم والفاء فى قوله تعالى (فكفروا به) فصيحة كما فى قوله تعالى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فجاءهم ذكر وأى ذكر سيد الاذكار ...

و بين الجنة نسبا والعطف يقتضى كون المعطوف مغايرا للمعطوف عليه فوجب أن يكون المراد من هذه الآية غيرما تقدم (الثانى) قال مجاهد قالت كفار قريش الملائكة بنات الله فقال لهم أبو بكر الصديق فمن أمهاتهم قالوا سروات الجن وهذا أيضا عندى بعيد لان المصاهرة لاتسمى نسبا (والثالث) روينا فى تفسير قوله تعالى وجعلوا لله شركاء الجن ان قوما من الزنادقة يقولون ان الله وابليس اخوان فالله الخير الكريم وابليس هو الاخ الشرير الخسيس فقوله تعالى وجعلوا بينه و بين الجنة نسبا المراد منه هذا المذهب وعندى ان هذا القول اقرب الاقاويل وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان وهومن ثم قال تعالى ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون أى قد علمت الجنة ان الذين قالوا هذا القول محضرون النار و يعذبون وقيل المراد ولقد علمت الجنة انهم سيحضرون فى العذاب فعلى القول الاول الضمير عائد الى قائل هذا القول وعلى القول الثانى عائد الى الجنة أنفسهم ثم انه تعالى نزه نفسه عما قالوا من الكذب فقال سبحان الله عما يصفون الا عباد الله المخلصين وفى هذا الاستثناء وجوه قيل استثناء من المحضرين يعنى انهم ناجون وقيل هو استثناء من قوله تعالى وجعلوا بينه و بين الجنة نسبا وقيل هو استثناء منقطع من المحضرين ومعناه ولكن المخلصين برآء من أن يصفوه بذلك والمخلص بكسر اللام من أخلص العبادة والاعتقاد لله . بفتحها من أخلصه الله بلطفه والله أعلم * قوله تعالى (فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم ومامنا الاله مقام معلوم وانا لنحن الصافون وانا لنحن المسبحون وان كانوا ليقولون لو ان عندنا ذكرا من الاولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون) فيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما ذكر الدلائل على فساد مذهب الكفار اتبعه بما نبه به على ان هؤلاء الكفار لايقدرون على حمل أحد على الضلال الا اذا كان قد سبق حكم الله فى حقه بالعذاب والوقوع فى النار وذكر صاحب الكشاف فى قوله فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين قولين (الاول) الضمير فى عليه لله عز وجل معناه فانكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعا بفاتنين على الله الا أصحاب النار الذين سبق فى علم الله كونهم من أهل النار فان قيل كيف يفتنونهم على الله قلنا يفتنونهم عليه باغوائهم من قولك فتن فلان على فلان امرأته كما تقول أفسدها عليه (والوجه الثانى) أن تكون الواو فى قوله وما تعبدون بمعنى مع كما فى قولهم كل رجل وضيعته فكما جاز السكوت على كل رجل وضيعته فكذلك جاز أن يسكت على قوله فانكم وما تعبدون لان قوله وما تعبدون ساد مسد الخبر لان معناه فانكم مع ما تعبدون والمعنى فانكم مع آلهتكم أى فانكم قرناؤهم وأصحابهم لاتتركون عبادتها ثم قال تعالى ما أنتم عليه أى على ما تعبدون بفاتنين بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة والاضلال الا من هو صال الجحيم مثلكم وقرأ الحسن صال الجحيم بضم اللام ووجه أن يكون جمعا وسقوط واوه لالتقاء الساكنين فان قيل كيف يستقيم الجمع مع قوله من هو قلنا من موحد اللفظ مجموع المعنى

(ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) استيناف مقرر للوعيد وتصديره بالقسم لغاية الاعتناء بتحقيق مضمونه اى و بالله لقد سبق وعدنا لهم بالنصرة والغلبة وهو قوله تعالى (انهم لهم المنصورون وان جندنا) وهم أتباع المرسلين (لهم الغالبون) على أعدائهم فى الدنيا والآخرة ولا يقدح فى ذلك انهزامهم فى بعض المشاهد فان قاعدة أمرهم وأساسه الظفر والنصرة وان وقع فى تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والحكم للغالب ﴿ ١٦٩ ﴾ وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان لم ينصروا فى الدنيا نصروا فى الآخرة وقرئ على عبادنا بتضمين سبقت معنى حقت وتسميتها كلمة مع انها كلمات لانتظامها فى معنى واحد وقرئ كلماتنا (فتول عنهم) فاعرض عنهم واصبر (حتى حين) الى مدة يسيرة وهى مدة الكف عن القتال وقيل يوم بدر وقيل يوم الفتح (وأبصرهم) على اسوأ حال وأفظع نكال حل بهم من القتل والاسر والمراد بالامر بابصارهم الايذان بغاية قربه كأنه بين يديه (فسوف يبصرون) ما يقع حينئذ من الامور وسوف للوعيد دون التبعيد (أفبعذابنا يستعجلون) روى أنه لما نزل فسوف يبصرون قالوا متى هذا فنزل (فاذا نزل بساحتهم) أى فاذا نزل العذاب الموعود بفنائهم كأنه جيش قد هجمهم فأناخ بفنائهم بغتة فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم بالمرة وقيل المراد نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح وقرئ نزل بساحتهم على اسناده الى الجار والمجرور وقرئ نزل مبنيا للمفعول من التنزيل أى نزل العذاب (فساء صباح المنذرين) فبئس صباح المنذرين صباحهم واللام للجنس والصباح ﴿ ٢٢ ﴾ سا مستعار من صباح الجيش المبيت لوقت نزول العذاب ولما كثرت منهم الغارة فى الصباح سموها صباحا وان وقعت ليلا روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتى خيبر وكانوا خارجين الى مزارعهم ومعهم المساحى قالوا محمد والخميس ورجعوا الى حصنهم فقال عليه الصلاة والسلام الله أكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين (وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف

فحمل هو على لفظه والصالون على معناه (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه لا تأثير لاغواء الشيطان ووسوسته وانما المؤثر قضاء الله تعالى وتقديره لان قوله تعالى فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين تصريح بأنه لا تأثير لقولهم ولا تأثير لاحوال معبوديهم فى وقوع الفتنة والضلال وقوله تعالى الا من هو صال الجحيم يعنى الا من كان كذلك فى حكم الله وتقديره وذلك تصريح بأن المقتضى لوقوع هذه الحوادث حكم الله تعالى وكان عمر بن عبد العزيز يحتج بهذه الآية فى اثبات هذا المطلوب قال الجبائى المراد ان الذين عبدوا الملائكة يزعمون انهم بنات الله لا يكفرون أحدا الا من ثبت فى معلوم الله انه سيكفر فدل هذا على أن من ضل بدعاء الشيطان لم يكن ليؤمن بالله لو منع الله الشيطان من دعائه والا كان يمنع الشيطان فصح بهذا ان كل من يعصى لم يكن ليصلح عنه شئ من الافعال والجواب حاصل هذا الكلام أنه لا تأثير لاغواء شياطين الانس والجن وهذا لا نزاع فيه الا ان وجه الاستدلال انه تعالى بين انه لا تأثير لكلامهم فى وقوع الفتنة ثم استثنى عنه ما فى قوله تعالى الا من هو صال الجحيم فوجب أن يكون المراد من وقوع الفتنة هو كونه محكوما عليه بانه صال الجحيم وذلك تصريح بأن حكم الله بالسعادة والشقاوة هو الذى يؤثر فى حصول الشقاوة والسعادة واعلم أن أصحابنا قرروا هذه الحجة بالحديث المشهور وهو انه حج آدم موسى قال القاضى هذا الحديث لم يقبله علماء التوحيد لانه يوجب أن لا يلام أحد على شئ من الذنوب لانه ان كان آدم لا يجوز لموسى أن يلومه على عمل كتبه الله عليه قبل أن يخلقه فكذلك كل مذنب فان صحت هذه الحجة لآدم عليه السلام فلماذا قال موسى عليه السلام فى الوكزة هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين ولماذا قال فلن أكون ظهيرا للمجرمين ولماذا لام فرعون وجنوده على أمر كتبه الله عليهم ومن عجيب أمرهم انهم يكفرون القدرية وهذا الحديث يوجب أن آدم كان قدريا فلزمهم أن يكفروه وكيف يجوز مع قول آدم وحواء عليهما السلام ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين أن يحتج على موسى بأنه لا لوم عليه وقد كتب عليه ذلك قبل ان يخلقه هذا جملة كلام القاضى فيقال له هب أنك لا تقبل ذلك الخبر فهل ترد هذه الآية أم لا فانا بينا أن صريح هذه الآية يدل على انه لا تأثير للوساوس فى هذا الباب فان الكل يحصل بحكمة الله تعالى والذى يدل عليه وجوه (الاول) ان الكافر انما ضل بسبب وسوسة الشيطان فضلال الشيطان ان كان بسبب شيطان آخر لزم تسلسل الشياطين وهو محال وان انتهى الى ضلال لم يحصل بسبب وسوسة متقدمة فهو المطلوب (الثانى) أن كل أحد يريد ان يحصل لنفسه الاعتقاد الحق والدين الصدق فحصول ضده يدل على أن ذلك ليس منه (الثالث) أن الافعال موقوفة على الدواعى وحصول الدواعى بخلق الله فيكون الكل من الله تعالى (الرابع) انه تعالى لما اقتضت حكمته شيئا وعلم وقوعه فلو لم يقع ذلك الشئ لزم انقلاب ذلك الحكم كذبا وانقلاب ذلك العلم جهلا

يبصرون) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تسلية وتأكيد لوقوع الميعاد غب تأكيد مع ما في اطلاق الفعلين عن المفعول من الايذان بان ما يبصره عليه الصلاة والسلام حينئذ من فنون المسار وما يبصرونه من أنواع المضار لا يحيط به الوصف والبيان وقيل أريد بالاول عذاب الدنيا وبالثاني عذاب الآخرة (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) تنزيه لله سبحانه عن كل ما يصفه المشركون به مما لا يليق بجناب ﴿١٧٠﴾ كبريائه وجبروته مما ذكر في السورة الكريمة وما لم يذكر من الامور التي من جملتها ترك انجاز الموعود على موجب كلمة السابقة لاسيما في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الربوبية المعربة عن التربية والتكميل والمالكية الكلية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام أولا والى العزة ثانيا كأنه قيل سبحان من هو مربيك ومكملك ومالك العزة والغلبة على الاطلاق عما يصفه المشركون به من الاشياء التي منها ترك نصرتك عليهم كما يدل عليه استعجالهم بالعذاب وقوله تعالى (وسلام على المرسلين) تشريف لهم عليهم السلام بعد تنزيهه تعالى عما ذكر وتنويه بشأنهم وايذان بأنهم سالمون عن كل المكاره فائزون بجميع المآرب وقوله تعالى (والحمد لله رب العالمين) اشارة الى وصفه عز وجل بصفاته الكريمة الثبوتية بعد التنبيه على اتصافه تعالى بجميع صفاته السلبية وايذان باستتباعها للافعال الجميلة التي من جملتها افاضته عليهم من فنون الكرامات السنية والكمالات الدينية والدنيوية واسباغه عليهم وعلى من تبعهم من صنوف النعماء الظاهرة والباطنة الموجبة لحمده تعالى واشعار بأن ما وعده عليه الصلاة والسلام من النصرة والغلبة قد تحققت والمراد تنبيه المؤمنين على كيفية تسبيحه تعالى وتحميده والتسليم على رسله الذين هم وسائط بينهم وبينه عز وعلا في فيضان الكمالات الدينية والدنيوية عليهم ولعل توسط التسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده لختم السورة الكريمة بحمده تعالى مع ما فيه من الاشعار ﴿ فالمؤمن ﴾

وهو محال واما الآيات التي تمسك بها القاضي فهي معارضة بالآيات الدالة على أن الكل من الله والقرآن كالبحر المملوء من مثل هذه الآيات فتبقى الدلائل العقلية التي ذكرناها سليمة والله أعلم ثم قال تعالى وما منا الا له مقام معلوم فالجمهور على أنهم الملائكة وصفوا أنفسهم بالمبالغة في العبودية فانهم يصطفون للصلاة والتسبيح والغرض منه التنبيه على فساد قول من يقول انهم أولاد الله وذلك لان مبالغتهم في العبودية تدل على اعترافهم بالعبودية واعلم أن هذه الآية تدل على ثلاثة أنواع من صفات الملائكة (فاولها) قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وهذا يدل على أن لكل واحد منهم مرتبة لا يتجاوزها ودرجة لا يتعدى عنها وتلك الدرجات اشارة الى درجاتهم في التصرف في أجسام هذا العالم والى درجاتهم في معرفة الله تعالى أما درجاتهم في التصرفات والافعال فهي قوله وانا لنحن الصافون والمراد كونهم صافين في أداء الطاعات ومنازل الخدمة والعبودية واما درجاتهم في المعارف فهي قوله تعالى وانا لنحن المسبحون والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق به واعلم ان قوله انا لنحن الصافون وانا لنحن المسبحون يفيد الحصر ومعناه أنهم هم الصافون في مواقف العبودية لا غيرهم وأنهم هم المسبحون لا غيرهم وذلك يدل على ان طاعات البشر ومعارفهم بالنسبة الى طاعات الملائكة والى معارفهم كالعدم حتى يصح هذا الحصر وبالجملة فهذه الالفاظ الثلاثة تدل على أسرار عجيبة من صفات الملائكة وكيف يجوز مع هذا الحصر أن يقال البشر تقرب درجته من الملك فضلا عن أن يقال هل هو أفضل منه أم لا واما قوله وان كانوا ليقولون لو ان عندنا ذكرا من الاولين لكنا عباد الله المخلصين فالمعنى أن مشركي قريش وغيرهم كانوا يقولون لو ان عندنا ذكرا أي كتابا من كتب الاولين الذين نزل عليهم التوراة والانجيل لأخلصنا العبادة لله ولما كذبنا كما كذبوا ثم جاءهم الذكر الذي هو سيد الاذكار والكتاب المهيمن على كل الكتب وهو القرآن فكفروا به ونظير هذه الآية قوله تعالى فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا ثم قال تعالى فسوف يعلمون أي فسوف يعلمون عاقبة هذا الكفر والتكذيب * قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) اعلم انه تعالى لما هدد الكفار بقوله تعالى فسوف يعلمون عاقبة كفرهم أردفه بما يقوى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون فبين أن وعده بنصرته قد تقدم والدليل عليه قوله تعالى كتب الله لاغلبن أنا ورسلي وأيضا ان الخير مقضي بالذات والشر مقضي بالعرض وما بالذات أقوى مما بالعرض واما النصرة والغلبة فقد تكون بقوة الحجة وقد تكون بالدولة والاستيلاء وقد تكون بالدوام والثبات

بان توفيقه تعالى للتسليم عليهم من جملة نعمه الموجبة للحمد * عن على رضى الله عنه من أحب أن يكتال بالمكيال الاوفى من الاجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه اذا قام من مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين * وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ والصافات أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل جنى وشيطان وتباعدت عنه الشياطين وبرئ من الشرك وشهد له ﴿ ١٧١ ﴾ حافظاه يوم القيامة أنه كان مؤمنا بالمرسلين * (سورة ص مكية وآيها ست اوثمان وثمانون آية) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ص) بالسكون على الوقف وقرئ بالكسر والفتح لالتقاء الساكنين ويجوز أن يكون الفتح باضمار حرف القسم فى موضع الجر كقولهم الله لافعلن بالجر وأن يكون ذلك نصبا باضمارا ذكر أواقرأ لا فتحا كامر فى فاتحة سورة البقرة وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث لانها علم للسورة وقد صرفها من قرأ صاد بالتنوين على انه اسم الكتاب أو التنزيل وقيل هو فى قراءة الكسر أمر من المصاداة وهى المعارضة والمقابلة ومنها الصدى الذى ينعكس من الاجسام الصلبة الصوت ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه وتخلق بأخلاقه ثم ان جعل اسما للحرف مسرودا على منهاج التحدى أوالرمز الى كلام مثل صدق الله أوصدق محمد كما نقل عن أكابر السلف أو اسما للسورة خبر المبتدأ محذوف أونصبا على اضمار اذكر أواقرأ أمرا من المصاداة فالواو فى قوله تعالى (والقرآن ذى الذكر) للقسم وان جعل مقسما به فهى للعطف عليه فان أريد بالقرآن كله فالمغايرة بينهما حقيقية وان أريد غير السورة فهى أعتبارية كما فى قولك مررت بالرجل الكريم وبالنسمة المباركة وأياما كان ففى التكرير مزيد تأكيد لمضمون الجملة المقسم عليها والذكر الشرف والنباهة كما فى قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك أوالذكرى والموعظة أوذكر ما يحتاج اليه فى أمر

فالمؤمن وان صار مغلوبا فى بعض الاوقات بسبب ضعف أحوال الدنيا فهو الغالب ولا يلزم على هذه الآية أن يقال فقد قتل بعض الانبياء وقد هزم كثير من المؤمنين ثم قال تعالى لرسوله وقد أخبره بما تقدم فتول عنهم حتى حين والمراد ترك مقاتلتهم والثقة بما وعدناهم الى حين يتمتعون ثم تحل بهم الحسرة والندامة واختلف المفسرون فقيل المراد الى يوم بدر وقيل الى فتح مكة وقيل يوم القيامة ثم قال وأبصرهم فسوف يبصرون والمعنى فأبصرهم وما يقضى عليهم من القتل والاسر فى الدنيا والعذاب فى الآخرة فسوف يبصرونك مع ما قدرلك من النصرة والتأييد فى الدنيا والثواب العظيم فى الآخرة والمراد من الامر بابصارهم على الحال المنتظرة الموعودة الدالة على أنها كائنة واقعة لامحالة وان كينونتها قريبة كأنها قدام ناظريك وقوله فسوف يبصرون للتهديد والوعيد ثم قال أفبعذابنا يستعجلون والمعنى أن الرسول عليه السلام كان يهددهم بالعذاب ومارأوا شيأ فكانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب على سبيل الاستهزاء فبين تعالى أن ذلك الاستعجال جهل لان لكل شئ من افعال الله تعالى وقتا معينا لايتقدم ولايتأخر فكان طلب حدوثه قبل مجئ ذلك الوقت جهلا ثم قال تعالى فى صفة العذاب الذى يستعجلونه فاذا نزل بساحتهم أى هذا العذاب فساء صباح المنذرين وانما وقع هذا التعبير عن هذه المعانى لانهم كانوا يقدمون على الغارة فى وقت الصباح فجعل ذكر ذلك الوقت كناية عن ذلك العمل ثم أعاد قوله تعالى فتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون فقيل المراد من هذه الكلمة فيما تقدم أحوال الدنيا وفى هذه الكلمة أحوال القيامة وعلى هذا التقدير فالتكرير زائل وقيل ان المراد من التكرير المبالغة فى التهديد والتهويل ثم انه تعالى ختم السورة بخاتمة شريفة جامعة لكل المطالب العالية وذلك لان أهم المهمات للعاقل معرفة أحوال ثلاثة (فأولها) معرفة اله العالم بقدر الطاقة البشرية وأقصى ما يمكن عرفانه من صفات الله تعالى ثلاثة أنواع (أحدها) تنزيهه وتقديسه عن كل مالايليق بصفات الالهية وهو لفظة سبحان (وثانيها) وصفه بكل مايليق بصفات الالهية وهو قوله رب العزة فان الربوبية اشارة الى التربية وهى دالة على كمال الحكمة والرحمة والعزة اشارة الى كمال القدرة (وثالثها) كونه منزها فى الالهية عن الشريك والنظير وقوله رب العزة يدل على انه القادر على جميع الحوادث لان الالف واللام فى قوله العزة تفيد الاستغراق واذا كان الكل ملكاله وملكاله لم يبق لغيره شئ وثبت ان قوله سبحان ربك رب العزة عما يصفون كلمة محتوية على أقصى الدرجات وأكمل النهايات فى معرفة اله العالم (والمهم الثانى) من مهمات العاقل أن يعرف انه كيف ينبغى أن يعامل نفسه ويعامل الخلق فى هذه الحياة الدنيوية واعلم أن أكثر الخلق ناقصون ولابد لهم من مكمل يكملهم ومرشد يرشدهم وهاد يهديهم وماذاك الا الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل فنبه على هذا الحرف بقوله وسلام على المرسلين لان هذا اللفظ يدل على انهم فى

الكمال اللائق بالبشر فاقوا غيرهم ولاجرم يجب على كل من سواهم الاقتداء بهم (والمهم الثالث) من مهمات العاقل أن يعرف أنه كيف يكون حاله بعد الموت واعلم أن معرفة هذه الحالة قبل الموت صعبة فالاعتماد فيها على حرف واحد وهو انه اله العالم غني رحيم والغني الرحيم لايعذب فنبه على هذا الحرف بقوله والحمد لله رب العالمين وذلك لان استحقاق الحمد لايحصل الا بالانعام العظيم فبين بهذا كونه منعما وظاهر كونه غنيا عن العالمين ومن هذا وصفه كان الغالب منه هو الرحمة والفضل والكرم فكان هذا الحرف منبها على سلامة الحال بعد الموت فظهر بما ذكرنا أن هذه الخاتمة كالصدفة المحتوية على درر أشرف من دراري الكواكب ونسأل الله سبحانه وتعالى حسن الخاتمة والعافية في الدنيا والآخرة * تم تفسير هذه السورة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه وأزواجه وذرياته أجمعين

(سورة ص ثمانون وثمان آيات مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الكلام المستقصى في امثال هذه الفواتح مذكور في أول سورة البقرة ولابأس باعادة بعض الوجوه فالاول انه مفتاح أسماء الله تعالى التي أولها صاد كقولنا صادق الوعد صانع المصنوعات صمد (والثاني) معناه صدق محمد في كل ما أخبر به عن الله (الثالث) معناه صد الكفار عن قبول هذا الدين كما قال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله (الرابع) معناه ان القرآن مركب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها ولستم قادرين على معارضة القرآن فدل ذلك على أن القرآن معجز (الخامس) أن يكون صاد بكسر الدال من المصاداة وهي المعارضة ومنها الصدى وهو ما يعارض صوتك في الاماكن الخالية من الاجسام الصلبة ومعناه عارض القرآن بعملك فاعمل باوامره وانته عن نواهيه (السادس) انه اسم السورة والتقدير هذه صاد فان قيل ههنا اشكالان أحدهما أن قوله والقرآن ذي الذكر قسم وأين المقسم عليه (والثاني) أن كلمة بل تقتضي رفع حكم ثبت قبلها واثبات حكم بعدها يناقض الحكم السابق فأين هذا المعنى ههنا والجواب عن الاول من وجوه (الاول) أن يكون معنى صاد بمعنى صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيكون صاد هو المقسم عليه وقوله والقرآن ذي الذكر هو القسم (الثاني) أن يكون المقسم عليه محذوفا والتقدير سورة ص والقرآن ذي الذكر انه لكلام معجز لانا بينا أن قوله صاد تنبيه على التحدي (والثالث) أن يكون صاد اسما للسورة ويكون التقدير هذه صاد والقرآن ذي الذكر ولما كان المشهور أن محمدا

الدين من الشرائع والاحكام وغيرها من أقاصيص الانبياء عليهم الصلاة والسلام وأخبار الامم الدارجة والوعد والوعيد وجواب القسم على الوجه الاول والرابع والخامس محذوف هو ماينبئ عنه التحدي والامر والاقسام به من كون المتحدى به معجزا وكون المأمور به واجبا وكون المقسم به حقيقا بالاعظام أي أقسم بالقرآن أو بصاد وبه انه لمعجز أو لواجب العمل به أو لحقيق بالاعظام وأما على الوجهين الباقيين فهو الكلام المرموز اليه ونفس الجملة المذكورة قبل القسم فان التسمية تنويه بشأن المسمى وتنبيه على عظم خطره أي انه لصادق والقرآن ذي الذكر أو هذه السورة عظيمة الشأن والقرآن الخ على طريقة قولهم هذا حاتم والله ولما كان كل واحد من هذه الاجوبة منبئا عن انتفاء الريب عن مضمونه بالكلية انباء بينا كان قوله تعالى (بل الذين كفروا في عزة وشقاق) اضرابا عن ذلك كأنه قيل لاريب فيه قطعا وليس عدم اذعان الكفرة له لشائبة ريب ما فيه بل هم في استكبار وحمية شديدة وشقاق بعيد لله تعالى ولرسوله ولذلك لايذعنون له وقيل الجواب ما دل عليه الجملة الاضرابية أي ما كفر به من كفر لخلل وجده فيه بل الذين كفروا الخ وقرئ في غرة أي في غفلة عما يجب عليهم التنبه له من مبادي الايمان ودواعيه (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم ببيان ما أصاب من قبلهم من المستكبرين وكم مفعول أهلكنا ومن قرن تمييز والمعنى وقرنا كثيرا أهلكنا من القرون الخالية (فنادوا) عند نزول بأس أو حلول نقمة استغاثة وتوبة لينجوا من ذلك وقوله تعالى (ولات حين ﴿عليه﴾ مناص) حال من ضمير نادوا أي نادوا واستغاثوا طلبا للنجاة والحال أن ليس الحين حين مناص أي فوت ونجاة من ناصه أي فاته لا من ناص بمعنى تأخر ولا هي المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد كما زيدت على رب وثم وخصت بنفي الاحيان ولم يبرز الأحد معموليها والأكثر حذف اسمها وقيل هي النافية للجنس

على انه اسمها أى ولا حين مناص لهم او بفعل مضمر أى ولا أرى حين مناص وقرئ بالرفع فهو على الاول اسمها والخبر محذوف أى وليس حين مناص حاصلا لهم وعلى الثانى مبتدأ محذوف الخبر أى ولا حين مناص كائن لهم وقرئ بالكسر كما فى قوله * طلبوا صلحنا ولات أوان * فأجبنا أن لات حين بقاء * امالان لات تجر الاحيان كما أن لولا تجر الضمائر فى نحو قوله * لولاك هذا العام لم أحجج * أولان أوان شبه باذ فى قوله * نهيتك عن طلابك أم عمرو * بعافية وأنت اذ صحيح * فى أنه زمان قطع منه المضاف اليه وعوض التنوين لان أصله أوان صلح ثم حمل عليه حين مناص تنزيلا لقطع المضاف اليه من مناص اذ أصله حين مناصهم منزلة قطعه من حين لما بين المضافين من الاتحاد ثم بنى الحين لاضافته الى غير متمكن وقرئ لات بالكسر كجير ويقف الكوفيون عليها بالهاء كالاسماء والبصريون بالتاء كالافعال وما قيل من أن التاء مزيدة على حين لاتصالها به فى الامام مما لا وجه له فان خط المصحف خارج عن القياس (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) حكاية لاباطيلهم المتفرعة على ما حكى من استكبارهم وشقاقهم أى عجبوا من أن جاءهم رسول من جنسهم بل ادون منهم فى الرياسة الدنيوية والمال على معنى أنهم عدوا ذلك أمرا عجيبا خارجا عن احتمال الوقوع وأنكروه أشد الانكار لا أنهم اعتقدوا وقوعه وتعجبوا منه (وقال الكافرون) وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضبا عليهم وايذانا بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولونه الا المتوغلون فى الكفر وفى الفسوق (هذا ساحر) فيما يظهره من الخوارق (كذاب) فيما يسنده الى الله تعالى من الارسال والانزال (أجعل الآلهة الها واحدا) بان نفى الالوهية عنهم وقصرها على واحد (ان هذا الشئ عجاب) بليغ فى العجب وذلك لانه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على ألوهيتهم وواظبوا على عبادتهم كابرا عن كابر فان مدار كل ما يأتون وما يذرون من أمور دينهم هو

عليه السلام يدعى فى هذه السورة كونها معجزة كان قوله هذه ص جاريا مجرى قوله هذه هى السورة المعجزة ونظيره قولك هذا حاتم والله أى هذا هو المشهور بالسخاء (والجواب) عن السؤال الثانى أن الحكم المذكور قبل كلمة بل كون محمد صادقا فى تبليغ الرسالة أو كون القرآن أو هذه السورة معجزة والحكم المذكور بعد كلمة بل ههنا هو المنازعة والمشاقة فى كونه كذلك فحصل المطلوب والله أعلم (المسئلة الثانية) قرأ الحسن صاد بكسر الدال لاجل التقاء الساكنين وقرأ عيسى بن عمر بنصب صاد ونون وبحذف حرف القسم وايصال فعله كقولهم الله لافعلن وأكثر القراء على الجزم لان الاسماء العارية عن العوامل تذكر موقوفة الاواخر (المسئلة الثالثة) فى قوله ذى الذكر وجهان (الاول) المراد ذى الشرف قال تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقال تعالى لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم ومجازه من قولهم لفلان ذكر فى الناس كما يقولون له صيت (الثانى) ذى البيان أى فيه قصص الاولين والآخرين وفيه بيان العلوم الاصلية والفرعية ومجازه من قوله ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة القرآن ذى الذكر والذكر محدث (بيان الاول) قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وهذا ذكر مبارك والقرآن ذى الذكر ان هو الا ذكر وقرآن مبين (بيان الثانى) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث (والجواب) انا نصرف دليلكم الى الحروف والاصوات وهى محدثة اما قوله بل الذين كفروا فالمراد منه الكفار من رؤساء قريش الذين يجوز على مثلهم الاجماع على الحسد والتكبر عن الانقياد الى الحق والعزة ههنا التعظيم وما يعتقده الانسان فى نفسه من الاحوال التى تمنعه من متابعة الغير لقوله تعالى واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم والشقاق هو اظهار المخالفة على جهة المساواة للمخالف أو على جهة الفضيلة عليه وهو مأخوذ من الشق كأنه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه فى شق وخصمه فى شق فيريد أن يكون فى شق نفسه ولا يجرى عليه حكم خصمه ومثله المحاداة وهو أن يكون أحدهما فى عدوة والآخر فى عدوة وهى جانب الوادى وكذلك المعاداة أن يكون هذا فى حد غير حد الآخر ويقال انحرف فلان عن فلان وجانب فلان فلانا أى صار منه على حرف وفى جانب غير جانبه والله أعلم ثم انه تعالى لما وصفهم بالعزة والشقاق خوفهم فقال كم أهلكنا قبلهم من قرن فنادوا والمعنى انهم نادوا عند نزول العذاب فى الدنيا ولم يذكر باى شئ نادوا وفيه وجوه (الاول) وهو الاظهر أنهم نادوا بالاستغاثة لان نداء من نزل به العذاب ليس الا بالاستغاثة (الثانى) نادوا بالايمان والتوبة عند معاينة العذاب (الثالث) نادوا أى رفعوا أصواتهم يقال فلان اندى صوتا من فلان أى ارفع صوتا ثم قال ولات حين مناص يعنى ولم يكن ذلك الوقت وقت فرار من العذاب وهو كقوله فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا وقال حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون والجؤار رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة وكقوله آلآن وقد عصيت قبل وقوله فلم يك ينفعهم

ايمانهم لما رأوا بأسنا بقي ههنا ابحاث (البحث الاول) في تحقيق الكلام في لفظ لات زعم الخليل وسيبويه ان لات هي لا المشبهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على رب وثم للتأكيد وبسبب هذه الزيادة حدثت لها أحكام جديدة منها انها لا تدخل الا على الاحيان ومنها ان لا يبرز الا أحد جزئيها اما الاسم واما الخبر ويمتنع بروزهما جميعا وقال الاخفش انها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء وخصت بنفي الاحيان وحين مناص منصوب بها كأنك قلت ولات حين مناص لهم ويرتفع بالابتداء أي ولات حين مناص كائن لهم (البحث الثاني) الجمهور يقفون على التاء من قوله ولات والكسائي يقف عليها بالهاء كما يقف على الاسماء المؤنثة قال صاحب الكشاف واما قول أبي عبيدة التاء داخلة على الحين فلا وجه له واستشهاده بأن التاء ملتزقة بحين في مصحف عثمان فضعيف فكم وقعت في المصحف أشياء خارجة عن قياس الخط (البحث الثالث) المناص المنجا والفوت يقال ناصه ينوصه اذا أغاثه واستناص طلب المناص والله أعلم * قوله تعالى (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق) اعلم انه تعالى لما حكى عن الكفار كونهم في عزة وشقاق أردفه بشرح كلماتهم الفاسدة فقال وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وفي قوله منهم وجهان (الاول) انهم قالوا ان محمدا مساو لنا في الخلقة الظاهرة والاخلاق الباطنة والنسب والشكل والصورة فكيف يعقل أن يختص من بيننا بهذا المنصب العالي والدرجات الرفيعة (والثاني) أن الغرض من هذه الكلمة التنبيه على كمال جهالتهم وذلك لانه جاءهم رجل يدعوهم الى التوحيد وتعظيم الملائكة والترغيب في الآخرة والتنفير عن الدنيا ثم ان هذا الرجل من أقاربهم يعلمون أنه كان بعيدا من الكذب والتهمة وكل ذلك مما يوجب الاعتراف بتصديقه ثم ان هؤلاء الاقوام لحماقتهم يتعجبون من قوله ونظيره قوله أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون فقال وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ومعناه ان محمدا كان من رهطهم وعشيرتهم وكان مساويا لهم في الاسباب الدنيوية فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته ومن الانقياد لتكاليفه وعجبوا أن يختص هو من بينهم برسالة الله وان يتميز عنهم بهذه الخاصية الشريفة وبالجملة فما كان لهذا التعجب سبب الا الحسد ثم قال تعالى وقال الكافرون هذا ساحر كذاب وانما لم يقل وقالوا بل قال وقال الكافرون اظهارا للتعجب ودلالة على ان هذا القول لا يصدر الا عن الكفر التام فان الساحر هو الذي يمنع من طاعة الله ويدعو الى طاعة الشيطان وهو عندكم بالعكس من ذلك والكذاب هو الذي يخبر عن الشيء لا على ما هو عليه وهو يخبر عن وجود الصانع القديم الحكيم العليم وعن الحشر والنشر وسائر الاشياء التي تثبت بدلائل العقول صحتها فكيف يكون كذابا ثم انه تعالى حكى جميع ما عولوا عليه في اثبات كونه كاذبا وهي ثلاثة أشياء ﴿ احدها ﴾

التقليد والاعتياد فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجيبا بل محالا وأما جعل مدار تعجبهم عدم وفاء علم الواحد وقدرته بالاشياء الكثيرة فلا وجه له لانهم لا يدعون أن لآلهتهم علما وقدرة ومدخلا في حدوث شيء من الاشياء حتى يلزم من نفي ألوهيتهم بقاء الآثار بلا مؤثر وقرئ عجاب بالتشديد وهو أبلغ ككرام وكرام روى أنه لما أسلم عمر رضي الله عنه شق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم فأتوا أبا طالب فقالوا أنت شيخنا وكبيرنا ﴿١٧٤﴾ وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء وقد جئناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال صلى الله عليه وسلم ماذا تسألونني قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك والهك فقال صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان أعطيتكم ما سألتم أمعطي أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم قالوا نعم وعشرا فقال قولوا لا اله الا الله فقاموا وقالوا ذلك (وانطلق الملأ منهم) أي وانطلق الاشراف من قريش عن مجلس أبي طالب بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد وشاهدوا تصلبه عليه الصلاة والسلام في الدين وعزيمته على أن يظهره على الدين كله ويئسوا مما كانوا يرجونه بتوسط أبي طالب من المصالحة على الوجه المذكور (أن امشوا) أي قائلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا (واصبروا على آلهتكم) أي واثبتوا على عبادتها متحملين لما تسمعونه في حقها من القدح وأن هي المفسرة لان الانطلاق عن مجلس التقاول لا يخلو عن القول وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع في القول وامشوا من مشت المرأة اذا كثرت ولادتها ومنه الماشية للتفاؤل أي اجتمعوا واكثروا وقرئ امشوا بغير أن على اضمار القول وقرئ يمشون أن اصبروا (ان هذا الشيء يراد) تعليل للامر بالصبر او لوجوب الامتثال به أي هذا الذي شاهدناه من محمد صلى الله عليه وسلم من أمر التوحيد ونفي آلهتنا وابطال أمرها لشيء يراد أي

من جهته عليه الصلاة والسلام امضاؤه وتنفيذه لامحالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لاقول يقال من طرف اللسان أو أمر يرجى فيه المسامحة بشفاعة أو امتنان فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله من رأيه بوساطة أبى طالب وشفاعته وحسبكم أن لاتمنعوا من عبادة آلهتكم بالكلية فاصبروا عليها وتحملوا ماتسمعونه فى حقها من القدح وسوء القالة وقيل ان هذا الامر لشئ يريده الله تعالى ويحكم بامضائه وما أراد الله كونه فلا مرد له ولا ينفع فيه الا الصبر وقيل ان هذا الامر لشئ من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه وقيل ان دينكم لشئ يراد اى يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه وقيل ان هذا الذى يدعيه من التوحيد او يقصده من الرياسة والترفع على العرب والعجم لشئ يتمنى ويريده كل أحد فتأمل فى هذه الاقاويل واختر منها مايساعده النظم الجليل (ماسمعنا بهذا) الذى يقوله (فى الملة الآخرة) أى الملة النصرانية التى هى آخر الملل فانهم مثلثة أو فى الملة التى ادركنا عليها آباءنا ويجوز أن يكون الجار والمجرور حالا من هذا أى ماسمعنا بهذا من أهل الكتاب ولا الكهان كائنا فى الملة المترقبة ولقد كذبوا فى ذلك اقبح كذب فان حديث البعثة والتوحيد كان أشهر الامور قبل الظهور (ان هذا) اى ماهذا (الا اختلاق) أى كذب اختلقه (أأنزل عليه الذكر) أى القرآن (من بيننا) ونحن رؤساء الناس وأشرافهم كقولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ومرادهم انكار كونه ذكرا منزلا من عند الله عز وجل كقولهم لوكان خيرا ماسبقونا اليه وامثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس الا الحسد وقصر النظر على الحطام الدنيوى (بل هم فى شك من ذكرى) اى من القرآن أو الوحى لميلهم الى التقليد واعراضهم عن النظر فى الادلة المؤدية الى العلم بحقيته وليس فى عقيدتهم مايثبتون به فهم مذبذبون بين الاوهام ينسبونه تارة الى السحر وأخرى الى الاختلاق (بل لما يذوقوا عذاب) أى بل لم يذوقوا بعد عذابى فاذا ذاقوه تبين لهم حقيقة

(أحدها) مايتعلق بالالهيات (وثانيها) مايتعلق بالنبوات (وثالثها) مايتعلق بالمعاد اما الشبهة المتعلقة بالالهيات فهى قولهم اجعل الآلهة الها واحدا ان هذا الشئ عجاب روى انه لما أسلم عمر فرح به المسلمون فرحا شديدا وشق ذلك على قريش فاجتمع خمسة وعشرون نفسا من صناديدهم ومشوا الى أبى طالب وقالوا أنت شيخنا وكبيرنا وقد علمت مافعل هؤلاء السفهاء يعنون المسلمين فجئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك فاستحضر أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السؤال فلا تمل كل الميل على قومك فقال صلى الله عليه وسلم ماذا يسألوننى قالوا ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا وندعك والهك فقال صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان أعطيتكم ماسألتم أتعطونى أنتم كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم العجم قالوا نعم قال تقولوا لا اله الا الله فقاموا وقالوا أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا الشئ عجاب أى بليغ فى التعجب وأقول منشأ التعجب من وجهين (الاول) هو ان القوم ما كانوا من أصحاب النظر والاستدلال بل كانت أوهامهم تابعة للمحسوسات فلما وجدوا فى الشاهد أن الفاعل الواحد لاتفى قدرته وعلمه بحفظ الخلق العظيم قاسوا الغائب على الشاهد فقالوا لابد فى حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفل كل واحد منهم بحفظ نوع آخر (والوجه الثانى) ان أسلافهم لكثرتهم وقوة عقولهم كانوا مطبقين على الشرك فقالوا من العجيب أن يكون أولئك الاقوام على كثرتهم وقوة عقولهم كانوا جاهلين مبطلين وهذا الانسان الواحد يكون محقا صادقا وأقول لعمرى لو سلمنا اجراء حكم الشاهد على الغائب من غير دليل وحجة لكانت الشبهة الاولى لازمة ولما توافقنا على فسادها علمنا أن اجراء حكم الشاهد على الغائب فاسد قطعا واذا بطلت هذه القاعدة فقد بطل أصل كلام المشبهة فى الذات وكلام المشبهة فى الافعال اما المشبهة فى الذات فهو أنهم يقولون لما كان كل موجود فى الشاهد يجب أن يكون جسما ومختصا بحيز وجب فى الغائب أن يكون كذلك واما المشبهة فى الافعال فهم المعتزلة الذين يقولون ان الامر الفلانى قبيح منا فوجب أن يكون قبيحا من الله فثبت بما ذكرنا انه ان صح كلام هؤلاء المشبهة فى الذات وفى الافعال لزم القطع بصحة شبهة هؤلاء المشركين وحيث توافقنا على فسادها علمنا أن عمدة كلام المجسمة وكلام المعتزلة باطل فاسد واما الشبهة الثانية فلعمرى لو كان التقليد حقا لكانت هذه الشبهة لازمة وحيث كانت فاسدة علمنا أن التقليد باطل بقى ههنا ابحاث (البحث الاول) أن العجاب هو العجيب الا انه أبلغ من العجيب كقولهم طويل وطوال وعريض وعراض وكبير وكبار وقد يشدد للمبالغة كقوله تعالى ومكروا مكرا كبارا (الثانى) قال صاحب الكشاف قرئ عجاب بالتخفيف والتشديد فقال والتشديد أبلغ من التخفيف كقوله تعالى مكرا كبارا ثم قال تعالى وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم قد ذكرنا أن الملأ عبارة عن القوم الذين اذا حضروا فى المجلس فانه تمتلئ القلوب والعيون من مهابتهم

الحال وفى لما دلالة على أن ذوقهم على شرف الوقوع والمعنى انهم لايصدقون به حتى يمسهم العذاب وقيل لم يذوقوا عذابى الموعود فى القرآن ولذلك شكوا فيه (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) بل أعندهم خزائن رحمته تعالى يتصرفون فيها حسبما يشاؤن حتى يصيبوا بها من شاؤا ويصرفوها عمن شاؤا ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم فيتخيروا للنبوة بعض صناديدهم والمعنى أن النبوة عطية من الله عزوجل يتفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين لامانع له فانه العزيز أى الغالب الذى لايغالب الوهاب الذى له ان يهب كل مايشاء وفى اضافة اسم الرب المنبئ عن التربية والتبليغ الى الكمال الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه واللطف به مالا يخفى وقوله تعالى (أم لهم ملك السموات والارض وما بينهما) ترشيح لماسبق أى بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتكلموا فى الامور الربانية ويتحكموا فى التدابير الالهية التى يستأثر بها رب العزة والكبرياء وقوله تعالى (فليرتقوا فى الاسباب) جواب شرط محذوف أى ان كان لهم ما ذكر من الملك فليصعدوا فى المعارج والمناهج التى يتوصل بها الى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم وينزلوا الوحى الى من يختارون ويستصوبون وفيه من التهكم بهم مالا غاية وراءه والسبب فى الاصل هو الوصلة وقيل المراد بالاسباب السموات لانها أسباب الحوادث السفلية وقيل أبوابها (جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب) أى هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرسل مهزوم مكسور عما قريب فلا تبال ﴿ وهى ﴾ بما يقولون ولا تكترث بما يهددون وما مزيدة للتقليل والتحقير نحو قولك أكلت شيأ ما وقيل للتعظيم على الهزء وهنالك إشارة الى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم

وعظمتهم وقوله منهم أى من قريش انطلقوا عن مجلس أبى طالب بعد ما بكتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجواب العتيد قائلين بعضهم لبعض أن امشوا واصبروا على آلهتكم وفيه مباحث (البحث الاول) القراءة المشهورة أن امشوا وقرأ ابن أبى عبلة امشوا بحذف أن قال صاحب الكشاف أن بمعنى أى لان المنطلقين عن مجلس التقاول لابد لهم من أن يتكلموا ويتفاوضوا فيما جرى فى المجلس المتقدم فكان انطلاقهم مضمنا معنى القول وعن ابن عباس وانطلق الملأ منهم يمشون (البحث الثانى) معنى أن امشوا أنه قال بعضهم لبعض امشوا واصبروا فلا حيلة لكم فى دفع أمر محمد ان هذا لشئ يراد وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ظهور دين محمد صلى الله عليه وسلم ليس له سبب ظاهر فثبت أن تزايد ظهوره ليس الا لان الله يريده وما أراد الله كونه فلا دافع له (وثانيها) ان الامر كشئ من نوائب الدهر فلا انفكاك لنا منه (وثالثها) ان دينكم لشئ يراد اى يطلب ليؤخذ منكم قال القفال هذه كلمة تذكر للتهديد والتخويف وكأن معناها انه ليس غرض محمد من هذا القول تقرير الدين وانما غرضه أن يستولى علينا فيحكم فى أموالنا وأولادنا بما يريد ثم قال ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة والملة الآخرة هى ملة النصارى فقالوا ان هذا التوحيد الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم ماسمعناه فى دين النصارى أو يكون المراد بالملة الآخرة ملة قريش التى أدركوا آباءهم عليها ثم قالوا ما هذا الا اختلاق افتعال وكذب وحاصل الكلام من هذا الوجه انهم قالوا نحن ماسمعنا عن اسلافنا القول بالتوحيد فوجب أن يكون باطلا ولو كان القول بالتقليد حقا لكان كلام هؤلاء المشركين حقا وحيث كان باطلا علمنا أن القول بالتقليد باطل * قوله تعالى (أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب أم لهم ملك السموات والارض وما بينهما فليرتقوا فى الاسباب جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب) اعلم أن هذا هو الشبهة الثالثة لأولئك الكفار وهى الشبهة المتعلقة بالنبوات وهى قولهم ان محمدا لما كان مساويا لغيره فى الذات والصفات والخلقة الظاهرة والاخلاق الباطنة فكيف يعقل أن يختص هو بهذه الدرجة العالية والمنزلة الشريفة وهو المراد من قولهم أأنزل عليه الذكر من بيننا فانه استفهام على سبيل الانكار وحكى الله تعالى عن قوم صالح انهم قالوا مثل هذا القول فقالوا أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر وحكى الله تعالى عن قوم محمد صلى الله عليه وسلم ايضا انهم قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وتمام الكلام فى تقرير هذه الشبهة ان قالوا النبوة أشرف المراتب فوجب أن لاتحصل الا لاشرف الناس ومحمد ليس اشرف الناس فوجب أن لاتحصل له النبوة والمقدمتان الاوليان حقيتان لكن الثالثة كاذبة وسبب رواج هذا التغليط عليهم أنهم ظنوا ان الشرف لايحصل الا بالمال والاعوان وذلك باطل فان مراتب السعادة ثلاثة أعلاها هى النفسانية وأوسطها هى البدنية وأدونها هى الخارجية

وهي المال والجاه فالقوم عكسوا القضية وظنوا باخس المراتب أشرفها فلما وجدوا المال والجاه عند غيره أكثر ظنوا ان غيره أشرف منه فحينئذ انعقد هذا القياس الفاسد في أفكارهم ثم انه تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجوه (الاول) قوله تعالى بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب وفيه وجهان (أحدهما) أن قوله بل هم في شك من ذكري أي من الدلائل التي لو نظروا فيها لزال هذا الشك عنهم وذلك لان كل ما ذكروه من الشبهات فهي كلمات ضعيفة وأما الدلائل التي تدل بنفسها على صحة نبوته فهي دلائل قاطعة فلو تأملوا حق التأمل في الكلام لوقفوا على ضعف الشبهات التي تمسكوا بها في ابطال النبوة ولعرفوا صحة الدلائل الدالة على صحة نبوته فحيث لم يعرفوا ذلك كان لاجل أنهم تركوا النظر والاستدلال فاما قوله تعالى بل لما يذوقوا عذاب فوقعه من هذا الكلام انه تعالى يقول هؤلاء انما تركوا النظر والاستدلال لاني لم اذقهم عذابي ولو ذاقوه لم يقع منهم الا الاقبال على أداء المأمورات والانتهاء عن المنهيات (وثانيهما) أن يكون المراد من قوله بل هم في شك من ذكري هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم من عذاب الله لو أصروا على الكفر ثم أنهم أصروا على الكفر ولم ينزل عليهم العذاب فصار ذلك سببا لشكهم في صدقه وقالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فقال بل هم في شك من ذكري معناه ما ذكرناه وقوله تعالى بل لما يذوقوا عذاب معناه ان ذلك الشك انما حصل بسبب عدم نزول العذاب (والوجه الثاني) من الوجوه التي ذكرها الله تعالى في الجواب عن تلك الشبهة قوله تعالى أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب وتقرير هذا الجواب أن منصب النبوة منصب عظيم ودرجة عالية والقادر على هبتها يجب أن يكون عزيزا أي كامل القدرة ووهابا أي عظيم الجود وذلك هو الله سبحانه وتعالى واذا كان هو تعالى كامل القدرة وكامل الجود لم يتوقف كونه واهبا لهذه النعمة على كون الموهوب منه غنيا أو فقيرا ولم يختلف ذلك أيضا بسبب أن أعداءه يحبونه أو يكرهونه (والوجه الثالث) في الجواب عن هذه الشبهة قوله تعالى أم لهم ملك السموات والارض وما بينهما فليرتقوا في الاسباب واعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الكلام مغايرا للمراد من قوله أم عندهم خزائن رحمة ربك والفرق أن خزائن الله تعالى غير متناهية كما قال وان من شئ الا عندنا خزائنه ومن جملة تلك الخزائن هو هذه السموات والارض فلما ذكر الخزائن أولا على عمومها أردفها بذكر ملك السموات والارض وما بينهما يعني ان هذه الاشياء أحد أنواع خزائن الله فاذا كنتم عاجزين عن هذا القسم فبأن تكونوا عاجزين عن كل خزائن الله كان أولى فهذا ما أمكنني ذكره في الفرق بين الكلامين أما قوله تعالى فليرتقوا في الاسباب فالمعنى انهم ان ادعوا ان لهم ملك السموات والارض فعند هذا يقال لهم ارتقوا في الاسباب واصعدوا في المعارج التي يتوصل بها الى العرش حتى يرتقوا عليه ويدبروا أمر العالم وملكوت الله وينزلوا الوحي

وقوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد) الخ استيناف مقرر لمضمون ما قبله ببيان أحوال العتاة الطغاة الذين هؤلاء جند ما من جنودهم مما فعلوا من التكذيب وفعل بهم من العقاب وذو الاوتاد معناه ذو الملك الثابت أصله من ثبات البيت المطنب بأوتاده فاستعير لثبات الملك ورسوخ السلطنة واستقامة الامر قال الاسود بن يعفر * ولقد غنوا فيها بانعم عيشة * في ظل ملك ثابت الاوتاد * أو ذو الجموع الكثيرة سموا ﴿١٧٧﴾ بذلك لان بعضهم يشد بعضا كالوتد يشد البناء وقيل نصب أربع سوار وكان يمد يدي المعذب ورجليه اليها ويضرب عليها أوتادا ويتركه حتى يموت وقيل كان يمده بين أربعة أوتاد في الارض ويرسل عليه العقارب والحيات وقيل كانت له أوتاد وحبال يلعب بها بين يديه (وثمود وقوم لوط وأصحاب الايكة) أصحاب الغيضة من قوم شعيب عليه السلام وقوله تعالى (أولئك الاحزاب) اما بدل من الطوائف المذكورة كما أن ذلك الكتاب بدل من الم على أحد الوجوه وفيه فضل تأكيد وتنبيه على أنهم الذين جعل الجند المهزوم منهم وقوله تعالى (ان كل الا كذب الرسل) استئناف جيء به تقريرا لتكذيبهم وبيانا لكيفيته وتمهيدا لما يعقبه أي ما كل أحد من آحاد أولئك الاحزاب أو ما كل حزب منهم الا كذب الرسل لان تكذيب واحد منهم تكذيب لهم جميعا لاتفاق الكل على الحق وقيل ما كل حزب الا كذب رسوله على نهج الجمع بالجمع وأيا ما كان فالاستثناء مفرغ من أعم العام في خبر المبتدأ أي ما كل أحد منهم محكوما عليه بأنه كذب الرسل وقيل ما كل واحد منهم مخبرا عنه بخبر ﴿ ٢٢ ﴾ سا الا مخبرا عنه بانه كذب الرسل وفي اسناد التكذيب الى الطوائف المذكورة على وجه الابهام أولا والايذان بأن كلا منهم حزب على حياله تحزب على رسوله ثانيا وتبيين كيفية تكذيبهم بالجملة الاستثنائية ثالثا فنون من المبالغة مسجلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأفظعه ولذلك رتب عليه قوله تعالى

على من يختارون واعلم أن حكماء الاسلام استدلوا بقوله فليرتقوا فى الاسباب على ان الاجرام الفلكية وماأودع الله فيهامن القوى والخواص أسباب لحوادث العالم السفلى لان الله تعالى سمى الفلكيات أسبابا وذلك يدل على ماقلناه والله أعلم أما قوله تعالى جند ماهنالك مهزوم من الاحزاب ففيه مقامان من البحث (أحدهما) فى تفسير هذه الالفاظ (والثانى) فى كيفية تعلقها بماقبلها (أما المقام الاول) فقوله جند مبتدأ وما للابهام كقوله جئت لامر ما وعندى طعام ما ومن الاحزاب صفة لجند ومهزوم خبر المبتدا وأما قوله هنالك فيجوز أن يكون صفة لجند أى جند ثابت هنالك و يجوز أن يكون متعلقا بمهزوم معناه ان الجند من الاحزاب مهزوم هنالك أى فى ذلك الموضع الذى كانوا يذكرون فيه هذه الكلمات الطاعنة فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأما المقام الثانى) فهو انه تعالى لما قال ان كانوا يملكون السموات والارض فليرتقوا فى الاسباب ذكر عقيبه انهم جند من الاحزاب منهزمون مضعفون فكيف يكونون مالكى السموات والارض ومابينهما قال قتادة هنالك اشارة الى يوم بدر فأخبر الله تعالى بمكة أنه سيهزم جند المشركين فجاء تأويلها يوم بدر وقيل يوم الخندق والاصوب عندى حمله على يوم فتح مكة وذلك لان المعنى انهم جند سيصيرون منهزمين فى الموضع الذى ذكروا فيه هذه الكلمات وذلك الموضع هو مكة فوجب أن يكون المراد انهم سيصيرون منهزمين فى مكة وماذاك الا يوم الفتح والله أعلم ❊ قوله تعالى

(كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الايكة أولئك الاحزاب ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق) اعلم انه تعالى لما ذكر فى الجواب عن شبهة القوم أنهم انما توانوا وتكاسلوا فى النظر والاستدلال لاجل انهم لم ينزل بهم العذاب بين تعالى فى هذه الآيات أن أقوام سائر الانبياء هكذا كانوا ثم بالآخرة نزل ذلك العقاب والمقصود منه تخويف أولئك الكفار الذين كانوا يكذبون الرسول فى اخباره عن نزول العقاب عليهم فذكر الله ستة أصناف منهم أولهم قوم نوح عليه السلام ولما كذبوا نوحا أهلكهم الله بالغرق والطوفان (والثانى) عاد قوم هود لما كذبوه أهلكهم الله بالريح (والثالث) فرعون لما كذب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق (والرابع) ثمود قوم صالح لما كذبوه فأهلكوا بالصيحة (والخامس) قوم لوط كذبوه فأهلكوا بالخسف (والسادس) أصحاب الايكة وهم قوم شعيب كذبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلة قالوا وانما وصف الله فرعون بكونه ذا الاوتاد لوجوه (الاول) ان أصل هذه الكلمة من ثبات البيت المطنب بأوتاده ثم استعير لاثبات العز والملك قال الشاعر

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة * فى ظل ملك ثابت الاوتاد

قال القاضى حمل الكلام على هذا الوجه أولى لانه لما وصف بتكذيب الرسل فيجب فيما وصف به ان يكون تفخيما لامر ملكه ليكون الزجر بما ورد من قبل الله تعالى عليه من الهلاك مع قوة أمره أبلغ (والثانى) انه كان ينصب الخشب فى الهواء وكان يمد يدى

ووقع على كل منهم عقابى الذى كانت توجبه جناياتهم من أصناف العقوبات المفصلة فى مواقعها واما مبتدأ وقوله تعالى ان كل الا كذب الرسل خبره بحذف العائد أى ان كل منهم الخ والجملة استئناف مقرر لماقبله مؤكد لمضمونه مع مافيه من بيان كيفية تكذيبهم والتنبيه على أنهم الذين جعل الجند المهزوم منهم كما ذكر وقيل هو مبتدأ وخبر والمعنى ان الاحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم وأنهم الذين وجد منهم التكذيب ﴿ ١٧٨ ﴾ فقدروا أما ماقيل من أنه خبر والمبتدأ قوله تعالى وعاد الخ أو قوله وقوم لوط الخ فمما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن أمثاله (وما ينظر هؤلاء) شروع فى بيان عقاب كفار مكة اثر بيان عقاب أضرابهم من الاحزاب الذين أخبر فيماسبق بأنهم جند حقير منهم مهزوم عن قريب فان ذلك مما يوجب انتظار السامع وترقبه الى بيانه قطعا وفى الاشارة اليهم بهؤلاء تحقير لشأنهم وتهوين لامرهم وأما جعله اشارة الى الاحزاب باعتبار حضورهم بحسب الذكر أو حضورهم فى علم الله عز وجل فليس فى حيز الاحتمال أصلا كيف لا والانتظار سواء كان حقيقة أو استهزاء انما يتصور فى حق من لم يترتب على أعماله نتيجها بعد و بعد مابين عقاب الاحزاب واستئصالهم بالمرة لم يبق مما أريد بيانه من عقوباتهم أمر منتظر وانما الذين فى مرصد الانتظار كفار مكة حيث ارتكبوا من عظائم الجرائم وكبائر الجرائر الموجبة لاشد العقوبات مثل ما ارتكب الاحزاب أو أشد منه ولما يلاقوا بعد شيئا من غوائلها أى وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة فى الكفر والتكذيب (الا صيحة واحدة) هى النفخة الثانية لا بمعنى أن عقابهم ﴿المعذب﴾ نفسها بما فيها من الشدة والهول فانها داهية يعم هولها جميع الامم برها وفاجرها بل بمعنى أنه ليس بينهم و بين حلول ما أعدلهم من العقاب الفظيع الاهى حيث أخرت عقوبتهم الى الآخرة لما أن تعذيبهم بالاستئصال حسبما يستحقونه والنبى عليه الصلاة

وأما ماقيل من أنها النفخة الاولى فمما لاوجه له اصلا لما أنه لايشاهد هولها ولايصعق بها الامن كان حيا عند وقوعها وليس عذابهم الموعود واقعا عقيبها ولا العذاب المطلق مؤخرا اليها بل يحل بهم من حين موتهم (مالها من فواق) أى من توقف مقدار فواق وهو مابين الحلبتين وقرئ بضم الفاء وهما لغتان وقوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) حكاية لما قالوه عند سماعهم بتأخير عقابهم الى الآخرة أى قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية به عجل لنا قطنا من العذاب الذى توعدنا به ولاتؤخره الى يوم الحساب الذى مبدؤه الصيحة المذكورة والقط القطعة من الشئ من قطه اذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط لانها قطعة من القرطاس وقد فسر بها أى عجل لنا صحيفة أعمالنا ننظر فيها وقيل ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد الله تعالى المؤمنين الجنة فقالوا على سبيل الهزؤ به عجل لنا نصيبنا منها وتصدير دعائهم بالنداء المذكور للامعان فى الاستهزاء كأنهم يدعون ذلك بكمال الرغبة والابتهال (اصبر على مايقولون) من أمثال هذه المقالات الباطلة (واذكر لهم (عبدنا داود) أى قصته تهويلا للامر المعصية فى أعينهم وتنبيها لهم على كمال قبح ما اجترؤا عليه من المعاصى فانه عليه الصلاة والسلام مع علو شأنه واختصاصه بعظائم النعم والكرامات لما ألم بصغيرة نزل عن منزلته ووبخته الملائكة بالتمثيل والتعريض حتى تفطن فاستغفر ربه وأناب ووجد منه مايحكى من بكائه الدائب وغمه الواصب وندمه الدائم فما الظن بهؤلاء الكفرة الاذلين من كل ذليل المرتكبين لأكبر الكبائر المصرين على أعظم المعاصى أو تذكر قصته عليه الصلاة والسلام وصن نفسك أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحمل أذيتهم كى لايلقاك مالقيه من المعاتبة (ذا الايد) أى ذا القوة يقال فلان ايد وذو ايد وآد بمعنى وأياد كل شئ ما يتقوى به (انه أواب) رجاع الى مرضاة الله تعالى وهو تعليل لكونه ذا الايد ودليل على ان

المعذب ورجليه الى تلك الخشب الاربع و يضرب على كل واحد من هذه الاعضاء وتدا و يتركه معلقا فى الهواء الى أن يموت (والثالث) انه كان يمد المعذب بين أربعة أوتاد فى الارض و يرسل عليه العقارب والحيات (والرابع) قال قتادة كانت أوتادا وارسانا وملاعب يلعب بها عنده (والخامس) ان عساكره كانوا كثيرين وكانوا كثيرى الاهبة عظيمى النعم وكانوا يكثرون من الاوتاد لاجل الخيام فعرف بها (والسادس) ذو الاوتاد والجموع الكثيرة وسميت الجموع أوتادا لانهم يقوون أمره و يشدون مملكته كما يقوى الوتد البناء وأما الايكة فهى الغيضة الملتفة ثم قال تعالى أولئك الاحزاب وفيه أقوال (الاول) ان هؤلاء الذين ذكرناهم من الامم هم الذين تحزبوا على أنبيائهم وأهلكناهم فكذلك نفعل بقومك لانه تعالى بين بقوله جند ماهنالك مهزوم من الاحزاب ان قوم محمد صلى الله عليه وسلم جند من الاحزاب أى من جنس الاحزاب المتقدمين فلما ذكر انه عامل الاحزاب المتقدمين بالاهلاك كان ذلك تخويفا شديدا لقوم محمد صلى الله عليه وسلم (الثانى) ان معنى قوله أولئك الاحزاب مبالغة لوصفهم بالقوة والكثرة كما يقال فلان هو الرجل والمعنى ان حال أولئك الاحزاب مع كمال قوتهم لما كان هو الهلاك والبوار فكيف حال هؤلاء الضعفاء المساكين واعلم أن هؤلاء الاقوام ان صدقوا بهذه الاخبار فهو تحذير وان لم يصدقوا بها فهو تحذير أيضا لان آثار هذه الوقائع باقية وهو يفيد الظن القوى فيحذرون ولان ذكر ذلك على سبيل التكرير يوجب الحذر أيضا ثم قال ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب أى كل هذه الطوائف لما كذبوا أنبياءهم فى الترغيب والترهيب لاجرم نزل العقاب عليهم وان كان ذلك بعد حين والمقصود منه زجر السامعين ثم بين تعالى ان هؤلاء المكذبين وان تأخر هلاكهم فكأنه واقع بهم فقال وماينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق وفى تفسير هذه الصيحة قولان (الاول) أن يكون المراد عذابا يفجأهم و يجيئهم دفعة واحدة كما يقال صاح الزمان بهم اذا هلكوا قال الشاعر

صاح الزمان بآل برمك صيحة * خروا لشدتها على الاذقان

و يشبه أن يكون أصل ذلك من الغارة اذا عافصت القوم فوقعت الصيحة فيهم ونظيره قوله تعالى فهل ينتظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم الآية (والقول الثانى) ان هذه الصيحة هى صيحة النفخة الاولى فى الصور كما قال تعالى فى سورة يس ماينظرون الا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون والمعنى انهم وان لم يذوقوا عذابى فى الدنيا فهو معد لهم يوم القيامة فكأنهم بذلك العذاب وقد جاءهم فجعلهم منتظرين لها على معنى قربها منهم كالرجل الذى ينتظر الشئ فهو ماد الطرف اليه يطمع كل ساعة فى حضوره ثم انه سبحانه وصف هذه الصيحة فقال مالها من فواق قرأ حمزة والكسائى فواق بضم الفاء والباقون بفتحها قال الكسائى والفراء وأبو عبيدة والاخفش هما لغتان من فواق الناقة وهو مابين حلبتى الناقة وأصله من الرجوع يقال أفاق من مرضه أى رجع الى الصحة فالزمان

مسوق لتقليل قوته فى الدين وأوابيته الى مرضاته تعالى ومع متعلقة بالتسخير وايثارها على اللام لما أشير اليه فى سورة الانبياء من أن تسخير الجبال له عليه الصلاة والسلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلى فيها اليه عليه الصلاة والسلام كتسخير الريح وغيرها لسليمان عليه السلام بل بطريق التبعية له عليه الصلاة والسلام والاقتداء به فى عبادة الله تعالى وقيل متعلقة بما بعدها وهو أقرب بالنسبة الى ما فى سورة الانبياء عليهم الصلاة ﴿ ١٨٠ ﴾ والسلام (يسبحن) أى يقدسن الله عزوجل بصوت يتمثل له أو يخلق الله تعالى فيها الكلام أو بلسان الحال وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال ووضع موضع مسبحات للدلالة على تجدد التسبيح حالا بعد حال أو استئناف مبين لكيفية التسخير (بالعشى والاشراق) اى ووقت الاشراق وهو حين تشرق الشمس أى تضىء ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى وأما شروقها فطلوعها يقال شرقت الشمس ولما تشرق وعن أم هانئ رضى الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاة الضحى وقال هذه صلاة الاشراق وعن ابن عباس رضى الله عنهما ما عرفت صلاة الضحى الا بهذه الآية (والطير) عطف على الجبال (محشورة) حال من الطير والعامل سخرنا الطير حال كونها محشورة عن ابن عباس رضى الله عنهما كان اذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت اليه الطير فسبحت وذلك حشرها وقرئ والطير محشورة بالرفع على الابتداء والخبرية (كل له أواب) استئناف مقرر لمضمون ما قبله مصرح بما فهم منه اجمالا من تسبيح الطير أى كل واحد من الجبال والطير لاجل تسبيحه رجاع الى التسبيح ووضع الاواب موضع المسبح اما لانها كانت ترجع التسبيح والمرجع رجاع لانه ﴿ ذلك ﴾ يرجع الى فعله رجوعا بعد رجوع وأما لان الاواب هو التواب الكثير الرجوع الى الله تعالى ومن دأبه اكثار الذكر وادامة التسبيح والتقديس وقيل الضمير لله عزوجل أى كل من داود والجبال والطير لله أواب أى مسبح مرجع للتسبيح (وشددنا ملكه) قويناه بالهيبة والنصرة

الحاصل بين الحلبتين لعود اللبن الى الضرع يسمى فواقا بالفتح وبالضم كقولك قصاص الشعر وقصاصه قال الواحدى والفواق والفواق اسمان من الافاقة والافاقة معناها الرجوع والسكون كافاقة المريض الا أن الفواق بالفتح يجوز أن يقام مقام المصدر والفواق بالضم اسم لذلك الزمان الذى يعود فيه اللبن الى الضرع وروى الواحدى فى البسيط عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال فى هذه الآية يأمر الله اسرافيل فينفخ نفخة الفزع فيمدها ويطولها وهى التى يقول ما لها من فواق ثم قال الواحدى وهذا يحتمل معنيين (أحدهما) ما لها سكون (والثانى) ما لها رجوع والمعنى ما تسكن تلك الصيحة ولا ترجع الى السكون ويقال لكل من بقى على حالة واحدة انه لا يفيق منه ولا يستفيق والله أعلم * قوله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايد انه أواب) اعلم انا ذكرنا فى تفسير قوله وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أن القوم انما تعجبوا من الشبهات ثلاثة (أولها) تتعلق بالالهيات وهو قوله أجعل الآلهة الها واحدا (والثانية) تتعلق بالنبوات وهو قوله أأنزل عليه الذكر من بيننا (والثالثة) تتعلق بالمعاد وهو قوله تعالى وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وذلك لان القوم كانوا فى نهاية الانكار للقول بالحشر والنشر فكانوا يستدلون بفساد القول بالحشر والنشر على فساد نبوته والقط القطعة من الشئ لانه قطع منه من قطه اذا قطعه ويقال لصحيفة الجائزة قط ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد المؤمنين بالجنة قالوا على سبيل الاستهزاء عجل لنا نصيبنا من الجنة أو عجل لنا صحيفة أعمالنا حتى ننظر فيها واعلم أن الكفار لما بالغوا فى السفاهة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قالوا انه ساحر كذاب وقالوا له على سبيل الاستهزاء عجل لنا قطنا أمره الله بالصبر على سفاهتهم فقال اصبر على ما يقولون فان قيل أى تعلق بين قوله اصبر على ما يقولون وبين قوله واذكر عبدنا داود قلنا بيان هذا التعلق من وجوه (الاول) كأنه قيل ان كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جراءتهم على الله وانكارهم الحشر والنشر فاذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله تعالى ومن يوم الحشر فان بقدر ما يزداد أحد الضدين شرفا يزداد الضد الآخر نقصانا (والثانى) كأنه قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم لا يضيق صدرك بسبب انكارهم لقولك ودينك فانهم اذا خالفوك فالاكابر من الانبياء وافقوك (والثالث) ان للناس فى قصة داود قولين منهم من قال انها تدل على ذنبه ومنهم من قال انها لا تدل عليه (فمن قال بالاول) كان وجه المناسبة فيه كأنه قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم ان حزنك ليس الا لان الكفار يكذبونك وأما حزن داود فكان بسبب وقوعه فى ذلك الذنب ولاشك أن حزنه أشد فتأمل فى قصة داود وما كان فيه من الحزن العظيم حتى يخف عليك ما أنت فيه من الحزن (ومن قال بالثانى) قال الخصمان اللذان دخلا على داود كانا من البشر وانما دخلا عليه لقصد قتله فخاف منهما داود ومع

ألف مستلئم وقيل ادعى رجل على آخر بقرة وعجز عن اقامة البينة فأوحى الله تعالى اليه فى المنام أن اقتل المدعى عليه فتأخر فأعيد الوحى فى اليقظة فأعلمه الرجل فقال ان الله تعالى لم يأخذنى بهذا الذنب ولكن بانى قتلت أبا هذا غيلة فقال الناس ان اذنب أحد ذنبا أظهره الله تعالى عليه فقتله فهابوه وعظمت هيبته فى القلوب (وآتيناه الحكمة) النبوة وكمال العلم واتقان العمل وقيل الزبور وعلم الشرائع وقيل كل كلام وافق الحق ﴿ ١٨١ ﴾ فهو حكمة (وفصل الخطاب) أى فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل أو الكلام المخلص الذى ينبه المخاطب على المرام من غير التباس لما قدروعى فيه مظان الفصل والوصل والعطف والاستئناف والاظهار والاضمار والحذف والتكرار وانما سمى به أما بعد لانه يفصل المقصود عما سبق تمهيدا له كالحمد والصلاة وقيل هو الخطاب الفصل الذى ليس فيه ايجاز مخل ولا اطناب ممل كما جاء فى نعت كلام النبوة فصل لانزر ولا هذر (وهل أتاك نبأ الخصم) استفهام معناه التعجيب والتشويق الى استماع ما فى حيزه لايذانه بانه من الانباء البديعة التى حقها أن تشيع فيما بين كل حاضر وباد والخصم فى الاصل مصدر ولذلك يطلق على الواحد وما فوقه كالضيف ومعنى خصمان فريقان (اذ تسوروا المحراب) اذ تصعدوا سوره ونزلوا اليه والسور الحائط المرتفع ونظيره تسنمه اذا علا سنامه وتذراه اذا علا ذروته واذ متعلقة بمحذوف أى نبأ تحاكم الخصم اذ تسوروا أو بالنبأ على أن المراد به الواقع فى عهد داود عليه السلام وأن اسناد الاتيان اليه على حذف مضاف أى قصة نبأ الخصم أو بالخصم لما فيه من معنى الخصومة لا باتى لان اتيانه الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن حينئذ وقوله تعالى (اذ دخلوا على داود) بدل مما قبله أو ظرف لتسوروا (ففزع منهم) روى أنه تعالى بعث اليه ملكين فى صورة انسانين قيل هما جبريل وميكائيل عليهما السلام فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه فى يوم عبادته فمنعهما الحرس فتسوروا [illegible] ففزع منهم لانهم نزلوا عليه من فوق على خلاف العادة

ذلك فلم يتعرض لايذائهما ولا دعا عليهما بسوء بل استغفر لهما على ما سيجىء تقريره هذه الطريقة فلا جرم أمر الله تعالى محمدا عليه السلام بان يقتدى به فى حسن الخلق (والخامس) ان قريشا انما كذبوا محمدا عليه السلام واستخفوا به لقولهم فى أكثر الامر انه يتيم فقير ثم انه تعالى قص على محمد كمال مملكة داود ثم بين انه مع ذلك ما سلم من الاحزان والغموم ليعلم أن الخلاص عن الحزن لا سبيل اليه فى الدنيا (والسادس) أن قوله تعالى اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود غير مقتصر على داود فقط بل ذكر عقيب قصة داود قصص سائر الانبياء فكأنه قال فاصبر على ما يقولون واعتبر بحال سائر الانبياء ليعلم أن كل واحد منهم كان مشغولا بهم خاص وحزن خاص فحينئذ يعلم أن الدنيا لا تنفك عن الهموم والاحزان وان استحقاق الدرجات العالية عند الله لا يحصل الا بتحمل المشاق والمتاعب فى الدنيا وهذه وجوه ذكرناها فى هذا المقام وههنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ما تقدم وسيجىء ذكره ان شاء الله تعالى عند الانتهاء الى تفسير قوله كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته واعلم انه تعالى ذكر بعد ذلك حال تسعة من الانبياء فذكر حال ثلاثة منهم على التفصيل وحال ستة آخرين على الاجمال (فالقصة الاولى) قصة داود واعلم أن مجامع ما ذكره الله تعالى فى هذه القصة ثلاثة أنواع من الكلام (فالاول) تفصيل ما آتى الله داود من الصفات التى توجب سعادة الآخرة والدنيا (والثانى) شرح تلك الواقعة التى وقعت له من أمر الخصمين (والثالث) استخلاف الله تعالى اياه بعد وقوع تلك الواقعة (أما النوع الاول) وهو شرح الصفات التى آتاها الله داود من الصفات الموجبة لكمال السعادة فهى عشرة (الاول) قوله لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود فأمر محمدا صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بان يقتدى فى الصبر على طاعة الله بداود وذلك تشريف عظيم واكرام تام لداود حيث أمر الله أفضل الخلق محمدا صلى الله عليه وسلم بان يقتدى به فى مكارم الاخلاق (والثانى) أنه قال فى حقه عبدنا داود فوصفه بكونه عبدا له وعبر عن نفسه بصيغة الجمع الدالة على نهاية التعظيم وذلك غاية التشريف الا ترى انه سبحانه وتعالى لما أراد أن يشرف محمدا عليه السلام ليلة المعراج قال سبحان الذى أسرى بعبده فههنا يدل على ذلك التشريف لداود فكان ذلك دليلا على علو درجته أيضا فان وصف الله تعالى الانبياء بعبوديته مشعر بانهم قد حققوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد فى الطاعة (والثالث) قوله ذا الايد أى ذا القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصى وذلك لانه تعالى لما مدحه بالقوة وجب أن تكون تلك القوة موجبة للمدح والقوة التى توجب المدح العظيم ليست الا القوة على فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه والايد المذكور ههنا كالقوة المذكورة فى قوله يا يحيى خذ الكتاب بقوة وقوله تعالى وكتبنا له فى الالواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة أى باجتهاد فى أداء الامانة وتشدد فى القيام بالدعوة وترك اظهار الوهن والضعف والايد

والحرس حوله فى غير يوم الحكومة والقضاء قال ابن عباس رضى الله عنهما ان داود عليه السلام أجزأ زمانه اربعة اجزاء يوما للعبادة ويوما للقضاء ويوما للاشتغال بخاصة نفسه ويوما للوعظ والتذكير (قالوا) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية فزعه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فماذا قالت الملائكة عند مشاهدتهم لفزعه فقيل قالوا ازالة لفزعه (لا تخف خصمان) أى نحن فوجان متخاصمان على تسمية مصاحب الخصم خصما (بغى بعضنا على ﴿١٨٢﴾ بعض) هو على الفرض وقصد التعريض فلا كذب فيه (فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط) أى لا تجر فى الحكومة وقرئ ولا تشطط أى لا تبعد عن الحق وقرئ ولا تشطط ولا تشاطط وكلها من معنى الشطط وهو مجاوزة الحد وتخطى الحق (واهدنا الى سواء الصراط) الى وسط طريق الحق بزجر الباغى عما سلكه من طريق الجور وارشاده الى منهاج العدل (ان هذا أخى) استئناف لبيان ما فيه الخصومة أى أخى فى الدين أو فى الصحبة والتعرض لذلك تمهيد لبيان كمال قبح ما فعل به صاحبه (له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة) هى الانثى من الضأن وقد يكنى بها عن المرأة والكناية والتعريض أبلغ فى المقصود وقرئ تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وقرئ ولى نعجة بسكون الياء (فقال أكفلنيها) أى ملكنيها وحقيقته اجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى وقيل اجعلها كفلى أى نصيبى (وعزنى فى الخطاب) أى غلبنى فى مخاطبته اياى محاجة بان جاء بحجاج لم أقدر على رده أو فى مغالبته اياى فى الخطبة يقال خطبت المرأة وخطبها هو فخاطبنى خطابا أى غالبنى فى الخطبة فغلبنى حيث زوجها دونى وقرئ وعازنى أى غالبنى وعزنى بتخفيف الزاى طلبا للخفة وهو تخفيف غريب كأنه قيس على ظلت ومست (قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه) جواب قسم محذوف قصد به عليه الصلاة والسلام المبالغة فى انكار فعل صاحبه وتهجين طمعه فى نعجة من ليس له غيرها مع أن له قطيعا منها ولعله عليه الصلاة والسلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه

والقوة سواء وعند قوله تعالى هو الذى أيدك بنصره وقوله تعالى وأيدناه بروح القدس وقال والسماء بنيناها بأيد وعن قتادة أعطى قوة فى العبادة وفقها فى الدين وكان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر (الرابع) قوله انه أواب أى ان داود كان رجاعا فى أموره كلها الى طاعتى والاواب فعال من آب اذا رجع كما قال تعالى ان الينا ايابهم وفعال بناء المبالغة كما يقال قتال وضراب فانه أبلغ من قاتل وضارب (الخامس) قوله تعالى انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق ونظير هذه الآية قوله تعالى ياجبال أوبى معه والطير وفيه مباحث (البحث الاول) وفيه وجوه (الاول) ان الله سبحانه خلق فى جسم الجبل حياة وعقلا وقدرة ومنطقا وحينئذ صار الجبل مسبحا لله تعالى ونظيره قوله تعالى فلما تجلى ربه للجبل فان معناه انه تعالى خلق فى الجبل عقلا وفهما ثم خلق فيه رؤية الله تعالى فكذا ههنا (الثانى) فى التأويل ما رواه القفال فى تفسيره انه يجوز أن يقال ان داود عليه السلام قد أوتى من شدة الصوت وحسنه ما كان له فى الجبال دوى حسن وما يصغى الطير اليه لحسنه فيكون دوى الجبال وتصويت الطير معه واصغاؤها اليه تسبيحا وذكر محمد بن اسحق ان الله تعالى لم يعط أحدا من خلقه مثل صوت داود حتى انه كان اذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتى يأخذ بأعناقها (الثالث) ان الله سبحانه سخر الجبال حتى انها كانت تسير الى حيث يريده داود وجعل ذلك السير تسبيحا لانه كان يدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف يسبحن فى معنى مسبحات فان قالوا هل من فرق بين يسبحن ومسبحات قلنا نعم فان صيغة الفعل تدل على الحدوث والتجدد وصيغة الاسم على الدوام على ما بينه عبد القاهر النحوى فى كتاب دلائل الاعجاز اذا ثبت هذا فنقول قوله يسبحن يدل على حدوث التسبيح من الجبال شيأ بعد شئ وحالا بعد حال وكان السامع محاضر تلك الجبال يسمعها تسبح (البحث الثالث) قال الزجاج يقال شرقت الشمس اذا طلعت وأشرقت اذا أضاءت وقيل هما بمعنى (والاول) أكثر تقول العرب شرقت الشمس ولما تشرق (البحث الرابع) احتجوا على شرعية صلاة الضحى بهذه الآية عن أم هانئ قالت دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بوضوء فتوضأ ثم صلى صلاة الضحى وقال يا أم هانئ هذه صلاة الاشراق وعن طاوس عن ابن عباس قال هل تجدون ذكر صلاة الضحى فى القرآن قالوا لا فقرأ انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق وقال كان يصليها داود عليه السلام وقال لم يزل فى نفسى شئ من صلاة الضحى حتى وجدتها فى قوله يسبحن بالعشى والاشراق (الصفة السادسة) من صفات داود عليه السلام قوله تعالى والطير محشورة كل له أواب وفيه مباحث (البحث الاول) قوله والطير معطوفة على الجبال والتقدير وسخرنا الطير محشورة قال ابن عباس رضى الله عنهما كان داود اذا سبح جاوبته الجبال واجتمعت اليه الطير فسبحت معه واجتماعها اليه هو حشرها فيكون على هذا التقدير حاشرها هو الله (فان قيل) كيف يصدر تسبيح الله عن الطير مع

عليه أو بناء على تقدير صدق المدعى والسؤال مصدر مضاف الى مفعوله وتعديته الى مفعول آخر بالى لتضمنه معنى الاضافة والضم (وان كثيرا من الخلطاء) أى الشركاء الذين خلطوا اموالهم (ليبغى) ليتعدى وقرئ بفتح الياء اكتفاء بالكسرة (بعضهم على بعض) غير مراع لحق الصحبة والشركة (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) منهم فانهم يتحامون عن البغى والعدوان (وقليل ماهم) أى وهم قليل وما مزيدة للابهام والتعجب من قلتهم والجملة اعتراض (وظن داود أنما فتناه) الظن مستعار

انه لاعقل لها قلنا لا يبعد أن يقال ان الله تعالى كان يخلق لها عقلا حتى تعرف الله فتسبحه حينئذ وكل ذلك كان معجزة لداود عليه السلام (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف قوله محشورة فى مقابلة يسبحن الا انه ليس فى الحشر مثل ما كان فى التسبيح من ارادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شئ فلاجرم جئ به اسما لا فعلا وذلك لو قيل وسخرنا الطير محشورة يسبحن على تقدير ان الحشر وجد من حاشرها جملة واحدة دل على القدر المذكور والله أعلم (البحث الثالث) قرئ والطير محشورة بالرفع (الصفة السابعة) من صفات داود عليه السلام قوله تعالى كل له أواب ومعناه كل واحد من الجبال والطير أواب أى رجاع أى كلما رجع داود الى التسبيح جاوبته فهذه الاشياء أيضا كانت ترجع الى تسبيحاتها والفرق بين هذه الصفة وبين ماقبلها أن فيما سبق علمنا ان الجبال والطير سبحت مع تسبيح داود عليه السلام وبهذا اللفظ فهمنا دوام تلك الموافقة وقيل الضمير فى قوله كل له أواب لله تعالى أى كل من داود والجبال والطير لله أواب أى مسبح مرجع للتسبيح (الصفة الثامنة) قوله تعالى وشددنا ملكه أى قويناه وقال تعالى سنشد عضدك باخيك وقيل شددنا على المبالغة وأما الاسباب الموجبة لحصول هذا الشد فكثيرة وهى اما الاسباب الدنيوية أو الدينية أما الاول فذكروا فيه وجهين (الاول) روى الواحدى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما انه كان يحرسه كل ليلة ستة وثلاثون ألف رجل فاذا أصبح قيل ارجعوا فقد رضى عنكم نبى الله وزاد آخرون فذكروا اربعين الفا قالوا وكان أشد ملوك الارض سلطانا وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا ادعى عند داود على رجل أخذ منه بقرة فانكر المدعى عليه فقال داود للمدعى أقم البينة فلم يقمها فرأى داود فى منامه ان الله يأمره أن يقتل المدعى عليه فتثبت داود وقال هو منام فأتاه الوحى بعد ذلك بان يقتله فاحضره وأعلمه أن الله أمره بقتله فقال المدعى عليه صدق الله انى كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود فهذه الواقعة شددت ملكه وأما الاسباب الدينية الموجبة لهذا الشد فهى الصبر والتأمل التام والاحتياط الكامل (الصفة التاسعة) قوله وآتيناه الحكمة واعلم انه تعالى قال ومن يؤت الحكمة فقد اوتى خيرا كثيرا واعلم أن الفضائل على ثلاثة أقسام النفسانية والبدنية والخارجية والفضائل النفسانية محصورة فى قسمين العلم والعمل أما العلم فهو ان تصير النفس بالتصورات الحقيقة والتصديقات النفسانية بمقتضى الطاقة البشرية وأما العمل فهو ان يكون الانسان آتيا بالعمل الاصلح الاصوب بمصالح الدنيا والآخرة فهذا هو الحكمة وانما سمى هذا بالحكمة لان اشتقاق الحكمة من احكام الامور وتقويتها وتبعيدها عن اسباب الرخاوة والضعف والاعتقادات الصائبة الصحيحة لاتقبل النسخ والنقض فكانت فى غاية الاحكام وأما الاعمال المطابقة لمصالح الدنيا والآخرة فانها واجبة الرعاية ولاتقبل النقض والنسخ فلهذا السبب سمينا تلك المعارف وهذه الاعمال بالحكمة (الصفة العاشرة)

للعلم الاستدلالى لمابينهما من المشابهة الظاهرة أى علم بما جرى فى مجلس الحكومة وقيل لماقضى بينهما نظر أحدهما الى صاحبه فضحك ثم صعد الى السماء حيال وجهه فعلم عليه الصلاة والسلام انه تعالى ابتلاه وليس المعنى على تخصيص الفتنة به عليه الصلاة والسلام دون غيره بتوجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى المفعول بالقياس الى مفعول آخر كماهو الاستعمال الشائع الوارد على توجيه القصر الى متعلقات الفعل وقيوده باعتبار النفى فيه والاثبات فيها كما فى مثل قولك انما ضربت زيدا وانما ضربته تأديبا بل على تخصيص حاله عليه الصلاة والسلام بالفتنة بتوجيه القصر الى نفس الفعل بالقياس الى مغايره من الافعال لكن لاباعتبار النفى والاثبات معا فى خصوصية الفعل فانه غير ممكن قطعا بل باعتبار النفى فيما فيه من معنى مطلق الفعل واعتبار الاثبات فيما يقارنه من المعنى المخصوص فان كل فعل من الافعال المخصوصة ينحل عند التحقيق الى معنى مطلق هومدلول لفظ الفعل والى معنى مخصوص يقارنه ويقيده وهو أثره فى الحقيقة فان معنى نصره مثلا فعل النصر يرشدك الى ذلك قولهم معنى فلان يعطى ويمنع يفعل الاعطاء والمنع فمورد القصر فى الحقيقة ما يتعلق بالفعل باعتبار النفى فيه والاثبات فيما يتعلق به فالمعنى وعلم داود عليه السلام انما فعلنا به الفتنة لاغير قيل ابتليناه بامرأة أوريا وقيل امتحناه بتلك الحكومة هل يتنبه بها لماقصد منها

قوله وفصل الخطاب واعلم أن اجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام (أحدها) ماتكون خالية عن الادراك والشعور وهى الجمادات والنباتات (وثانيها) التى تحصل لها ادراك وشعور ولكنها لاتقدر على تعريف غيرها الاحوال التى عرفوها فى الاكثر وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الانسان (وثالثها) الذى يحصل له ادراك وشعور ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الاحوال المعلومة له وذلك هو الانسان وقدرته على تعريف الغير الاحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب ثم ان الناس مختلفون فى مراتب القدرة على التعبير عما فى الضمير فمنهم من يتعذر عليه ايراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه ومنهم من يكون قادرا على ضبط المعنى والتعبير عنه الى أقصى الغايات وكل من كانت هذه القدرة فى حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية فى حقه أكمل وكل من كانت تلك القدرة فى حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف ولما بين الله تعالى كمال حال جوهر النفس النطقية التى لداود بقوله وآتيناه الحكمة أردفه ببيان كمال حاله فى النطق واللفظ والعبارة فقال وفصل الخطاب وهذا الترتيب فى غاية الجلالة ومن المفسرين من فسر ذلك بأن داود أول من قال فى كلامه أما بعد وأقول حقا ان الذين يتبعون أمثال هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معانى كلام الله تعالى حرمانا عظيما والله أعلم وقول من قال المراد معرفة الامور التى بها يفصل بين الخصوم وهو طلب البينة واليمين فبعيد أيضا لان فصل الخطاب عبارة عن كونه قادرا على التعبير عن كل مايخطر بالبال ويحضر فى الخيال بحيث لايختلط شئ بشئ وبحيث ينفصل كل مقام عن مقام وهذا معنى عام يتناول جميع الاقسام والله أعلم وههنا آخر الكلام فى الصفات العشرة التى ذكرها الله تعالى فى مدح داود عليه السلام * قوله تعالى (وهل اتاك نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب اذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لاتخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط ان هذا اخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا واناب فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) اعلم ان الله تعالى لما مدحه وأثنى عليه من الوجوه العشرة أردفه بذكر قصة ليبين بها أن الاحوال الواقعة فى هذه القصة لاتبين شئ منها كونه عليه السلام مستحقا للثناء والمدح والتعظيم أما قوله تعالى وهل أتاك نبأ الخصم فهو نظير قوله تعالى هل أتاك حديث موسى وفائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصة المستفهم عنها ليكون داعيا الى الاصغاء لها والاعتبار بها وأقول للناس فى هذه القصة ثلاثة أقوال (أحدها) ذكر هذه القصة على وجه يدل على صدور الكبيرة عنه (وثانيها) دلالتها على ﴿ الصغيرة ﴾

فان التأمل فيه اذا أداه الى الشعور بما هو الغرض كان أوقع فى نفسه وأعظم تأثيرا فى قلبه وأدعى الى التنبه للخطا مع فيه من مراعاة حرمته عليه الصلاة والسلام بترك المجاهرة والاشعار بأنه أمر يستحى من التصريح به وتصويره بصورة التحاكم لالجائه عليه الصلاة والسلام الى التصريح بنسبة نفسه الى الظلم وتنبيهه عليه الصلاة والسلام على أن أوريا بصدد الخصام (فاستغفر ربه) اثر ما علم أن ماصدر عنه ذنب (وخر راكعا) أى ساجدا على تسمية السجود ركوعا لانه مبدؤه أو خر للسجود راكعا أى مصليا كأنه أحرم بركعتى الاستغفار (وأناب) أى رجع الى الله تعالى بالتوبة * واصل القصة أن داود عليه السلام رأى امرأة رجل يقال له أوريا فمال قلبه اليها فسأله أن يطلقها فاستحيى أن يرده ففعل فتزوجها وهى أم سليمان عليه السلام وكان ذلك جائزا فى شريعته معتادا فيما بين أمته غير مخل بالمروءة حيث كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها اذا أعجبته وقد كان الانصار فى صدر الاسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك من غير نكير خلا أنه عليه الصلاة والسلام لعظم منزلته وارتفاع مرتبته وعلو شأنه نبه بالتمثيل على أنه لم يكن ينبغى له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد أمته ويسأل رجلا ليس له الا امرأة واحدة أن ينزل عنها فيتزوجها مع كثرة نسائه بل كان يجب عليه أن يغالب هواه ويقهر نفسه ويصبر على ما امتحن به وقيل لم يكن أوريا تزوجها بل كان خطبها ثم خطبها داود عليه السلام فآثره عليه السلام أهلها فكان ذنبه عليه الصلاة والسلام أن خطب على خطبة أخيه المسلم هذا وأما مايذكر من أنه عليه الصلاة والسلام دخل ذات يوم محرابه وأغلق بابه وجعل يصلى ويقرأ الزبور فبينما هو كذلك اذ جاءه الشيطان فى صورة حمامة من ذهب فمد يده ليأخذها لابن صغير له فطارت فوقعت كوة فتبعها فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها وهى امرأة أوريا وهو من غزاة

الصغيرة (وثالثها) بحيث لاتدل على الكبيرة ولاعلى الصغيرة فأما القول الاول فحاصل كلامهم فيها ان داود عشق امرأة أوريا فاحتال بالوجوه الكثيرة حتى قتل زوجها ثم تزوج بها فأرسل الله اليه ملكين فى صورة المتخاصمين فى واقعة شبيهة بواقعته وعرضا تلك الواقعة عليه فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنبا ثم تنبه لذلك فاشتغل بالتوبة والذى أدين به وأذهب اليه ان ذلك باطل و يدل عليه وجوه الاول ان هذه الحكاية لو نسبت الى أفسق الناس وأشدهم فجورا لاستنكف منها والرجل الحشوى الخبيث الذى يقرر تلك القصة لو نسب الى مثل هذا العمل لبالغ فى تنزيه نفسه وربما لعن من ينسبه اليها واذا كان الامر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبة المعصوم اليه (الثانى) ان حاصل القصة يرجع الى أمرين الى السعى فى قتل رجل مسلم بغير حق والى الطمع فى زوجته (أما الاول) فامر منكر قال صلى الله عليه وسلم من سعى فى دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله (وأما الثانى) فمنكر عظيم قال صلى الله عليه وسلم المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده وان أوريا لم يسلم من داود لافى روحه ولافى منكوحه (والثالث) ان الله تعالى وصف داود عليه السلام قبل ذكر هذه القصة بالصفات العشرة المذكورة ووصفه أيضا بصفات كثيرة بعد ذكر هذه القصة وكل هذه الصفات تنافى كونه عليه السلام موصوفا بهذا الفعل المنكر والعمل القبيح ولابأس باعادة هذه الصفات لاجل المبالغة فى البيان فنقول (أما الصفة الاولى) فهى انه تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يقتدى بداود فى المصابرة مع المكابدة ولو قلنا ان داود لم يصبر على مخالفة النفس بل سعى فى اراقة دم امرئ مسلم لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمدا أفضل الرسل بان يقتدى بداود فى الصبر على طاعة الله (وأما الصفة الثانية) فهى أنه وصفه بكونه عبداله وقد بينا ان المقصود من هذا الوصف بيان كون ذلك الموصوف كاملا فى موقف العبودية تاما فى القيام باداء الطاعات والاحتراز عن المحظورات ولو قلنا ان داود عليه السلام اشتغل بتلك الاعمال الباطلة فحينئذ ماكان داود كاملا فى عبوديته لله تعالى بل كان كاملا فى طاعة الهوى والشهوة (الصفة الثالثة) هو قوله ذا الايد أى ذا القوة ولاشك أن المراد منه القوة فى الدين لان القوة فى غير الدين كانت موجودة فى ملوك الكفار ولامعنى للقوة فى الدين الا القوة الكاملة على أداء الواجبات والاجتناب عن المحظورات وأى قوة لمن لم يملك نفسه عن القتل والرغبة فى زوجة المسلم (الصفة الرابعة) كونه أوابا كثير الرجوع الى الله تعالى وكيف يليق هذا بمن يكون قلبه مشغوفا بالقتل والفجور (الصفة الخامسة) قوله تعالى انا سخرنا الجبال معه أفترى أنه سخرت له الجبال ليتخذه وسيلة الى القتل والفجور (الصفة السادسة) قوله والطير محشورة وقيل انه كان محرما عليه صيد شئ من الطير وكيف يعقل أن يكون الطير آمنا منه ولاينجو منه الرجل المسلم على روحه ومنكوحه (الصفة السابعة) قوله تعالى وشددنا ملكه ومحال أن يكون

التابوت وكان من يتقدم على التابوت لايحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يديه أو يستشهد ففتح الله تعالى على يده وسلم فامر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل وأتاه خبر قتله فلم يحزن كما كان يحزن على الشهداء وتزوج امرأته فافك مبتدع مكروه ومكر مخترع بئس مامكروه تمجه الاسماع وتنفر عنه الطباع ويل لمن ابتدعه وأشاعه وتبا لمن اخترعه وأذاعه ولذلك قال على رضى الله عنه من حدث بحديث داود عليه السلام على مايرويه القصاص جلدته مائة وستين وذلك حد الفرية على الانبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم هذا وقد قيل ان قوما قصدوا أن يقتلوه عليه الصلاة والسلام فتسوروا المحراب ودخلوا عليه فوجدوا عنده أقواما فتصنعوا بهذا التحاكم فعلم عليه الصلاة والسلام غرضهم فهم بأن ينتقم منهم فظن أن ذلك

المراد انه تعالى شد ملكه بأسباب الدنيا بل المراد انه تعالى شد ملكه بما يقوى الدين وأسباب سعادة الآخرة والمراد تشديد ملكه فى الدين والدنيا ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك (الصفة الثامنة) قوله تعالى وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب والحكمة اسم جامع لكل ما ينبغى علما وعملا فكيف يجوز أن يقول الله تعالى انا آتيناه الحكمة وفصل الخطاب مع اصراره على ما يستنكف عنه الخبيث الشيطان من مزاحمة اخلص أصحابه فى الروح والمنكوح فهذه الصفات المذكورة قبل شرح تلك القصة دالة على براءة ساحته عن تلك الاكاذيب * وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهى عشرة (الاول) قوله وان له عندنا لزلفى وحسن مآب وذكر هذا الكلام انما يناسب لو دلت القصة المتقدمة على قوته فى طاعة الله أما لو كانت القصة المتقدمة دالة على سعيه فى القتل والفجور لم يكن قوله وان له عندنا لزلفى لائقا به (الثانى) قوله تعالى يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض وهذا يدل على كذب تلك القصة من وجوه (أحدها) ان الملك الكبير اذا حكى عن بعض عبيده انه قصد دماء الناس وأموالهم وأزواجهم فبعد فراغه من شرح تلك القصة على ملا من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه أيها العبد انى فوضت اليك خلافتى ونيابتى وذلك لان ذكر تلك القبائح والافعال المنكرة يناسب الزجر والحجر فاما جعله نائبا وخليفة لنفسه فذلك البتة مما لا يليق (وثانيها) انه ثبت فى أصول الفقه ان ذكر الحكم عقيب الوصف يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف فلما حكى الله تعالى عنه تلك الواقعة القبيحة ثم قال بعده انا جعلناك خليفة فى الارض أشعر هذا بان الموجب لتفويض هذه الخلافة هو اتيانه بتلك الافعال المنكرة ومعلوم ان هذا فاسد أما لو ذكرنا تلك القصة على وجوه تدل على براءة ساحته عن المعاصى والذنوب وعلى شدة مصابرته على طاعة الله تعالى فحينئذ يناسب أن يذكر عقيبه انا جعلناك خليفة فى الارض فثبت ان هذا الذى نختاره أولى (والثالث) وهو انه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود عليه السلام وتعظيمه ومؤخرتها أيضا دالة على ذلك فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعايب لجرى مجرى أن يقال فلان عظيم الدرجة عالى المرتبة فى طاعة الله يقتل ويزنى ويسرق وقد جعله خليفة فى أرضه وصوب أحكامه وكما ان هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل فكذا ههنا ومن المعلوم ان ذكر العشق والسعى فى القتل من أعظم أبواب العيوب (والرابع) وهو ان القائلين بهذا القول ذكروا فى هذه الرواية ان داود عليه السلام تمنى أن يحصل له فى الدين كما حصل للانبياء المتقدمين من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الالقاء فى النار وحصل للذبيح من الذبح وحصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب فأوحى الله اليه انهم انما وجدوا تلك الدرجات لانهم لما ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود عليه السلام الابتلاء فأوحى الله اليه انك ستبتلى فى يوم كذا فبالغ فى الاحتراز ثم وقعت الواقعة فنقول أول حكايتهم يدل على ان الله تعالى يبتليه بالبلاء

قوله الصفة الثامنة الخ الموافق لما ذكره فى أول القصة أن يجعل قوله وآتيناه الحكمة هى التاسعة وقوله وفصل الخطاب هى العاشرة ويكون أسقط السابع وهو قوله كل له أواب وقوله بعد ذلك وأما الصفات المذكورة بعد ذكر القصة فهى عشرة لا يخفى ما فيه فتأمل ابتلاءه من الله عز وجل فاستغفر ربه مما هم به وأناب (فغفرنا له ذلك) أى ما استغفر منه وروى أنه عليه الصلاة والسلام بقى ساجدا أربعين يوما وليلة لا يرفع رأسه الا لصلاة مكتوبة أو لما لا بد منه ولا يرقأ دمعه حتى نبت منه العشب الى رأسه ولم يشرب ماء الا ثلثاه دمع وجهد نفسه راغبا الى الله تعالى فى العفو عنه حتى كاد يهلك واشتغل بذلك عن الملك حتى وثب ابن له يقال له ايشا على ملكه ودعا الى نفسه فاجتمع اليه أهل الزيغ من بنى اسرائيل فلما غفر له حارب فهزمه (وان له عندنا لزلفى) لقربة وكرامة بعد المغفرة (وحسن مآب) حسن مرجع فى الجنة (يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض) اما حكاية لما خوطب به عليه الصلاة والسلام مبينة لزلفاه عنده عز وجل واما مقول قول مقدر هو معطوف على ﴿ الذى ﴾

غفرنا أو حال من فاعله أي وقلناله أو قائلين له ياداود الخ أي استخلفناك على الملك فيها والحكم فيما بين أهلها أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الانبياء القائمين بالحق وفيه دليل بين على ان حاله عليه الصلاة والسلام بعد التوبة كما كانت قبلها لم تتغير قط (فاحكم بين الناس بالحق) بحكم الله تعالى فان الخلافة بكلا معنييه مقتضية له حتما (ولاتتبع الهوى) أي هوى النفس في الحكومات وغيرها من أمور الدين والدنيا (فيضلك عن سبيل الله) بالنصب على أنه جواب النهي وقيل هو مجزوم بالعطف على النهي مفتوح لالتقاء الساكنين أي فيكون الهوى أواتباعه سببا لضلالك عن دلائله التي نصبها على الحق تكوينا وتشريعا وقوله تعالى (ان الذين يضلون عن سبيل الله) تعليل لماقبله ببيان غائلته واظهار

الذي يزيد في منقبته ويكمل مراتب اخلاصه فالسعي في قتل النفس بغير الحق والافراط في العشق كيف يليق بهذه الحالة ويثبت ان الحكاية التي ذكروها يناقض أولها آخرها (الخامس) ان داود عليه السلام قال وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الاالذين آمنوا استثنى الذين آمنوا عن البغي فلوقلنا انه كان موصوفا بالبغي لزم أن يقال انه حكم بعدم الايمان على نفسه وذلك باطل (السادس) حضرت في بعض المجالس وحضرفيه بعض أكابر الملوك وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك فقلت له لاشك ان داود عليه السلام كان من أكابر الانبياء والرسل ولقدقال الله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالاته ومن مدحه الله تعالى بمثل هذا المدح العظيم لم يجزلنا أن نبالغ في الطعن فيه وأيضافبتقدير انه ماكان نبيا فلاشك انه كان مسلما ولقدقال صلى الله عليه وسلم لاتذكروامو تاكم الابخير ثم على تقدير انالانلتفت الى شيء من هذه الدلائل الاأنانقول ان من المعلوم بالضرورة ان بتقدير أن تكون القصة التي ذكرتموها حقة صحيحة فان روايتها وذكرها لايوجب شيئا من الثواب لان اشاعة الفاحشة ان لم توجب العقاب فلاأقل من أن لاتوجب الثواب وأما بتقدير أن تكون هذه القصة باطلة فاسدة فان ذاكرها يستحق أعظم العقاب والواقعة التي هذا شأنها وصفتها فان صريح العقل يوجب السكوت عنها فثبت أن الحق ماذهبنا اليه وان شرح تلك القصة محرم محظور فلماسمع ذلك الملك هذا الكلام سكت ولم يذكر شيئا (السابع) ان ذكر هذه القصة وذكر قصة يوسف عليه السلام يقتضي اشاعة الفاحشة فوجب أن يكون محرما لقوله تعالى ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا (الثامن) لوسعى داود في قتل ذلك الرجل لدخل تحت قوله من سعى في دم مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله وأيضا لوفعل ذلك لكان ظالما فكان يدخل تحت قوله ألالعنة الله على الظالمين (التاسع) عن سعيد بن المسيب أن علي بن أبي طالب عليه السلام قال من حدثكم بحديث داود على مايرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الانبياء ومما يقوي هذا انهم لماقالوا ان المغيرة بن شعبة زنى وشهد ثلاثة من عدول الصحابة بذلك واما الرابع فانه لم يقل بأني رأيت ذلك العمل بعيني فان عمر بن الخطاب كذب أولئك الثلاثة وجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة لاجل انهم قذفوا واذا كان الحال في واحد من آحاد الصحابة كذلك فكيف الحال مع داود عليه السلام مع انه من أكابر الانبياء عليهم السلام (العاشر) روي أن بعضهم ذكر هذه القصة على مافي كتاب الله تعالى فقال لاينبغي أن يزاد عليها وان كانت الواقعة على ماذكرت ثم انه تعالى لم يذكرها لاجل أن يستر تلك الواقعة على داود عليه السلام فلا يجوز للعاقل أن يسعى في هتك ذلك الستر بعد ألف سنة أوأقل أوأكثر فقال عمر سماعي هذا الكلام أحب الي مماطلعت عليه الشمس فثبت بهذه الوجوه التي ذكرناها ان القصة التي ذكروها فاسدة باطلة فان قال قائل

ان كثيرا من أكابر المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة فكيف الحال فيها فالجواب الحقيقى انه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة و بين خبر واحد من أخبار الآحاد كان الرجوع الى الدلائل القاطعة أولى وأيضا فالاصل براءة الذمة وأيضا فلما تعارض دليل التحريم والتحليل كان جانب التحريم أولى وأيضا طريقة الاحتياط توجب ترجيح قولنا وأيضا فنحن نعلم بالضرورة ان بتقدير وقوع هذه الواقعة لا يقول الله لنا يوم القيامة لم لم تسعوا فى تشهير هذه الواقعة وأما بتقدير كونها باطلة فان علينا فى ذكرها أعظم العقاب وأيضا فقال عليه السلام اذا علمت مثل الشمس فاشهد وههنا لم يحصل العلم ولا الظن فى صحة هذه الحكاية بل الدلائل القاهرة التى ذكرناها قائمة فوجب أن لا تجوز الشهادة بها وأيضا كل المفسرين لم يتفقوا على هذا القول بل الاكثرون المحققون والمحققون منهم يردونه و يحكمون عليه بالكذب والفساد وأيضا اذا تعارضت أقوال المفسرين والمحدثين فيه تساقطت و بقى الرجوع الى الدلائل التى ذكرناها فهذا تمام الكلام فى هذه القصة (أما الاحتمال الثانى) وهو ان نحمل هذه القصة على وجه يوجب حصول الصغيرة ولا يوجب حصول الكبيرة فنقول فى كيفية هذه القصة على هذا التقدير وجوه (الاول) ان هذه المرأة خطبها أوريا فاجابوه ثم خطبها داود فآثره أهلها فكان ذنبه ان خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه (الثانى) قالوا انه وقع بصره عليها فمال قلبه اليها وليس له فى هذا ذنب البتة أما وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب وأما حصول الميل عقيب النظر فليس أيضا ذنبا لان هذا الميل ليس فى وسعه فلا يكون مكلفا به بل لما اتفق أن قتل زوجها لم يتأذ تأذيا عظيما بسبب قتله لاجل انه طمع أن يتزوج بتلك المرأة فحصلت الزلة بسبب هذا المعنى وهو انه لم يشق عليه قتل ذلك الرجل (والثالث) انه كان أهل زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضا أن يطلق امرأته حتى يتزوجها وكانت عادتهم فى هذا المعنى مألوفة معروفة روينا ان الانصار كانوا يواسون المهاجرين بهذا المعنى فاتفق ان عين داود عليه السلام وقعت على تلك المرأة فأحبها فسأله النزول عنها فاستحيا أن يرده ففعل وهى أم سليمان فقيل له هذا وان كان جائزا فى ظاهر الشريعة الا انه لا يليق بك فان حسنات الابرار سيآت المقربين فهذه وجوه ثلاثة لو حملنا هذه القصة على واحد منها لم يلزم فى حق داود عليه السلام الا ترك الافضل والاولى (وأما الاحتمال الثالث) وهو أن هذه القصة على وجه لا يلزم الحاق الكبيرة والصغيرة بداود عليه السلام بل يوجب الحاق أعظم أنواع المدح والثناء به وهو أن نقول روى أن جماعة من الاعداء طمعوا فى أن يقتلوا نبى الله داود عليه السلام وكان له يوم يخلو فيه بنفسه و يشتغل بطاعة ربه فانتهزوا الفرصة فى ذلك اليوم وتسوروا المحراب فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواما يمنعونه منهم فخافوا فوضعوا كذبا فقالوا خصمان بغى بعضنا على بعض الى آخر القصة وليس فى لفظ القرآن ما يمكن أن يحتج به فى الحاق الذنب

سبيل الله فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والايذان بكمال شناعة الضلال عنه (لهم عذاب شديد) جملة من خبر ومبتدا وقعت خبرا لان أو الظرف خبر لان وعذاب مرتفع على الفاعلية بما فيه من معنى الاستقرار (بما نسوا) بسبب نسيانهم وقوله تعالى (يوم الحساب) اما مفعول لنسوا فيكون تعليلا صريحا لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيان يوم الحساب بعد الاشعار بعلية ما يستتبعه و يستلزمه أعنى الضلال عن سبيل الله تعالى فانه مستلزم لنسيان يوم الحساب بالمرة بل هذا فرد من أفراده أو ظرف لقوله تعالى لهم أى لهم عذاب شديد يوم القيامة بسبب نسيانهم الذى هو عبارة عن ضلالهم ومن ضرورته أن يكون مفعوله سبيل الله فيكون التعليل المصرح به حينئذ عين التعليل المشعر به بالذات غيره

بداود الا ألفاظ اربعة (أحدها) قوله وظن داود انما فتناه (وثانيها) قوله تعالى فاستغفر ربه (وثالثها) قوله وأناب (ورابعها) قوله فغفرنا له ذلك ثم نقول وهذه الالفاظ لا يدل شئ منها على ماذكروه وتقريره من وجوه (الاول) انهم لما دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب الى أن يشتغل بالانتقام منهم الا انه مال الى الصفح والتجاوز عنهم طلبا لمرضاة الله قال وكانت هذه الواقعة هي الفتنة لانها جارية مجرى الابتلاء والامتحان ثم انه استغفر ربه مما هم به من الانتقام منهم وتاب عن ذلك الهم وأناب فغفر له ذلك القدر من الهم والعزم (والثاني) أنه وان غلب على ظنه أنهم دخلوا عليه ليقتلوه الا انه ندم على ذلك الظن وقال لما لم تقم دلالة ولا امارة على أن الامر كذلك فبئسما عملت بهم حيث ظننت بهم هذا الظن الردئ فكان هذا هو المراد من قوله وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب منه فغفر الله له ذلك (الثالث) أن دخولهم عليه كان فتنة لداود عليه السلام الا انه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله كما قال في حق محمد صلى الله عليه وسلم واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات فداود عليه السلام استغفر لهم وأناب أي رجع الى الله تعالى في طلب مغفرة ذلك الداخل القاصد للقتل وقوله فغفرنا له ذلك أي غفرنا له ذلك الذنب لاجل احترام داود وتعظيمه كما قال بعض المفسرين في قوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ان معناه ان الله تعالى يغفر لك ولاجلك ما تقدم من ذنب أمتك (الرابع) هب انه تاب داود عليه السلام عن زلة صدرت منه لكن لانسلم أن تلك الزلة وقعت بسبب المرأة فلم لا يجوز أن يقال ان تلك الزلة انما حصلت لانه قضى لاحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثاني فانه لما قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه فحكم عليه بكونه ظالما بمجرد دعوى الخصم بغير بينة لكون هذا الحكم مخالفا للصواب فعند هذا اشتغل بالاستغفار والتوبة لأن هذا من باب ترك الافضل والاولى فثبت بهذه البيانات انا اذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه فانه لا يلزم اسناد شئ من الذنوب الى داود عليه السلام بل ذلك يوجب اسناد أعظم الطاعات اليه ثم نقول وحمل الآية عليه أولى لوجوه (الاول) ان الاصل في حال المسلم البعد عن المناهي لاسيما وهو رجل من اكابر الانبياء والرسل (والثاني) انه أحوط (والثالث) أنه تعالى قال أول الآية لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود فان قوم محمد عليه السلام لما أظهروا السفاهة حيث قالوا انه ساحر كذاب واستهزؤا به حيث قالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب فقال تعالى في أول الآية اصبر يا محمد على سفاهتهم وتحمل وتحلم ولا تظهر الغضب واذكر عبدنا داود فهذا الذكر انما يحسن اذا كان داود عليه السلام قد صبر على ايذائهم وتحمل سفاهتهم وحلم ولم يظهر الطيش والغضب وهذا المعنى انما يحصل اذا حملنا الآية على ما ذكرناه أما اذا حملناها على ما ذكروه صار الكلام متناقضا فاسدا (والرابع) ان تلك الرواية انما تمشى

بالعنوان ومن لم يتنبه لهذا السر السرى قال بسبب نسيانهم وهو ضلالهم عن السبيل فان تذكره يقتضى ملازمة الحق ومخالفة الهوى فتدبر (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا) كلام مستأنف مقرر لما قبله من أمر البعث والحساب والجزاء أي وما خلقنا هما وما بينهما من المخلوقات على هذا النظام البديع الذى تحار في فهمه العقول خلقا باطلا أي خاليا عن الغاية الجليلة والحكمة الباهرة بل منطويا على الحق المبين والحكم البالغة حيث خلقنا من بين ما خلقنا نفوسا أودعناها العقل والتمييز بين الحق والباطل والنافع والضار ومكناها من التصرفات العلمية والعملية في استجلاب منافعها واستدفاع مضارها ونصبنا للحق دلائل آفاقية وأنفسية ومنحناها القدرة على الاستشهاد بها ثم لم نقتصر على

اذا قلنا الخصمان كانا ملكين ولما كانا من الملائكة وما كان بينهما مخاصمة وما بغى أحدهما على الآخر كان قولهما خصمان بغى بعضنا على بعض كذبا فهذه الرواية لا تتم الا بشيئين (أحدهما) اسناد الكذب الى الملائكة (والثانى) أن يتوسل باسناد الكذب الى الملائكة الى اسناد أفحش القبائح الى رجل كبير من أكابر الانبياء فأما اذا حملنا الآية على ماذكرنا استغنينا عن اسناد الكذب الى الملائكة وعن اسناد القبيح الى الانبياء فكان قولنا أولى فهذا ماعندنا فى هذا الباب والله أعلم بأسرار كلامه ونرجع الآن الى تفسير الآيات أما قوله وهل أتاك نبأ الخصم قال الواحدى الخصم مصدر خصمته أخصمه خصما ثم يسمى به الاثنان والجمع ولا يثنى ولا يجمع يقال هما خصم وهم خصم كما يقال هما عدل وهم عدل والمعنى ذوا خصم وذو وخصم وأريد بالخصم ههنا الشخصان اللذان دخلا على داود عليه السلام وقوله تعالى اذ تسوروا المحراب يقال تسورت السور تسورا اذا علوته ومعنى تسوروا المحراب أى أتوه من سوره وهو أعلاه يقال تسور فلان الدار اذا أتاها من قبل سورها وأما المحراب فالمراد منه البيت الذى كان داود يدخل فيه ويشتغل بطاعة ربه وسمى ذلك البيت بالمحراب لاشتماله على المحراب كما يسمى الشئ بأشرف أجزائه وههنا مسئلة من علم أصول الفقه وهى أن أقل الجمع اثنان عند بعض الناس وهؤلاء تمسكوا بهذه الآية لانه تعالى ذكر صيغة الجمع فى هذه الآيات فى أربعة مواضع (أحدها) قوله تعالى اذ تسوروا المحراب (وثانيها) قوله اذ دخلوا (وثالثها) قوله منهم (ورابعها) قوله قالوا لا تخف فهذه الالفاظ الاربعة كلها صيغ الجمع وهم كانوا اثنين بدليل أنهم قالوا خصمان قالوا فهذه الآية تدل على ان أقل الجمع اثنان (والجواب) لا يمتنع أن يكون كل واحد من الخصمين جمعا كثيرين لانا بينا ان الخصم اذا جعل اسما فانه لا يثنى ولا يجمع ثم قال تعالى اذ دخلوا على داود والفائدة فيه انهم ربما تسوروا المحراب وما دخلوا عليه فلما قال اذ دخلوا عليه دل على انهم بعد التسور دخلوا عليه قال الفراء وقد يجاء باذ مرتين ويكون معناهما كالواحد كقولك ضربتك اذ دخلت على اذ اجترأت مع أنه يكون وقت الدخول ووقت الاجتراء واحدا ثم قال تعالى ففزع منهم والسبب أن داود عليه السلام لما رآهما قد دخلوا عليه لا من الطريق المعتاد علم أنهم انما دخلوا عليه للشر فلا جرم فزع منهم ثم قال تعالى قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض وفيه مسائل (المسئلة الاولى) خصمان خبر مبتدأ محذوف أى نحن خصمان (المسئلة الثانية) ههنا قولان (الاول) انهما كانا ملكين نزلا من السماء وأراد تنبيه داود عليه السلام على قبح العمل الذى أقدم عليه (والثانى) انهما كانا انسانين دخلا عليه للشر والقتل فظنا انهما يجدانه خاليا فلما رأيا عنده جماعة من الخدم اختلقا ذلك الكذب لدفع الشر وأما المنكرون لكونهما ملكين فقد احتجوا عليه بأنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين فى قولهما خصمان فانه ليس بين الملائكة خصومة ولكانا كاذبين

ذلك المقدار من الالطاف بل أرسلنا اليها رسلا وأنزلنا عليها كتابا بينا فيها كل دقيق وجليل وأزحنا عللها بالكلية وعرضناها بالتكليف للمنافع العظيمة وأعددنا لها عاقبة وجزاء على حسب أعمالها (ذلك) اشارة الى مانفى من خلق ماذكر باطلا (ظن الذين كفروا) أى مظنونهم فان جحودهم بأمر البعث والجزاء الذى عليه يدور فلك تكوين العالم قول منهم ببطلان خلق ماذكروا خلوه عن الحكمة سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا (فويل للذين كفروا) مبتدأ وخبر والفاء لافادة ترتب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل كما أن وضع الموصول موضع ضميرهم للاشعار بما فى حيز الصلة بعلية كفرهم له ولا تنافى بينهما لان ظنهم من باب كفرهم ومن فى قوله تعالى (من النار) تعليلية كما فى قوله تعالى

فى قولهما بغى بعضنا على بعض ولكانا كاذبين فى قولهما ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة فثبت أنهما لو كانا ملكين لكانا كاذبين والكذب على الملك غير جائز لقوله تعالى لا يسبقونه بالقول وقوله و يفعلون ما يؤمرون أجاب الذاهبون الى القول الاول عن هذا الكلام بأن قالوا ان الملكين انما ذكرا هذا الكلام على سبيل ضرب المثل لا على سبيل التحقيق فلم يلزم الكذب وأجيب عن هذا الجواب بأن ماذكرتم يقتضى العدول عن ظاهر اللفظ ومعلوم انه على خلاف الاصل أما اذا حملنا الكلام على أن الخصمين كانا رجلين دخلا عليه لغرض الشر ثم وضعا هذا الحديث الباطل فحينئذ لزم اسناد الكذب الى شخصين فاسقين فكان هذا أولى من القول الاول والله أعلم وأما القائلون بكونهما ملكين فقد احتجوا بوجوه (الاول) اتفاق أكثر المفسرين عليه (والثانى) انه أرفع منزلة من أن يتسور عليه آحاد الرعية فى حال تعبده فيجب أن يكون ذلك من الملائكة (الثالث) أن قوله تعالى قالوا لا تخف كالدلالة على كونهما ملكين لان من هو من رعيته لا يكاد يقول له مثل ذلك مع رفعة منزلته (الرابع) ان قولهما ولا تشطط كالدلالة على كونهما ملكين لان أحدا من رعيته لا يتجاسر أن يقول له لا تظلم ولا تتجاوز عن الحق واعلم أن ضعف هذه الدلائل ظاهر ولا حاجة الى الجواب والله أعلم (المسئلة الثالثة) بغى بعضنا على بعض أى تعدى و خرج عن الحد يقال بغى الجرح اذا أفرط وجعه وانتهى الى الغاية و يقال بغت المرأة اذا زنت لان الزنا كبيرة منكرة قال تعالى ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ثم قال فاحكم بيننا بالحق معنى الحكم احكام الامر فى امضاء تكليف الله عليهما فى الواقعة ومنه حكمة الدابة لانها تمنع من الجماح ومنه بناء محكم اذا كان قويا وقوله بالحق أى بالحكم الحق وهو الذى حكم الله به ولا تشطط يقال شط الرجل اذا بعد ومنه قوله شطت الدار اذا بعدت قال تعالى لقد قلنا اذا شططا أى قولا بعيدا عن الحق فقوله ولا تشطط أى لا تبعد فى هذا الحكم عن الحق ثم قال واهدنا الى سواء الصراط وسواء الصراط هو وسطه قال تعالى فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ووسط الشئ أفضله وأعدله قال تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا وأقول انهم عبروا عن المقصود الواحد بثلاث عبارات (أولها) قولهم فاحكم بالحق (وثانيها) قولهم ولا تشطط وهى نهى عن الباطل (وثالثها) قولهم واهدنا الى سواء الصراط يعنى يجب أن يكون سعيك فى ايجاد هذا الحق وفى الاحتراز عن هذا الباطل أن تردنا من الطريق الباطل الى الطريق الحق وهذا مبالغة تامة فى تقرير المطلوب واعلم انهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الاجمال أردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل فقال ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف أخى بدل من هذا أو خبر لقوله ان والمراد أخوة الدين أو أخوة الصداقة والالفة أو أخوة الشركة والخلطة لقوله تعالى وان كثيرا من الخلطاء وكل واحدة من هذه الاخوات توجب الامتناع من الظلم

فويل لهم مما كتبت أيديهم ونظائره مفيدة لعلية النار لثبوت الويل لهم صريحا بعد الاشعار بعلية ما يؤدى اليه من ظنهم وكفرهم أى فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض) أم منقطعة وما فيها من بل للاضراب الانتقالى عن تقرير أمر البعث والحساب والجزاء بما مر من نفى خلق العالم خاليا عن الحكم والمصالح الى تقريره وتحقيقه بما فى الهمزة من انكار التسوية بين الفريقين ونفيها على أبلغ وجه وآكده أى بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين فى أقطار الارض كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين فى التمتع بالحياة الدنيا بل الكفرة أوفر حظا منها من المؤمنين لكن ذلك الجعل محال فتعين البعث والجزاء حتما لرفع الاولين الى أعلى عليين ورد الآخرين الى أسفل سافلين وقوله تعالى (أم نجعل المتقين كالفجار) اضراب

والاعتداء (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ تسع وتسعون بفتح التاء ونعجة بكسر النون وهذا من اختلاف اللغات نحو نطع ونطع ولقوة ولقوة وهى الانثى من العقبان (المسئلة الثالثة) قال الليث النعجة الانثى من الضأن والبقرة الوحشية والشاة الجبلية والجمع النعجات والعرب جرت عادتهم بجعل النعجة والظبية كناية عن المرأة (المسئلة الرابعة) قرأ عبدالله تسع وتسعون نعجة أنثى وهذا يكون لاجل التأكيد كقوله تعالى وقال الله لاتتخذوا الهين اثنين انما هو اله واحد ثم قال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال صاحب الكشاف أكفلنيها حقيقته اجعلنى أكفلها كما أكفل ماتحت يدى وعزنى غلبنى يقال عزه يعزه والمعنى جاءنى بحجاج لم أقدر أن أورد عليه ماأرده به وقرئ وعازنى من المعازة وهى المغالبة واعلم ان الذين قالوا ان هذين الخصمين كانا من الملائكة زعموا ان المقصود من ذكر النعاج التمثيل لان داود كان تحته تسع وتسعون امرأة ولم يكن لاوريا الا امرأة واحدة فذكرت الملائكة تلك الواقعة على سبيل الرمز والتمثيل ثم قال تعالى قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه أى سؤال اضافة نعجتك الى نعاجه وروى أنه قال له ان رمت ذلك ضربنا منك هذا وهذا وأشار الى الانف والجبهة فقال ياداود انت أحق ان نضرب منك هذا وهذا وأنت فعلت كيت وكيت ثم نظر داود فلم ير أحدا فعرف الحال فان قيل كيف جاز لداود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرد قول خصمه قلنا ذكروا فيه وجوها (الاول) قال محمد بن اسحق لما فرغ الخصم الاول من كلامه نظر داود الى الخصم الذى لم يتكلم وقال لئن صدق لقد ظلمته والحاصل ان هذا الحكم كان مشروطا بشرط كونه صادقا فى دعواه (والثانى) قال ابن الانبارى لما ادعى أحد الخصمين اعترف الثانى فحكم داود عليه السلام ولم يذكر الله تعالى ذكر الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه كما تقول أمرتك بالتجارة فكسبت تريد اتجرت فكسبت وقال تعالى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق أى فضرب فانفلق والثالث أن يكون التقدير أن الخصم الذى هذا شأنه يكون قد ظلمك ثم قال وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض قال الليث خليط الرجل مخالطه وقال الزجاج الخلطاء الشركاء فان قيل لم خص داود الخلطاء ببغى بعضهم على بعض مع أن غير الخلطاء قد يفعلون ذلك والجواب لاشك أن المخالطة توجب كثرة المنازعة والمخاصمة وذلك لانهما اذا اختلطا اطلع كل واحد منهما على أحوال الآخر فكل مايملكه من الاشياء النفيسة اذا اطلع عليه عظمت رغبته فيه فيفضى ذلك الى زيادة المخاصمة والمنازعة فلهذا السبب خص داود عليه السلام الخلطاء بزيادة البغى والعدوان ثم استثنى عن هذا الحكم الذين آمنوا وعملوا الصالحات لان مخالطة هؤلاء لاتكون الا لاجل الدين وطلب السعادات الروحانية الحقيقية فلاجرم مخالطتهم لاتوجب المنازعة وأما الذين تكون مخالطتهم لاجل حب الدنيا لابد وان تصير مخالطتهم سببا لمزيد البغى والعدوان واعلم أن هذا الاستثناء يدل على ان الذين آمنوا

وانتقال عن اثبات ماذكر بلزوم المحال الذى هو التسوية بين الفريقين المذكورين على الاطلاق الى اثباته بلزوم ماهو أظهر منه استحالة وهو التسوية بين أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لايساعده المقام ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الاولين ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين هما أدخل فى انكار التسوية من الوصفين الاولين وقيل قال كفار قريش للمؤمنين انا نعطى فى الآخرة من الخير ما تعطون فنزلت (كتاب) خبر مبتدا محذوف هو عبارة عن القرآن أو السورة وقوله تعالى (أنزلناه اليك) صفته وقوله تعالى (مبارك) خبر ثان للمبتدا أو صفة لكتاب عند من يجوز تأخير الوصف الصريح وقرئ مباركا على أنه حال من مفعول أنزلنا ومعنى المبارك الكثير المنافع الدينية والدنيوية وقوله تعالى (ليدبروا آياته) متعلق بأنزلناه أى أنزلناه ليتفكروا فى

وعملوا الصالحات لايبغى بعضهم على بعض فلوكان داود عليه السلام قدبغى وتعدى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لايكون هو من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ومعلوم ان ذلك باطل فثبت ان قول من يقول المراد من واقعة النعجة قصة داود قول باطل ثم قال تعالى وقليل ماهم واعلم أن الحكم بقلة أهل الخير كثير فى القرآن قال تعالى وقليل من عبادى الشكور وقال داود عليه السلام فى هذا الموضع وقليل ماهم وحكى تعالى عن ابليس انه قال ولاتجد أكثرهم شاكرين وسبب القلة ان الدواعى الى الدنيا كثيرة وهى الحواس الباطنة والظاهرة وهى عشرة والشهوة والغضب والقوى الطبيعية السبعة فالمجموع تسعة عشر واقفون على باب جهنم البدن وكلها تدعو الى الخلق والدنيا واللذة الحسية وأما الداعى الى الحق والدين فليس الا العقل واستيلاء القوة الحسية والطبيعية على الخلق أكثر من القوة العقلية فيهم فلهذا السبب وقعت القلة فى جانب أهل الخير والكثرة فى جانب أهل الشر قال صاحب الكشاف ومافى قوله وقليل ماهم للابهام وفيه تعجب من قلتهم قال واذا أردت ان تتحقق فائدتها وموقعها فاطرحها من قول امرئ القيس وحديث ماعلى قصره وانظر هل بقى له معنى قط ثم قال تعالى وظن داود انما فتناه قالوا معناه وعلم داود انما فتناه أى امتحناه قالوا والسبب الذى أوجب حمل لفظ الظن على العلم ههنا ان داود عليه السلام لماقضى بينهما نظر أحدهما الى صاحبه فضحك ثم صعدا الى السماء قبل وجهه فعلم داود ان الله ابتلاه بذلك فثبت ان داود علم ذلك وانما جاز حمل لفظ الظن على العلم لان العلم الاستدلالى يشبه الظن مشابهة عظيمة والمشابهة علة لجواز المجاز وأقول هذا الكلام انما يلزم اذا قلنا الخصمان كانا ملكين أما اذا لم نقل ذلك لايلزمنا حمل الظن على العلم بل القائل أن يقول انه لماغلب على ظنه حصول الابتلاء من الله تعالى اشتغل بالاستغفار والانابة أما قوله فاستغفر ربه أى سأل الغفران من ربه ثم ههنا وجهان ان قلنا بأنه قد صدرت زلة منه حملنا هذا الاستغفار عليها وان لم نقل به قلنا فيه وجوه (الاول) ان القوم لما دخلوا عليه قاصدين قتله وانه كان سلطانا شديد القهر عظيم القوة ثم انه مع انه مع القدرة الشديدة على الانتقام ومع حصول الفزع فى قلبه عفا عنهم ولم يقل لهم شيئا قرب الامر من أن يدخل فى قلبه شئ من العجب فاستغفر ربه عن تلك الحالة وأناب الى الله واعترف بأن اقدامه على ذلك الخير ما كان الا بتوفيق الله فغفر الله له وتجاوز عنه بسبب طريان ذلك الخاطر (الثانى) لعله هم بايذاء القوم ثم قال انه لم يدل دليل قاطع على هؤلاء قصدوا الشر فعفا عنهم ثم استغفر عن ذلك الهم (الثالث) لعل القوم تابوا الى الله وطلبوا منه أن يستغفر الله لهم لاجل أن يقبل توبتهم فاستغفر وتضرع الى الله فغفر الله ذنوبهم بسبب شفاعته ودعائه وكل هذه الوجوه محتملة ظاهرة والقرآن مملوء من أمثال هذه الوجوه واذا كان اللفظ محتملا لما ذكرناه ولم يقم دليل قطعى ولاظنى على التزام المنكرات التى يذكرونها فاالذى يحملنا على التزامها

آياته التى من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع فيعرفوا ما يدبر ظاهرها من المعانى الفائقة والتأويلات اللائقة وقرئ ليتدبروا على الاصل ولتدبروا على الخطاب أى أنت وعلماء أمتك بحذف احدى التاءين (وليتذكر أولو الالباب) أى وليتعظ به ذووا العقول السليمة أو ليستحضروا ما هو كالمركوز فى عقولهم من فرط تمكنهم من معرفته لما نصب عليه من الدلائل فان الكتب الالهية مبينة لما لايعرف الا بالشرع ومرشدة الى ما لاسبيل للعقل اليه (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد) وقرئ نعم العبد أى سليمان كما ينبئ عنه تأخيره عن داود مع كونه مفعولا صريحا لوهبنا ولان قوله تعالى (انه أواب) أى رجاع الى الله تعالى بالتوبة أو الى التسبيح مرجع له تعليل للمدح وهو من حاله لما أن الضمير المجرور فى قوله تعالى (اذعرض

والقول بها والذى يؤكد أن الذى ذكرناه أقرب وأقوى أن يقال ختم الله هذه القصة بقوله وان له عندنا لزلفى وحسن مآب ومثل هذه الخاتمة انما تحسن فى حق من صدر منه عمل كثير فى الخدمة والطاعة وتحمل أنواعا من الشدائد فى الموافقة والانقياد أما اذا كان المذكور السابق هو الاقدام على الجرم والذنب فان مثل هذه الخاتمة لا تليق به قال مالك بن دينار اذا كان يوم القيامة أتى بمنبر رفيع ويوضع فى الجنة ويقال ياداود مجدنى بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى به فى الدنيا والله أعلم بقى ههنا مباحث (فالاول) قرئ فتناه وفتناه على ان الالف ضمير الملكين (الثانى) المشهور ان الاستغفار انما كان بسبب قصة النعجة والنعاج وقيل أيضا انما كان بسبب انه حكم لاحد الخصمين قبل ان سمع كلام الثانى وذلك غير جائز (الثالث) قوله خر راكعا وأناب يدل على حصول الركوع وأما السجود فقد ثبت بالاخبار وكذلك البكاء الشديد فى مدة أربعين يوما ثبت بالاخبار (الرابع) ان مذهب الشافعى رضى الله عنه ان هذا الموضع ليس فيه سجدة التلاوة قال لانه توبة نبى فلا توجب سجدة التلاوة (الخامس) استشهد أبو حنيفة رضى الله عنه بهذه الآية فى سجود التلاوة على ان الركوع يقوم مقام السجود * قوله تعالى (ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب) اعلم أنه تعالى لما تمم الكلام فى شرح القصة أردفها ببيان أنه تعالى فوض الى داود خلافة الارض وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول المشهور فى تلك القصة لان من البعيد جدا أن يوصف الرجل بكونه ساعيا فى سفك دماء المسلمين راغبا فى انتزاع أزواجهم منهم ثم يذكر عقيبه ان الله تعالى فوض خلافة الارض اليه ثم نقول فى تفسير كونه خليفة وجهان (الاول) جعلناك تخلف من تقدمك من الانبياء فى الدعاء الى الله تعالى وفى سياسة الناس لان خليفة الرجل من يخلفه وذلك انما يعقل فى حق من يصح عليه الغيبة وذلك على الله محال (الثانى) انا جعلناك مالكا للناس ونافذ الحكم فيهم فبهذا التأويل يسمى خليفة ومنه يقال خلفاء الله فى أرضه وحاصله ان خليفة الرجل يكون نافذ الحكم فى رعيته وحقيقة الخلافة ممتنعة فى حق الله فلما امتنعت الحقيقة جعلت اللفظة مفيدة اللزوم فى تلك الحقيقة وهو نفاذ الحكم ثم قال تعالى فاحكم بين الناس بالحق واعلم أن الانسان خلق مدنيا بالطبع لان الانسان الواحد لا ينتظم مصالحه الا عند وجود مدينة تامة حتى ان هذا يحرث وذلك يطحن وذلك يخبز وذلك ينسج وهذا يخيط وبالجملة فيكون كل واحد منهم مشغولا بمهم وينتظم من أعمال الجميع مصالح الجميع فثبت ان الانسان مدنى بالطبع

عليه) راجع اليه عليه الصلاة والسلام قطعا واذ منصوب باذكر أى اذكر ما صدر عنه اذ عرض عليه (بالعشى) هو من الظهر الى آخر النهار (الصافنات) فانه يشهد بأنه أواب وقيل ظرف لاواب وقيل لنعم وتأخير الصافنات عن الظرفين لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر والصافن من الخيل الذى يقوم على طرف سنبك يد أو رجل وهو من الصفات المحمودة فى الخيل لا يكاد يتفق الا فى العراب الخلص وقيل هو الذى يجمع يديه ويسويهما وأما الذى يقف على سنبكه فهو المتخيم (الجياد) جمع جواد وجود وهو الذى يسرع فى جريه وقيل الذى يجود عند الركض وقيل وصفت بالصفون والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية أى اذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها واذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها وقيل هو جمع جيد

وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات ولا بد من انسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات ويفصل تلك الحكومات وذلك هو السلطان الذي ينفذ حكمه على الكل فثبت انه لا ينتظم مصالح الخلق الا بسلطان قاهر سائس ثم ان ذلك السلطان القاهر السائس ان كان حكمه على وفق هواه وطلب مصالح دنياه عظم ضرره على الخلق فانه يجعل الرعية فداء لنفسه ويتوسل بهم الى تحصيل مقاصد نفسه وذلك يفضي الى تخريب العالم ووقوع الهرج والمرج في الخلق وذلك يفضي بالآخرة الى هلاك ذلك الملك أما اذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحقة الالهية انتظمت مصالح العالم واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه فهذا هو المراد من قولهم فاحكم بين الناس بالحق يعني لابد من حاكم بين الناس بالحق فكن أنت ذلك الحاكم ثم قال ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله الآية وتفسيره ان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب فينتج ان متابعة الهوى توجب سوء العذاب (أما المقام الاول) وهو ان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله فتقريره أن الهوى يدعو الى الاستغراق في اللذات الجسمانيات والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التي هي الباقيات الصالحات لانهما حالتان متضادتان فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر (أما المقام الثاني) وهو ان الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب فالامر فيه ظاهر لان الانسان اذا عظم الفه بهذه الجسمانيات ونسي بالكلية أحواله الروحانيات فاذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق ودخل ديار اليس له باهل تلك الديار الف وليس لعينه قوة مطالعة أنوار تلك الديار فكأنه فارق المحبوب ووصل الى المكروه فكان لا محالة في أعظم العناء والبلاء فثبت ان متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله وثبت ان الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب وهذا بيان في غاية الكمال ثم قال تعالى بما نسوا يوم الحساب يعني ان السبب الاول لحصول ذلك الضلال هو نسيان يوم الحساب لانه لو كان متذكرا ليوم الحساب لما أعرض عن اعداد الزاد ليوم المعاد ولما صار مستغرقا في هذه اللذات الفاسدة * روي عن بعض خلفاء بني مروان انه قال لعمر بن عبد العزيز هل سمعت ما بلغنا ان الخليفة لا يجرى عليه القلم ولا يكتب عليه معصية فقال يا أمير المؤمنين الخلفاء أفضل أم الانبياء ثم تلا هذه الآية ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ثم قال تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ونظيره قوله تعالى ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار وقوله تعالى ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج الجبائي بهذه الآية على انه تعالى لا يجوز أن يكون خالقا لاعمال العباد قال لانها مشتملة على الكفر والفسق وكلها أباطيل فلما بين تعالى أنه ما خلق السموات والارض وما بينهما

روى أنه عليه الصلاة والسلام غزا أهل دمشق ونصيبين وأصاب ألف فرس وقيل أصابها أبوه من العمالقة فورثها منه وقيل خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يوما بعد ما صلى الظهر على كرسيه فاستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غربت الشمس وغفل عن العصر أو عن ورد كان له من الذكر وقتئذ وتهيبوه فلم يعلموه فاغتم لما فاته فاستردها فعقرها تقربا لله تعالى وبقي مائة فما في أيدي الناس من الجياد فمن نسلها وقيل لما عقرها أبدله الله خيرا منها وهي الريح تجري بأمره (فقال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي) قاله عليه الصلاة والسلام عند غروب الشمس اعترافا بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة وندما عليه وتمهيدا لما يعقبه من الامر بردها وعقرها والتعقيب باعتبار أواخر العرض المستمر دون ابتدائه والتأكيد للدلالة على أن اعترافه وندمه عن صميم القلب لا لتحقيق مضمون الخبر وأصل أحببت أن

باطلا دل هذا على انه تعالى لم يخلق أعمال العباد ومثله قوله تعالى وماخلقنا السموات والارض ومابينهما الا بالحق وعند المجبرة أنه خلق الكافر لاجل أن يكفر والكفر باطل وقد خلق الباطل ثم أكد تعالى ذلك بأن قال ذلك ظن الذين كفروا أى كل من قال بهذا القول فهو كافر فهذا تصريح بان مذهب المجبرة عين الكفر واحتج أصحابنا رحمهم الله بأن هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقا لاعمال العباد فقالوا هذه الآية تدل على كونه تعالى خالقا لكل مابين السموات والارض وأعمال العباد حاصلة بين السماء والارض فوجب أن يكون الله تعالى خالقها (المسئلة الثانية) هذه الآية دالة على صحة القول بالحشر والنشر والقيامة وذلك لانه تعالى خلق الخلق فى هذا العالم فاما ان يقال انه خلقهم للاضرار أو للانفاع أو لا للانفاع اولا للاضرار والاول باطل لان ذلك لايليق بالرحيم الكريم والثالث أيضا باطل لان هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين فلم يبق الا أن يقال انه خلقهم للانفاع فنقول وذلك الانفاع اما أن يكون فى حياة الدنيا أو فى حياة الآخرة والاول باطل لان منافع الدنيا قليلة ومضارها كثيرة وتحمل المضار الكثيرة للمنفعة القليلة لايليق بالحكمة ولما بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيوية وذلك هو القول بالحشر والنشر والقيامة واعلم أن هذا الدليل يمكن تقريره من وجوه كثيرة وقد لخصناها فى أول سورة يونس بالاقتضاء فلا سبيل الى التكرير فثبت بما ذكرنا انه تعالى ماخلق السماء والارض ومابينهما باطلا واذا لم يكن خلقهما باطلا كان القول بالحشر والنشر لازما وان كل من أنكر القول بالحشر والنشر كان شاكا فى حكمة الله فى خلق السماء والارض وهذا هو المراد من قوله ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ولما بين الله تعالى على سبيل الاجمال ان انكار الحشر والنشر يوجب الشك فى حكمة الله تعالى بين ذلك على سبيل التفصيل فقال أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار وتقريره أنا نرى فى الدنيا من أطاع الله واحترز عن معصيته فى الفقر والزمانة وأنواع البلاء ونرى الكفرة والفساق فى الراحة والغبطة فلو لم يكن حشر ونشر ومعاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصى وذلك لايليق بحكمة الحكيم الرحيم واذا كان ذلك قادحا فى الحكمة ثبت أن انكار الحشر والنشر يوجب انكار حكمة الله ❊ ثم قال تعالى كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة دلت الآية على انه تعالى انما أنزل هذا القرآن لاجل الخير والرحمة والهداية وهذا يفيد أمرين (أحدهما) أن أفعال الله معللة برعاية المصالح (والثانى) أنه تعالى أراد الايمان والخير والطاعة من الكل بخلاف قول من يقول انه اراد الكفر من الكافر (المسئلة الثانية) فى تقرير نظم هذه الآيات فنقول لسائل أن يسأل فيقول انه تعالى حكى فى أول السورة عن المستهزئين من الكفار أنهم بالغوا فى انكار البعث

يعدى بعلى لانه بمعنى آثرت لكن لما أنيب مناب أنبت عدى تعديته وحب الخير مفعوله كأنه قيل أنبت حب الخير عن ذكر ربى ووضعته موضعه والخير المال الكثير والمراد به الخيل التى شغلته عليه الصلاة والسلام ويحتمل أنه سماها خيرا لتعلق الخير بها قال عليه الصلاة والسلام الخير معقود بنواصى الخيل الى يوم القيامة وقرئ انى (حتى توارت بالحجاب) متعلق بقوله أحببت باعتبار استمرار المحبة ودوامها حسب استمرار العرض أى أنبت حب الخير عن ذكر ربى واستمر ذلك حتى توارت أى غربت الشمس تشبيها لغروبها فى مغربها بتوارى المخبأة بحجابها واضمارها من غير ذكر لدلالة العشى عليها وقيل الضمير للصافنات أى حتى توارت بحجاب الليل أى بظلامه (ردوها على) من تمام مقالة سليمان عليه السلام

والقيامة وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ولما حكى الله تعالى عنهم ذلك لم يذكر الجواب بل قال اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ومعلوم انه لاتعلق لذكر داود عليه السلام بان القول بالقيامة حق ثم انه تعالى اطنب فى شرح قصة داود ثم اتبعه بقوله وما خلقنا السماء والارض ومعلوم انه لاتعلق لمسئلة اثبات حكمة الله بقصة داود ثم لما ذكر اثبات حكمة الله وفرع عليه اثبات أن القول بالحشر والنشر حق ذكر بعده أن القرآن كتاب شريف فاضل كثير النفع والخير ولاتعلق لهذا الفصل بالكلمات المتقدمة واذا كان كذلك كانت هذه الفصول فصولا متباينة لاتعلق للبعض منها بالبعض فكيف يليق بهذا الموضع وصف القرآن بكونه كتابا شريفا فاضلا هذا تمام السؤال (والجواب) أن نقول ان العقلاء قالوا من ابتلى بخصم جاهل مصر متعصب ورآه قد خاض فى ذلك التعصب والاصرار وجب عليه أن يقطع الكلام معه فى تلك المسئلة لانه كلما كان خوضه فى تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشد فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه فى تلك المسئلة وأن يخوض فى كلام آخر أجنبى عن المسئلة الاولى بالكلية ويطنب فى ذلك الكلام الاجنبى بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسئلة الاولى فاذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الاجنبى ونسى المسئلة الاولى فحينئذ يدرج فى اثناء الكلام فى هذا الفصل الاجنبى مقدمة مناسبة لذلك المطلوب الاول فان ذلك المتعصب يسلم هذه المقدمة فاذا سلمها فحينئذ يتمسك بها فى اثبات المطلوب الاول وحينئذ يصير ذلك الخصم المصر المتعصب منقطعا مفحما اذا عرفت هذا فنقول ان الكفار بلغوا فى انكار الحشر والنشر والقيامة الى حيث قالوا على سبيل الاستهزاء ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب فقال يا محمد اقطع الكلام معهم فى هذه المسئلة واشرع فى كلام آخر اجنبى بالكلية عن هذه المسئلة وهى قصة داود عليه السلام فان من المعلوم أنه لاتعلق لهذه القصة بمسئلة الحشر والنشر ثم انه تعالى أطنب فى شرح تلك القصة ثم قال فى آخر القصة ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق وكل من يسمع هذا قال نعم ما فعل حيث أمره بالحكم بالحق ثم كأنه تعالى قال وأنا لا آمرك بالحق فقط بل انا مع أنى رب العالمين لاأفعل الا بالحق ولاأقضى بالباطل فههنا الخصم يقول نعم ما فعل حيث لم يقض الا بالحق فعند هذا يقال لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل لزمك أن تسلم صحة القول بالحشر والنشر لانه لو لم يحصل ذلك لزم أن يكون الكافر راجحا على المسلم فى ايصال الخيرات اليه وذلك ضد الحكمة وعين الباطل فبهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الالزام القاطع على منكرى الحشر والنشر ايرادا لايمكنهم الخلاص عنه فصار ذلك الخصم الذى بلغ فى انكار المعاد الى حد الاستهزاء مفحما ملزما بهذا الطريق ولما ذكر الله تعالى هذه الطريقة الدقيقة فى الالزام فى القرآن لاجرم وصف القرآن بالكمال والفضل فقال كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب فان من

ومرمى غرضه من تقديم ما قدمه ومن لم يتنبه له مع ظهوره توهم أنه متصل بمضمر هو جواب لمضمر آخر كأن سائلا قال فاذا قال سليمان عليه السلام فقيل قال ردوها فتأمل والفاء فى قوله تعالى (فطفق مسحا) فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وايذانا بغاية سرعة الامتثال بالامر أى فردوها عليه فأخذ يمسح السيف مسحا (بالسوق والاعناق) أى بسوقها وأعناقها يقطعها من قولهم مسح علاوته أى ضرب عنقه وقيل جعل يمسح بيده أعناقها وسوقها حبا لها واعجابا بها وليس بذاك وقرئ بالسؤق على همز الواو لضمتها كما فى أدؤر وقرئ بالسؤوق تنزيلا لضمة السين منزلة ضمة الواو وقرئ بالساق اكتفاء بالواحد عن الجمع لامن الالباس (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) أظهر ما قيل فى فتنته عليه الصلاة والسلام ما روى مرفوعا أنه قال لاطوفن

لم يتدبر ولم يتامل ولم يساعده التوفيق الالهى لم يقف على هذه الاسرار العجيبة المذكورة فى هذا القرآن العظيم حيث يراه فى ظاهر الحال مقرونا بسوء الترتيب وهو فى الحقيقة مشتمل على أكمل جهات الترتيب فهذا ما حضرنا فى تفسير هذه الآيات و بالله التوفيق * قوله تعالى (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد انه أواب اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد فقال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ردوها على فطفق مسحا بالسوق والاعناق) واعلم أن هذا هو القصة الثانية وقوله نعم العبد فيه مباحث (الاول) نقول المخصوص بالمدح فى نعم العبد محذوف فقيل هو سليمان وقيل داود والاول أولى لانه أقرب المذكورين ولانه قال بعده انه أواب ولا يجوز أن يكون المراد هو داود لان وصفه بهذا المعنى قد تقدم فى الآية المتقدمة حيث قال واذكر عبدنا داود ذا الايد انه أواب فلو قلنا لفظ الاواب ههنا أيضا صفة داود لزم التكرار ولو قلنا انه صفة لسليمان لزم كون الابن شبيها لابيه فى صفات الكمال فى الفضيلة فكان هذا أولى (البحث الثانى) أنه قال أولا نعم العبد ثم قال بعده انه أواب وهذه الكلمة للتعليل فهذا يدل على انه انما كان نعم العبد لانه كان أوابا فيلزم ان كل من كان كثير الرجوع الى الله تعالى فى أكثر الاوقات وفى أكثر المهمات كان موصوفا بأنه نعم العبد وهذا هو الحق الذى لا شبهة فيه لان كمال الانسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به ورأس المعارف ورئيسها معرفة الله تعالى ورأس الطاعات ورئيسها الاعتراف بأنه لا يتم شئ من الخيرات الا باعانة الله تعالى ومن كان كذلك كان كثير الرجوع الى الله تعالى فكان أوابا فثبت أن كل من كان أوابا وجب أن يكون نعم العبد أما قوله اذ عرض عليه ففيه وجوه (الاول) التقدير نعم العبد هو اذا كان من أعماله انه فعل كذا (الثانى) انه ابتداء كلام والتقدير اذكر يا محمد اذ عرض عليه كذا و كذا والعشى هو من حين العصر الى آخر النهار عرض الخيل عليه لينظر اليها و يقف على كيفية أحوالها والصافنات الجياد الخيل وصفت بوصفين (أولهما) الصافنات قال صاحب الصحاح الصافن الذى يصفن قدميه وفى الحديث كنا اذا صلينا خلفه فرفع رأسه من الركوع قمنا صفونا أى قمنا صافنين أقدامنا وأقول على كلا التقديرين فالصفون صفة دالة على فضيلة الفرس (والصفة الثانية) للخيل فى هذه الآية الجياد قال المبرد والجياد جمع جواد وهو الشديد الجرى كما ان الجواد من الناس هو السريع البذل فالمقصود وصفها بالفضيلة والكمال حالتى وقوفها وحركتها اما حال وقوفها فوصفها بالصفون وأما حال حركتها فوصفها بالجودة يعنى انها اذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها على أحسن الاشكال فاذا جرت كانت سراعا فى جريها فاذا طلبت لحقت واذا طلبت لم تلحق ثم قال تعالى قال انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى وفى تفسير هذه اللفظة وجوه (الاول) أن يضمن أحببت معنى فعل يتعدى بعن كأنه قيل أنبت حب الخير عن ذكر ربى (والثانى) ان أحببت بمعنى ألزمت والمعنى انى ألزمت حب الخيل

الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله تعالى ولم يقل ان شاء الله تعالى فطاف عليهن فلم تحمل الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى بيده لو قال ان شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون وقيل ولد له ابن فاجتمعت الشياطين على قتله فعلم ذلك فكان يغذوه فى السحاب فما شعر به الا أن ألقى على كرسيه ميتا فتنبه لخطئه حيث لم يتوكل على الله عز وعلا وقيل انه غزا صيدون من الجزائر فقتل ملكها وأصاب بنتا له تسمى جرادة من أحسن الناس فاصطفاها لنفسه وأسلمت واحبها وكان لا يرقأ دمعها جزعا على أبيها فأمر الشياطين فمثلوا لها صورته وكانت تغدو اليها وتروح مع ولائدها يسجدن لها كعادتهن فى ملكه فأخبره آصف بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج

عن ذكر ربي أي عن كتاب ربي وهو التوراة لان ارتباط الخيل كما أنه في القرآن ممدوح فكذلك في التوراة ممدوح (والثالث) ان الانسان قد يحب شيأ لكنه يحب أن لايحبه كالمريض الذي يشتهي مايزيد في مرضه والاب الذي يحب ولده الردئ وأما من أحب شيأ وأحب أن يحبه كان ذلك غاية المحبة فقوله أحببت حب الخير بمعنى أحببت حبي لهذه الخيل ثم قال عن ذكر ربي بمعنى ان هذه المحبة الشديدة انما حصلت عن ذكر الله وأمره لاعن الشهوة والهوى وهذا الوجه أظهر الوجوه ثم قال تعالى حتى توارت أقول الضمير في قوله حتى توارت وفي قوله ردوها يحتمل أن يكون كل واحد منهما عائدا الى الشمس لانه جرى ذكر ماله تعلق بها وهو العشي ويحتمل أن يكون كل واحد منهما عائدا الى الصافنات ويحتمل أن يكون الاول متعلقا بالشمس والثاني بالصافنات ويحتمل أن يكون بالعكس من ذلك فهذه احتمالات أربعة لامزيد عليها (فالاول) أن يعود الضميران معا الى الصافنات كأنه قال حتى توارت الصافنات بالحجاب ردوا الصافنات علي والاحتمال الثاني أن يكون الضميران معا عائدين الى الشمس كأنه قال حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس وروي أنه صلى الله عليه وسلم لما اشتغل بالخيل فاتته صلاة العصر فسأل الله أن يرد الشمس فقوله ردوها على اشارة الى طلب رد الشمس وهذا الاحتمال عندي بعيد والذي يدل عليه وجوه (الاول) ان الصافنات مذكورة تصريحا والشمس غير مذكورة وعود الضمير الى المذكور أولى من عوده الى المقدر (الثاني) أنه قال اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب وظاهر هذا اللفظ يدل على أن سليمان عليه السلام كان يقول اني أحببت حب الخير عن ذكر ربي وكان يعيد هذه الكلمات الى أن توارت بالحجاب فلو قلنا المراد حتى تورات الصافنات بالحجاب كان معناه انه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة الى أن غابت عن عينه وذلك مناسب ولو قلنا المراد حتى توارت الشمس بالحجاب كان معناه انه كان يعيد عين هذه الكلمة من وقت العصر الى وقت المغرب وهذا في غاية البعد (الثالث) انا لو حكمنا بعود الضمير في قوله حتى توارت الى الشمس وحملنا اللفظ على انه ترك صلاة العصر كان هذا منافيا لقوله أحببت حب الخير عن ذكر ربي فان تلك المحبة لو كانت عن ذكر الله لما نسي الصلاة ولما ترك ذكر الله (الرابع) انه بتقدير انه عليه السلام بقي مشغولا بتلك الخيل حتى غربت الشمس وفاتت صلاة العصر فكان ذلك ذنبا عظيما وجرما قويا فالأليق بهذه الحالة التضرع والبكاء والمبالغة في اظهار التوبة فأما أن يقول على سبيل التهور والعظمة لاله العالم ورب العالمين ردوها علي بمثل هذه الكلمة العارية عن كل جهات الادب عقيب ذلك الجرم العظيم فهذا لايصدر عن أبعد الناس عن الخير فكيف يجوز اسناده الى الرسول المطهر المكرم (الخامس) ان القادر على تحريك الافلاك والكواكب هو الله تعالى فكان يجب أن يقول ردها علي ولا يقول ردوها علي فان قالوا انما ذكر صيغة الجمع للتنبيه على تعظيم المخاطب فنقول قوله ردوها

وحده الى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائبا الى الله تعالى باكيا متضرعا وكانت له أم ولد يقال لها امينة اذا دخل للطهارة أو لاصابة امرأة يعطيها خاتمه وكان ملكه فيه فأعطاها يوما فتمثل لها بصورته شيطان اسمه صخر وأخذ الخاتم فتختم به وجلس على كرسيه فاجتمع عليه الخلق ونفذ حكمه في كل شئ الا في نسائه وغير سليمان عن هيئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته فعرف ان الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف واذا قال أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ثم عمد الى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحا عدد ماعبد الوثن في بيته فأنكر آصف وعظماء بني اسرائيل حكم الشيطان ثم طار اللعين وقذف الخاتم في البحر

لفظ مشعر بأعظم أنواع الاهانة فكيف يليق بهذا اللفظ رعاية التعظيم (السادس) الشمس او رجعت بعد الغروب لكان ذلك مشاهد الكل أهل الدنيا ولوكان الامر كذلك لتوفرت الدواعى على نقله واظهاره وحيث لم ينقل أحد ذلك علمنا فساده (السابع) انه تعالى قال اذعرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ثم قال حتى توارت بالحجاب وعود الضمير الى أقرب المذكورين أولى وأقرب المذكورين هو الصافنات الجياد وأما العشى فابعدهما فكان عود ذلك الضمير الى الصافنات أولى فثبت بما ذكرنا أن حمل قوله حتى توارت بالحجاب على توارى الشمس وأن حمل قوله ردوها على على أن المراد منه طلب أن يرد الله الشمس بعد غروبها كلام فى غاية البعد عن النظم ثم قال تعالى فطفق مسحا بالسوق والاعناق أى فجعل سليمان عليه السلام يمسح سوقها وأعناقها قال الاكثرون معناه انه مسح السيف بسوقها وأعناقها أى قطعها قالوا انه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر بسبب اشتغاله بالنظر الى تلك الخيل استردها وعقر سوقها وأعناقها تقربا الى الله تعالى وعندى ان هذا أيضا بعيد ويدل عليه وجوه (الاول) أنه لو كان معنى مسح السوق والاعناق قطعها لكان معنى قوله وامسحوا برؤسكم وأرجلكم قطعها وهذا مما لا يقوله عاقل بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق أما اذا لم يذكر لفظ السيف لم يفهم البتة من المسح العقر والذبح (الثانى) القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعا من الافعال المذمومة (فأولها) ترك الصلاة (وثانيها) انه استولى عليه الاشتغال بحب الدنيا الى حيث نسى الصلاة وقال صلى الله عليه وسلم حب الدنيا رأس كل خطيئة (وثالثها) انه بعد الاتيان بهذا الذنب العظيم لم يشتغل بالتوبة والانابة البتة (ورابعها) أنه خاطب رب العالمين بقوله ردوها على وهذه كلمة لا يذكرها الرجل الحصيف الامع الخادم الخسيس (وخامسها) انه أتبع هذه المعاصى بعقر الخيل فى سوقها وأعناقها وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن ذبح الحيوان الا لمأكله فهذه أنواع من الكبائر نسبوها الى سليمان عليه السلام مع ان لفظ القرآن لم يدل على شئ منها (وسادسها) ان هذه القصص انما ذكرها الله تعالى عقيب قوله وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب وان الكفار لما بلغوا فى السفاهة الى هذا الحد قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اصبر يا محمد على سفاهتهم واذكر عبدنا داود وذكر قصة داود ثم ذكر عقيبها قصة سليمان وكان التقدير انه تعالى قال لمحمد عليه السلام اصبر يا محمد على ما يقولون واذكر عبدنا سليمان وهذا الكلام انما يكون لائقا لو قلنا ان سليمان عليه السلام أتى فى هذه القصة بالاعمال الفاضلة والاخلاق الحميدة وصبر على طاعة الله واعرض عن الشهوات واللذات فاما لو كان المقصود من قصة سليمان عليه السلام فى هذا الموضع انه أقدم على الكبائر العظيمة والذنوب الخسيسة لم يكن ذكر هذه القصة لائقا بهذا الموضع فثبت ان كتاب الله تعالى ينادى على هذه الاقوال الفاسدة بالرد والافساد

فابتلعته سمكة فوقعت فى يد سليمان فبقر بطنها فاذا هو بالخاتم فتختم به وخر ساجدا وعاد اليه ملكه وجاب صخرة لصخر فجعله فيها وسد عليه بأخرى ثم أوثقهما بالحديد والرصاص وقذفه فى البحر وعلى هذا فالجسد عبارة عن صخر سمى به وهو جسم لا روح فيه لانه تمثل بما لم يكن كذلك والخطيئة تغافله عليه الصلاة والسلام عن حال أهله لان اتخاذ التماثيل لم يكن محظورا حينئذ وسجود الصورة بغير علم منه لا يضره (قال) بدل من أناب وتفسير له (رب اغفرلى) أى ما صدر عنى من الزلة (وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى) لا يتسهل له ولا يكون معجزة لى مناسبة لحالى فانه عليه الصلاة والسلام لما نشأ فى بيت الملك والنبوة وورثهما معا استدعى من ربه معجزة جامعة لحكمهما أو لا ينبغى لاحد أن يسلبه منى بعد هذه

والابطال بل التفسير المطابق للحق لالفاظ القرآن والصواب أن نقول ان رباط الخيل كان مندوبا اليه فى دينهم كما انه كذلك فى دين محمد صلى الله عليه وسلم ثم ان سليمان عليه السلام احتاج الى الغزو فجلس وأمر باحضار الخيل وأمر باجرائها وذكر انى لا أحبها لاجل الدنيا ونصيب النفس وانما أحبها لامر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله عن ذكر ربى ثم انه عليه السلام أمر باعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب أى غابت عن بصره ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل اليه فلما عادت اليه طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك المسح أمور (الاول) تشريفا لها وابانة لعزتها لكونها من أعظم الاعوان فى دفع العدو (الثانى) أنه أراد أن يظهر انه فى ضبط السياسة والملك يتضع الى حيث يباشر أكثر الامور بنفسه (الثالث) انه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض فهذا التفسير الذى ذكرناه ينطبق عليه لفظ القرآن انطباقا مطابقا موافقا ولا يلزمنا نسبة شئ من تلك المنكرات والمحذورات وأقول أنا شديد التعجب من الناس كيف قبلوا هذه الوجوه السخيفة مع ان العقل والنقل يردها وليس لهم فى اثباتها شبهة فضلا عن حجة فان قيل فالجمهور فسروا الآية بذلك الوجه فما قولك فيه فنقول لنا ههنا مقامان (المقام الاول) ان ندعى ان لفظ الآية لا يدل على شئ من تلك الوجوه التى يذكرونها وقد ظهر والحمد لله ان الامر كما ذكرناه وظهوره لا يرتاب العاقل فيه (المقام الثانى) أن يقال هب ان لفظ الآية لا يدل عليه الا انه كلام ذكره الناس فما قولك فيه وجوابنا ان الدلائل الكثيرة قامت على عصمة الانبياء عليهم السلام ولم يدل دليل على صحة هذه الحكايات ورواية الآحاد لا تصلح معارضة للدلائل القوية فكيف الحكايات عن أقوام لا يبالى بهم ولا يلتفت الى أقوالهم والله أعلم * قوله تعالى (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لاحد من بعدى انك انت الوهاب فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الاصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) اعلم ان هذه الآية شرح واقعة ثانية لسليمان عليه السلام واختلفوا فى المراد من قوله ولقد فتنا سليمان ولاهل الحشو والرواية فيه قول ولاهل العلم والتحقيق قول آخر اما قول أهل الحشو فذكروا فيه حكايات (الاولى) قالوا ان سليمان بلغه خبر مدينة فى البحر فخرج اليها بجنوده تحمله الريح فأخذها وقتل ملكها وأخذ بنتا له اسمها جرادة من أحسن الناس وجها فاصطفاها لنفسه واسلمت فاحبها وكانت تبكى أبدا على أبيها فامر سليمان الشيطان فمثل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته وكانت تذهب الى تلك الصورة بكرة وعشيا مع جواريها يسجدن لها فاخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصورة وعاقب المرأة ثم خرج وحده الى فلاة وفرش الرماد فجلس عليه تائبا الى الله تعالى وكانت له أم ولد

السلبة أو لا يصح لاحد من بعدى لعظمته كقولك لفلان ما ليس لاحد من الفضل والمال على ارادة وصف الملك بالعظمة لا أن لا يعطى أحد مثله فيكون منافسة وقيل كان ملكا عظيما فخاف أن يعطى مثله أحد فلا يحافظ على حدود الله تعالى وتقديم الاستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين جريا على سنن الانبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين وكون ذلك أدخل فى الاجابة وقرئ لى بفتح الياء (انك أنت الوهاب) تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معا لا بالاخيرة فقط فان المغفرة أيضا من أحكام وصف الوهابية قطعا (فسخرنا له الريح) أى فذللناها لطاعته اجابة لدعوته فعاد أمره عليه الصلاة السلام الى ما كان عليه قبل الفتنة وقرئ الرياح (تجرى بأمره) بيان لتسخيرها له (رخاء) أى لينة من الرخاوة طيبة لا تزعزع وقيل مطيعة لا يمتنع عليه كالمأمور المنقاد